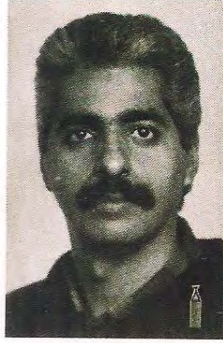




خيرب عبد الجواد
الأعمال الكاملة



المجلد الثاني
الأعمال الروائية

كتاب الترهعات (1992)

العاشق والمعشوق (1995)

مسالك الأحبة (1997)

الجنى (1999)

يومية هروب (2001)

كيد النساء (2006)

سلك شائك (2010)



خيرى عبد الجواد

الأعمال الكاملة

المجلد الثانى

الأعمال الروائية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٤

خيرى عبد الجواد

الأعمال الروائية

• كتاب التوهّمات

• العاشق والمعشوق

• مسالك الأحياء

• يومية هروب

• كيد النساء

• سلك شائك

كتاب التوهّمات

«دعنى أنال السيادة داخل هذا الحقل لأنى أعرفه
وأبحرت خلال جداوله كى أصل إلى مدنه. لأجل هذا،
لقد نلت القوة على فمى المزود بالتعاويد كى لا ينال
المتألثون السيطرة على، لا تدعهم يقدرّون على».

(من كتاب الموتى الفرعونى)

توهم إحياء الموتى

(توهمت) أننى منشد ربابة، وهو توهم طالما تمنيته واشتهيته. أمسكت ربابتى، آلة حكيى الحبيبة، وبين يدي اجتمع نفر من الناس، وأحاطوا بى كما يحيط السواد بالبياض، أو النيل بالبلاد، وأنا جلست على دكة خشبية، متربعا، تناولت الريابة بين أصابعى فأصلحت أوتارها، أمسكت القوس بيد ثابتة وأنشدت: أنا أول ما نبدي القول نصلى على النبى، نبى عربى لم بعد نوره نور، بعد مدحى فى جمال محمد، اصغوا لكلامى عن وجوه أختيار. ثم أخذت وقد أصابنى الوجد أقص قصة موتاى وهم كثر، وجوه نخرها الدود، وعظام قد بليت منذ زمن، وعناصر رجعت إلى أصولها، وذكرى كادت تنمحي، وناس كأن لم تكن أنشئت من قبل، ولا سعت على ظهر بسيطة قط، وكلما ذكرت اسماً من الأسماء انتفضت الأرض وتشققت وانشقت عنه حياً يسعى - فسبحان محيى العظام وهى رميم - فذكرت أول ما ذكرت، أمى وأبى، وصار الناس يتفرجون عليها وعليه، وكل من له نبى يصلى عليه، وذكرت أخى الأكبر الذى رحل فى أول مسعاى فى دنيا الراحلين، ثم ذكرت ستى وجدى لأمى، وستى وجدى لأبى، أبى الذى لم ير أمه قط فى حياته، فكانت هذه هى مرته الأولى التى يراها، وذكرت أصحاب الطفولة: سعيد فرجانى الذى مات كافراً بانتحاره، محمد عبد القادر ابن الموت الحقيقى، ومصطفى المقدم الزهرة التى قطفت قبل

أوانها، وصار الناس يتفرجون عليهم بشحمهم ولحمهم وهم يتعجبون من ذلك الأمر، وبينما أنا كذلك وقد تملكنى الأمر، واستبد بى الشجن، أصلحت من ربابتي، وبعد المديح فى المكمل، أخذت فى ذكر كل من خطر على بالى من أحبائى، قلت هى الفرصة لن تأتى مرتين، فذكرت أول ما ذكرت أساطير الأولين ومن الصحابة وأولياء الله الصالحين، ومن أبطال السير المشاهير ذكرت، ومن اللىالى ذكرت، وذكرت، وذكرت، حتى اجتمع من كل ذلك الخلق الكثير كل واحد بصفته، فكأنهم فى يوم الحشر، ووقفوا يستمعون وينصتون لأنغام الربابة وصوتى المنغم وقد ملأه الشجن، ولمحت فى العيون أسى ورجاء، ولسان حالهم يقول لى: لا تتوقف أرجوك، استمر فى غنائك كى نحيا. فانهمر دمعى، وتقطعت مهجتى، واضطريت أنفاسى، واعتدلت فى وقفتى، فأصلحت ربابتي وغيرت المقام وأنشدت: من لم يرض بقضائى، ويصبر على بلوائى، فليرحل من تحت سمائى، ثم أصلحت وأنشدت: كل حى إلى زوال وموت، فسبحان الحى الذى لا يموت، صاحب الملك والملكوت، وكنت أظننى قلت ما عندى واسترحت ولكن قلبى مفعم، وخاطرى جياش، ومالى لا أبسط حكاياتى كل البسط، بل أدها مغلوطة بالإيجاز، وأمر مر الكرام على سبب نشأتى وأحق الناس بحسن مودتى، فهل أمسك باللحظة وأسمع موتاى من فمى قصصهم على الرباب ؟ كان حالى ممزقاً بين يأس ورجاء، وكأن همماً تزحزح عن قلبى لما طرحت سؤالى، فقد أصلحت من ربابتي وغيرت المقام، وقلت وقد لعل صوتى: أنشد يا بن عبد الجواد، وعلى لسانك انطق بفمك اسم الأب، والأم، والصاحب والصدىق، وانذر نفسك لموتاك إلى حين، وابدأ بالأخبار الحزينة، فمنها تفرغت كل الأحزان.

الأخبار الحزينة فى موت السيدة أمينة (*) «أحدوثة عن الفقد»

«وفىها ما جرى لأمينة بنت مرشد راضى،
من الأمور العجيبة والحوادث المدهشة الغربية
التي تطرب سامعها وتلذ قارئها بالتمام والكمال،
والحمد لله على كل حال».

«ابن بطنى يعرف رطنى»
(مثل شعبى)

(*) نشر خيرى عبد الجواد هذه الأخبار الحزينة فى ثلاث قصص تحت عنوان «ثلاثية موت أمى» ضمن مجموعته القصصية الأولى «حكايات الديب رماح» أى قبل أن يبني عليها - ثلاثية موت أمى - هذا العمل الروائى المتميز.
(المحرر)

الخبر الأول الموت لما بدأ يتسلل

«لا تدفنونى تحت شجرة تظلنى،
إلا على جبل، وعينى تراكم».

(امينة - الوصايا)

أمى التى جاءت من كوم الضبع حتى بولاق الدكورور بالليل فى عربة دفع
جرتها أبوها، حين تزوجها من يكبرها من السنين بمائة إلا ستين وصار
ي - سوف تموت الآن.

قالته لى بلسانها الذى لا ينطق عن الهوى، إن هى إلا رؤيا رأتها ليلة
نصف من شعبان حين نامت على جنبها اليمين فرأت ما لا عين رأت،
وسمعت ما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من قبل، إذ قالت أمى
وجلسنا حواليتها نسمع:

رأيت مناماً، إنما المنام راعنى، طير عقلى من دماغى وراح، رأيت سبع
حمامات نزلن من العلا، نزلن دهاشى يغلبن الرياح، ورأيت حمامة خضراء
تنزل وحدها، وتشير لبيتى فى مساء وصباح، ورأيت جمل المنيا نخ قدام
بنا. أخذنى على ظهره المشوم وراح، ورأيت بركة ماء مسود ماؤها، جميع
من وقع فيها أكله التمساح، ورأيت نفسى داخل قاعة مظلمة، فلا لها ضبة
ولا مفتاح، هذا ما رأيت يا أولادى فى رؤيتى، والحكم لله العلى الفتاح.

وحين سأل أمى - أبى، ما إذا كانت قد تغطت جيداً، أقسمت بترية أمها
نجد رأت رؤيا الموت، وسمعت موسيقى سمعتها بأذنها الشمال فتأكدت.

قلت لأمى: لماذا يا أمى «تقولين» على نفسك بالموت قال الله ولا فالك
ي - أمى. فتقول لى التى حكى كيف أحبت وكانت بعد صغيرة، وكيف علم

بزواجها فمات حزناً، تقول ويحمر وجهها: والله يا ولدى أحببت فزوجونى من لا أحب. وتخبيئ وجهها الأحمر فى صدرى فيختبئ: الموت علينا حق يا ولدى، وسيدنا نوح عاش من العمر ألف سنة إلا خمسين، فلما جاءه سيدنا عبد الرحمن فى عشته المعمولة بالخصوص قال: يأتى من بعدك خلق يعيشون من العمر ستين، يعمرّون وبينون، ويسعون فى مناكبها. فتعجب من ذكر ذلك، وقال: لو عشت ستين عاماً فقط لانتظرت هذه الستين جنب قبرى.

قالت أمى وطلعت مددت على سريرنا العمدان، وطلبت منا الخروج فخرجنا، ثم إنها طلبت من يرتل القرآن ترتيلاً فوق أذنيها، فجاءها صوت الشيخ عبد الباسط: (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت). ونطرب لذلك ونقول: الله يفتح عليك يا شيخ مثل ما فتحت قلوبنا بالذكر الحكيم. ولما سمعت: (فصبر جميل والله المستعان). أشاحت بيديها فلم نفهم ماذا تعنى، حتى مرت ثلاثة نهارات وثلاث ليال بالتمام والكمال قالت أمى فى نهايتها: تعالوا يا أولادى سلموا على أمكم. فجئناها وحدانا، وكانت تقول للواحد منا: سامحنى يا بنى. فيقول: سامحك يا أمى ليوم الدين. حتى إذا ما انتهينا من السماح الأخير - وكان لأبى - قالت: ربي اشرح لى صدرى بأولادى، فقد خلقوا فى كبد. ثم إنها نظرت إلينا فى حسرة، وقالت بعد أن ذرفت عبرة: أوصيكم فكونوا عند حسن ظن أمكم بكم: اذكرونى أذكركم، لا تدفنونى تحت شجرة تظلنى، إلا على جبل وعينى تراكم، ليطمئن قلبى. ثم قالت: غطونى بلحافى الجديد. وراحت فى النوم العميق الذى لم تألفه من قبل.

كيف ذهبت بأمى إلى حكيم المصحة.

وكيف قال لى: ارجع بأملك يا ولدى فإنها تموت؟

أقول إن أمى حين تهيات للنوم - نامت، وحين دخلنا عليها وجدنا صوت تنفسها عالياً جداً فخفنا أن يزعج صوت أمى، أمى، واقتربنا أكثر كثيراً

فم تدر بنا، ولما قبلتها فى جبينها لم تضمنى إلى صدرها، ولم تلعب بصابعها فى شعرى، فانزعجت، وناديت على الأسطى خليل صاحب نعيرة التى تقف أمام الباب فطلع، ورجوته أن يأخذنى وأمى إلى حضرة حكيم المصححة المجاورة فأخذنا، وكانت أمى تنام على صدرى وغطيطها يرتفع، قلت: نامى يا أمى فى هدوء فقد وصلنا لحضرة الحكيم: واحد تين سرجى مرجى، أنت حكيم واللا تمرجى، أنا حكيم الصحية، العيانة فيها حقنة، والمسكينة أديها لقمة، بدى ازورك يا نبى، ياللى بلادك بعيدة، فيها أحمد وحميدة، حميدة ولدت ولد، سمته عبد الصمد، مشته على نشاية، خطفت راسه الحداية، حديا حد يا راس القرء، أنت ولد ولا بنت.

ضحكت أمى ضحكة طويلة جداً قالت فى نهايتها وهى تمسح عبرة: حير، اللهم اجعله خير. قلت: والله يا أمى حكاياتك حلوة، لكنى بكيت، وصلنا فحملتها والأسطى خليل الله يستره، ناديت حضرة الحكيم فجاءنى، ولما نظر إلى عينيها نظر إلى، ولما أمسك ساعدها اليمين نظر إلى ساعته وترك أمى ومشى، وحين أمسكته من البالطو نظر وراءه، ثم إنه حشنى هامساً: خذها معك يا ولدى ولا تتبها فإنها تموت، واطلب الرحمة من الله. فلما سكت حضرة الحكيم بكيت، ثم إننى رميت نفسى على أقرب متعد فوقعت على أقرب أرض، ولطمت لطمتين.

كيف استقبلنى الأحباب حين عودتى

وأمى بالعويل والصوات، كذا اللطم:

قول بعد الصلاة على النبى الزين: إن بكائى على الضنا الغالى، كان كدنى على أمى لحظة موت أخى الأكبر لما حرمت الزاد على جوفها سبوعاً إلا يومين، وهى الآن فى حضنى، وإذ تقترب العرية من البيت تخنى ألا تصل، فتجرنا جراً، تتنفس بصوت عال، صدرها يعلو ويهبط، كمنها لكنها ما كلمتنى، قال الأسطى خليل: كن رجلاً يا جمال. فلم أعد

أبكى، لكنى قبلتها فى خدها اليمين وكان بعيداً عن خدها الشمال، شعرت بدفئه فنزلت دموعى على خد أمى، دون حس ولا خبر، لم يرنى الأسطى خليل فتركها تسيل.

وصلنا، وكان شارعنا ملآن بالناس، من الأحباب صنف، ومن الأعداء صنفان، استقبلونا بالصوات والعويل حتى باب البيت، حملت أمى فوق كتفى فوضعوا لحاف أمى الجديد على الأرض، أنمتها برفق ووقفت فوق رأسها أشن وأبكى، فتحت أمى عينيها نصف فتحة أو نصفين، نظرت إلى دون الخلق، لكنهما أغلقتا قبل أن تتمليانى عينا أمى فتحيرت من أمرها وتعجبت، قلت: ما زالت الروح فيها، قد تصحو فى أية لحظة، قد تعود لزمن الرمح الذى ولى وما عاد يجىء. تحلقوا حولها، وجعلوا من بين أيديهم سداً، ومن خلفهم، فغشى على ولم أعد أبصر أمى.

لما أفقت، سمعت أحباب أمى ينادون على أمى أن قومى يا حبيبتي، وأن قومى يا وردة فى جنينة قطفوكى مبدرين يا عين أمك. انتظرت أن تقوم، هى التى قالت: لا أطلب من ربي إلا ثلاثاً: يوم وداع، ويوم نزاع، ويوم أقابل رباً اسمه الكريم. لكنها لم تقم، فأيقنت أنها تأهبت للرحيل الطويل.

الخبر الثاني

العودة إلى كوم الضبع

«وفى كوم الضبع رأيت ما لا عين رأت،

وسمعت ما لا أذن سمعت،

ولا خطر على قلب بشر قط».

(أمينة - الحكايات)

من أقوال «الجددة» الخضره:

أحدثكم عن أمى، وأم أمى، وآخرين، وهو حديث متواتر خبرنا صحته - أنهم قالوا فى الحكمة من وجوب الموت فى كوم الضبع: من كوم الضبع خرجتم إلى الدنيا لتعمروا البنادر، وتنتشروا فى أرض الله الواسعة، تتجيبون من خلق الله ما يسد عين الشمس، وإليها عودتكم حين يكون العمر قد بانث أواخره، وحين يغيب الثريا والميزان، ولما يتسرطن السرطان، ويحمل الحمل وحشة الليل فيلين سواده، وحين تطلب الأبراج الأمان، وتضرب الجوزاء بشروق الفجر فتصدع كالسنديان، وإذ تحصد السنبله بمناجل النور جيوش الظلام، وتميل كفة الميزان، ويقع الحوت ويظهر عليه الخسران، وإذ يلدغ العقرب الأسد، وإذ يجرى على الجدى من الثور ما يهد كواسر العقبان، وإذ يتزحزح زحل عن موضعه وتضعف هيبتة، وإذ يباع المشتري بأبخس الأثمان، وإذ يطلب الجسد مكان المنشأ والمختبر، وتطلب الروح الأمان فى غيطان الصبا والنشأة الأولى، حيث الجذر لا يزال، وفيها يلقاكم مولانا «الضبعى» راكباً البراق، وحوله جنود لم تروها، حيث يدثركم بعباءته المنسوجة من ماء البحر، وحيث يسقيكم شربة لا تظمأون بعدها أبداً، ويهون عليكم لحظات الفراق، وهو صعب، إن العودة آتية لا ريب فيها، تكاد تخفى عن أعينكم، فاذكروا كوم الضبع تذكركم، ومن أتاها هرولة

حرمت جسده على دود الأرض، وحرمت الشجاع الأقرع أن يمسه بقرح -
مد: وصيتي فاستوصوا ولا تهنوا ولا تحزنوا.

بداية العودة:

قمت لأمي النائمة فوق اللحاف الجديد على الأرض:

أمي يا أمي، لماذا تنامين هكذا، قومي حتى لا يتفرج علينا خلق الله من
حجاب والأعداء. لكن أمي عاندتني، هي التي لم تقل لي أف من قبل ولا
جرتني، وصاحبتي في الدنيا معروفاً. كان صوت تنفسها يسمع على
سيرة يوم، ودخلت مرحلة السكون الموحش، ولم تسمعني فخرجت، رأيت
حجاب والأعداء في اجتماع يلطمون الخد والخد، ثم الصدر. قلت: لماذا
يحب أمي تعذبون أمي، ألم تنهكم عن لطم الخدود وشق الجيوب يوم
جأها ملاك الموت بقطف ورقة أعز الولد. ولما جاء الأسطى خليل
العربية وقال هيا، حملتها على كتفي فأطاعتني، وكان جسمها ساخناً
عفت، ثم إننا ركبنا العربية ووقف أحباب أمي لوداعها في الشارع الذي
عشت فيه من السنين ثلاثين مما تعدون، وخرجت منه بيضاء من غير
س. استقبلنا الطريق الصحيح، وبدأنا رحلة الشتاء والصيف.

لأن، والساعة تقترب من الثانية صباحاً، الأحوال هادئة تماماً، النفس
تردد في صدر أمي دون زيادة أو نقصان، العربية يسوقها الأسطى خليل،
أخي جالس بجانبه، أمي نائمة على صدري، أختي بجانبها من الناحية
أخرى تضع كف يدها اليمين على عينيها وتبكي في صمت، وأنا أريت
عدي خد أمي، استقبلنا أول لافتة على جانب الطريق:

القاهرة - الباجور، ٦٠ كم.

الجو حار والأشجار مرتخية، ضوء شاحب من قمر الموت يضيء في
نعمة والحزن، عما قريب سوف نصل كوم الضيع، تماماً بعد ألف شجرة

تعرفها أمى، وتكون السواقي دائرة، كذا يكون الشيخ الضبعى خرج من مقامه فى البحر، فى انتظار العائدة، يحمل برده المنسوجة من ماء البحر، ومن حوله جنود لم يرها أحد من قبل.

كوم الضبع - ٥٠ كم.

الآن، لا صوت يعلو فوق صوت أمى، والعيون تعبت من البص فى العتمة، أخذت أحملق فيها، هادئة تماماً، صدرها يعلو ويهبط، احك لنا يا أم - والزمان: زمن شتاء حيث الليل أطول من النهار، والمكان: بيتنا الحجرتان وعفشة مياه وصالة، والأحوال: حال من ينتظرون عشاء تأخر كثيراً، واحك لنا يا أم - أحكى لكم يا نين عين أمكم: ولما قابلها، وكان الشرر يطق من عينيها والأفاعى تلعب على شفيتها، قال لها السلام عليك أمنا الغولة. فلما قرأ عليها السلام نظرت إليه فى حسرة، ونطقت بعد أن ذرفت عبرة: لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك. ثم إنها أرضعته من لبنها: شربت من بزى اليمين صرت كولدى أمين، شربت من بزى الشمال صرت كما ولدى هلال.

كوم الضبع - ٣٠ كم.

خرجت من كوم الضبع وأنا بنت بنوت وكان صدرى لم يطلع بعد، فى بولاق الدكرور خدمت على ثمانية أطفال وأب، وصرت أعامل كما تعامل امرأة أب، ذقت من المزار مقدارين حتى جئتم إلى: الحق أقول لكم يا عيال أمينة إننى هدنى التعب والمرض، وقد صرت مريضة بداء «الكلى» حين يكون وجودها مثل عدمها، وأمراض أمخرى من الحزن على أيام ولت وما عادت تجىء، وهذا أوان الفراق يبدو. بعد الشر عنك يا أمى - يجعل يومنا قبل يومك.

كوم الضبع - ١٥ كم.

قال طبيب الأطفبة: إن يستطع أحدكم التبرع بكلية، قد تنجو أمكم.

زعمت: أنا يا أمى ولدك البكر، وأنا يا أم أحق من إخوتى، وأنا آخذ منى لأعطيك. قلبى لا يطاوعنى يا ن ن عين أمك، وهل أخرج فيك لأعمرنى، يمك يا ولدى آتية، أما أنا فعائدة إلى حضن أمى وأم أمى الأرض، عائدة إلى كوم الضبع، ففيها نشأنا النشأة الأولى، وفيها تفرعت سيقاننا، وإليها نعود، عليكم بحفظ وصايا أمنا الخضرة فهى الجذر. سمعت بكاء أختى فنهرتها حتى لا تزجج أمى، وكان أختى يتحدث إلى أسطى خليل كيف أن الرؤية غير واضحة فى الليل. كنا نقف خلف رجال نصرية نمر البنادق أيام الاحتلال، نقطع السكة الحديد، نغنى: يا عزيز - عزيز، كبة تاخذ الانجليز. حين طلع علينا مولانا الضبعى راكباً البراق ضئراً فى سماء الله الواسعة متدثراً بعباءته ماسكاً سيفه «الظامى» حاربنا خفه حتى كسرنا الأعداء، وخلفه جنود بعرض المشرق والمغرب يسمع ليل سيوفهم على مسيرة خمسمائة عام، وإلى مقامه فى البحر عاد - هذه يا ولدى هى كوم الضبع.

كوم الضبع - ٥ كم.

أيها الإخوة المؤمنون، تبدأ أولى شعائر الفجر من مسجد مولانا الإمام نحسين، يتلو علينا القارئ الشيخ «عبد الباسط عبد الصمد» ما تيسر من نكر الحكيم.

أمى الآن هادئة تماماً، لا تنطق عن الهوى، إن هو إلا نفس يتردد يخرج منا على وهن، بعض التقلصات الخفيفة أسفل الشفة السفلى، لكنها هادئة، ابتسامتها ناضرة، إلى ربها ناظرة، حين بلغت أمى التراقي، وقيل من راق، وظنت أنه الفراق، والتفت الساق بالساق، قالت: اليوم إلى ربي نساق. ثم قالت: أولى لى فأولى، ثم أولى لى فأولى، أن أصدق وأزكى. يفتت هذا جليابى تصدقوا به على روى وادعوا لى، عمل ابن آدم يرفع لا من ثلاث: منها ادعوا لى يا أولادى، ومنها لا تتسوا أمكم، ومنها زورونى

تمنعوا عنى وحشة القبر. أبكى، وأختى تبكى، أختى لا يبكى، الأسطى خليل يشق الظلام بالعربة السوداء، الضوء الشاحب الآتى من أعمدة النور يموت فى العتمة، قال الأسطى خليل: نحمد ربنا، الطريق خال وأحد لم يوقفنا من عساكر المرور، رد أختى: لكنها لم تزل فيها الروح. كان صوت الراديو يسرى فى سكون العربة: (فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان، فبأى آلاء ربكما تكذبان).

من سنواتى المعدودات لم شفت يوماً إلا وأسود من قرون الخروب، أتيت من كوم الضبع يا مولاي كما خلقتنى، وبى من التصاوير عن البنادر الكثير، فى بولاق الدكرور عشت على الحلاوة الطحينية والعيش «السوقى» ولم أزهد، أكلت الدقيق «السن» معجوناً فى الزيت، أشكر أم أكفر بنعمة الله، حزمت وسطى بحزام «الألشين» وحملت وراء أببيكم الطوب والرمل كما الأنفار، وكنت أناوله حتى على المدماك فوق المدماك وبنينا ما يستر ولا يفضح، وصرت حاملاً والحمل مصيبة الغلابة، وكانوا يتفرجون على حين أمسى حاملة ما يهد الجبال، وحين أصبح على لحم بطنى إلا ما يعصمنى من الماء، لكنهم إخوتكم على كل حال، من صلب أببيكم المعلم جاءوا بحكمة الله: (خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من نار، فبأى آلاء ربكما تكذبان).

أوصيكم فاستوصوا بمحبة أبناء البطن الواحدة، اعتصموا بحبل الإخوة ولا تفرقوا، واذكروا أمكم وصلوا الرحم، إذ كنتم نطفاً فألف بينكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد موت أمهم، وما أنا إلا بشر جاء أوان مواته، أفإن مت انقلبتم على أعقابكم: (مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، فبأى آلاء ربكما تكذبان).

قال الأسطى خليل: لا تذكر علينا ذنوب الأولين، لتتقدمنا مراحمك سريعاً لأننا قد تذللنا جداً، أعنا يا إله، خلصنا من أجل مجد اسمك،

ونجنا واغفر خطايانا من أجل اسمك. (فبأى آلاء ربكما تكذبان) . مرحباً بالزائرين - الباجور - محافظة المنوفية. تهادت العربية لحظة اجتياز كشك مرور، خرج شرطى يحمل كشافاً فى يده، نظر إلينا وأشار أن سيروا بالسلامة، فرقع بشفتيه: يحيى العظام وهى رميم. قلت: أنى يحيى الله منى بعد موتها، لكنى تأسفت فى قلبى. (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كندهان). قال أختى: خالى يخشى دائماً موت الفجأة، ومن دعائه: اللهم كفى شر القضاء المستعجل. ومنه أيضاً: اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن سألك اللطف فيه. سوف يصابون بالذعر من قدومنا الآن. قال الأسطى خيل: أليست لكم مدافن فى القاهرة؟ قالت أمى: لنا مدافن كثيرة، لكنها نعادة أن نكدح إلى رينا كدحاً فنلاقيه وسط الأحبة والأهل فى كوم نضيج، تشهد علينا ساعتها سنوات الصبا والرمح، ويشهد علينا مولانا أبو نتوحات عبد الله الضبعى، لحظة أتانى فى المنام، شممت رائحته على عد مسيرة يوم، ورأيت نوره يسبق هيبتة فعلمت أنه هو، وأنه ما جاء إلا سبب. وأن سبب إتيانه ما هو بالهين، كلمنى دون أن ينطق، ورنّت كلماته على وجودى البدنى فارتبكت واهتز فرعى، وكاد صوته يدكنى دكاً، ويزلزلنى زينة. فلما رأتى لا أعى من حقيقة وجودى الدنيوى شيئاً ضمنى إلى حيز حيزه فكان برداً وسلاماً على قلبى العليل، وألقى فى مسامعى فأنصتت حرحى: سلام عليك أمينة يوم ولدت ويوم تموتين ويوم تبعثين حية. عرفت عليه بمثل ما قال ويزيد.

قلت: أرنى أنظر إليك. قال: لن ترينى، ولكن انظرى إلى شفتى فإن تحركت فسوف ترينى.

فمد نظرت إليها خررت صعقة، ولما أفقت تأسفت فى قلبى، وعلمت أن زينة محال، وخفت غضبه منى، قلت: مولاي، اجعل لى آية. قال: آيتك ألا تنسى الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً. وقال: مع السلامة يا أمينة. ثم قال:

وهذا فراق بينى وبينك. فعلمت أن زمن الموت آت لا ريب فيه، وأن هذا أوان قدومه، فتأهبت للرحلة التى قطعتها أمى، وأم أمى، وأبى من قبل. قلت: ولكن هذا السفر يزعج أمى فى لحظات الموت فيها أقرب إليها من حبل الوريد.

وقلت: لكنها كانت تحب كوم الضبع، ثم قلت: وكانت تعشق البحر والترعة، وشجر التوت الأسود الحبشى، وقلت أيضاً: هل أتاكم حديث أمى لحظة يفاجئها حنين قلبها بنبا الذهب لكوم الضبع، تتجلى كما العروس ليلة الجلوة، وجهها ليلة ئذ أبيض من غير سوء، تتعجل الذهب فتصحو مع نجمة الفجر تجهز «السبت» الكبير من الليل، تستحم وتمشط شعرها السارح على ظهرها فيكون ضفائر، ويكون كما ذيل الحصان، أكوى جلاباب السفر الأسمر القطيفة والطرحة الحرير الطبيعى، لا ترتديهما إلا على سفر، تعبئ «السبت»، تشتري بعض الفاكهة، تعطينى واحدة من كل صنف، تضحك فى وجهى: هم يفرحون لمجيئى، خذ بالك من نفسك وإخوتك. أقول: لا تتأخرى يا أم. تدمع عيناي، تخبط بكف يدها على صدرها: هل يبكى الرجال يا جمال يا وكستى فى أول بطنى، كأنك لم تصبح ولدأ طويلاً بعد، أختك الصغيرة لم تبك، لا تتأخرى يا أم، تقبلنى، أجرى إلى العربية فأحجز مكاناً لها، تجلس، تهتم العربية بالسير تنظر إلى: هل معك نقود؟ أهز رأسى بنعم. تمد يدها إلى صدرها، تخرج «البك»، تفتحها وتخرج نقوداً: خذ.. لا.. معى: خذ: أمد يدي وأضع النقود فى جيبي، سأغيب يوماً أو بعض يوم. سلمى لى على خالى، وجدى، وكل الناس، أنزل، أقف على المحطة، تطل من الشباك، ألوح بيدي وتلوح بيدها، تسير العربية فأظل ناظراً للشباك، مع السلامة: مع السلامة، حاسب على نفسك. عند رجوعى البيت ينظرون إلى، يضحكون، يأكلون ولا آكل، هل تصوم حتى ترجع أمك، طفل كبير، ابن أمك، أنتحى ركنأ وأقرأ «روكامبول». وحين بهم

بقتل أندريا أتذكر أمى فأبكي، متى تعودين يا أم، فإن لك وحشة كبيرة،
كأنك تسافرين في زمن بعيد. (فبأى آلاء ربكما تكذبان).

كوم الضبع - هدى السرعة.

الآن، وكوم الضبع راقدة في حوض البحر والترعة، جامع جدى الكبير
في أول الطريق، المقابر على شماله، البيوت الطين، هدأت العرية ووقفت
أمام بيت جدى، قال أخى: سوف أذهب لأخبرهم بقدومنا. كنت أبكى،
وأخذت يدي تتحسس ضفائر أمى، ضممتها إلى صدري، قبلتها في
عينها، كانتا مغمضتين، سمعت صوتاً عن بعد، جاء أخى وخالى وامرأة
خالى وعيال خالى، أخذوا يلطمون، لطم خالى زوجته على فمها وقال:
خرسى. فخرست إلى حين، وقال: اسكتوا كلكم، لا أسمع نفساً واحداً.
قال خالى وأخذ يضرب صدره: حمد الله على السلامة يا ختى. حملناها
في الداخل، وضعناها في المنذرة الكبيرة، قالت أمى: نفسى أموت كما
ماتت الأحية أمى وأبى على سرير واحد.

صعد خالى بجانبها على السرير، وضع كف يده على فم أمى وأنفها،
ما زالت تتنفس، الروح لم تطلع بعد، قبلها في جبينها وكنا حوالينا: يا
حبيبتي، أنام نومتك يا ختى. كانوا يصرخون، امتلأ البيت بالناس
وأنصوات، صرخ خالى: لا أحد يصرخ، الروح لم تطلع بعد، سكتوا فجأة
ونظروا إلى أمى، وضع خالى كف يده على فمها، نظر إليها ونظرت إليها،
أمى كانت هادئة، قبلها خالى في جبينها وأسبل عينها، أمى كانت تبسم
في فابتسمت لها أنا أيضاً، سحب خالى اللحاف فغطى كل أمى، أمى
أخفت وجهها في اللحاف ونامت، نزل خالى من جنب أمى، جلس على
حصير الأرض وقال: خلاص. ثم وقف وضرب كفاً بكف وقال: خلاص. ثم
جلس وقال: خلاص يا ختى، العوض على الله. وبدأ يلطم خديه.

الخبر الثالث

الجنابة

«وفيهما ما حدث بالتمام والكمال،

والحمد لله على كل حال».

(الراوي)

»

يا أيها الناس، إذ أقص عليكم خبر موت أمي، فاستمعوا وأنصتوا لعلكم تبغون من الحزن ما أنا بالغه.

إذ لا يعلم أحدكم كم من السنوات رمحت في غيطان البرسيم، كلا لا تعلمون، ثم كلا لا تعلمون كم من السنوات جلست على حافة البحر، فضنعت لها امرأة ذات ثدي واحد وعين في منتصف الرأس تملأ البلاص وبناتها أن تعالي يا أمينة لحضن أمك - وكانت تشبهها، وناقتها أن ضعي البلاص على رأسي يا ضنای، فخافت وجرت تنتفض إلى الدار، واختبأت في حضن أمها زينب وقالت: زميليني يا أم. وكم مرة أغراها الماء فخلعت عرسبها ورمت بدننها الصغير في حضن النهر، الذي يعلم ذلك واحد فقط حينها ذات مرة تستحم، ولمحها ذات يوم ترمح رمح أنثى النعام في السهول يمدنه جمالها حين التفتت وراءها فتريص بها، وصار يتعقبها، ولما أحست غلالت أنفاسها، وانحلال عضلات رجليها، كان قد تحول إلى ریح دخلت نون ما دخلت إلى صدرها الصغير فتكور، وانتفض لها ثديان يطلان من ثديا قميصها الصغير فانفتق، ونظرت رأت نفسها كما فتيات البنادر نلتی تطل أنداؤهن من غير حشمة، فاحمر وجهها الأبيض الشارب حليب شمس، واخضرت عيناها بلون البرسيم، واحمرت شفاتها بلون ثمار نخوخ، وسار يمشى في بدننها فيرسمه رسماً يسر الناظرين، ثم كر راجعاً

إلى وجهها فكوره وختمه عند خدها وأسفل ذقنها، حين فعل ذلك وقف ينظر إليها فأعجبه رسم يده، ثم إنه رجع إلى النهر كما جاء منه، ولما عادت إليه فرح كثيراً جداً، وضمها فى عباة الماء، وأمدّها بألف من أتباعه ازدادوا مائتين، زفوها وهم يحملونها حتى باب المستقر، ولم ينس أن يتلو عليها ما تيسر من حكاياته التى تحبها.

جفت الأقلام وطويت الصحف، وكان نهار، وإذا الأرض يضح رملها وحصاها، كذا ترابها، وإذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا السماء كشتت، وإذا البحار فجرت، وإذا يذهب خالى إلى الباجور فيعود بالكفن الغالى والقطن وماء الورد، وإذا يذهب أخى فيعود بشهادة الموت الخضراء، وإذا تجيء المغسلة والنساء ويبدأن فى تجهيز أمى، وإذا تخرج أختى وترانى فتتهز جزعى ولا تساقط من عينى دمة واحدة، وتقول لى: ابك. وأقول: ما أنا بباك. ابك. ما أنا بباك. ابك لأجل أمك التى ما عاد ينادى عليها أحد. فأبكى، وأقف تحت شباك ترقد خلفه أمى، أسمع النسوة يرددن: يا وردة فى جنينة يا ختى. أخى الذى يحرس جو مصر يجىء بملايس الجيش والناس يسندونه، لم يقل له أحد إن أمك تعيش أنت، لكنه رأى رؤية عجيبة أثناء الخدمة «شنجى» تعجب لها الحاضرون، وجاء بيكى، يا وردة فى جنينة قطفوكى مبدرين يا ختى. قالت أمى: جمال يا ولدى، وجمال يا ضناى، لا تجعل من يقف على غسلى يعدد على حتى لا يحرقنى. يا مرحباً اللى جيتى يا ما القبر يقولك يا ختى... يا مرحبا اللى جيتى... وحياة شبابك لأدويك وأليكى. وقف الرجال عن يمينى وعن شمالي وخلفى، ولما صرخت اتركونى، لم يتركونى - فبكيت، ووقفت أختى الصغيرة وصرخت: يا ناس، ما تفعلونه حرام يعذب أمى، دعوها تنام فى هدوء ولا تحرقوها بالعديد. ثم إنها جلست تقرأ ما تيسر من قصار السور. هو الحكيم قال إيه.. حكيم الندامة يا ختى... هو الحكيم قال إيه... عطانى دوا يا ختى ما جيتش عليه، يا خرابى يا ختى.

يـ دايم هو الدائم، لا دايم غير الله.

مب الرجال يجرون، وخرجت النسوة السود وراء الخشبة الخضراء
حزومة بحزام أخضر.

يـ دايم هو الدائم، لا دايم غير الله.

ضعت الخشبة أمام الجنازة إلى الطريق الزراعي، انضمت الخلق إلى
حزّ. استقبلوا الطريق الصحيح وبدأوا يرفون أُمى.

يـ دايم هو الدائم، لا دايم غير الله.

جرت الخشبة تكاد تطير - بل طارت - فجرى الناس وراءها، ورأى
عضر الشيخ عبد الله الضبعى يتقدم الجنازة فهلّلوا وكبروا وتعجبوا من
- - - - - أمسك عبد الصبور ماسح الأحذية بيد الرجال وكونوا حلقة كبيرة
- - - - - نعش، أخذوا يسيرون بظهورهم للأمام، يتمايلون ويقرأون:

وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا، متكئين فيها على الأرائك لا يرون
يب شمساً ولا زمهريرا). اقتربوا من جامع جدى الكبير، الطريق مسدود
- - - - - والعربات. (ويطاف عليهم بأنية من فضة وأكواب كانت قواريرا).
يـ حريبي يا عين أمك يا حتى. (قواريرا من فضة قدروها تقديرا). أخذنا
حجّ حذيتنا ونتسابق فى دخول الجامع، قالت أُمى: إذا صلى على أربعون
- - - - - ضمنت دخولها. حين اقتربنا من التراب نادينا: السلام عليكم آل دار
حزّ. فردوا بأحسن منها، ثم وضعنا الخشبة برفق أمام المقبرة المفتوحة،
- - - - - فى دفن أُمى.

تَوَهُمُ الْقِيَامَةِ

حدث الراوى فقال:

(توهمت) أن روحى راحت، وأنا الآن داخل قاعة مظلمة ليس لها ضية ولا مفتاح، فعلمت أن هذا قبرى، ورأيت نفسى داخل كفى بين أربعة جدران ومن حولى ظلمة ووحشة، فبكيت على حالى، وقلت: أين منى أمسى وغدى، وتأسفت على مسعأى وحلى وترحالى فى أرض الله الواسعة ساعياً سواهاً إلى بلاد تشيلنى وأخرى تحطنى، بحثاً عن يقين يدركنى بنفحة. وبينما أنا كذلك أتفكر فى الملك والملكوت، وأن لله فى خلقه شئونهاً، وقد ردت إلى روحى، إذ هبط إلى وانحدر من طاقة مدورة فى سقف قبرى لم أرها قبل ذلك الحين وفى دائرها صفة نور، هبط ملكان طولهما لا يحده بصر، وعرضهما مثل ذلك، فى يد كل منهما مرزبة لو نزلت على جبل لدكته دكاً وجعلته هباءً منثوراً، فعرفتتهما، وعلمت أن الساعة ساعة امتحان، فقلت يا ساتر استر من الفضائح، وألقى فى قلبى أن بصرك اليوم حديد، فنظرت فى جهة ثعبانا كأنه الفيل العظيم لو نظر إلى لمت ألف مرة من عظم خلقته، ونظرت فى جهة بعضاً من جهنم، وفى جهة بعضاً من جنة، فرق خاطرى، وبين يدي وضع سجلى، وتصيب العرق منى، وسمعت فرقة عظامى ووجيف قلبى من شدة الوقفة والمسألة، وليس هذا بأصعب من لحظة قبض الروح، ومباشرة سيدنا الملاك صنعتة، وإذا لم تصدقونى فاسمعوا الآتى:

سيدنا الملاك

«سرى وسرك يا أمى فى طبق فخار
والطبق انكسر واتفرقت الأسرار».

(عدودة مصرية)

رف سيدنا الملاك بجناحيه رفتين وطار، لما رأته أمنا طائراً فى السماء
— بعة تحضرت للقاءه، وتعلقت أنظارها بسقف حجرتنا المسلح وتبسمت
— تحيرت منا النواظر واستعرضت أعناقنا لما رأت منا العيون تصويرتين
— مقوشتين على سقف حجرتنا المسلح؛ تصويرة: سيدنا الملاك واقفاً فى
— تنمة عجيبة وهو على هيئته كما يراه خالق الخلق وبين جناحيه مسافة
— تنر بمسيرة خمسمائة ألف سنة، ماسكاً قضيب الموت ذا الشعب الثلاث
— مة اللذات ومفرقة الجماعات. وتصويرة: روح ستنا الطاهرة أمنا
— تحرف فوق أسنة رمح سيدنا الملاك.

وذلك له سبب عجيب، وأمر مدهش غريب، نحب أن نسوقه على
— ترتيب حتى أن المستمع يلذ ويطيب، بعد ألف صلاة ترضى الحبيب نقول:
— ر أمنا كانت بيننا فى تلك اللحظة تحدثنا بحديث الأمم الغابرة، وكيف أن
— عى 'لباغى تدور الدوائر، وبينما نحن جالسون، ولحديثها منصتون، وإذا
— تغير قد علا وثار، حتى سد جميع الأقطار، وبان من تحته سيدنا الملاك
— فعداً أمنا بالتحديد، ومن عينيه ظهر التهديد، فما كان منها إلا أن قامت
— ع بيننا محنية، وعلى سريرها راحت مرمية، وإذا بها فتحت فمها
— يتحدث، وبآخر نفس فى حلقها تكلمت: لا يبتئس أحدكم فهذا لا مفر
— مة. وكل إنسان لا بد وأن يبلغ عدمه، حتى سيدنا الملاك هذا له يومه -

اللهم لا شماته - وهو حديث أحب أن أحكى لكم عليه، والعاشق فى جمال
النبي صلى عليه .

نقول - إنها لما قالت حتى: سيدنا الملاك له يومه الذى أحكى لكم عليه
وذلك حديث عجب يكتب على آماق البصر بماء الذهب، فسوف يأتى زمن
تقوم فيه القيامة وذلك بعد ظهور العلامات الصغرى والكبرى، ويرسل
الرحمن بسيدنا الملاك فيقبض فى أرواح الخلق بالشمال واليمين، من طير
ووحش وجن ورجال ونسوان وبنات وبنين، وبينما هو كذلك يأتية المرسال
أن احضر فى الحال ويقف بين يدى الملك المتعال فيقول له: من بقى من
خلقى؟ فيرد عليه: لم يبق إلا الملائكة العظام، جبرائيل الروح، وميكائيل
المهيّب وإسرافيل صاحب الصور. فيقول: اذهب واقبض هؤلاء. فيقبض،
ولا يبقى سواه فيقول له: من بقى من خلقى؟ فيرد سيدنا الملاك وهو يعلم
ما سوف يأمر به: لم يبق إلا أنا. فيقول: مت يا عزرائيل. فيموت من وقته
وساعته ويكون قد ذاق من صنعته - اللهم لا شماته.

ثم إنها ما أن انتهت من كلامها حتى رأينا قدميها تختلجان وأصبح
وجودهما فى عدم فأدركنا أنه بدأ فى مباشرة صنعته، وبدا لنا سقف
حجرتنا المسلح شاشة سينمائية تتراالى عليها صور متتابعة؛ فهذه صورة:
الست الوالدة فى شبابها، شعرها مجموع على جانبى رأسها ومرسل فى
ضفيرتين فوق صدرها، تظهر فوق شفيتها ابتسامة لطيفة، عينان كحيلتان،
ووجه مشرق مليح، فى الخلف أرض فضاء يحيطها سور غير عال، على
جانب من السور حجرة صغيرة معرشة بتعاريش من البوص وخشب
الأقفاص، على البعد حبل لا يكاد يبين عليه تعاليق من القماش المتآكل
لونه لا يظهر. وأشارت لنا فأنصتنا: هنا كانت بدايتى الأولى، وهنا
أنجبتكم على التوالى، لو جرب أحدكم برد طوية أو حر بؤونة هنا - وبظت
عبراتها.

وصورة: رأينا أنفسنا صغاراً، نحيط بها، بعضنا يبكي جوعاً، أبونا نائم على سرير المرض عارياً، فوق ظهره «لزقة» الشمس المخرمة وهو لا يتحرك، أشارت للصورة وتنهدت: كان أبوكم لا يعمل، وكان مرضه يشتد، وأنتم جائعون وليس معي تعريفه واحدة فما حيلتي يا ربى؟! جريت كما نجنونة أشعلت وابور الجاز، وجدت بعض الدقيق فعجنته بالزيت، عملته قرصاً سويتها فأكلتم ونمتم، وأنا وحدي ما كنت أرى النوم، صورة: للأم والاب، هو واقف متكئ على عصا شيخوخته متحدياً سبعين سنة ولت، مترقياً زمن أبعديته الآتى، هي واقفة بجانبه تنظر إليه وقد ظهرت سنواتها الأربعون على وجهها الضعيف، لونها أصفر مريض، على شفيتها ابتسامة متعبة مستسلمة لزمن موتها الآتى وقد أحست بوادره.

صورة: فى سوق الخضار، وقفت ترتدى جلابية سوداء مقطوعة عند الكتف، على رأسها طرحة سوداء، تمسك فى يدها شنطة خضار خالية، وأشارت فأنصتنا: خرجت للسوق كما تخرج النسوان، ولم يكن معي تعريفه واحدة، أردت أن تعرف النسوان أننى أخرج للسوق مثل أى واحدة، ورجعت بعد خرجت ودمعتى على خدى - فما حيلتي!

رأينا صورة للأم والأب فى لقطة نادرة: الأب يحتضن الأم ويقبلها، الأم ترفق فرحاً، وجهها المشتعل بحمرة الحب يغيب فى صدر الأب، فرحنا فرحاً حقيقياً ونظرنا إليها فرأينا علامات الكسوف واضحة على وجهها، رأينا أنفسنا نولد وتشقى، رأيناها مريضة تصرخ ألماً وليس بيدنا حيلة فى عرضها، رأينا الوالد يبكى ضارباً كفاً بكف متمنياً لها الشفاء، رأيناها تذكره بما مضى، حديث دار بينهما ذات مساء: العيد الصغير يأتى دوماً فى 'الكبير'. نظرت إليه وأشارت: كلامك تحقق يا حاج، فأنا العيد الصغير يحذو ليلتي. قالت ذلك وغابت عن وجودنا، عن وجودها، حسبنا أنها دقت، ولكننا رأينا عينيها ترنوان إلينا، وسمعنا صوت تنفسها بطيئاً واهناً،

ثم إنها طلبت منا السماح، فصار كل منا يعطيها من السماح على قدر معرفته حتى كان السماح الأخير لأبينا فتركناهما تأدباً وخرجنا، وكل ما جادت به أعيننا أفرغناه، فالغالية بين يدي الرحمن وملائكته يباشرون عملهم، ولا يحق لنا سوى الدعاء أن هون عليها السكرات وإنها لشديدة. وبينما نحن كذلك سمعنا صوت أبينا فدخلنا فإذ به فى بكاء وصياح، وبعزم صوته ناح، فاقترينا من السرير، وأحطنا به كما يحيط النيل بالبلاد أو السواد بالبياض، ونظرنا إلى أمنا التى كانت ترنو إلى سقف حجرتنا المسلح وقد بانث عليه تصويرة: روحها ترفرف فى يد سيدنا الملاك.

البرزخ

حدث الراوى فقال:

كنت الأرواح فى الزمن القديم هائمة فى ملكوت الله، وكان إذا قبضت الموت روحاً من الأرواح التى انتهت صلاحيتها للحياة أخذها إلى حية معلومة، فاجتمع من كل ذلك الشئ الكثير على مدار الأعوام بسور، حتى صارت أعدادها أكثر مما يتصور أى إنسان، وكانت توضع فى مكان مسور بسور يبلغ طوله السموات السبع، وعرضه مثل ذلك، فإذا حدثت واشتأقت أم لولدها الذى قبض، عازمت على الرحيل إلى أرض البرزخ لتقف تحت هذا السور وتنادى روح ولدها فيحضر إليها على سريره الدنيوية، فيحدثها وتحدثه إلى ما شاء الله، فحدثت البلبلة من حركتها، فمن يومها حتى الآن تذهب الروح إلى مكان لا يعلمه إلا خالقها، ومن المكان هو ما يسمى بالبرزخ. وقد ذهبت إليه روحها، وهو حديث غريب. يكتب بماء الذهب، فاسمعوه من فم رواة الحقيقين، صلوا على حبيب:

خيط اللين

- من يحكى للرمال.

- الوند جلجل والكلب سامبو.

- الموت أصله حكاية.

«وأحلفك يا قبر تسليه يا دود ما تبلغ مرادك فيه».

(عدودة مصرية)

من يحكى للرمال

فُتُكَم في الكلام يا ناس، فإن أمي حين ماتت كان من يراها يظن أنها - شمة بحكمة الله تعالى، فكيف كان ذلك ؟ صلوا على الحبيب: لما قال نحكيم أبي: النملة ساعة القضاء تموت الثعبان. تنهدت أمي، ونظرت إلينا في حسرة، ثم قالت بعد أن ذرفت عبرة: أكمل يا حاج. فقال الحاج أبي: زنعيد الصغير يأتي دوماً قبل الكبير فله في ذلك حكم. وكنا حوالينا، أمي نريضة بداء الكلى التي دوختنا ولم ينفع معها طب الأطباء. قالت أمي: أخذت تشوح بيديها في فضاء سقف حجرتنا الدافئة: والليل لا أنام الليل، بسببه غرامك يا سيد كوم الضبيع.

قال أبي: حدثينا يا أم العيال، كيف جاءك مولانا الضبعي. فاستطابت أمي الحديث: لحظة أتاني في المنام، ضم نفسي إلى نفسه فكدت أفارق، بكه طمأنني، وأشار لي بالكلام وأذن بالشكوى فبدأت: طيببي معي جرح زجعني، أخاف أقول آه لكلام الناس يوجعني. طيبطب على ظهري فكان رزاً وسلاماً فأكملت: الصبر مني اشتكى يا طيبب. الحق أقول لكم، طيبب خضري، ووعدني بالشفاء ومداواة كل مجاريحي. قالت أمي ثم مددت على سرير وماتت - فكيف كان ذلك ؟

فتكم أيضاً في الكلام، فإن أمي قبل ذلك بأيام، حنت كفي يديها زبشطي قدميها بالحناء المخلطة بالقرند ثم قالت: نفسي أزور مولاي أبو

السعود - هكذا أمرنى مولاي الضبعى حين قال: ارمى حمولك يا أمينة على السادة أصحاب الطول والعرض فهم أولى بالشفاعة، واذهبى لأخى أبو السعود فهو منى. حملناها على أكتافنا هى التى لم تحمل من قبل إلا من أبى، وتذكرنا لما وقفت ترقص كما الرهوان يوم نجحت ابنتها أول بطنها فغنت وأطربت السامعين: من الثانوية للكلية والمجموع قرب على المية، فانفطر قلب الأعداء وازدادوا حسرة على حسرة، ولأما رجوع أبى من أرض الحجاز فعلمت الكهارب على باب بيتنا أسبوعاً إلا يومين ووقفت تنتظر الحاج الذى عاد يحمل فى رقبته عنقوداً من التين البرشومى الناشف، ولم يحفظ من حديث الحج سوى الهرولة كما الزناجرة ورمى الجمرات التى أصابه منها أكثر مما أصاب إبليس، ولما حملناها كانت ثقيلة، فإن الكلية حين يصيبها العدم تثقل الجسم العليل وتصيبه بالوخم - تقول أمى.

لما اقتربنا من المقام، زغردت أمى وأشرفت دمعتان على خديها وكنت أقرب إليها منها فمسحت دمعتها وتفاءلت، قلت: ما نفع دواء الأظبية، فهل ينفع زار الكدية ؟، اشترت لأمى كوز ماء مالح من جنب المقام، شربت أمى من ماء الشفاء وغسلت وشها وشلحت جلبابها الأسمر وملست بالماء على بيت الداء فشعرت بالشفاء من وقتها وساعتها. قالت: الآن أنزل الدقة. وقالت: أنا أحس بزوال الداء. هللنا وكبرنا وحملناها إلى الدقة، جلست أمى وجلسنا حوالها نرى ونسمع ولا نتكلم، أول ما سمعت، سمعت دقة «الغيطانى» فما قامت، وثانى ما سمعت، سمعت الدقة «السودانى» وما قامت أيضاً، وثالث ما سمعت، سمعت دقة «سلام ياللاً» قامت رمحت كما غزال البر، هللنا وكبرنا أن قامت أمننا بالسلامة، وبدأت تهتز هزاً يسر الناظرين، قلنا: هزى يا أم جذعك واهترى، لعل المرض ينفرط ويبرأ بدنك من علته. علا وارتفع صوت الصييت والناس ترقص بين يديه، وكل من له نبي يصلى عليه: ليه يا حمام بتنوح ليه .. بتنوح ليه، فكرتتى بالحبايب يا بو

عننله . الله أكبر، هتفنا ونحن نرى أمنا ترقص رقصاً ما رأيناه من
نر . رايعين تغيّبوا سنة ولا تغيّبوا اتين... رايعين نغيّب على الدوام ما
ـ حيش يا عين . رقصت أمى رقصة الأوزة التى حكّت عنها وقالت عجباً ،
يف ترقص وهى ذبيحة ، ثم إنها دارت دورتين ووقعت على الأرض مغشياً
ـ يب . رأينا - والشهادة لله - العفاريث وهى تنطّ من أجساد الخلق ، قلنا
ـ نعفاريث إذن سبب مرض أمى ، وقلنا : لأبد وأن تكون قد شفيت الآن ،
ناخذناها إلى البيت على أنغام الزغاريد ، ولكن أمى حاملنا وصلت صعّدت
ـ سرير ومدت بدنّها وماتت .

ككيف كان ذلك ؟

صلوا على الحبيب :

الولد جلجل والكلب سامبو

هو الولد جلجل صاحب العربة السريعة والكلب هول الذى يجرى ورائها كلما نادى عليه بصوت عال: تعال يا سامبو. فيأتى سريعاً - سبب موت أمى.

وهو الولد جلجل صاحب الأفعال القبيحة والذى فعل مع أهله - أختها - لما مات أبوه ما تفعله كلاب الحارات، حين باع البيت الكبير العالى ساتر كوم اللحم فماتت أمه من وقتها وساعتها حزناً وكمداً على بناتها الخمس الصغار، بعد أن أصبحن دون ساتر يسترهن.

وهو الولد جلجل الذى هدد أمى «بالفرفر» إذا لم تمش من بيته الذى لم يعد بيته سوف يقتلها لما ذهبت إليه تحاول إصلاح فرعه بعد أن مال، وهى الوصية على أولاد أختها.

وهو الذى باع عريته السريعة جداً ولم يجد كلبه سامبو ما يجرى ورائه فمات حزناً، وجاء يرمى بدنه علينا فطردناه، وزوجه خالى - الله يستره - من تبرى أولاد أخته وتلم اللحم الصغير، نفس ما حدث مع أمى لما تزوجت أبى كى تبرى أولاده الثمانية وهم عنها كبار، فشالت الغم والنكد حتى ماتت، وكانت تدعو فى السر والعلن: حسبى الله ونعم الوكيل فيك يا أبى، وأنت أيضاً يا أم.

هو الآن يشقى بدعاء أمه عليه لما وقفت في ليلة مولانا الضبيعي
شحت شعر رأسها ودعت عليه بالصوت العالى: إلهى ما تكسب ولا تريح
- ججل يا ابن بطنى إنت وأبوك فى تربته، يا وارث طباعه الخسيسية
- شرب كينا البطل الحديدية.

وكانت أمى على فراش المرض الأخير لما جاء يبكى طالباً السماح،
عظرت إليه نظرة موت وقالت: من لا يبكى على وأنا حية، وقت الممات
يغير دموعه. فازداد حسرة على حسرة، وأيقن بالشقاء الأزلى وهلاكه على
يدى أمه وخالته لأن دعاءهما مستجاب.

هو الذى جاء لأمى بليل، وأمّه على فراش الموت منادياً إياها: تعالى
ترضى أختك تموت، فماتت أمه ليلة الجمعة أعقبته أمى فى نفس الليلة
ع- عام - وهو اتفاق عجيب (يا سادة) ما خبره أحد قط.

الموت أصله حكاية

مغسلة:

فى البداية أقول - اسم الله على السامعين - إننى صحوت من نومى مبكرة كالعادة، ولكنى بدرت فى هذا اليوم لأنه عيد، طلعت فوق السطح لأجمع بعض أقراص «الجلة»، نزلت فأشعلت الفرن وجلست أمامه وحولى دوائر «الرقاق»، غمسته فى اللبن ووضعتة فوق بعضه فى الصينية الأولى بعد أن أضفت إليها السكر فى اللبن وأدخلتها الفرن، أخذت أعمل فى الثانية فأحضرت اللحم المفروم من ذبيحة الأمس، وضعت الرقاق وفصلت بينه بقطع اللحم الصغيرة، حين انتهائى وضعتها فى الفرن، قلت: لابد أن صلاة العيد على وشك الانتهاء، ولا بد أن أبا عطية على حضور الآن هو والأولاد فيجدون الصوانى جاهزة إن شاء الله وربنا لا يقطع لنا عادة، وكنت جالسة أرقب الفرن حين سمعت الباب يدق: الجماعة حضروا. وفتحت الباب، رأيت أم «السعد» امرأة «ماضى» الجزار واقفة ترتدى السواد وتبكي، ارتبكت، قلت: مالك كفى الله الشر. قالت: عمتى أمينة تعيش أنت. خبطت على صدرى: يا عين أمك يا ختى، يا مصيبتى يا حبيبتى.

كانت أمينة تربية يدي، وكنت أعزها معزة الولد، حنكها لم ينطق العيبة أبداً وبها من العقل ما لو وزع على البلد لكفاها، الشهادة لله، أحسست أن

عند العيد عيد شؤم على البلد، قلت: في أي وقت؟ قالت: جاءوا بها مساءً
 سر وكانت الروح فيها، لكنها ماتت لما وضعت رأسها على سرير أمها
 فيها. قلت: ليتنا ننولها هذه الميتة، ماتت في ليلة مفترجة. ارتديت
 عرومي وخرجت معها بعد أن أخرجت صواني الرقاق من القرن نصف
 نوى، ومن له نفس لأكل الرقاق.

لما وصلت المنزل، وجدت لمة كبيرة، ووجدت العويل والصراخ والبيت
 نعمة نار والعة، البنت لسة صغار يا روح أمها، ربنا يصبر قلوبهم، فالبلد
 نيب مقلوبة والجميع حزاني لفقد أمينة، دخلت عليها وحدي، كشفت
 وجهها فوجدتها سبحان الله - كأنها نائمة وليست ميتة، ورأيت وجهها يشع
 حراً فيملاً الحجر، انحنيت عليها قبلت جبينها فوجدته ساخناً - يا اختي
 كنتي نائمة - سمعت صوتاً يرتل القرآن ترتيلاً من داخل الحجر - تعجبت،
 حثت عن آلات الغسل فوجدتها كاملة ومعدة خير إعداد، قمت بخلع
 عرسها، تحركت يدها لتستر عورتها، ووجدتها تبتسم وتنظر إلى أعلى،
 حمدت الله وأثنت ثناءً جميلاً، شممت كمي وبدأت في تجهيزها، سمعت
 كء النسوة وعديدهن فخرجت، قلت: لا تعددن على المرحومة فالرب
 يرعاها وكلنا أموات ولاد أموات. دخلت مرة أخرى، لم أتمالك نفسي مما
 رأيت فكدت أفارق وغشى على مقدار ساعة زمانية، فإنني لحظة دخلت
 عيها، وجدت حواليتها ناساً كثيرين يرتدون بياضاً في بياض، يكلمونها
 يتكلمهم بلسان عربي فصيح، ووجدتهم يقومون بتجهيزها. لما أفقت
 وجدت جهازة في كفنها الأبيض الشاهق ورائحة المسك والعنبر تملأ
 حجره فكدت أفارق من شدة الرائحة، خرجت من حجرتها لا أكلم أحداً
 من شدة عجبتي، ومن عظمة ما رأيت، وحتى الآن لا أصدق ما حدث، ولكن
 من شاف ليس كمن سمع، وقد رأيت ما رأيت والسلام.

الموت أصله حكاية

ملحد:

بصراحة ربنا، أنا الشيخ عطا الله جاد الرب، رأيت ما لا عين رأت، وسمعت ما لا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر قط، إذ جاءنى أهل المرحومة أمينة وكنا صباح العيد الكبير، يدعوننى لأقوم بدفنها وأنا فى الحقيقة كنت مريضاً مرض الموت الذى لا شفاء منه كما قال الأظبة، ولأن المرحومة عزيزة على أهل البلد جميعاً وعلىّ أنا الذى رعيت صباها ونشأتها الأولى، فقد أصابنى غم شديد، ثم إننى تحاملت على نفسى وأسندونى حتى «الترب» وتركونى ليقوموا بتجهيز أمينة رحمها الله، ماتت فى ليلة مفترجة، هيبه... أنتم السابقون ونحن اللاحقون وكل من عليها فان.

كنت وحدى، والبلد كلها مشغولة بموت أمينة، اتكلت على الله وقلت ربنا يقدرنى وأقدر أفتح تربتها، مددت يدى لأنزع قوالب الطوب فإذا بها منزوعة، تحسست القفل فوجدته مفتوحاً أيضاً - بصراحة ربنا.. تعجبت، فأحد لم يفتح التربة قبلى، ما علينا، لما دخلت لأجهز اللحد وجدته جاهزاً نظيفاً ومندى بالمسك والزعفران، ورائحتهما تشم على مسيرة يوم وليلة، وسمعت من الداخل أصواتاً تقرأ: (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير). سبحان الله - جاءت الجنازة، وضعوا الخشبة أمام تربتها،

- رأيت الجثة فرأيت كفنًا ما رأيت مثله قط، سميت عليها ولم يدخل معي
حد. والميت ثقيل الحمل، وهم يعرفون شدة مرضي، المهم أنني عزمت
تركت على الحي الذي لا يموت وحملتها وحدي، وإذا بالجثة خفيفة على
ي. ورأيتها تفلت من تحت باطى وترتفع في سماء التربة فتتخطى أربع
خنت كانت قريبة من الباب، ثم إنها استقرت في لحدّها تمامًا، فعرفت
ج. من محاسيب مولانا عبد الله الضبيعي ساكن البحر. مدد - أخذت
حصة من تراب التربة بكفى وقرأت عليها: بسم الله ومن الله وعلى ملة
س. الله، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، إنا لله وإنا إليه
جعون. اقتربت منها وركعت أفك أول رباط في الكفن فوجدته مفكوكًا،
ي. حنت الجثة معدولة ناحية القبلة، وضعت حفنة التراب تحت صدغها
بيز من سكات وخرجت وأنا أضرب كفًا بكف ولا أكلم أحدًا، وكتاب الله
س. أنا روح بيتي أرمح كما فحل الجمل بعد أن كنت لا أقدر على
سير وحدي خطوة واحدة، ومن يومها لم يدخل المرض جسدي، فهذا ما
حدث بالتمام والكمال، والحمد لله على كل حال.

توهم نوحى

حدث الراوى فقال:

(توهمت) نفسى كما الغراب النوحى، وقلت: الحال من بعضه، فكما ينوح الغراب، هكذا أنا نياح على موتاى، وكأن الدنيا عدمت ناسها، وكأن همى وغمى لا ينتهيان، سلواى فى التذكرة، وسياحتى وتفريج كرىى عند أهل الآخرة، زمنى غريب، وخطبى عظيم، ودوماً دوماً فى توهم دائم كأنى لا أعيش دونه، وكأنه يتنفس دمى، حتى صرت أنا والتوهم اثنين فى واحد، وحتى صرت أتوهمنى فى كل أحوالى، فى غدوى ورواحى، فى صحوى ونومى، سرائى وضرائى، محياى ومماتى، فيا نكدى على دنياى، كر وفر، إقبال وإدبار، هكذا فى كل الأحوال، ما نقص شىء إلا ليكتمل، وما اكتمل إلا لينقص - فسبحان مغير الأحوال - المهم أنتى أمسكت ربابتى فى يدى، وعلى جسدى ارتديت. كفى ثم إننى رميت نفسى فى توهم صعب، أعرف حدوثه مهما بعدت المسافة وطال النأى، فهذا أمر مكتوب وليس منه مهروب، وما خشيت إلا شيئين: موت الفجأة، وموتى وأنا لا أبأشر صنعتى، وكنت أظن أنه لا يوجد فى زمنى أصبر منى على مواجهة الموت، لما أعرفه وخبرته ولى فى هذا الباب مباحث كثيرة، ولما وطنت النفس عليه منذ النشأة الأولى وصرفها عن اللهو ومتع الدنيا لعلمى بوقوعه لا محالة، ولإدمانى النظر فى الكتب القديمة فقد اطلعت على نصيب وافر من هذه

حياة، وكدت أحفر لنفسي قبراً في محل سكني، فأمكث فيه إلى ما شاء
من. وقد رأيت في هذا الباب ما لا عين رأت، وسمعت ما لا أذن سمعت،
ولا خطر على قلب حي قط، وقد انقسمت على نفسي إلى قسمين، قسم
يعيش عيشة أهل الدنيا، وآخر يعيش حياة أهل الآخرة، فكنت كالمعلق بين
سما والأرض، فصرفت النفس عن الخوض في ذلك التوهّم، وعلى ألا
تدري إلى هذه المسألة بعد اليوم، وليقض الله أمراً كان مفعولاً، فلا أدري
من كسب غداً، ولا أدري بأى أرض تكون قيامتي، فقد شاب شعري من
تكر فيها، وانهد حيلي وعمدت عافيتي في انتظارها وترقبها، المهم،
بعد أن هكذا أتفكر، وإذا بريابتي تأخذ وضعها الصحيح في يدي وإذا بها
تدري نحناً دار في خاطري وكنت أظنني تركته واسترحت، وبدأ صوتي
بحي ولساني ينبطق غصباً بهذين البيتين:

خنقت من التراب فصرت شخصاً

فصيحاً في السؤال وفي الجواب

وعدت إلى التراب فصرت فيه

كأني ما برحت من التراب

يكنّ العجوز - أبي - بدأ تغريبته، لما وقف على المزلقان في انتظار

رحته المريضة - أمي - ليطمئن عليها، فهل اطمأن؟ اسمعوا:

تغريبة

«عدتوش تعودوا للبيوت يا صحابها».

(عدودة مصرية)

ارتدى البالطو الصوفى البنى القديم الموير فوق جلابيته ولبس حذاءه وطاقيته وخرج.. قال: أخرج يا واد اتمشى لحد ما يرجعوا. كان البيت خالياً إلا من بعض الجيران وزوجات وأزواج أبنائه الاثنى عشر، شعر بالزهق والوحدة، جلس على كرسي وضعه له شحاته الطعمجى حين رآه، وضع رجلاً فوق الأخرى وأخرج من جيب سيالته باكو المضغ وأخذ بعض الأوراق فركها بأصابعه ووضعها فى حنكه وجرش وراءها قطعة قطرون، تمخض ورمى ريقه تحت قدمه وفركه مع تراب الأرض بمداسه، اليوم يكمل عامه الثمانين، واليوم اشتد عليها المرض وزاد، واليوم تشاءم جداً لما رأى الجميع حولها، لمح نظرة المعزين فى العيون، دائماً لا يجتمعون إلا لمصيبة تحدث أو على وشك، عاداته المفضلة هى الجلوس على ناصية الحارة أمام المطعم، وأمامه كان يقع محل عصير القصب، الجميع يعرفونه، يبادرون بتحيته لحظة ظهوره، يجلسون بجانبه، يبدأ فى غناء موال يتبعه بتمنشة فيضحكون، ساعتها يكون فى قمة انبساطه، يقولون له: يا بختك.. لا تحمل للنديا همأ.

يرد وهو يلوك أوراق المضغ: العمر ولى ومن كسلى بمضيع فيه. يقولون: سوف تعيش مائة سنة أخرى، يهز رأسه وساقه: أهو كلام ابن عم حديث، بقى ده معقول، هو البحر مبحر يرجع يقبل تانى ؟

صن يا وله انت وهو لما نسمع الدور دهو. كان الصوت يأتيه من محل
نعصير: طلع البلكونة بسكينته، يقول جرح فى قلبى سكينته، يا ناس وسعوا
- سكة انتو. نظر إلى الجميع، قال: الكلام ده حصل بصحيح أيام زمان،
متونى انجن لما شاف أخته شفيقة دايره على حل شعرها، ولما لم يجد
تعيقاً على حديثه أكمل: بس ده مش وقته، أشار لبائع العصير: الدور
تنى أحسن، الله يرضى عليك يا شيخ تشغله، هذه القصة لا يزهد من
ساعها، يقول: قصة خالد وجميل وشلباية قصتى، تغريبتى فى بلاد الله
- أنيس ولا ونيس، لحظة سماعها تدمع العين ويحزن القلب ويشعر
- لآسى، يقف عند أحد المقاطع، يظل يردده حتى يكاد القلب أن ينفجر،
عن يا وله انت وهو: مكتوب عليا اهاجر من البلد وغريب.. من بعد أمى
يا بيا ما ليش حبيب وقريب. وإذا كنت هاعيش غريب.. ها بيحى يوم
تعزيزنى. براوة عليك، دور حلو صحيح، يهز رأسه ورجله، يتأمل المارة فى
ترع همفرس المزدحم، يتمخض ويبصق لعابه، يخرج من جيب سيالته
زرق المضع، يأخذ بعض الأوراق يضعها فى فمه، يتأمل زمناً ولى وانقضى،
خروجه من قريته يا مولاي كما خلقتنى - يقول: خرجت يد من أمام،
يا خرى وراء، وامرأة أبى، رحمها الله، كانت كأمى رحمها الله، وأبى، رحمه
- مات وهو يدعو لى دعواته الثلاث: تكسب، وتريح، ويحبب فيك خلقه،
- يعطنى سوى الدعوات، طفحت الدم حتى وقفت على حيلى، مات ابنى
كبير، رحمه الله، من زوجتى الأولى - رحمها الله، أنجبت ثمانية وماتت
رحه الله الجميع. انتبه لصوت شحاته الطعمجى: مالك يا عم الحج.
تنت إليه: مالى على الله، العمر ولى ومن كسلى بمضيع فيه، مال ميلاً
حقيقاً رافعاً وركه وضرط بصوت عال سمعه الجميع، ابتسم وعلق: والنبي
- بنى كل ده قهر وبيطلع من القعر. ضحكوا، يحسدونه على مرجه، هم
- يعرفون، أمينة مريضة. كانت صغيرة حين تزوجها لتربى أطفاله
ثمانية، أنجبت أربعة أولاد وأصيبت بفشل كلوى ولم تفرح بأولادها بعد.

قام واقفاً واستأذن وسار عائداً إلى البيت، ببطاء كان يسير، قدمه ترك زكة خفيفة، على لسانه بتردد مواله الأزلى: مكتوب عليا اهاجر من البلد وغريب. ما زال البيت ملآن بالناس، يجلسون في انتظار عودة أمينة. أخذها جمال معه، أجرّ عرية وحملها على كتفه ولم يدع أحداً يذهب معهما، ابنها الكبير، دائماً هما على خلاف، ملأ البيت بالكتب، له نظرات تحيره، يختلف عن أبنائه الاثنى عشر فقد تعلم في المدارس ولم يعرف صنعة كأخوته، اطمأن عليهم جميعاً إلا هو، كلما دخل عليه حجرته وجدته يقرأ، ينظر إلى الكتب وإليه، يقول: ها تعمل إيه بالكتب دي كلها، بعها أحسن واشترى لك حاجة تنفعلك. كان ينظر إليه ويضحك في سخرية، يأخذه على قد عقله، يهز رأسه ويمضى وهو يردد: خيبه وحطت على راسك يا محمد، حدانا شجرة وفيها فرع مال، إن نفعت تعالى شخ على قبري.. هاو، الصالة ملأى بالنساء، بناته وزوجات أولاده في الزوايا والأركان، لا يعرف من ابن من، من كثرتهم، يذكر لحظة مجيئه وحيداً من قريته، إحساسه بالوحشة في تغريبته الأولى، بحثه عن عمل في بلاد لا يعرف فيها رأسه من رجله، ياه.. كل هذا الجيش جاء من صلبه، كان كلما رآهم يخبط على صدره بقبضته، يهتف: براوه عليك يا محمد، ابن أبوك صحيح. أولاد أمينة يسميهم الترقيدة الثانية، الترقيدة الأولى فلحت، تعلموا صنعته وبنوا بيوتاً وسافروا إلى بلاد العرب، أما أولاد أمينة فقد دخلوا مدارس ولا أحد يكسب منهم قرشاً، يقول: أنا لا دخلت مدارس ولا يحزنون، لكنى أكتب اسمى وأحسب حسابي، علمت نفسى بنفسى. هتف: العيال اتأخروا، سمعهم يطمئنوه، يا اولاد الإيه، لا تجتمعون إلا في المصائب. أشاح بوجهه وشوح بيده وخرج للشارع مرة ثانية، العيد الصغير يأتي دوماً قبل الكبير، تذكر كلماتها وهو يرك برجله خارجاً إلى الشارع الكبير، توقف وأخرج بعض أوراق المضغ وضعها في فمه وجرش وراءها قطعة قطرون، كان شارع همفرس مزدحماً بالناس والعربات، من خمسين

كان خالياً تماماً، لم يكن هناك إلا الزراعة، هو البناء يعرف تاريخ هذه
بيت، على يديه هو وأبنائه قامت بولاق الدكرور، تغيرت الأحوال
نبت الدنيا غير الدنيا، اقترب من المزلقان ووقف عند الناحية التي
منها العريبات، ارتكن على سور وردد دوراً كان يحفظه: كفاية يا زمان
معاوية.. خلتنى حيران مع دا ومع دية، كمثّل غرقان مش طایل
كان الوقت يمر بطيئاً وأحس بلسعة برد فرفع ياقة البالطو وزمه
جسده النحيل، طوفان العريبات لا ينقطع، لكنه لمح العرية التي أخذت
ولمخ جمال ابنه جالساً جنب السائق وأخته جالسة فى الخلف، رأى
نائمة على صدر ابنتها، حاول الاقتراب من العرية، زعق وأشار لهم
ترقف، لم ينتبهوا له وجرت العرية من أمامه مسرعة فجرى وراءها
عند إلى البيت.

توهم المسافر

حدث الراوى فقال:

(توهمت) توهم المسافر دوماً باتجاه الزوال، ربابتى على كتفى، وصرّة حشوتها حكاياتى، وكأنى على متن ربح، ومظلل بالغمام، والمحطات تفر من أمام عيني، وكلما أتت محطة، توقفت برهة لألتقط نفسى، وأسحب ربابتى عن كتفى، أضعها بين أصابعى، وأضرب على الأوتار لحنًا أعرفه، أتبعه بآخر لا أعرفه يجيء عفو الخاطر، وأرى الدنيا من تحتى كأجمل ما تكون، وأراها ساجدة تسبح فى ملكوت الله، وإذا الكائنات تلتم من حولى، تطرب لسماعى وترقص على أنغام ربابتى، تبادلنى النشوة، نتوحد فى نغمة كونية واحدة، وأنا لا أنتهى من لحن حتى أبدأ بداية أخرى أعلم أنها ستسلمنى إلى نهاية أخرى، فيرق حالى، ويجيش القلب بلحن يعرفه حتى آخر المحطات، وترسل ربابتى لحنها الأخير وتتوقف تمامًا، أعاود المحاولة، أهدهدا بين أصابعى دون جدوى، أتوسل: استمرى أرجوك، وقوفك يعنى موتى، فصوتك من صوتى، فيرق وترها لى، وترسل لحنًا أخيراً يقول مطلعته: كن رجلاً وتقبل نهايتك.

لقد عرف البيت وانتهى الأمر، فهل يستطيع أحدنا خداعه، واحد فقط كان مجهزاً للقائه، سوف ترونه الآن حين يسمع اسمه من فمى وأنا أحكى عنه - فانتبهوا:

تذكرة العباد بسيرة عبد الجواد

«قالوا النهارده العيد أنا قلت العيد لاصحابه

وايه يعمل العيد للى اتفرق أحبابه».

(عدودة مصرية)

بين عسيسة الليل وتنفس الصبح، أعلن نبأ موت عبد الجواد كبير جوادية البالغ من العمر أرزله والعائش من أعمار الخلق مائة سنة إلا عشرين، أعلنه أخوه الأصغر لما خرج على الملأ نبأ المصاب الجلل بعد أن مر المنازعة مدة ثلاثة أيام ليلتين حتى تعب فأسلم نفسه للموت مضطئاً.

أعلن النبأ بينما كان أبناءه الاثنا عشر ذكوراً وإناثاً، ما بين نائم وقائم، وأولادهم وأولاد أولادهم يملأون حجرات البيت بشخير منظم متصل، حين دخلنا عليه حجرة موته، كان أول ضوء للفجر لم يشهده يتسلل من فنة وحيدة، رأينا عينيه ترنوان إلى الجو الأعلى، ورأينا بقايا معركته الأخيرة مع ملائكة روحه فشعرنا برهبة، وكانت رائحة الموت الغامضة مزعة في أركان الحجرة وحول سريريه، الملاءة - ملاءة غطائه، كنية جلوسه في مواجهة سرير موته، رفعا الغطاء وتحسنا الجسد الذي ظل محتفظاً سخونة نضالة المعجز، قمنا بتسخين الماء وغسلناه غسلًا جيداً، وأرحناه على ظهره غسلنا قروحاته المتبسة من رقدته الأخيرة، ألبسناه جلبابه أبيض التنظيف المعطر بعطر ماء الورد، لففنا حول رأسه شالاً أبيض ضيقاً فأحكم إغلاق فكيه، سبلنا عينيه وفردنا عليه ملاءة، حين أتممنا تلك قامت كبرى بناته ووقفت في بئر السلم وأعلنت النبأ صريحاً في

صوت عواء متصل ليعلم القاصى والدانى، بينما كان أخوه يرتدى عباءته مغادراً البيت ذاهباً إلى كوم الضبع حاملاً النبأ ومنتظراً أخاه فى رحنة عودته إلى مسقط الرأس ميتاً بعد أن رحل عنها فى مطلع صباه ساعياً سواحاً فى بلاد الله بحثاً عن لقمة عيش ومستقر فوجدهما فى بولاق الكورور، وحيث كون عائلته التى تجاوز عددها الستين؛ ستين حنكاً يأكلون بقرة بخرائها - كان يقول ويضحك فخوراً وضارباً على صدره: بقبضته: جاءوا من صلبى أنا وحدى - جاءوا من زوجتين لم تحتلما فحولته فماتتا وتركته ليلوك وحدته حتى آخر أيامه التى فكر فيها أن يتزوج للمرة الثالثة وحال مرضه دون ذلك، كان يلح تلميحاً مستطعاً رد فعل أبنائه الستين الذين تساءلوا كيف يتزوج ابن الثمانين! وهل يقدر على ذلك؟ ولا يدرون أنه كان أكثر فحولة عن ذى قبل، وأن سائله المتدفق فى صلبه دوماً نغص عليه حياته موحياً إليه بفكرة الزواج من امرأة شابة تعيد إليه صباه الذى ولى وتملاً عليه وحدته الأكثر حدة، والتى ما ملأها أولاده وأحفاده الأكثر عدداً من البيط والأوز والفراخ والحمام الذى يربيه على سطح بيته.

فى كوم الضبع أعلن النبأ، أعلنه أخوه لما وصل فى الساعة السابعة من صباح موته فهجت الناس وضجت وتجمعت على الزراعية أمام الترب تنتظر، كوم الضبع ترقب أبنائها العائدين، تلملم أشلاءها المبعثرة - تشرق تغرب لا مفر من العودة، تبنى وتعلى ولك فى النهاية متر فى متر. كان يقول ويرسم بأصابعه على مداميك الطوب المرصوص بيديه، يرسم رعوسا كثيرة، يرسم أرجلاً وأيدى بأعداد كبيرة، يرسم خيوطاً مشدودة إلى دائرة، يصل الخيوط بالرعوس والأرجل والأيدى، يشير بأصابعه: هذه الدائرة هى كوم الضبع، هذه الرعوس نحن، وتلك هى حبالها الأبدية، قد نقطع الخيط ونفر أحياناً، لكن ثمة خيوطاً أخرى لا نراها، تشدنا إليها فلا يضيع منا أحد فى زحمة المدن الكبيرة.

في بضعة شهور من رحيله الأبدى، كان يحمل عصا زمنه المولى سائراً
حياً. يجوب حوارى بولاق الدكرور ودروبها، يرصد ما تغير منها وما ظل
على حاله وفي عينيه تلتهم حبات ماء تترقرق وتنز على جانبي الوجه: هنا
توجد جنينة الخواجا همفرس، قصور الملك فاروق، قصر الملذات..
قتل صاحبي حارس القصر لحظة تعرفه على صاحب الجلالة.

وكان يا ما كان فيه ملك اسمه فاروق صاحب عز وجاه، وكانت مملكته
تسمى مصر المحروسة، وكان له نديم من بلاد الفرنجة يسمى همفرس،
متفق أن همفرس أراد أن يهدى للملك هدية فابتدى له قصراً على حدود
حكة في ضاحية من الضواحي تسمى «بولاق الدكرور» وجعل هذا
قصر أعجوبة من العجائب وغريبة بين الغرائب وسماه قصر الملذات،
يصر يجلب له من الجوارى أصنافاً، وكان الملك محباً للنساء فكلما أحس
حقيق تنكر في زى تاجر من التجار ويأتى إلى قصر الملذات فيظل في حظ
شراح حتى يصبح الصباح، وصار يداوم على هذه العادة إلى أن جاء يوم
من ذات الأيام، وبينما الملك يتقدم متنكراً من باب القصر وإذ بالحارس
يتف وينحن تعظيماً وإجلالاً، فظهر الغضب وبان من عيني الملك وقال له:
يغز عرفتي؟ فرد الحارس عليه: من جهل سموك ما عاش. فأخرج الملك
من جيبه سلاحاً نارياً وصوب إلى قلب الحارس وأطلق فقتله. صاحبي راح
مراً وتيمت عياله من بعده. هنا كانت الحظيرة الملكية الملائى بحيواناته
مكولة في عشاء ما بعد الجماع الملكي، حيث كان يقدم له طهاته خروفاً
كاملة مذاباً في كأس من الذهب الخالص ليتسنى له مجابهة أعداء
وطن بمعدة ممتلئة، هنا مبنى الاتحاد الاشتراكي العربي، مبنى ما بعد
ثورة، وحيث كانت الاجتماعات الثورية المستمرة من أجل تطبيق المبادئ
نسته بعد رحيل صاحب المحروسة على متن محروسته، هنا مبنى الدفاع
شعبي المسلح، وفرق الإنقاذ، وإطفاء الحرائق التي كانوا يشعلونها، وحيث

قاموا بتركيب صفارتين للإنداز المبكر تعلنان عن غارات الأعداء، وهنا منطقة الخنادق التى تم حفرها - وساهمت فى بنائها - ليفر الناس إليها لحظة هجوم خاطف يشنه الأعداء وقد أصبحت ملجأً للضفادع والكلاب والقطط ومياه الصرف الصحى.

فى تجواله الأخير، رأى العمارات الشاهقة مكان الخنادق فى زمن منحه معاشاً باسمه مدى الحياة قدره عشرة جنيهاً مصرية فقط لا غير، كان يرى فى تجواله تحولات بولاق الدكرور الكبرى وفى عينيه كانت تومض التماعات طفل يرى العالم للمرة الأولى، طفل ولد منذ ثمانين سنة ولم تصبه الشيخوخة بعد، طفل ولد مصاباً بفيروس فناء أمه، حيث تفتحت عيناه للمرة الأولى على ساقى امرأة أبيه، وحيث رأى العالم جملاً بسنمين فاتحاً فاه على وشك التهامه - جملى وهدية أبى الأولى لى - والذى ضرب حتى أوشك على الموت ولم يبيك وأراد الانتقام وأخذ الثأر فكان ما كان، وكان يا ما كان هناك ولد ماتت أمه لحظة ميلاده فربته امرأة أبيه حتى كبر قليلاً وأنصت لحديث الراوى صاحب الرياب فعرف أن العالم مقسم إلى أربع جهات، وأن الدنيا واسعة، وما كوم الضبع إلا قطرة فى بحر محيط، وأن ناسه يسدون عين الشمس، وعلى الرياب سمع قصة الأمير حمزة الشهير بحمزة العرب - كان يا ما كان كانت دولة الفرس من الدول العظيمة فى قديم الأيام، قصة عنتر بن شداد العيسى أسد الأسود والصخر الجلمود، سيرة الظاهر بيبرس الملك العادل صاحب الفتوحات المشهورة ملك مصر والشام وقواد عساكره ومشاهير أبطاله مثل شيحة جمال الدين وأولاد إسماعيل وغيرهم من الفرسان وما جرى لهم من الحيل والأهوال. طفل يرى نفسه ماسكاً جريدته ممتطياً حصاناً بوصياً خائضاً المعارك منتصراً على أعدائه الخرافيين ومسربلاً بدماء انتصاره الوهمى، طفل يخلق سعد زغلوله حيث يراه ممتطياً حصانه الخشبى وخلفه الشعب يهتف بسقوط الاحتلال، ثورته التى سمع عنها وعرف

حرها من فم رواته، رواة أساطير الوطن، وفيما بعد سوف يحقق حلمه - يقوف منشداً فى سرادقات الليالى والأفراح قصصه التى عشقتها حتى حننياً: قصة الأميرة خضرة الشريفة وما جرى لها فى بلاد النصارى، ننة حبيب بن مالك وما حصل لبنته السطيحة على يد النبى، سارة - خيل، هاجر وإسماعيل، أيوب لما ابتلى، الحجاج بن يوسف الثقفى مع -لام زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ننة نغزاة والجمل، واليتيم المظلوم، وعامر اليهودى.

فى تغريبته الأولى هجر بلدته بحثاً عن مكان يصلح مخبأ لعقاب أبوى - بعد أن تواترت الأخبار عن قيامه بهجومه الليلى الخاطف على -طن القطن ليبيع ما جمعه ليلاً فى سوق القرية نهاراً من أجل شراء -دى طحينية ورغيف من عيش البنادر، وحين تم العثور عليه مقرصاً - حر مائى جاف، تم تعليقه من رجليه على فرع شجرة جميز سنة -عة - هكذا ظن - فكان يسمع عياطه على مسيرة يوم، حتى تم رفع -عب الأبوى ففاحت منه رائحة ننتة وقد تغير لونه إلى الرمادى بعد أن -عد براز طيور أبى قردان.

نغرية داء ودواء، حدث نفسه وهو يوطنها على خوض مغامرته الكبرى -رب المدن الكبرى وبلاد الأحلام، فى تغريبته الثانية، كانت بدايات فتوته -ضيرت، ففى رؤاه الليلية كان ثمة حيوان خرافى يتشكل فى هيئة امرأة -م يميزها غور واسع عميق أشد إظلاماً من ليل كوم الضيع، فى -مركته الأولى والتى ظهرت آثارها فوق جلبابه صباحاً، بدا أنه أكثر جرأة - خوض معاركة الوهمية، وكان قد تخلص نهائياً من طفولته، قال أجرب -نسى وأمشى سواحاً فى بلاد الله، حمل عصا ترحاله ورحل، عصا غريبته -ر ظلت تلازمه كظله، والتى رقص بها تحت أنظار الناس على أنغام -ب لحظة سماعه حكماً ببراءته من جريمة ما فعلها قط، سرقة بساطه

السحرى الذى اشتراه ليروض به المدن الكبرى، ابن الناس وشى بى لما رأى سجادة صلاة فى يدى، وكان يظنها ما ذكر فى محضر الشرطة من سرقة بساط صنعة بلاد العجم. سافر مصحوباً بفقر ودعوات أب وغبشة الفجر الأولى وصرة قماش بها محلية وأقراص عيش وقطع جبن قديم سابعة فى مش: من أين وإلى أين الطريق فى بلاد ليس بها صاحب ولا أنيس ؟

لو كان علمى بأن الوعد مدارى، ما كنت أسافر ولا أطلع قط من دارى. ردد موالاً قديماً فأحس شجنا خفياً، وحن إلى شجرة جميز وحيدة كان يرتكن إليها، وإلى ساقيته النواحة، أبيه، صاحب الرياب، ورائحة بوله المنهمر فى الرطش، رأى نفسه يعيش أول صباحات المدن، ورأى اختفاء الشمس خلف العمائر الشاهقة فتعجب لذلك، فى تجواله للبحث عن عمل شاهد حى الخارطة القديمة - والتي سوف يراها فيما بعد تتحول أمام عينيه إلى بين السرايات - بعمائر فخمة وجنائن الورد والموز وتعاريش العنب، رأى الدقى القديم بعششه الصفيح وحقول القمح الممتدة حتى بولاق الدكرور، عزية الورد وشارع داير الناحية. وسألت نفسى: يا واد تعرف تعيش هنا، ولا ترجع لبلدك وخيبة الأمل راكبة جمل ؟. فيما بعد سوف يذكر كيف اتخذ قراره بتعلم صنعة لازمته حتى الموت، بناء، أول صفة تلقاها من المعلم لخطأ البدايات الأولى، تعلم رص المداك فوق الآخر، أن يفرد خيطاً ويقيم الميزان ويصنع سقالة، على سقائه رأى الموت بعينه ذات صباح بينما كان بهم بتركيب عتب مسلح حين انكسر فجأة لوح الخشب الواقف عليه، وقع وانحذف العتب بعيداً عنه، لحظتها قرر نذراً لابن بنت النبى، اشترى رطلين من اللحم وأرزاً وأرغفة، قام بتوزيعه على باب المقام، حجرته الصغيرة الضيقة بشارع داير الناحية فى الدقى القديم، شراء كل ما يلزم عيشة عازب يتعذب بوحدته وانهزام أبطاله الخرافيين أمام عينيه، عودته الأولى لكوم الضبع، شراء أول جليباب من الصوف

- حيزى وعباءة كشميرية وحذاء بنعل كرب، إعطاه للوالد جنيهاً كاملاً
- عرق جبينه، مفاتحته له فى أمر الزواج بعد رؤيته لولده الكسيب.
قبل أيام من رحيله، وفى مواجهة سرير تغريبته الأخيرة، رنا إلى
حائط مستعرضاً صورته المعلقة، صور دنياه التى عاشها طويلاً وعرضاً
- رتوى - هذه صورتى: فى شبابه، حيث كان متكئاً على حائط فرغ تواء
- يده اليمنى قابضة على مسطرينه، أما الأخرى فتحمل قبعة من
نحاس مخرمة ومزينة بكبسولات نحاس، على جبينه حبات عرق لامعة فى
سرى الظهيرة. وصورة لى: جالساً فوق شيكارة أسمنت على الأرض،
- ورقة عليها قطعة حلوى طحينية ورغيفان، حوله قوالب طوب متناثرة
حائط لم يكتمل بناؤه بعد. صورة لى على كوبرى قصر النيل، خلفه
يتسب سبعان من الجرانيت الأسود، ذراعه ملتفة حول كتف زوجته الثانية
تانية وكانا فى أسبوع زواجهما الأول. وهذه صورتى وأنا: بين أطفاله
تانية من زوجته الأولى - زوجة عزى وصبأى - بجانبه تجلس أم الترقيدة
تانية التى فيما بعد سوف تنجب له ولدين وبنيتين يقاسمونه شيخوخته.
- صورة - صورتى لما طلبونى للمقرعة عام ٤٨، ووجدوا أنه تخطى سن
تجنيد فعاد هو فقط وقد نجا من رائحة الحرب الفاسدة التى أطلقها
- الوطن. صورة: بملابس الإحرام فى رحلته الوحيدة خارج دنياه إلى
- الله، ورجوعه حاملاً فى رقبته عنقوداً من تين الحجاز وبطانية ذات
- ريعات زاهية ولقب حاج - وأخرى: واقفاً أمام بيته محيياً مستقبله،
حذاء تشق سفينة كبيرة بثلاثة أدوار بحار الطوب الأحمر المطرطش، فوقها
تحق طائرة طيارة رسم فوق مؤخرتها علم مصرى له ثلاث نجومات يختبئن
- حوض هلال، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، وجمل بسنمين،
حج مبرور وذنب مغفور، كل سنة بعودة يا حاج، وعنقودان من كهارب الزينة
- تان مخلطة على واجهة البيت، حديثه عن الصفا والمروة ورمى الجمرات
- رؤيته الكعبة بعينه المجردة.

فى صورته الأخيرة نائماً على فراش موته بدا شاحباً، وكان قد رجع نـُـ من صلاة عيده الأخير لما أحس بسرطانه يهزمه، معركته الأخيرة مع عدو حياته وقد ظلت قائمة مدة سنة كاملة، كان يقبض على كبده المتهرئ بكت يديه مهدداً سرطانه الحى فينام قليلاً بين يديه، مفسحاً له فرصة العيش بضع ساعات دون ألم.

كان الليل على وشك لما هب من نومه فزعاً وقال: اللهم اجعله خيراً. ثم أكمل: جاءت لتأخذنى. وحدث فينا فتساءلنا: من هى ؟ فنظر إلينا وقال: أمكم. ونظر إلى إختنا وقال: زوجة أبيكم فقلنا فى نفس واحد: وهل أخذتك ؟ هز رأسه ووضعها بين راحتيه وسكت فلم نتكلم نحن، عاد بنظره إلينا وتساءل: يعنى حاموت ؟ ولما لم يتلق إجابة أكمل: من يعرف، ما يمكن ربنا يكرمى وأقدر أقف على حيلى مرة ثانية.

توهّم عين الخلود

حدث الراوى فقال:

من أجد من هو ذاكرى بعد فنائى كذاكرى موتاى ؟ ترقرت العبرات فى
عـ . ذريابتي كلت، وأناملى ملت، وما بين المنصة التى أعتليها، وجمهورى
نـ . نسمع من فمى قصص موتاى، مرت أزمنة، وتعاقبت وجوه كانت
جـ . والله ذات يوم، وبينما أنا كذلك أتفكر، إذ رحمت فى غفوة، سنة من
دـ . وتوهّمت نفسى فى الظلمة التى خلقها الله، معى صاحبان أحدهما
رـ . ضربقه ومشى فى سكة، أما أنا وصاحبى الآخر الجليل، فمشينا فى
سـ . لم يقل لى «هذا فراق بينى وبينك»، لا لم يقل، ولم يقل «إنك
عـ . تستطيع معى صبراً»، فلم يكن أجلد منى صبراً على صحبته ومعانته
رـ . ثب أفعاله، وكنا سمعنا أن الله وضع فى الأرض ظلمة، وفى تلك
خـ . خلق عين ماء سماها عين الحياة، فمن شرب منها شربة
دـ . يمسه الموت إلى يوم القيامة، فتوكلنا على الحى الذى لا يموت، ودخلنا
رـ . ضمة شملتنا، وخضنا فى معامعها حتى أشرفنا على واد أخضر،
عـ . يسطه عين ماء، فعرفنا أنه ما نبحت عنه، وأن هذه الأرض لم تطأها
دـ . نسان من قبل، خلعنا ثوبينا ونزلنا البركة المباركة، وكنا نعب الماء
رـ . فلم نشرب أحلى من مائها، اغتسلنا وتوضأنا وسجدنا شكراً لله
دـ . نعالين، وبينما أنا كذلك إذ تنبهت من غفوتى فتنهدت، وشددت

القوس والوتر وغيرت المقام، وقلت والنشوة تسرى فى لسانى هذين
البيتين:

لا تأسفن على الدنيا وزينتها

وأرح فؤادك من هم ومن حزن

وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها

هل راح منها بغير القطن والكفن

ثم أصلحت وأنشدت:

اللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين، والخضرة عاشت وشافت.

ولها حكاية غريبة، وأمور مطربة عجيبة، وهى ضلع فى روايتى، وها أنا ذا

أبدأ حكايتى - فانتبهوا:

وقائع موت الخضره

«يا مرحبا الليلة - ياماً القبر يقولك -
يا مرحبا الليلة نورت قبرك وعمت على العيلة،
(عدودة مصرية)

فى اليوم الموعود من ساعة ليل شتائية ماتت الخضره أم جدى وست
رنا جاءت من مشوارها اليومى وفرطحت على حصر الأرض وماتت.
وبموت الخضره صارت أمى يتيمة الست والجد ومن أجل ذلك بكت مر
جاء على آخر الناس الطيبين الذين عاشوا قدر ما عاشوا لا أحد سمع
به حساً ولسانهم كان ينقط شهداً ولم ينطقوا بالعيلة أبداً وما الواحد منا
بمسيره - هكذا رثت أمى ستها لما سمعت الخبر المشئوم فجاءت على
عزها وشها من بولاق الدكرور حتى كوم الضبع بليل فى ظرف ساعة زمان
بين عينها أن الموت أشد من ضرب بالسيوف ونشر بالمناشير وقرض
بنتاريض وأن أهونه كما الشوكه فى الصوف فهل تخرج الشوكه من
عزف إلا بصوف كما قال إمام المسجد المجاور لبيتنا ظهر يوم الجمعة!
بكت أمى لحديث الإمام وبكى أنا لبكاء الغالية.

والذى حدث حدث فجأة، فقد كانت الساعة ساعة ليل، وكنا نجلس فى
عزرة الكبيرة التى بناها جدى الكبير فى الزمن الأول طوية من فضاء
بغوية من ذهب، فلما جاء الطوفان مات من مات وفر من فر وانهدمت بعد
بنت وبنيت بالطوب النيئ حتى وقتنا هذا، فكان يجلس جدى وخالى وامرأة
حتى حول المنقد عليه القوالب والعة ودخانها يملأ المندرة، وعزال الشاى
حب خالى، حين دخلت علينا الخضره بفرعها الطويل المائل للأمام، لم

تلتفت إلى أحد، ولم تتحدث إلى أحد، بل اتجهت مباشرة إلى الحصرير بجانبى وجلست، ثم إنها مددت رجليها وفردت جسدها وقالتها طويلاً ممطوطة فسمعها الجميع: أنا تعبانة، نفسى أنام. ثم إنها أغمضت عينيها وماتت، وخالى كان يصب الشاى لما التفت إليها وقال: بصوا. فرأينا وتحقق الجميع من موتها، وركن خالى عدة الشاى على جنب وقال: شاى النييلة والسخام. وسبل عينيها ولقنها الشهادتين وأخرج منديله طبقه ووضعه حول ذقنها ورأسها وربطه فصوتت امرأة خالى لما رأته انتهى، وبكى جدى وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أنتم السابقون ونحن بكم لاحقون يا أم. والتمت الناس وذاع خبر موت الخضرة زوجة عفيفى أبو راضى الراحل العظيم والعائش من أعمار الخلق مائة سنة وعشرين ونصف سنة ويانى مقام سيدى عبدالله الضبعى صاحب المعجزات فى الزمن الفائت، عاشها يأكل من عمل يده حيث كان يعمل قصاباً وتمنى أن يموت على فراشه متكئاً فنالها. ودار النجابون حول كوم الضبع يطبلون ويسمعون الخلق: اليوم ماتت الكريمة بنت الأكرمين زوجة ضمير صاحب المقام، والحاضر يعلم الغائب. فهجت الناس وضجت وجاءت الركائب من كل البلاد للوداع الأخير.

والخضرة العارفة بقصص الأنبياء وأساطير الأولين، والتي ما كانت تمل روايتها لنا فى قاعتها المظلمة والتي ليس بها سوى فرن كبير بحجم القاعة كان يحمى أول الليل وتنام عليه فى زمن عفيفى أبو راضى زوجها الذى رحل وهى صغيرة فلم تنجب فى حياته سوى خمس بطون فقط، فأقسمت ألا يحمى الفرن وتنام عليه بعد رحيل الغالى الذى تركها، قطع بها هى فقط وتركها وحيدة بعد أن تزوج عياله وعيالها فكانت تذهب إلى مشوارها اليومى آخذة معها فى كم جلبابها الأسود المتآكل رغيضين من عيش «البتاو» وفى جيب سيالتها تلقيمة سكر سنترافيش وشاى ناشف، وكان البعض يراها تذهب إلى الترب وتشوح بيدها جاهرة بالسلاام، وأمام تربة عفيفى

تُرفض وتظل تبكيه قدر ساعة زمانية حتى يحضر إليها فيأكلان سوياً
 ـ ثريان الشاي المعمول على عظام الموتى المشتعلة، ثم إنها بعد ذلك تتودع
 ـ وتتوجه إلى البحر حيث مقام مولانا عبدالله الضبعي الذي بناه عفيفي
 ـ أن يفارق فتجلس هناك عند شاطئ البحر تتحدث إلى خلق لا أحد
 ـ هم سواها ومنهم الشيخ عبدالله الضبعي ذات نفسه الذي كبش من
 ـ البحر وأعطاهما فأخذت ما تيسر حمله وغلا ثمنه وخبأته في الفرن
 ـ خ القاعة التي لم يدخلها أحد سوانا فكانت تأمرنا بالجلوس دون
 ـ حركة. وحتى لا نفكر في البحث عن كنزها المخبوء، كانت تجيء بالمنقد
 ـ يشعل عيدان القطن الجافة وتعمل عليها الشاي الثقيل وتقول وهي تنفخ
 ـ عن النار وتشن وتمسح أنفها في كمها المبلول دائماً: أقول لكم على مسألة
 حُجوع فيكم يعرفها، ليه ربنا سمى عزرائيل: عزرائيل؟

وكنا نعرف هذه المسألة وغيرها مما كانت تحكيه لنا، وكنا نخاف أن
 تعضب فنقول في نفس واحد: لا نعرف يا ست. وكانت هي تفرح لذلك
 ـ تظن إلينا من تحت لتحت وعيناها تبرقان وأنفها الطويل المقوس يتلوى
 ـ دخان الولعة ويرسم في عيوننا أشكالاً وتقول: لأن أبانا آدم لما أراد ربنا
 ـ يخلقه أرسل جبريل يحضر له حبة تراب من الأرض، فزعلت من سيدنا
 ـ جبريل وأخذت على خاطرها وحلفته بربه فرجع وما أخذ شيئاً، فأرسل
 ـ سيدنا ميكائيل فعملت معه مثلما عملت مع جبريل، فأرسل أحد الملائكة
 ـ بما قالت له ذلك زغدها بحريته في بطنها وكبش من ترابها غصب عنها
 ـ ورجع إلى ربه فسماه عزرائيل لأنه لا يعذر أحداً وجعله ملائكاً للموت، وهذه
 ـ ضيفته من ساعتها إلى أبد الأبدين، ليست له شغلة سوى أن يزغد الناس
 ـ بحريته فيموتون. وتتساقط الدموع من عيني الخضرة وتتطلع إلينا: هل
 ـ أي أحدكم سيديكم عفيفي؟ زغده القاسي بحريته وما عذره، كان ساعتها
 ـ ثماً على حجرى هذا. وتشير إلى حجرها وتبكي وتشن وجسدها الهزيل

يهتز ولا تسكت إلا إذا رأتنا نخرج ما معنا من قروش فنعطئها لها فتضحك وتمسح وشها بذيل جلبابها وتقوم فجأة تشوح بيدها: أما أقوم أشترى تلقمة شاي وسكر أحسن زمان سيدكم ينتظرنى على نار.

والخضرة ماتت حين ذهبت إلى الترب وجلست فى انتظار عفيفى فلم يطلع لها كعادته فأيقنت أنها لن تراه مرة ثانية بعد الآن، هو الذى عاش معها حيناً من الدهر ما قال لها أف قط ولا نهرها بل ظل يسمعها قولاً جميلاً فأنجبت له خمس بطون على التوالى وحمى له القرن كل ليلة حتى لحظة موته لما كان نائماً على حجرها وكان يضغط، على عصب وركها بكفه الكبيرة فسمعت شهقته ورأته يرنو إلى الأعلى متبعاً روحه التى فارقت جسده تواء فقامت أشعلت وابور الجاز سخنت عليه ماء، وخلعت هدومه وحمامته وألبسته جلابية الصوف الأنجورى وعباءته وشال العياقة، أشياءه التى ما كان يرتديها إلا فى أمر جلل، فلما أتمت ذلك أنامته على ظهره وفردت عليه الحرام الصوف وقامت دارت على بيوت أولاده فى ساعات الصبح الأولى تخبرهم بموت أبيهم، لكنها أقسمت أن عفيفى يجيئها كل ليلة بعد أن ينام الخلق، ويظل معها حتى أذان الفجر، ومن أجل ذلك هى تعيش حتى الآن، هذا الكلام قالته امرأة خالى لما كانت تحكى لخالى فقال لها هس يا مرة إياك أسمعك تقولى هذا الكلام لأحد، بلا فضائح. فسكتت وهى تضرب كفا على كف. وقال خالى لامرأته همساً: أقوم أذهب عندها. وقلت إنه ذهب للبحث عن الكنز الذى تخبئه فى قاعتها، لكنه عاد سريعاً وقال فى غضب: الدنيا بتشتى قومى ولعى قوالح، كبس على النوم فتمت، ولكنى قمت مفزوعاً على صوت بجانبى، تلفت حولى فلم أجد غيرى وصوت الريح وهى تضرب شباك المنذرة، وضوء اللمبة الصاروخ الموضوع على الحائط تكاد تنطفئ، لكن ضوءها يتراقص فرأيت الخضرة وعفيفى يتحدثان، ورأيت الخضرة تشير إلى فجريت إلى الباب لأفتحه

فوجدته مقفلاً، ظللت أخبط على الباب حتى تعبت فقعدت جنب الباب
بضرت ورأى، كان ضوء اللمبة الصاروخ يرقص على وش ستي الخضرة،
كنت أنتفض وأبكي حين سمعت صرير مفتاح الباب فابتعدت عنه قليلاً
ففتح، ورأيت أمي.

توهم صفاته

حدث الراوى فقال:

(توهمت) صفاته، هو هازم اللذات ومفرق الجماعات ومخرب البيوت والدور ومعمر القبور وميتم الأطفال ومرمم النساء ومفجع الأحباب ومغلق الأبواب ومسود الأعتاب، هو ملك الموت، موتاى يعرفونه، أما الأحياء، فلهم أسواق عجيبية.

توهمت أنى أرى ملكاً عظيم الخلقة والمنظر، قد بلغت قدماه تخوم الأرض السابعة، جالساً على كرسى من نور، والملائكة بين يديه، عن يمينه لوح، وعن شماله شجرة عظيمة، كثيرة الأوراق، على كل ورقة اسم ابن لآدم، فإذا ما قرب الأجل، اصفرت الورقة التى عليها اسم صاحبها، وسقطت على باب رزقه، ويسود اسمه فى اللوح، فهو إذن مقبوض، فينظر إليه نظرة يرتعد منها جسده، ويتوعك قلبه من الهيبة، فيقع فى الفراش، فيرسل إليه أربعين من الملائكة يعالجون روحه، فينزعونها من العروق والعصب واللحم والدم، ويقبضونها من رءوس أظافره حتى تصل إلى الركب، ثم يريحون الميت ساعة، ثم يجذبونها إلى السرة، ثم يريحونه ساعة، ثم يجذبونها إلى الحلقوم فتقع فى الغرغرة، وتسل كما تسل الشعرة من العجين، ويقبضها وفى يده حريتان: واحدة من نور، وأخرى من سخط. اللهم احفظنا، كأنى ما تبت والله، فما أكاد أنتهى من توهم صعب، حتى

- خل في أصعب منه، وكأن موتاي لا ينتهون، فما تنتهي سيرة، حتى
- سمنى نهايتها لسيرة أخرى جديدة، وهكذا، سلسال أعرف أنه لن ينتهي
- بموتي، فربابتى على كتفى، والقوس فى يدي، ولسانى لا يتوقف، أه
- نى، هل تصدقون أن صاحبي قتله لسان، أسمع من يقول: وكيف كان
- ن؟ صلوا على من يشفع فيكم:

العمال (*)

«كان عندنا منه، كان عندنا منه..

وموتة الرجال هي الخراب كله».

(عدودة مصرية)

وقت القضاء يعمى البصر، والرجل تحوم حوله ذبابة زرقاء لا تنصرف ليلاً أو نهاراً، وهو أحس في قلبه شيئاً لم يرد البوح به حتى لنفسه، ورأى رؤيتين في يومين متتاليين، واحدة لأمه وأخرى لأبيه، لهما مدة لم يأتياه في منامه، كان وضوحهما حياً جلياً كأنهما حيان يرزقان، لم يطلبها منه سوى مطلب واحد، ودون أن يحدثاه، فقط أشارا إلى جلبابه، ولما لم يفهم ما يريدانه، أخذ كل منهما بطرف جلبابه يريدان انتزاعه، هي وهو يريدان جلبابه، يا حلاوة. حين صحا من نومه، تساءل كيف يتفق الميتان ؟ وجز على أسنانه وضرب قبضة يده اليمين في كف يده الشمال، وحدث نفسه بغضب: لو أنهما انصرفا دون أن يأخذاه، لكانت هناك فرصة، ولكن قضى الأمر، وأصبح لديه دلائل على ما سوف يحدث، أحس برعشة تملك كل جسده الفارع وانكمش في بعضه وفكر: هل هو خائف من الموت ؟ هو الذى قضى عمره مع الأموات، يفتح التراب في عز الليل بلا خوف، ويتلقى الموتى بيديه ويرقدهم رقدتهم الأخيرة كاشفاً وجوههم وملقياً آخر نظرة، ما الذى يخيفه الآن إذن، هل هي الذبابة الزرقاء التى ما فارقتة منذ ليلتين بطنينها

(*) العمال - بفتح العين وتشديد الميم - هو اللسان فى الموروث الشعبى، ويقال إن الميت يفنى جسده إلا لسانه، فإنه يتبيس ويصبح مدبباً كسن الإبرة، وأنه إذا لمسه إنسان يموت فى الحال، لذلك يقولون: حاسب من العمال. لمن يدخل المقابر.

عنى ؟ أم هى وحدته التى لازمته فى عشته الخوص دون أنيس ولا ونيس
 عد أن صار زواجه من فتاة تنجب له وتملاً عليه وحدته حلماً يصعب
 حقيقته، فتيات البلد ونساؤها يخفن منه، فكيف يرتضينه زوجاً ؟ ومن هذه
 من تزوج حفاراً للقبور؟ تكور على نفسه ودفن رأسه بين ركبتيه وبلع ريقه
 شاف بصوت سمعه، ووقف فجأة صارخاً وملوحاً بقبضته للذبابة
 -رقاء الطنانة: ابعدى عنى يا شيخة الله لا يسيئك، أمنتك بأمانة النبى
 نعى عنى، حد الله ما بينى وما بينك. لكنها ما ابتعدت، بل زادت طنيناً،
 ينسى النهار من بين أعواد البوص فتذكر أن له ثلاث ليال لم يخرج من
 عشته، وأنه لم يضع لقمة فى جوفه ولم ينم، وسمع خبطاً على الباب،
 عذراً ينادى عليه: قوم افتح الترب وجهها. رد بصوت ضعيف: حاضر.
 فمد متثاقلاً يجر رجليه حاملاً على كتفه قفة وفأساً متجهاً إلى الترب،
 عن طريقه نظر خلفه فلمح الذبابة الزرقاء الكبيرة آتية من بعيد وقد لمعت
 رقتها شفاقة نقيه فى شمس الصباح، ولما اقتربت منه حطت فجأة على
 راسه. رفع يده وهم بإمسакها لكنها فرت وجرت أمامه، حين وصل بدأ فى
 حفر ولم يسأل نفسه من الذى مات، لكنه أحس هدوءاً واطمئناناً فى
 قلبه لم يحس بهما من قبل وكان يفتح باب التربة فظهرت ذبابته الزرقاء
 يبرقت من خلف أذنه كالسهم إلى داخل التربة من خلال الفتحة الموارية
 باب، وشم رائحة الموت وأخذ نفساً عميقاً ودخل، بحث عن الذبابة فى
 عمق القبر لكنها فص ملح وذاب، لم بعض العظام المبعثرة وكومها على
 حب، وأخذ يسوى الأرض الرملية المرطبة وسور حدوداً وهمية للحد
 تقادم الجديد، وتحت قدمه كان هناك شئ مدبب يبرز بروزاً خفيفاً لم
 يتبه إليه، وكان على وشك الانتهاء لما خطا بقدمه فوق السن المدبب،
 فاحس لسعة خفيفة وسخونة تجتاحه، وعلى الضوء الواهن الداخل من
 فتحة الباب نظر تحت قدمه فرآه واضحاً جلياً، وضرب راحة يده فى
 جنبته، وخرجت من صدره آهة طويلة، ومات..

الراوى بلغ تعبته منتهاه، أحس بالعطب يدب فى ساقيه فجلس، وضع ربابته فى حجره وبانت أصابعه وقد ماتت على القوس ففردها، وكان يصرخ فى الجمع المحيط به إحاطة السواد بالبياض، أو النيل بالبلاد: ماذا أفعل ؟ إن موتاى يا ربى لا ينتهون، وروايتى تبغى اكتمالها، وجعيتى ملآنة، وقلبى أمضه الموت، وأثقله الحزن، ونفسى مضعضعة، وهؤلاء محظوظون، فقد وجدوا من يروى قصصهم فأحيوا بعد موتهم، أما أنا، فمن أين لى براو مثلى زحمة المصاب وأثقله الفقد، يتبحج فى حكايتى بعد رحيلى - اللهم لا اعتراض.

حين وصل الراوى لهذا الحد فى سرحة نفسه المحزونة، كاد يفضها سيرة، ويصرف الجمع المتحلق حوله فى شوق لسماعه، لكنه لم يفعل، هو الذى نذر نفسه لموتاه، فشد حيله، وقام واقفاً بعد جلسة استراحة، ومرر قوسه على الوتر المشدود شداً جيداً فأصدر لحناً حزيناً يقول مطلعاً إن غرام المحبين يفضى إلى موات الروح إذا لم يتحقق فى التمام الشمل بعد هجر وفراق، بالبوس والعناق، والتفاف الساق بالساق، كما قال الشاعر فى هذا المعنى:

ما صور الرحمن أعظم منظرًا من عاشقين على فراش واحد

ثم قال: وليس هذا بأعجب من قصة عزيز، وتونة التى أحبها عزيز، وكيف فرقت بينهما تصارييف الزمان، وهو ما سوف نحكى عليه، والعاشق فى جمال النبى يصلى عليه:

حكاية

عزيز وحمار عزيز وديكه الشركسى، كذا تونة الجميلة
التي أحبها عزيز وكل ما نصل إليه نحكى
عليه، والعاشق فى جمال النبى يصلى عليه.

«غابوا الحبايب بقى لهم عام وادى التانى،
والقلب مشغول بهم وقليل رجوعهم تانى».
(عدودة مصرية)

يا سادة) والكلام دون نقص أو زيادة - أننا رأينا أمه تجرى جرى
بحر بين الساقية والطابق، تقف بين شوطين، ثم إنها تذرف دموعين
تدنى بالصوت الحيانى: يا ولداه عليك وعلى شبابك يا عزيز يا تاج رأس
- وخلاتك وابن بطنى اليتيم.

وكنا نظن فى البداية أنه عفریت عزيز قد ظهر وبان، وكنا نقف على
حر طابق الديابة نترقب ظهوره، وما عرفنا أنه عفریت أمه غير بعد
حين. فزین النواحي ولى زمانه وما عاد يجىء، بموته قصم ظهر رفاقه
يشنوا النيلة من بعده، كمن يعرف أنه راحل كان معنا قبل غربته الأخيرة
يزيد. أخذ يجمع شملنا ووقف وسطنا نحن رفاق صباه وقال على الرياب:
- لا علمى بأن الوعد مدارى.. ما كنت أسافر ولا أطلع قط من دارى.
- رضى بقليلى وأقول للقلب ما تدارى. قالها على الرياب فضحكنا، وقالها
على الأرغول فتأملس البعض على البعض، وفى النهاية أنشدها على ربابته
على الرياب فآدمعت الأعين من هيبه ما قال، وكأن - سبحان الله - سيدنا
عبد الرحمن يرفرف على لسانه، وكأنه - لا إله إلا الله - كان يعلم موعد

قيامته، فأخذنا نطمئنه بالقول اللين حيناً والقول الناشف حيناً، لكنه كان أدري منا بحاله وسبقنا ودخل سكة الذى يروح ولا يرجع، وبين غمضة عين وانتباهتها، سقط الغالى فى الساقية هو وحماره، رفيق سفره الدائم وصاحب غريته الطويلة والذى كان يعزه معزة الأخ والصديق والذى حدثه ذات يوم بينما هو فوق متنه: أنت وأمى أعلى حبيبين فى دنيتى. ولما خانته دموعه نطق فى وجد: الأم افكرها الرب وحصلت الراحل أبى، أما أنت فيجعل يومى قبل يومك، لا أتصور الدنيا من غيرك، آخر الأحبة أنت. وفهم الحمار مغزى صاحبه، ويقسم عزيز إنه سمع لغة حمارة، وأنه عرفها، وأنه صار يحدثه مقدار ساعة زمانية، يقول عزيز: تحادثنا مقدار ساعة، كشف لى الظاهر والباطن، ما مضى وما هو آت، ولم يقل لى كلمة سوء قط، فهو من قبل حمار أبى، وهو من بعد حمارى، فله منى ألف مليون سلام.

بالدمع جودى يا عين على عزيز، لم يكن يدري أن ساعته حانت، وأنه فى هذا اليوم مفارق أحبته، فمئذ أن صحا من نومه وعينه لا تهدأ عن الرف، ريق إصبغه بلعابه ومرره على عينه الشمال وقال: اللهم اجعله خيراً. لكنها لم تكف وتشاءم عزيز جداً. قام وجهاز لنفسه فطوره الأبدى: نصف رغيف مقدد، طبّق به بعض الحليب، مزج الخبز الناشف بالحليب وسمى وأكل، تلفت حواليه فلمح صورة أمه: عجوز طيبة تلف رأسها بطرحة سوداء ظلت تصاحبها حتى جاء أجلها، ورأى على جانب الصورة اليمين وشاح الموت الأسود فقرأ الفاتحة لأمواته وأموات الناس، وتناول ملعقة فى فمه من مزيج ما بعد موت الأم. فى الأيام الفائتة، كان يصحو براحته، وكانت تعد له فطوراً ثرياً مكوّناً من عسل النحل والفطير المشلتت وقطعة جبن قديمة تعرف أنه يحبها، وبراد الشاي كان يغلى على النار لحين انتهائه من فطوره، وكان يشم رائحة الشاي ممزوجة برائحة سمن الفطير السخن، وكانت تعبق بجو البيت رائحة دسمة، وصوت الأم ممزوجةً بصووة

كتاكيت: كل يا ولدى، مطرح ما يسرى يمرى على بدنك الغالى، إلهى
تكتب وتربح ويحبب فيك خلقه يا عزيز يا بن بطنى. فرغ عزيز من فطوره
يقدم إلى حماره فأخذ يجهزه لرحلة شتائه وصيفه، ربت على ظهره وسرح
صره إلى ما بعد الحمار وهو يناجيه: يا آخر الأحبة، رائحة أبى أشمها
نيك، أبى الذى لم أره قط أتلمسه فيك، ألم تكن رفيق كهولته، من أجل
كنت أحبك حبى لأبى الذى لم أره.

تهد عزيز وشال قفص الكتاكيت وربطه على ظهر الحمار، كل ما ورثه
عن أبيه قفص به بعض الكتاكيت، وحمار عجوز أعرج يتمنى عزيز أن يرد
الجميل ويساعده على اجتياز شيخوخته بسلام، وبيت معتم له رائحة
ثمينة تذكره دائماً بأيام الآحاد، وأم كان الناس ينادون عليها: يا أم عزيز.
تفرح هى لذلك وتنظر إليه وتتمتم: اسم النبى حارسك وصاينك، قلبى
يرى راضيين عنك ليوم الدين. وافكرها الله وانقطع النداء. خرج عزيز
يقاق حماره وراءه، ووراءه سمع صوصوة الكتاكيت فانشرح قلبه ونطق
سأله فغنى على الرباب - ما كان يدري يا ولداه - أغنية الكتاكيت
عجيبة، فتصووصو كثيراً جداً ويفرح عزيز لأن الكتاكيت تحب صوته
يعرفه، ويفغى فتصووصو ويضحك حتى يشرق فينطق بالشهادتين
يتساءل: من يذكر سيرتى الآن. وهو لا يدري أن سيدنا عبدالرحمن الملاك
قد ذكره، وأنه ترك سماءه منذ حين منتظراً إياه عند الساقية ماسكاً
تصيب الموت ذا الشعب الثلاثة هادمة اللذات ومفرقة الجماعات، غمز
ساحبه فأخذ يبرطع فى أرض الله الواسعة عارفاً طريق صاحبه الذى
حمله على ظهره عشرين سنة إلا شهرين ويومين وما ضل طريقه قط،
يذكر عزيز: أن البداية كانت صعبة، وأن أباه تركه إلا من أم يحبها حباً
حماً، وحمار يحبه محبة الأخ والصاحب، ويضع كتاكيت وزبائن يعرفون
سله وفصله، وتعاقب الفصول الأربعة، وخسوف الشمس وكسوف القمر
من معلم خمسة رابع بمدرسة جمال عبد الناصر المشتركة، وليال شتائية

غائمة لا يضيعها سوى أن يلم كتاكيته حواليه ويشعل الباجور السكاتى الموروث، ويفرد كفه الملائنة بحبات البرغل فتلتهم الكتاكيث على يده وتصوصو وهى تلتقط الحب، ويكوم ساقيه فى صدره وينام. مر على زبائنه، باع كل كتاكيته إلا اثنين، باس كف يده ظاهرها وما بطن وقال: نحمده، يرزق الدودة فى بطن حجر. فكر أن يشتري كمية أكبر من الكتاكيث لأنها لم تكف زبائنه، فعلى الرغم من أننا فى موسم التوت حيث الكتاكيث تأكل وتموت، إلا عزيز، فكتاكيته ما كانت تموت بل إنها كانت تعيش فى هذا الموسم لتصبح فراخاً وديوكاً - يقول عزيز: تقول الوالدة رحمها الله تعظنى: أبوك عاش قدر ما عاش لم يمتم منه كتكوت، كانت أطفاله، وكانت تملأ علينا البيت، وكان يحبها كما يحبك يا عزيز، أحبها أنت أيضاً تحبك وتكبر من أجلك وأجل خاطرک. ولكن ما باليد حيلة، سوف يشتري على قدر ماله، غمز صاحبه: ارجع بنا يا عم، فتوجه الحمار إلى الطريق الصحيح وبدأ رحلة العودة حاملاً عزيز وقفصاً كبيراً فارغاً إلا من كتكوتين يحتضنهما بيديه.

كان يفكر فى «تونة» التى لحظة أن رآها صوصو قلبه، كذا قلبها، ولحظة أن نظرها نزل عن حماره وفتح قفصه ليخرج أحسن عشر كتاكيث بينهم ديك شركسى أخذته فى كفها الصغيرة الطرية وقالت: أسميه عزيز وأرصده باسمك وأحبه. فاطمأن قلبه وصار يغنى على الرياب الذى اشتراه خصيصاً لها أغنية تونة الجميلة التى أحببت عزيز بائع الكتاكيث وعزيز أحبها، وقال لها: عندى كتكوته شقراء جميلة مثلك هى الآن تونة الحبيبة ولن أبيعها بكنوز الأرض. وقال: أضع القرش فوق القرش وربنا يقرب البعيد. وفى غدوه ورواحه صار ينشد لتونة على الرياب أغانى تصوصو لها الكتاكيث، وقلبه يصوصو كلما رأى تونة التى لحظة تراه تخرج ديكه الشركسى وتناديه: أحبك يا عزيز عينى. وتقربه من شفيتها الجمرتين وتحرقه بأنفاسها المعطرة بزهر النعناع، فيرفرف عزيز بجناحيه الزغب

يختر شفيتها بمنقاره فتضحك وتقول: يا شقى. ثم تخبئه فى نهر صدرها
- ج -

كُن عزيز رأى ذات يوم، هو ما سمع، لكنه رأى بعينيه فلم يصدق
- ج - . وحاول الاقتراب فمنعه الأهل واللمة والزوج القادم من بلاد بعيدة
سرع عنها لكنه ما نظرها قط، كانت تسير خلف جلباب أبيض نظيف رأى
سرع من شدة ألقه، وشم رائحة زهر النعناع - رائحتها - من الجلباب
- ج - . وكانت هى فى المنتصف وحولها الأهل والأصدقاء يودعونها،
- ج - . له بذراعها خفية فصهلت أساور معصمها الأبيض المدملك، وفى
- ج - . حمة لم يشعر بوجوده أحد، سحب حماره خلفه حين كانت تهم بركوب
- ج - . وشعر قلبه ينتفض ويصوصو، وسمع صوصوة الكتاكيت بشدة
- ج - . عريقة بدت له غريبة ومحزنة ولم تكف طوال الليل، وأخرج تونة من
- ج - . وصرار يتأملها، وفاحت رائحة زهر النعناع فكانت رائحة رجل قادم
- ج - . يزد بعيدة، وبدأ يبكى حتى غفلت عيناه.

حين قام فى الصباح كانت عينه الشمال ترف، وأخذ يبحث عن تونة
- ج - . وجدها، قال لنفسه: صباح حزين. وأخرج ربابته وغنى: طول عمري
- ج - . يتر لوحدى. وأحس بقلق لم يعيشه من قبل، وتذكر قولاً رددته أمه:
- ج - . ين عين أمك كما السواقي القلابة. هز رأسه وتمتم: صدقت والله
- ج - .

- ج - . قد ترك العمار وتوغل فى طريق لم يألفها من قبل ركباً فوق ظهر
- ج - . أعرج هو صاحبه وصديقه وآخر أحبته وهبت رائحة نفاذة قوية فعرف
- ج - . يوم خميس، وأن الساعة ساعة قيالة، وأن الناس تنام الآن فى بيوتها
- ج - . أن الشمس فى عزها، وأن طريقه ليس به صريخ ابن يومين، والشئ
- ج - . يعرفه، أنه الآن فوق بئر الساقية التى يقع فيها، بعد لحظات، معه
- ج - . أموت: حمار عجوز أعرج، وكتكوتان أحدهما ديك شركسى.

حدث الراوى فقال:

وما مر عليكم من سير إن هى إلا قطرة فى بحر محيط اسمه الدنيا أولها عياط وآخرها عياط، وما بين الأول والآخر نكد على فرقة أحبة. فسبحان الحى الذى لا يموت صاحب الملك والملكوت.

أحس الراوى شيئاً لم يرد الإفصاح عنه، شيئاً يعرفه معرفة يقينية بدأ يدب فى جسده، عرفه من ارتعاشة القوس فى يده، وعرفه من تهديج صوته وخفوته. من سرحة روحة وهيامها فى دنيا الراحلين، وهو قد نذر نفسه لموتاه، تلاوة م تيسر من سيرهم، وهذا عهد أخذه على نفسه ولا بد من تمه، وراودته نفسه: هل يحكى قصته بالمرة قبل أن تفوت الفرصة، فمن أين له براو أخوذى يأتى من بعده، قابض على حكاياته مالك لناصرية القول، يروى سيرته، سيرة الراوى الذى رحل كل أحبته فنذر نفسه للموت، يحيا ويتنفس عليه، يسلى موتاه فى غربتهم، يسمعهم ما لم تسمعه أذنهم من قبل؟ وحدث نفسه: قصصت على الناس أحسن القصص، أخلصت فى الصنعة فجودت وحذقت الرواية، ولا بد أنهم أحياء الآن، وما بدآته لا بد من إتمامه، أما أنا، فلى رب اسمه الكريم.

وقف الراوى وقد أحكم القوس فى يده التى بانى عراقبيها، ووضع ربابته فى موضعها، وبدت أنفاسه لاهثة متلاحقة، وداهمه إحساس الذى وجود بأخر ما عنده، فقد حكى فى سرعة، عن وجوه كثيرة عرفها فى طفولته وماتت، ووجوه صاحبته شاباً وماتت، ووجوه أدركت شيخوخته وفارقت، ثم بدأ يبطن قليلاً وكأنه أدرك سرعته، مفصلاً فى تأن، ومجوداً فى الأداء، وتوقف نتفة من الزمن لقط فيها نفسه، وشد أوتار الرابطة، وشمع القوس فشد بعد إرخاء، وبدأ بالقول - أنا وأنتم نصلى على طه الرسول:

وجوه للموت

«والقبر قال له انزل ولا تخافشى،

خايف انزلك يا قبر ما اطلعشى».

(عدودة مصرية)

ولد ليموت

يعيد فرجاني الذي تصور في لحظة أن يضحك على ملائكة موته
— يـ وانقلبوا ضده. ملك دنياه طولاً وعرضاً وحين تركنا نحن أولاد
— قائلًا لنا: سوف أترك المدارس لكم أما أنا فسوف أكسب بيدي
— ولا أنتظر المصروف كما تفعلون. فأصبح كسيباً يفتخر على شلته
حياة. وعرفنا أنه ليس منا بعد الآن.

عـ بدأ موته لما صفر لى بقمه صفيراً طويلاً أعرفه، فطلعت سطح
— ووجدته واقفاً أمامى على سطح بيتهم، أشار لى بكف يده فعبرت
— فاصل بين البيتين ورحت إليه، كان متوتراً زائغ النظرات، أمسكنى
— عى وقال: تعالى شوف. قادنى ناحية المنور، نظرت إليه متسائلاً
— يصبعه على فمه وهمس: هس، بص تحت. كنا بالليل، وكان نور أحد
— حذات مضاء، وكان الشباك الزجاج مفتوحاً نصف فتحة، ورأينا توحة
— نجيران تستحم، فقلت له مشوحاً بيدي:

يـ أخى عيب على شيختك. ثم إننى تركته ونزلت.

يـ تكن المرأة التى أحبها هى سبب موته، بيتها يقع خلف بيت سعيد، وكان
— عمله ويصعد إلى سطح بيته فى المساء، ويقف تحت شباكها المطل

على السطح، ويصفر بضمه صفيراً طويلاً متناغماً فنرى الشباك وقد انفتح، ونراها وقد اتكأت بكوعها على حافته في قميصها الداخلى الأحمر فيتوهج بياضها بحمرة القميص النايلون، وفي غفلة منها يشير إلينا في الخفاء بابتسامة مزهوة وهو يواعدها على لقاء، وكنا نقول له حين نراه نازلاً إلى الحارة في سخرية: عاملين فيها رميو وجولييت. فيرد ضاحكاً: اسكتوا يا تلامذة، الواحد منكم شنبه في وشه ولسه بياخذ مصروفه من أمه. فنلتف حوله ونحايله ليحكى لنا عن مغامراته معها، وكان هو يجب ذلك، فتتوهج عيناه، ويخرج الكلام من فمه سريعاً ومحملاً برذاذ لعبه حتى نظن أنه لن ينتهى في سنته، وكنا نراه بعيون أولاد المدارس كبيراً قادراً على فعل عجائب لا نقدر على فعلها فيدخل السجائر في العنن، ويشرب الحشيش والبيرة ولا يخاف أن يراه أحد، ودائماً ما كنا نراه خارجاً من بيته ومشوحوماً بيده لاعتناً البيت ومن فيه ومهدداً أباه بتركه، حتى ليلة انتحاره، لما ضبطه يتحدث معها فوق السطح، فشتم المرأة وهدهدها بفضحها عند زوجها وجعل سيرتها على كل لسان، ثم إنه تحول إلى سعيد الذى وقف ساكناً مذهولاً مما حدث فشتمه وهدهده بطرده من بيته إذا لم يرجع عن هذه المرأة، لحظتها قال له: تحب أولع في نفسى عشان تستريح. فرد عليه: يا ريت يا أخی تستريح منك ومن عارك. فجرى إلى الشقة، واتجه إلى المطبخ، وفي ظنه أنه مجرد تهديد، وأنه سيجرى وراءه يمنعه، وسكب الجاز على رأسه، وانتظر أن يأتى إليه ليمنعه فلم يفعل، وأشعل عود كبريت، كانت أمه بالداخل فخرجت على صراخه واتجهت إليه، كذلك أخوه الصغير، وبين غمضة عين وانتباهتها، خرج من حارتنا ثلاثة توابيت تحمل ثلاث جثث متفحمة: سعيد، وأمّه، وأخيه الصغير.

ابن موت

وأحمد عبد القادر الذي دخل ذات مساء سينما «مرمر» حيث شاهد ثلاثة أفلام كان آخرها «الرأس الكبير» فخرج يزعق ويشلت بالشمال ويمين وكل من قابله في طريقه لابعه كاراتهيه مقلداً «بروس لي»، هو نفسه الذي دهسته العربية «كارتر» في اليوم التالي لما خرج من بيته ذاهباً إلى مدرسة التجارة يحمل كتابه يمينه، فساوته بالأسفلت وعدم شبابه.

كأن خمس عشرة سنة فقط كانت تكفى ليصبح رجلاً طويلاً عريضاً، ذا حنتين متوردتين دوماً، وشعر أصفر ناعم مفروق من منتصفه، وبشرة بيضاء كاللبن الحليب، وأفعال ما كان يقدر على فعلها غيره، علمنا كيف سنك النبل في أيدينا وكيف نصطاد العصافير فكان يخرج بنا إلى بركة وكنا نرجع وما اصطدنا شيئاً، إلا هو فيصطاد العصافير، كسارى، وأبو فصاد، وحتى الوطاويط ما كان يتركها في حالها، ولأنه كان سعراً في صنع الطائرات الورق، ولعب البلى، والجعران، والكازوز، ونقى شمش، وإمساكيات شهر رمضان، فقد أصبح زعيماً لعصابتنا، فخافه جميع وخافته عيال الشوارع المجاورة لشارعنا، وعلى حسه ما كنا نخافه. فلما مات، ضاعت هيبتنا، وتفرقت عصابتنا، ودخل شارعنا كل من نسيه ودب.

المشهد الأخير

كل من شاهد ما حدث قال كأنه - سبحان الله - شهد جنازته بنفسه. ففى لحظة انقلب المشهد كما قدر له أن يكون منذ الأزل، فالجنازة كانت سائرة محمولة على أعناق الرجال حيث يودعونها مستقرها الأخير. والنسوة الندابات باشرن عملهن فأشعلنها ناراً حامية كادت تحرق الجميع، ونجاب القرية كان يقوم بواجبه خير قيام، جمع مشايخ البلد وكون حلقة سارت أمام النعش يتميلون على أنغام تراتيل القرآن، والطريق الزراعى توقف من كثرة الخلق، والعربات توقفت وركنت على جانبى الطريق، هكذا كانت الجنازة تسيير فى طريقها إلى الترب الواقعة أول البلد، العربات الداخلة إلى القرية كان عليها أن تمر بدائرة كاملة من الانحناءات قبل أن تعتدل فى طريقها فترى القرية أمامها، وكانت عربة النقل الكبيرة الآتية من القاهرة والمحملة بأشولة القطن تقترب الآن جارة مقطورتها، مرت بالدائرة فى طريقها إلى أول البلد، وعلى الجهة اليمنى من الطريق، كانت عربة نصف نقل فارغة تقف ساكنة لحين انتهاء الجنازة، وفوقها وقف «التباع» رافعاً إصبعه ناطقاً بالشهادتين ومحملاً فى الجنازة ودخلت عربة النقل البلد، ورأى السائق نهر البشر أمامه، داس على الفرامل فاختل توازن العربة وتأرجحت المقطورة يميناً ويساراً، وانحرفت العربة يميناً متفادية الجنازة واصطدمت بقوة فى عربة نصف النقل، وطار التباع محلاً فى الهواء باتجاه الجنازة، وارتطم بالأسفلت محدثاً فرقعة، وجرى الجميع

- كَيّن النعش على أسفلت الطريق، ولكنهم أسرعوا عائدين حين توقفت عربة، وجدوا بجانب النعش جثة مفرودة الذراعين والرجلين وقد خرجت حشوها والتصقت بالأسفلت، لم يتعرفوا عليه أول الأمر، ولكن البعض وقفاً على عربته حين مرت الجنازة أمامه، وسارت الجنازة في طريقها حين غطوا جثة الغريب بغطاء العربة، وكان الجميع يعرفون الآن أنه رفع سببه ناطقاً بالشهادتين وأنه شاهد جنازته بنفسه.

ما إن انتهى حتى وقع القوس من يده، وانتشرت ربابته فوقعت بعيدة عنه، وخذلتة قدماه فوقع من طوله، قال: هي النهاية لا ريب، وليس من المكتوب مهرب، جلس وعدل نفسه واستند بظهره إلى حائط بحث عن عدته، جمعها وكومها بين يديه، كانت نظراته زائغة، وأحس برعشة تتملكه. كان جسده متداعياً، لكن ذهنه ما زال حاضراً حضوراً كاملاً، وعلى وشه بدت أمارات صراع جواني كان محتتماً، ونطق لسانه دون تردد: نعم أخافه، وظل يرددّها عدة مرات دون وعى منه، كانت إجابة لسؤال لم يطرح بعد، وهو الآن يزن في نفسه:

هل تخاف الموت؟ يا من نذرت نفسك لموتاك، وغنيت طوال المدة بالموت، وها هو يجيب على السؤال الصعب: نعم أنا أخافه، وأنا أكرهه، بل كنت أحاييله، وكنت أتحصن ضده بمحاورته، بفض كل أسرارهِ، وفتح كل مغاليقه، لإزالة غصته، وتخفيف وطأته وهي شديدة. وقال: ولم يفرغ حزدانى بعد، فما زالت به سيرة أحدهم، فصل من فصول رواية موتاي، بل يكتمل النذر، وبه أكون قد بلغت، فهل أقدر؟ اللهم أعنى - وإذا مد الله في الأجل رويت سيرتى إن شاء الله. اعتدل في جلسته مرتكناً بظهره للحائط، فاردًا ساقيه أمامه، تناول القوس بيد مرتعشة، وبالأخرى ربابته، وللمرة الأولى يشعر بثقل حملها، ومن شفثيه طلع صوت عزاء: رحمة الله عليه، بموته اكتملت الدائرة وكل إنسان لا بد أن يبلغ عدمه.

موت النجّاب

«باب اللّهود مش زى باب البيت
كتفك عريض واذاى خشيت،
(عدودة مصرية)

حتى عبد الرسول النجّاب رأى بنفسه رؤيا موته، ففى الفجر قام من
بـمـه مفزوعاً، أشعل لمبة الجاز وجلس على الدكة الموضوعة فى ركن عشته
خـصـ، والتي كان ينام عليها، وضع رأسه بين رجليه بعض الوقت، وأحس
خيوط الفجر الأولى فقام، توضأ وصلى ركعتى السنة أتبعهما بركعتى
غرض، وحين انتهى، بحث عن عصاته التى يتوكأ عليها وطبلته الصغيرة
بـطـة. وقطعة الجلد التى ينقر بها على الطبله، خرج وأغلق الباب وراءه،
بـدـته كل يوم رفع يده إلى جبهته جاهراً بالسلام: السلام عليكم دار قوم
بـمـين، أنتم السابقون ونحن بكم لاحقون، ثم سار بين المقابر المرصوصة
بـهـها القصيرة، متوقفاً أمام كل مقبرة قارئاً الفاتحة على أهلها ذاكراً
بـمـ ساكنيها، فكر: اليوم تكون من أهل التراب يا واد يا عبد الرسول،
بـين طويلة مرت هنا وأنت لا تدرى، لا عيل ولا تيل، ولا أهل ولا صحبة
بـا يحزنون، كل ما تفعله أن تزعق كما الغراب النوحى حتى تشاءمت
بـس منك، فهربت إلى هنا، حيث الصمت سيد كل شىء، لا أحد يسأل
بـا إذا حدثت مصيبة، ساعتها، يجيئون إليك، يوقظونك فى أية لحظة،
بـتأخذ عدتك وترحل، تجوب القرى والبلاد، تنشر الخبر فى كل مكان
بـبنتى الجميع لوداع الفقيد، وترجع أنت إلى مقابرِك فى صمت، ياه، زمن
بـريب.

لما انتهى من مروره اليومي، اتجه إلى البلد وهو يجرجر رجليه جراً، وفر القلب كانت رجفة، كيف يخبر أهل البلد، وبأى طريقة يخبرهم ؟ هل يصفونه بالجنون، أم أنهم سيصدقونه ؟ هو الذى لم يكذب فى حياته قط. فى الزمن الفائت، ما كان يخرج من التراب إلا لسبب، وكان ظهوره يعنى سماع خبر موت أحد، اليوم سوف يخرج للمرة الأخيرة، واليوم هو الوحيد العارف بمن سينعيه، لن يخبر أحداً بما رآه فى منامه، هو على يقين مم رآه، فالرؤيا كانت واضحة، وهى تعنيه هو دون غيره، وحدث نفسه: طباخ السم يدوقه. وأصبح الآن وسط البيوت، وكانت الشمس قد طلعت الآن فبان الحوارى الطينية الضيقة والمنداة ببخار الصبح، وبدأ الفلاحون يخرجون بالبهايم فى طريقهم إلى الغيطان، حين رأوه واقفاً طويلاً بجلبابه المقطع وشعره الأبيض المنكوش ولحيته التى تغطى رقبتة، كان منظره مهيباً، ووقف الجميع ينتظرون خبر موت أحد أهل البلد، وكان واقفاً لا يعرف من أين يبدأ، ولم تدم حالة تردده، فقد وضع الطبله فى يده، وشبك عصاه فى ذراعه، وأمسك الجلدة بين أصابعه، وبدأ ينقر نقرته المميزة التى يعرفونها، والتى تبدأ بنقرة واحدة، ثم أربع نقرات متتالية هكذا: تم. تتم تم تم، وبدأ صوته ضعيفاً ومبحوحاً. وأصبح الآن عالياً صاخباً: البقاء لله وحده، يا أهل البلد، إنا لله وإنا إليه راجعون، عبد الرسول النجاب يموت اليوم، الحاضر يعلم الغائب، ولا أحد يمشى لكم فى مكروه. وكما توقع، فقد التفوا حوله أول الأمر، ثم ضحكوا وتفرقوا، وحسبوه مجنوناً، لكنه لم يتوقف، مر على بيوت البلد كلها بيتاً بيتاً، وبدأ العيال يلتفون حوله ويمشون خلفه، يصفقون ويشيرون إليه: المجنون أهو. وكثيراً ما أوقفه الناس ليسألوه: مالك يا عم عبد الرسول بعد الشر عنك. لكنه ما كان يجيب، فقط يضرب على طبلته زاعماً وكأنه لا يرى أحداً أمامه، حتى انتهى من جولته فاستدار عائداً، وفكر أن أحداً فى البلد كلها لا يصلح للقيام بما كان يقوم به، وأن عليهم أن يبحثوا منذ الآن، وواجهته مشكلة لم

يُفكر فيها من قبل، أين سيدفنونه، التراب تملكها عائلات البلد، وكل عائلة لها تربها، وهو غريب وليس له عائلة، ولا توجد تراب للغرباء، وهز رأسه، سيتصرفون على أية حال، وصل الآن إلى المقابر حيث يسكن، فتح باب نعشة وأسندته بحجر، وأمام الباب حفر حفرة صغيرة، لف الطيلة والجلدة في خرقة قديمة ووضعها في الحفرة، ردمها ودب عليها بكف يده حتى تساوت بالأرض، وجلس على باب النعشة وفرد رجليه أمامه، واستند بظهره نحائط البوص، وبجانبه وضع عصاه، وانتظر، وأمامه كانت ترتفع شواهد تبور، لأمعة في شمس منتصف النهار.

العاشق والمعشوق

العاشق والمعشوق

إلى فاتن...

لا يكتمل العشق إلا إذا
قال العاشق للمعشوق:
يا أنا..

«السرى السقطى»

حكاية الأميرة وكيف تم عشقها على الوصف وما جرى بعد ذلك من غريب الكلام وأمور العشق والغرام

كان هذا العنوان هو أول ما تبدي لى من صفحة الغلاف الأحمر الباهت تكل مكتوباً بخط منمنم جميل، أحسست بخفق من هو مقبل على جلل، جن لا وأنا أبحث عن هذا المخطوط منذ مدة، لم أعرف صاحب محل بيع الكتب إلا وسألت عنه. ولم أسمع عن سوق إلا وذهبت إليه. جلت فى أسواق كلها أبحث وأتقصى؛ علنى أعر على خبره، أو أجد من يبيل ريقى، جتمنتنى، يقول لى إن هذا المصنف. رآه ذات مرة أو سمع عنه، أو أنه حزين عند أحد الوراقين، إنما كان سؤالى يواجه بإنكار شديد، ونفى لا يرث الشك فى أن هذا المخطوط له وجوده الفعلى. ورغم ذلك، كان حساسى بوجوده يزداد كلما زاد الإنكار له، وأننى سوف أجده، وأنه فى حضارى، يترقبنى مثلما أترقبه، يبحث عنى مثلما أبحث عنه، يتشوق - ييتى ويقفو خطوى، يترصدنى أينما حللت ويعد على أنفاسى، حصرنى، إذا اقتربت شبرا من أحد أماكنه الخفية اقترب منى ذراعاً، سد مشبت شوطاً قاصداً السعى عبر أحد أزمنته المخبأة فى بطون - زنت أجده أتانى هرولة معلنا عن أحد تجلياته لى، إشارة يخصنى بها، سد ما شجعنى على استكمال رحلة بحثى عنه، وفى يقينى أننى واجده سد طال البحث. مهما نأت المسافات بينى وبينه. مهما ضللت من باعة سب.. وتجار المخطوطات الذين ما إن أقرب من أحدهم. وما إن أنتهى

من إلقاء سؤالي عليه، حتى ينظر إلى نظرة من يتحقق من ألا يكون بي مس ، ثم يهز رأسه نافياً ومشيحاً عنى، هل كانوا صادقين فى نفيه وجوده؟

قرأت عنه فى المدونات القديمة، لم يوجد بعد من لم يتحدث عنه ويقتبس من متونه، رغم إجماع بأن أحداً لم يره رؤية، عين فكيف سرى بينهم كالأثير دون أن يرى؟ وكيف أصبح له هذا الوجود الكثيف؟ يرجعون إلى متونة المنثورة فى بطون المدونات بروايات مختلفة ومعان متفق عليها لا خلاف فى الجوهر، كأنه أزلى، إحدى الروايات تقول إنه ظهر مع بداية الخلق، وإنه يظهر مع بداية كل قرن، وكما يظهر يختفى فجأة كأن لم يوجد من قبل، أحد الرحالة كتب رسالة فى كيفية عثوره عليه فى إحدى جولاته فى أقطاب الدنيا الأربعة أسماها «القول المبسوط فى الرد على من أنكر بوجود المخطوط» الرحالة حكايته متداولة فى المدونات، إصابته بالسقم بعد الانتهاء من رسالته، رجوعه من رحلته محمولاً، حيرة علماء زمنه التى لازمته حتى فارق اختفاء المخطوط والرسالة بعد موته.

وقيل إن أحد ملوك حمير العظام عثر على بعض النثرات، وضعها فى خزائنه. أقام عليها حراسة مشددة. لكنه توجس من اختفائها، بنى مدينة قيل إنها إرم ذات العماد نفسها، بنيت خصيصاً لها. لا أحد غيره يدخلها. أفرد لها قاعة صنعت أبوابها من الذهب الخالص المرصع بالجوهر، أقام على باب المدينة رصداً يخبر بقدوم غريب على مسافة ثلاثة أيام، ترك أمور الملك والحكم وانشغل بقراءتها، أنسته جواريه اللاتى قيل إن عددهن تجاوز أيام السنة الكبيسة، وإن أقلهن جمالاً تشبه القمر فى ليلة تامة، حبس نفسه داخل القاعة حراسه اطلعوا على أحواله الغامضة، أخذوا يتسللون حتى اقتربوا من محل مكثه، أيقنوا أن مسا أصابه، يتحدث دائماً إلى امرأة لا أحد غيره يراها، خافوا من تسرب أحد دون علمهم، بحثوا

غلبوا دون جدوى، لكن ما يروونه ويسمعونه يزيدهم يقيناً بوجود امرأة
سعد. يسمعون في الليل أصوات ممارسة العشق، كتموا الأمر حتى دخلوا
نبيه ذات صباح وكان قد فارق الحياة نائماً على جنبه اليمين ممسكاً قلبه
بيده. بحثوا عن نثرات المخطوط، لكنها كانت اختفت، أين ذهبت؟ لا أحد
يعلم.

قيل إنه صنَّع بالحكمة وعلوم الأقلام، صفحاته صنعت من سم قاتل،
يسل إلى الدم بمجرد النظر إلى الكلام المكتوب بماء الزعفران مخلوطاً
بسم المستخلص من حيوان نادر الوجود لا يجلب إلا من إقليم غير
معروف بالهند، لا يعرف تربياقه إلا صانعه، ما أطلع عليه أحد وصلح
حياة مرة أخرى، هكذا ملأت أخباره المدونات القديمة، ما أشيع عنه
حده شؤماً على مقتنيه، ظهوره فجأة في بداية كل قرن علامة على فقد
بعض ما يختفئ. ما يحويه المخطوط ما زال مبهماً رغم مرور قرون على
تحريره، لم يمهل أحد المطلعين عليه بالحديث عنه رواية تنف من متونه،
نثرات من فيضه وألطافه، لمح من نوادره وحكاياته، قيل إن به خصيصة
تحص بها وحده، لم توجد في كتاب غيره، بدايته مثل منتصفه، نهايته
مثل التجدد باستمرار صفته الملازمة له، كذا قدرته على ألا ينتهي رغم
تغير حجمه، ظاهره ينبئ كباطنه، المخفى منه أكثر من المعلن، والمعلن منه
كشئ، لا ينبئ، يغرى بالضلال عن غاياته، الدخول إلى فخاخ مسالكه
بهمية ذلك هو سره.

يتبع المخطوط في تسع وأربعين ورقة من حجم الثمن، مسطرتها سبعة
ضرب في كل ورقة، وسبع كلمات في كل سطر. للرقم سبعة دلالات شتى
في هذا المخطوط، يكون كل مفرداته، أفرد له بعض المؤرخين مصنفات
تحتسب كل ما يحمل الرقم بدءاً من عدد صفحاته الذي هو حاصل ضرب
سبعة في سبعة، وانتهاء بما يستدعيه الرقم في الذاكرة، سمي عند البعض

بكتاب السبعة. البعض الآخر استخلص موضوع المخطوط من خلال الرقم. ساق حججا وبراهين تدلل على صحة ما ذهب إليه، استدعى قصة الخلق التي حدثت كما جاءت في المدونات القديمة في سبعة أيام، أطلق عليه كتاب الدهر.

أحد كتاب الحكايات حكى قصة قال إن هي إلا قصة المخطوط، عن ملك كان لا ينجب سوى فتيات، وقد أنجب منهن سبعاً وله أخ لا ينجب سوى ذكور أنجب هو أيضاً سبعة، وكان أخو الملك صاحب الذكور يعاير أخاه الملك كلما رآه، أطلق عليه لقباً عرف به. صاحب السبع ترحات، وكان فخوراً ومزهواً بإنجاب السبعة ذكور حتى ولو لم يكن ملكاً كأخيه، اغتم الملك جداً حتى أنه زهد في ملكه، فتياته رأين ذلك ففكرن ودبرن أعلن على الملأ تحديهن لأولاد عمهن الذكور، وأنهن سوف يثبتن بالدليل العملى فضل الإناث على الذكور، تجهزن بسفنهن وبدأت رحلة التحدى، خلفهن انطلقت سفن أبناء عمهن، أربع عشرة سفينة غادرت المملكة في رحلة الأهوال، خاضوا في البحار السبعة وغزوا المدن السبع صاحبة الحصون المنيعه، استغرقت الرحلة سبعة أيام، وقوع الأمراء السبعة الذكور في أسر حيوان المينود ذى الرؤوس السبعة، تخليص بنات عمهم لهم بعد تغليهن على المينود وقتله، عودة الفتيات منتصرات في اليوم السابع من تاريخ إبحارهن، سرور الملك بهن وإقامة التعاليق والزينات سبعة أيام في أنحاء المملكة.

هناك أسماء أخرى إذا ذكرت فتعنيه هو تحديداً، منها كتاب الأزل، ومنها كتاب الزمن، والكتاب الحى من ضمن أسمائه أيضاً.

أحد المعماريين أفرد كتاباً عن فن العمارة كما جاء في المخطوط، أضاف ملحفاً مزوداً بالرسوم التوضيحية والخرائط، قال إن المخطوط يستخدم معماراً معقداً عرف في حضارات سابقة بادت، وإن به لمسات من فنون أخرى غير العمارة، وإنه بنى على هيئة متاهة هائلة يفضى بعضها

عض، لا يوجد فناء، بل ديمومة مستمرة بلا نهاية، قال إن ذلك يظهر
نحاً في أشكال المدن والشوارع والحارات والأزقة والعطفات والمنحنيات
نقية وتداخل الأشكال في بعضها البعض، استخدام فن التعاشيق
سيع. وإن العاشق والمعشوق هو قانون بنائه، فلا توجد فراغات، بل توالد
بلا انقطاع، قال إنه لا يدري أيهما وجد أولاً: المدن التي شيدت كما
نخطوط، وبالتالي فالمخطوط هو وصف لهذه المدن، أم أن المخطوط
نذى أنشئت على غراره المدن؟

نعنوان المنقوش على الغلاف مضلل، لا يفصح عما بداخله كأحد
رديب الوهمية التي حفرها الفراغنة لتضليل من يبحث عن الكنز.
غزة الأولى للعنوان تستدعي إحدى المدونات الشهيرة «ألف ليلة وليلة»
م جعل البعض يصنفه ضمن كتب الحكايات وهناك عدة مقالات تعقد
غزنة بين المصنفين، فكرة لا نهائية الزمن وتحدي الفناء، الصفحة الأولى
ع الغلاف عليها نفس العنوان الموجود على الغلاف مكتوباً بالخط الثلث
شكل على هيئة هرم مقلوب، على جانبي الصفحة هوامش وتعليقات
نون باهتة وخطوط مختلفة، بعض التعليقات عليها أسماء أصحابها،
عض الآخر غير مذيّل بإمضاء، في صدر الصفحة وتحت العنوان تعليق
خط مضطرب أغلب الظن أنه كتب على عجاله، ريشته رفيعة وحبره
حمر: قتلنى هذا الكتاب اللعين، لا يوجد تحته إمضاء، تعليق آخر خطه
قرب إلى الأول، لكن لونه أسود مغبر: تورطت ولا سبيل إلى الرجوع، فلا
حول ولا قوة إلا بالله. في الجهة الشمال من الصفحة كتب أحدهم نصيحة
وضع تحتها خطين. لا تتقدم حتى لا تتدم حيث لا ينفع الندم التوقيع
تب على شكل طرة: المقتول بحبكم.

أصابتني رجفة وأنا أنقل عيني بين الهوامش والتعليقات المختلفة هناك
جماع على خطورة الدنو. ما يوجد بداخله ما زال سرا، لم يمهل أحد

قرائه للبوح عما قرأه، كأنهم دخلوا سكة لا رجوع منها، فلا إشارة تنير الحلكة، بل حديث مبهم عن مجهول لأبد أن أعرفه أنا وحدى، اعترانى خوف خوض التجربة الأولى وأنا أقلب صفحاته بين أصابعى، بينما أخذت دقائق قلبى تملو علواً كبيراً .

حدث قديماً جداً . فى إحدى الممالك القديمة الواقعة

فى قلب الأرض القديمة المباركة من الرب إله كل

شء أن ولدت أميرة كما لم يولد مثلها من قبل

ومن بعد، فلا أحد يشبهها، متفردة هى فى كل

شء حتى فى اسميها المعلن والخفى

ما نقص شء فى الكون إلا واكتمل فيها، إنك لا تستطيع

التطلع إلى هذا الجمال، لأنك لن تقوى على

الصمود أمامه، وما من أحد جرؤ على النظر إليها

إلا من وراء حجب. ولا تستطيع الكلمات وصف

سيده الدنيا، فالكلمات تجسده لما هو موجود. أما

هى، فلا يوجد مثلها شء، فكيف توصف وهى

الأصل والمثال. وأنت أيها العاقل الفطن، يا من تقرأ

هذا القول الآن لا تتعلق بالكلمات، فالكلمات ما

هى إلا تحصيل حاصل لما قد حدث، أما ما سوف

يحدث فأنت وحدك صانعه. إن العبرة بما بين

السطور. فما خفى منها كان عظيماً، وهو

نرتجى والمراد فلتنظر إلى أبعد من تحت قدميك

ن استطعت . وأنت عليه لقادر . ولتبحث عن

ن جوهر النفيس إن كانت نفسك ذكية ومن الآن

سوف يصبح هذا الكتاب . كتابك أنت الذى

يكتب أمام عينيك . فهو منك وإليك فانتبه .

وضعت المخطوط بجانبى وقد تملكنتى دهشة مما قرأت فلا شيء
— بخطورة، إن هى إلا حكاية يوجد ما هو أفضل منها فى كتب
حكيات، فما الخطورة إذن فى هذا الاستهلال العادى؟ وما الذى يمكن
— تحبئه الكلمات المعلنه؟ السر الذى ما عرفه أحد إلا وفارق، هل يكمن
— فى تلك المخلوقة الفريدة التى أطلق عليها اسم «الأميرة؟ وهل توجد من
— فى يمثل هذه الأوصاف التامة بين البشر؟ هو لم يذكر إنها إنسية . فهل
نرى غير ذلك؟

كن على أن أقرر الآن ما إن كنت سأستمر فى القراءة حتى النهاية، أم
نحسها سيرة وأريح نفسى من التوتر غير المبرر، ربما كان كل ذلك مجرد
— ح ثقيل، كذبة اتفق عليها الجميع على مدار الأزمنة، هل هذا ممكن؟
— يد لن أخسر شيئاً إذا أكملت ما تبقى، فقد يطلع ظنى فى غير محله .
— يد كانت هناك إشارات خفية لم أثبتها بعد، شفرة خاصة به وحده
بى أمامى سوى حلها . معرفة مفاتيحها، ربما ..

لأميرة الجميلة سمع عنها الجميع فطمعوا فى

متلاكها، سيدة نساء العالمين تأملت كثيرا من أجل

ذلك هى التى أرادت أن تحيا حرة تسبح فى بحر

عذريتها الأبدية . لماذا لا يتركونها تشرق كل صباح

مجللة ببهاؤها الخاص، دعوا فيض أنوثتها يفمر
الجميع بقبس نوراني لا يغيض أبد الدهر، ها هي
تبت شكواها الآن. تعلن عن نفسها بحضورها
الأخاذ، تتكلم بلسانها هي دون وساطة أحد،
وتحدث حديث الأمم الغابرة، تروى أساطير
الأولين، هي التي رأت كل شيء وسمعت ما لم
تسمعه أذن قط. فمها المزود بالتعاوين ينطق الآن،
سرى ما عرفه سواك ونجا من محنة معرفته، نعم
يا من تقرأ الآن. افهم ما أقول، فها أنا أقدم لك
نفسى، لكن اسمى لا أعرفه، لم أعد أتذكره تلك
هي مصيبتى، أنت فقط من يستطيع البحث عنه.
والعثور عليه، بحثت عنك كثيرا حتى وجدتك،
كنت أنتظرك، وضعت في طريقك كل إشاراتي
لتستدل على لنتلقى أنا وأنت وحدنا، لأبث لك
سرى الذى لا يعرفه أحد، لقد دب في جسدى
الفناء لما فقدت اسمى. أنا التى عشت من السنين
أكثر مما تتخيل، إن جسدى يتلاشى الآن وروحى
تنطفئ وقد اخترتك لى لتلم أشلاى وتعيد لى
اسمى، فأنا موعودة لك، وأنت لى مثلما أنا لك،
باسمى سوف أهيك نفسى، أمنحك كنوزى التى لم

عظها أحدا سواك، فهل أنت فارسي المرتقب، هل
تقدر على حمل أمانتي لك؟ إن رأيت في نفسك
ذئبك عدنى ليطمئن قلبي.

هل ما حدث لى الآن قد حدث بالفعل؟ أم أن إيماني النظر فى الكتب
غريمة أصابنى بالخبل كما كان يقول أبى كلما دخل على حجرتى
عجذنى عاكفاً عليها؟ وهل كان صوتى هذا الذى سمعته يتردد فى فضاء
حجرة؟ أم هى تخيلاتى التى تلازمنى دوماً. لقد سمعت نفسى أصرخ
عوت عالٍ: أعدك أيتها الأميرة فاطمئنى لكن ما حدث بعد ذلك كان
عجب، فقد رأيت ماء ساخنا يقطر من بين السطور والكلمات فزعت وقد
عابنى خوف على إتلاف المخطوط، بسرعة مسحت القطرات الطافرة
غطعة قماش نظيفة. لست دائماً حتى يكون ما حدث أمامى حلم. كان
قرب التفاسير أن يدى القابضة على المخطوط تندت بالعرق. ربما كان
هذا التفسير هو الأقرب إلى العقل، لكن شيئاً ما غامضاً شدنى الآن بقوة
نى حفنة الأوراق التى فى يدى، ربما فى تلك اللغة ذات النبيرة الأمرة
بـإشاراتها الملغزة وربما كان الترقب فى استعجال ما سوف تسفر عنه
نصفحات الباقية. إن عالمى قد بدأ يتلاشى كلما توغلت فى القراءة، لقد
بدأ شىء ما خفى وساحر يشدنى إلى هناك. ربما وإلى الأبد..

الآن اطمأن قلبي، كنت على ثقة من أنك رجلى
الذى أبحث عنه. وأنتك سوف تعدنى بتنفيذ تلك
المهمة الصعبة لقد امتدت يدك الحانية لتمسح
دموعى المتساقطة. فكم أنت لطيف هل لازلت فى
شك من إنك أنت الذى أتوجه إليه بهذه الكلمات
الآن. فاعلم أيها العزيز أن المخطوط هو: أنا..

وأنت.. الآن فقط

إن ما يحدث أمامى لا يستطيع عاقل تصديقه، فكل ما أفكر فيه أجده مكتوباً أمامى، حتى حيرتى وأسئلتى، أفكارى التى تولد توا وتلك التى لم أفكر فيها بعد، هل سمعت الأميرة صيحتى وأنا أعدها بالبحث عن اسمها؟ وهل كان الماء المتساقط بين سطور المخطوط دموعها حقاً؟ كيف يتلاشى فجأة الحد الفاصل بين عالمين مختلفين؟ أياكون هذا هو سر المخطوط بدأ يعلن عن نفسه؟ وكيف أعرف معرفة لا لبس فيها أن هذا الكلام موجه لى تحديداً، يقصدنى دون غيرى، ولماذا أنا من دون الخلق؟ لقد بدأ المخطوط يصبح مرعباً حقاً، فكل ما جاء بخاطرى قرأته مكتوباً أمامى.

ألم تفهم بعد؟ ألا زلت فى شك من أمرى؟

أليس هذا هو اسمك؟

انتفضت بحركة مفاجئة فوق المخطوط من يدي، فقد قرأت اسمى مكتوباً ما من شك فى هذا، كان الاسم رباعياً، لأحد غيرى يحمل هذا الاسم، كأن المخطوط تعمد كتابته هكذا حتى لا يحدث التباس، أمسكته مرة ثانية فانفتح على اسمى الذى أخذت أحملق فيه، فالذى لا يعرفه أحد، أنه كان اسمى المخفى.

كيف عرفت الأميرة هذا الاسم؟

انظر إلى السطور التالية تعرف إجابة سؤالك

كانت حكايتى كلها أمامى الآن، ما أعرفه وما لا أعرفه، رأيت نفسى وقد انكشف سجلي، ما حدث بينى وبين نفسى؛ وبينى وبين الآخرين، أسرارى التى لم أطلع عليها أحداً، مكامنى وجوارحى، إشاراتى، مهمماتى، عاداتى، أوقات سعدى ونحسى، ما يظهر على ملامحى من أسى مبهم لا

من مصدره، شروذاتي وشطحاتي، ما كان مجرد أفكار عابرة، ما هممت
بـ ولم أفعله، أحلامى التى ما تحققت، انكساراتى وهزائى، دموع
تـ. ولوعة على فراق أحبة، رائحة يوم جمعة صباحاً حيث اللمة بين
ـ ولأم والإخوة على إفطار.

نظر إلى

تمت السطور وتكومت وأخذت ترسم ظلالاً وأشكالاً وللمحة خاطفة
يتـ. كانت تنظر لى، وشعرت ببهر شعاع عينيها وشيء ينبثق داخلى،
ـ غمرا من نور يغمر قلبى، وأخذت روحى تتسحب منى وتروح إليها
:سمعت صوتاً ليس كمثله صوت، كان هسيساً له نبر موسيقى موقعا
على أنغام كونية كامنة لم تسمع من قبل:

لأن عرفتنى فلا حجب بيننا، ما استطاع غيرك

ننظر إلى وسلم، فأنا كل ما كان ويكون وسيكون.

وما من بشر فان رفع عنى رداى بعد،

ومن الآن، فلا سبيل إلى التراجع فاذهب إلى شيخ الجبل،

فهو ينتظرك وهو دليلك فى رحلة المتية.

شعرت بشفتين رطبتين تحيطان على شفتى تمسهما مساً لينا حتى ذبت
من رقتهما، وعذوبة طعمهما استقرت فى قلبى، وغمرنى عطر فواح سوف
أحمل رائحته أينما حللت، فكأنها امتزجت بنسيجى، أستحضرها كلما
شعرت بوحشة فى دلجة، أو حنين إليها فى وحدة هى التى ليس كمثله
مرأة بين نساء الدنيا. لقد نظرت إلى نظرة واحدة فقط، فما عاد القلب
نسيرته الأولى، وما استمر خفوقه إلا لها وبها، ولم تعد لى غاية فى العيش
إلا بقصد الاجتماع بها، التزود بشذا عطرها، أرنو إلى وجهها مرة أخرى
ولعلى أفارق بعدها فلا بهم.

فى مسعاك حياة لى ولك فلتبدأ بالهجرة صوبى،

لم اسمى فأحيا من جديد .

من أين تجيئنى القدرة على الرحيل صوب مجهول يتجهمنى وأنا الذى
استقر نور محبتك فى القلب فأوهنه، اختصنى بأية تشد حيلى، تقونى
وتقوتنى، تعيننى على المشاق .

آيتك عندى أن أمنحك وجهى لترانى فيمن تقابله،

أمنحك سمعى وبصرى فتسمع بأذنى وترى بعينى،

يقترب سرى من سرك وأكون فى مسرى دمائك

أن يكتمل العشق ويكون الواحد منا هو العاشق

والمعشوق فتقول لى وأقول لك يا أنا، والآن

أطلعك على سرائرى وأقودك عبر دهااليزى،

لتدخل إلى متاهتى، أقص عليك قصة كل شىء،

أحكى لك حكاية لا تنتهى حتى تبدأ من مكان آخر

لا يعرفه سوى، كان يا ما كان، وكان كأن لم

يكن، هكذا تبدأ كل الحكايات، وهكذا أنت تكون

فى قلب الحكاية .

كم مر على من زمن وأنا جالس ماذا رقبتي محملاً فى المخطوط،
سطوره لا تكاد تنتهى حتى تبدأ بداية أخرى، حكاية تبدأ، تلد حكاية
وحكايات، خيوطاً تمتد وتتشعب كعناكب عملاقة تمد حباثلها فتحثوى
الزمان والمكان . الماضى والحاضر، ما حدث وما سوف يحدث، حيوانات

عبر ونباتات وبشر، أقبية وممرات وسرايب ومدائن. متاهة هائلة لا
خرج منها إلا من عصم، أزمنة موغلة وموحشة، وأخرى أنية ليس بيني
بإلا مسافة طرفة عين، حيوات وأعمار مرت كأن لم تكن من قبل،
بيروزة دائمة وأبد لا ينتهي، وأنا الذي كشف عنى غطائي الآن أشعر
بالتحول من حال إلى حال، فما عدت كما كنت قبل جلوسى بين
مخطوط، فكأنى أنشأ مرة أخرى من جديد، وكأنى كل ما كان ويكون
يكون، هاهو سريرى أراه وقد نبت له جناحان طائرا بي فى سماء
حجرة صاعداً إلى الجو الأعلى وأرى الدنيا من تحتى كأجمل ما تكون
غير الذى أعرف لغوه يلتم من حولى، النجوم تتدلى لتدنو منى فتتير
رقتى، وينشق القمر إلى نصفين، نصف لى، ونصف لها، أنغام كونية
حجلة تزفنى وتزفها، وهى التى توحدت بالزرقة الشاهقة ترنو إلى من
ب قلبه عشقا من قطع أسباب وجوده ليصل إليها، يربط حباله بحبالها،
هنا ياسيدة نساء جنسك فهل تسمعين ندائى، وهل تنظرين عروجى
حزك.

هل تدرك الآن لم اخترتك؟ لأنك مثلى، وأنت منى

مثلما أنا منك، وأنت الحامل حكايات زمنه

القابض عليها قبضة على الجمر، هل تدرك المعنى

من حكاياتك التى حملتها على ظهرك؟ أينما كنت

سوف أحيا مرة أخرى، فامض الآن، واجعل

دليلك قلبك الخافق بالحكايات. استحضرها كلما

شعرت بوحشة طريقك، تمثلها إذا أحلكتك

الليالى، فسوف تجدنى فى كل الحكايات. فأنا فى

قلبك، وأنا جوهرك فلا تضيعنى، وأبدأ رحلتك
وحذار أن تنسى ما سوف أملكه عليك من
وصاياى. لا تكذب. فكذبك يقتلنى أخلص
لمحبك يخلص لك ويجعلك سيداً فى قلبه لا تخن
من أمنك على ماله وعرضه فخيانتك تقتلنى.
وقتك سيف إن لم تقطعه قطعك فخذ من وقت
لهوك كما تأخذ لجدك كل بمقدار، الآن أكملت
لك وصاياى واطمأن قلبى على من اختاره فلك
منى السلام حتى تلقانى.

هل كنت موقناً من اختفاء المخطوط فى لحظة كما ظهر؟ وهل كان هذا
سبب عكوفى على قراءته مرة ومرة ومرات حتى أحفظه فى قلبى.
إشارات، كلماته الظاهرة وتلك التى تومىء دون تصريح، موقع هذه الجملة
من السطر. وموقع السطر من الصفحة، وموقع الصفحة من النص كله،
تبدلاته فى كل قراءة أقرأها، حكايته التى لا تنتهى، ما كان يكتب منه
أمامى، رؤاى وأفكارى واستفساراتى فهل كان اختفاؤه ضرورياً؟ هل هى
علامة بأقول زمنى؟ أتراه سوف يظهر فى زمن آخر لغيرى؟ أم أنها العلامة
لبداية سعى صوبها، حذى إليها تلمس طرقها ومسالكها، الدخول فى
متهاتها؟

تذكرت من قرأوا المخطوط قبلى وفارقوا، كيف جاءهم الموت؟ هل كان
حالهم مثلى؟ هل أصابتهم صدمة ضياعه بالسكتة/ هل استيقظ أحدهم
بعد سبع ليال من السهر مع صاحبه المخطوط دون إغماصة جفن، دون
أخذ نفس، أو التصبر ببضع لقيمات وجرعة ماء تحفظ من العطب ليفيقوا

على اختفائه مثلما حدث معي؟ هل أحسوا بالخواء بعد ضياع عوالم ومدن
وبشر وسماوات وأرض؟ هل بدأوا سعيهم صوبها أم مكثوا في أماكنهم
حتى أتاهم المفرق الذي لا يرحم، من هو متريص بالمصائر، فسبحان الحي
نذى لا يموت صاحب الملك والملكوت.

* * *

حكاية شيخ الجبل والتابوت والإخوة الثلاثة وكيف فرقت بينهم تصارييف الزمان

شيخ الجبل

كم من الوقت مضى، وأنا أجر جسدى جرّاً، صاعداً هابطاً فى طريق لا رجعة منها، أتقدم صوبه بوهن يشده ويوجهه حين لرؤياه، اقتراب جمع شملى بمحبوبى، من وقع فى أسر لحظها نبض قلبى، من أصبحت أنفاسى وقفا عليها، ورغم يقينى أنها المرة الأولى لى فى هذا المكان إلا أن الطريق أعرفها جيداً، فكأننى قطعها آلاف المرات، لا دهشة مما أراه حولى، ربما عشت كل ذلك فى زمن آخر، التفاصيل الدقيقة لكل شىء، منذ أن انشق الحائط المواجه لسريرى لحظة كنت أفكر فى طريقة الوصول إليه، الممر المظلم الضيق الذى وجهى خلفه، سيرى الحثيث صوب الظلام الناصع، نزولى درجات السلم الذى بدا أن لا نهاية له، فهل نزلت إلى قرار الأرض السابعة؟ وقوفى فى قبو متسع تتفرع منه عدة ممرات، فأى الممرات أسلكها؟ أيها يؤدى إلى ما أبحث عنه؟ اختيارى أولها، كان طويلاً مظلماً وضيقتاً، هل للزمن وجود هنا؟ هل يوجد ليل أو نهار؟ وإلام يفضى؟ كلما توغلت بدا بلا مدى، حتى أوشكت على يأس لم يخرجنى منه إلا ظهور ممر آخر أكثر اتساعاً من سابقه، أسلمنى بدوره إلى ممر وممر وممرات. متاهة هائلة أفضت بى إلى القبو الذى بدأ سعياً منه. تلفت بحثاً عن طرق أخرى أيمم وجهى شطرها فما وجدت، هل فاجأتنى لحظة حبوط فرجعت لحظتها أبحث عن مخرج مما أنا فيه، بحثى عن حائط حجرتى

غزيرى. ولوجى منه مرة ثانية واللواذ بحجرتى بين كتبى، وأفضها سيرة
- - ما دخلك شر، هل وجدت هذا الحائط؟ أم أنه لم يكن موجوداً
- فزُبدأ بداية أخرى، نجاتى من المتاهة وخروجى إلى الأرض البراج،
سيرة الجبل الشاهق، معرفتى بمساربه وطرقه الوعرة، مواقع قدمى
حزيرة على الصخور الضخمة قبل مجيئى، ترقبى لعلامات أعرفها
ب- شجرة سوف تظهر هناك بعد انحناء طريق وحيدة متوحدة خضراء
- عة. من أين يجيئها الماء؟ وكيف خرجت من بين صخرتين؟ شق فى
نصف الجبل سوف يخرج منه ثعبان يترصدنى فاتحاً فمه ليلتلعنى ألقى
ب- تعزيمة الرفاعية وأن حد الله بينى وبينك فلا تؤذنى ولا أؤذيك
سحرف بجناحيه طائراً فى الهواء بعض الماء الأسن وقد حفر لنفسه
حزى بين أخدودين، وشق عميق أعلى الجبل يفضى إلى مغارة هى
سرى ومقصدى، هل قرأت عن كل ذلك فى المخطوط؟ هل أوحى إلى
سيرة بطرق عبورى إليها؟

من بعيد بدا لى الشق لا يكاد يبين، لما اقتربت أظهر لى نفسه، يتسع
نخص واحد نحيف، على قدر قامتى كان ارتفاعه، ولجت منه فخضت
- ضلمة، ارتجفت ودخلت فى بعضى وأنا أتحسس بأصابعى الجدار
عخرى الرخو حين انطلق فى وجهى صارخاً وطار بعيداً، إلى أن انتهيت
- - آخر أكثر اتساعاً، كان الضوء الواهى المنبعث من نهايته إشارتى
تقدم صوبه، أخذت أتقدم حتى انتهى الممر فرأيت نفسى فى قاعة
سيحة، غشينى ضوء غامر ومفاجئ، أغمضت عينى وفتحتهما عدة
سيرة حتى اعتادتا عليه

حين ذاك لمحته، كان جالساً فى منتصف القاعة على الأرض، وبدا أنه
- يشعر بوجودى، خلفه، لمحت تابوتاً يسبح فى هالة من الضوء، وقفت
سيرة قبل أن أرى اختلاجة رموشه، كان وجهه نحاسياً، بينما لحيته

استلقت على صدره بطراوة كرحى عملاقة، شعر رأسه الأبيض المصفر منطرح على كتفيه وخلف ظهره متموجاً ومتشبكاً مع لحيته، بينما جلبابه الأبيض الناصع الموشى انحسر قليلاً عن ساقيه الضامرتين، تغضنت وجهه تنبئاً بأزمة مرت، وأمام قضيت، طال مكثى أمامه حتى مرت ساعة تفرق فيها قلبى حتى سال من هيبته، من هو؟ من منا يعرف الآخر؟ وهل هو من كان سعى صوبه؟ وكيف أبدأ فى الفيض، شرح سبب وقوفى بين يديه، شكايته من طرق وعرة مشيتها، دخولى فى المتاهة، وخشيتى من الضياع لولا ستر زبى.

هل سمعت صوته بعد اكتمال الوقفة أمامه؟ هل قال لى اجلس فجلست متأدباً فى خشوع ومتربحاً بين يديه على الأرض مطرقاً، أم أننى جلست هكذا دون أن يأذن لى دون إشارة منه؟ فلا شىء يدل على بقائه حياً سوى صعود صدره وهبوطه، اهتزاز شعر لحيته ورأسه كلما أخذ نفساً ورده، هل كنت منتبها لما فتح عينيه، عيناه رماديتان واسعتان حولهما بياض غامق مشرب بصفرة، بينما الشعيرات الدموية الدقيقة المحمرة بدت كشرنقة. حرك شفتيه بتمتمة خافتة ثم أخذ صوته يعلو واضحاً ورائقاً: جئت أخيراً. سكت وغاب عنى مدة ساعة حتى ظننت أنه فارق. أفاق وتنبه لما حوله مرة أخرى، أشار بيده إلى التابوت الذى خلفه، قم ياولدى وخذ نصيبك من الدنيا، ما تجده فهو حظك الذى قسم لك.

قمت متحاملاً على نفسى من شدة هزالى وضعفى، فالعشق أورثنى العلة والسقم، لما اقتربت من التابوت غشيني فيض من نوره فأغمضت عيني دون أن أقدر على فتحهما من شدة الوهج المنبعث منه، وما عدت أعرف أوله من آخره، كأنه يسبح فى لجة من النور الخالص، فتحت عيني مرة ثانية فأبصرت معاملة وتحققته جيداً؛ تابوتاً من النحاس الأصفر اللامع، عليه تصاوير لطيور مغردة. وأخرى محلقة وسباع ضارية تكاد

تنطق وتتحرك من دقة الصنعة، أبصرت موضع القفل الذى ما إن لمستته حتى انفتح فى يدي، تأملت كتابة عليه فإذا هى اسمى محفوراً، أزحت غطاء التابوت ونظرت فإذا بتابوت آخر أدق صنعة من الأول، تحسسته عسرت نعومته فى جسدى، كان من الفضة الرائقة، فلما أزحت غطاءه وجدت تابوتاً ثالثاً كاد بريقه يذهب بصرى كان من الذهب الإبريسم شغول، عليه منمنمة تمثل تصويرة لفتاة فائقة فى الحسن والجمال رقيقة منتصبية القوام ترنو إلى قلبها الذى يرزف بين يديها وهو على هيئة طائر العنقاء يخترقه سهم طائش، والفتاة تتلفت باحثة عن رشق قلبها بسهمه، بينما الطائر يحاول التحليق فى مقاومة يائسة أزحت لغطاء الذهبى وأنا أظن أنه لا نهاية لتلك التواييت فإذا بى أجد علية من حجر الألماس، بداخلها مكحلة من ياقوتة حمراء مرودها عرق زبرجد خضر، ما إن أمسكتها بين أصابعى حتى سمعت صوته الأمر: هات ما وجدت واحضر عندى.

حملتها بين أصابعى ووقفت بين يدي الشيخ الذى أشار لى بالجلوس أمامه، ثم إنه مد يده أخذ المكحلة وظل يقلبها أمام عينيه كمن يراها خيرة الأولى، ثم أنه ابتسم وقال: افتح عينيك.

أمسك رأس المرود بأصابعه وأدار اللولب فانفصل عن المكحلة وقد عنى به بعض رماد أسود له رائحة نفاذه، أمال رأسى ناحيته وأخذ يمرر مرود بين جفونى ثم أمرنى بغلقهما مدة ساعة ففعلت، كان السكون يكتمل يحيطنى، وغمرتنى سكينه، فرحت فى غفوة فرأيت فيما يرى النائم وكأنى أجلس على قمة جبل عال بواد غير ذى زرع، وإذا بوحش مثل الحجم يجيء إلى ناحيتى ويلتهمنى، وينزل الوحش من على الجبل فيمحه وحش آخر أكبر حجماً فيلتهمه، ويحط طائر عملاق على الوحش فيأخذه بين مخالبه ويطيير به إلى طبقات الجو العليا، ثم يتركه فجأة

وسط لجة من الماء فيغرق الوحش ويأكله السمك ويجيء صياد فينشر شبكته فى الماء فيصطاد السمك ويبيعه فيأكله الناس ويقضون حاجاتهم فى مكان خال، فتنبت شجرة ويأتى طائر يبنى عشه فى أعلى الشجرة، ويجيء جطابٌ ويأخذ فى قطع الشجرة ويبيع خشبها لنجار يقوم بعمل توابيت، و.....

انتبهت على صوت الشيخ يأمرنى بفتح عينيّ مسحت على وجهى براحة يدي حتى أفقت وفتحت عيني فرأيت الأميرة أمامى مكللة بجمالها الذى لا يعرف النقصان، ورنّت إلى صامتة واشتعل بريق عينيها كشهاب خاطف يعرف طريقه إلى قلبى الذى انتفض طائراً وتركنى مغشياً على.

لما تنبهت، شعرت بدوخة وغرقت فى بحر عرقى وأنا أحملق فيما حول مدهولاً فخاف الشيخ علىّ مما أنا فيه وصار يبيل شفتى بالماء ويلقمنى فى فمى سائلاً مقوتاً حتى رجع إلىّ وعيى، أخذ الشيخ يربت على جبيني ويواسيني قائلاً: أنا أعلم يا ولدى أنك رأيتها وهذه درجة لم يفز بها سواك من الأحياء، فقد نمى إلى علمى أنه ما من أحد رآها إلا وهلك من شدة هذا التجلى.

هزرت رأسى أسى وحسرة وقد اختنق صوتى بالعبرات وقلت أحدث نفسى وما الذى فى وسعى فعله. وقد أصبحت عديم النفع لا أقدر على القيام من نومتى هذه، ولا بد أننى ملاق حتفى أنا أيضاً قال الشيخ: ألا تتعجل يا ولدى. واللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين، فكل شىء بأوان، وإلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولاً وتسترد قوتك وتستطيع السير، دعنى أقص عليك قصتى وهى عبرة من العبر تكتب بالإبر على مآقى البصر. لم ينتظر الشيخ ردى عليه، وسرح ببصره فى البعيد. وأخذ يتنهد ويقول: أنا وأنتم نصلى على طه الرسول.

* * *

حكاية شيخ الجبل مع بائع الكلام

حدث الشيخ فقال: اعلم يا ولدي أننا كنا إخوة ثلاثة، وكان والدنا شيخاً عتياً، وكانت لنا تجارة عظيمة وهو المقدم على تجار المدينة. فلما انقضى حبه اقتسمت أنا وأخوأي ما تركه لنا من تجارة وأموال فجاءت كثيرة أما حزي وهما أكبر مني. فقد اشتغلا بالتجارة كوالدنا ففتح الله عليهما بركة لهما فيها، وكنت من صغري لا أحب هذه المهنة لما بها من أرقام وحسابات ومناهدة مع الزبائن. وقد أصابتنى لوثة البحث وإدمان النظر في الكتب القديمة، فعثرت ذات مرة على أحد هذه الكتب يتحدث عن مخطوط نادر الوجود، فلما فرغت من قراءته تعلق قلبي بهذا المخطوط وصرت أتقلى على الجمر من أجل وقوعه في يدي، ولكن كيف أحصل عليه وأنا لا أعرف أين أجده، ولا السكك المؤدية إليه إلى أن كنت نائماً ذات يوم، حيناً بهاتف يجيئني وأنا أسمع صوته ولا أرى صورته ويهتف قائلاً:

قم أيها الغافل اللاهي لتبحث عنها، فهي اختارتك وأنت أحد الموعددين بها فهلم إليها تجدها في انتظارك سيده نساء العالمين تقرئك السلام وتقول لك ابدأ رحلتك صوب المخطوط من هنا حتى تصل إلى الجبال التي تحيط بالدنيا كما يحيط السواد بالبياض، أو النيل بالبلاد.

فلما أفقت من نومي، حدثني قلبي بأن هذه الرؤيا صحيحة فذهبت إلى أخوي وفاتحتهما في أمر رحيلي، فأخذنا يحايلا حتى أبقى معهما وأنا لا

أستمع لكلامهما، فلما يتّسا من الحديث معى تركانى أفعل ما يحلو لى فبعث لهما نصيبى، وجمعت مالى وقسمته ثلاثة أكوام، وجعلت كل كومة فى صرة، وأخذت معى مخلّاة بها بعض الزاد والماء، واتكلت على الحى الذى لا يموت، وخرجت من البيت بعد أن تودعت منهما، واتخذت وجهتى جهة المشرق وظللت سائراً حتى تركت حدود العمار وأنا أجتهد فى مشى قاطعاً صحارى ومفازات ليس بها صريخ ابن يومين، إلى أن نفذ الزاد والماء فأوشكت على التلف ويئست من حالى، وحدثت نفسى حديث الندم الذى لا ينفع وكيف أننى تركت بيتى وأهلى وتجارى وجريت وراء الهاتف وبينما أنا كذلك وقد انقطع رجائى فى النجاة مما أنا فيه، إذ لمحت عن بعد سوراً عظيماً ينبئ عن وجود مدينة فلم أصدق نفسى وقلت لقد صور لى خيالى حبلاً للنجاة إن هى إلا تهاويم خيال، ولكنى دقت النظر فتحققت مما رأيت، عند ذلك رجع رجائى فى الدنيا مرة أخرى وقويت عزيمتى وتقدمت وأنا فى الرمق الأخير حتى وصلت عند السور، بحثت عن الباب فوجدته مغلقاً ولا يوجد خارجه أى إنسان والسور عال لا يستطيع تسلقه أحد، رجع إلى اليأس من جديد وأخذت أتلفت حولى فأبصرت حجراً بجانب السور جلست عليه ونطقت الشهادتين وبكيت نفسى وترحمت عليها. وفى تلك اللحظة سمعت صوتاً ينادى على بضاعة فكدت أكذب أذنى، ولكنى أبصرت شيخاً كبيراً بلحية بيضاء تكاد تخفى وجهه جالساً على حجر بجانب السور من الناحية الأخرى من الباب، لم أكن رأيته من قبل، جريت ناحيته وأنا غير مصدق، حتى وصلت إليه فوقعت تحت قدميه مغشياً علىّ.

لما أفقت فتحت عينى فوجدته بجانبى يمسح شفتى المتشققتين بخرقه مبللة بالماء حتى دبت فيهما الطراوة. ثم بعد ذلك قرب إناء الماء من شفتى فأخذته بيدي فى لهفة وشربت حتى ارتويت، ثم مد لى يده بتمره وضعتها فى حلقى فأحسست الشبع، وبعد أن هدأت سألته عن هذه المدينة وبابها المغلق.

— من بابها يفتح ساعة واحدة فقط في الليل أو في النهار دون ميعاد
 — عنها يعرفون ذلك وقد أغلق بابها قبل أن آتى بقليل. أما المدينة
 — كبيرة عامرة بالأسواق والناس والدواب. لم أجد ما أفعله سوى
 — فتح الباب بجانب الشيخ، وانعقد بيننا الحديث فسألته عن سر
 — خارج المدينة. وما الذي يفعله في هذا القفر وهو الشيخ الطاعن
 — سنن إلى وتنهد وقال: إن لي حكاية فهل تسمعها؟ قلت: حباً وكرامة.
 — أنحجر وجلس على الأرض فاردأ ساقيه واتكأ بكوعه على الحجر
 —

عنه أن والدي كان من الملوك والأكابر، وكانت مملكته تسمى بمملكة
 — جزر السبع لأن بها سبع جزر لا تغرب عنها الشمس من اتساعها
 — نعمة أرضها، ولم يكن سعيداً رغم ذلك لأنه لم ينجب ولداً يرث كل هذا
 — وكان قد وعد زوجته الملكة ألا يتزوج عليها مهماً حدث، واستطاع أن
 — يقسمه فلم يفكر في الزواج على الرغم من جواريه اللاتي يمتلئ
 — نحر بهن، وقد تقدم به العمر فأصبح مهموماً بالليل وبالنهار ولا يفكر
 — في شيء إلا هذا الولد الذي يجئ من صلبه ليرث ملكه وفي يوم من ذات
 — يوم. بينما الملك نائم إذ جاءه هاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه وقال
 — أيها الملك، عليك بذبح خروف وديك رومي، وأرسلهما مع جاريتين إلى
 — نعتي البحر، وقل لإحدهما أن تضع الخروف في صينية على الشاطئ
 — الأخرى تضع الديك في قارب تجده هناك، ودعهما تهتفان باسمي أنا
 — ملك البحر.

فأق الملك من نومه وهو في عجب من تلك الرؤيا التي رآها وما
 — سمعه من الهاتف فقال: أفعل ما أمرني به فلعلها تكون رؤيا صادقة ثم
 — صاح على الطباخين وأمرهم بذبح خروف وديك رومي من أحسن ما
 — يجدونه في الحظائر الملكية وأوصى الجاريتين بما تفعلانه إذا وصلتا إلى

شاطئ البحر فوضعت الجارية الأولى الخروف المشوى فى الصينية وتركته على الشط، بينما وضعت الأخرى الديك المحمر فى القارب، ثم إنهما هتفتا فى نفس واحد: اطلع يا على ياملك البحر، الملك أرسل طلبك. وبينما هما واقفتان تنتظران. رأتا الخروف والديك اختفيا وسط الأمواج التى علت وارتفعت فجأة، ثم هدأ كل شىء ورجع كما كان، ووجدتا مكان الديك والخروف رمانة وتفاحة، وسمعنا صوتاً آتياً من أعماق البحر يقول لهما: خذا هديتى إلى الملك وقولا له على ملك البحر يرسل إليك السلام ويقول لك خذ الرمانة وأعط زوجتك التفاحة، أما الرمانة فكلها أنت كلها، ودعها تأكل التفاحة، وبعد ذلك تسمى اسم الله وتطلق مدفعك فتهدم القلعة، وسوف ترزق ولداً يضحى أخى نصفه لك ونصفه لى.

فعل الملك ما أمر به على ملك البحر ومرت الأيام والليالى حتى اكتملت تسعة شهور فجاءته البشارة بأن الملكة أنجبت ولياً للعهد وهو أنا، وفرحت كل الجزائر لى وبما وهبنى الله من الصحة والجمال، وصرت لا أطلب شيئاً إلا وجدته أمامى حتى كبرت سريعاً وقد تعلمت آداب الملوك على أيدى المعلمين والمؤدبين والسباحة والرماية وركوب الخيل على أيدى أصحابها حتى فقت أقرانى ومعلمى.

وفى أحد الأيام، وكنت أتمشى على الشاطئ أنا وابن وزير أبى، فأغرانى الماء بالنزول. وما إن وضعت قدمى فى الماء حتى رأيت الموج يرتفع ويبتلعنى داخله أفقت فرأيت نفسى داخل قصر أجمل من كل القصور التى رأيتها من قبل، جدرانه معمولة من حوائط شفافة تظهر ما يحيط بها من ماء وأسماك وأصداف وكل ما يوجد فى البحر، فأخذت أتجول داخله وأنا مبهور من كثرة ما أشاهده من عجائب، وفجأة ظهر أمامى شاب وسيم عليه بهاء الملوك لا أدرى من أين جاء، وتقدم منى فاردأ ذراعيه واحتضنى

يَقول: حمدا لله على سلامتك، أنا أخوك على ملك البحر فلا تخف منى، - اتفقت قبل مولدك أن تعيش نصف عمرك مع أهلِكَ والنصف الآخر منى. ثم إنه أخرج من جيبه حلقة ملائنة بالمفاتيح وقال: خذ، هذه أربعون سنتاً بعدد حجرات القصر، كل ما فيها ملك لك افتح كل الحجرات إلا حجرة رقم أربعين حتى لا تندم ثم إنه تركنى واختفى من أمامى، ورننت تحتته فى أذنى ولا أعرف ما الذى شدنى إلى الحجرة التى رقمها أربعون بعد حذرنى من فتحها، وحدثتنى نفسى أن أبدأ بها. فلما فتحت الباب، وجدت حجرة خالية ليس فيها إلا حامل من الخشب وضع فى منتصف حجرة، والحامل عليه كتاب قديم له جلدة كالحة متآكلة، وأخذت الكتاب من يدي وجعلت أتصفحه وليتنى ما فعلت. فما إن بدأت أقرأ حتى نسيت غسى وما حولى وشيء ما جذبنى إلى أعلى فأفقت فوجدت ما حولى صحراء جرداء، ما الذى قرأته فى الكتاب؟ لم أعد أتذكر، ثلاث كلمات فقط هى كل ما أذكر، ووجدتنى أرددها على لسانى، واصلت الليل بالانهار سيراً على قدمى بحثاً عن مملكة أبى، فوصلت إلى مدينة بعد أن كادت ترحى تطلع، وأخذت أسأل كل من أقابله فيهبز رأسه ويمضى مبتعداً عنى، ونحت شيخاً طاعناً يجلس على باب دكان فتوجهت إليه ووقفت أمامه. فقام إلى، أخذنى من يدي وأجلسنى بجانبه، وأمر بإحضار الطعام ونشراب فاكلنا أنا وهو، ثم بعد ذلك سألته: هل تعرف ياوالدى مدينة كذا؟ فضحك الشيخ ونظر إلى وجهى يتأملنى وقال: إنك أنت الوالد والجد وما أنا إلا كأحد أحفادك، أخبرنى أيها السيد الجليل ما هى حكايتك؟ ومن أين أتيت؟

فقصصت عليه كل ما حدث لى، فلما انتهيت هز رأسه متعجباً وقال: إن حكايتك غريبة. والأغرب منها أنك عشت كل هذه السنوات، فإن هذه المدينة التى تذكرها سمعت أخبارها من جدى والد أبى لما كنت صغيراً، وأنها بادت منذ زمن طويل ولا يوجد من الأحياء من رآها لكن أخبارها

متداولة. ثم إنه قام وأحضر مرآة وقال: انظر إلى نفسك، فقربتتها من وجهى فرأيت ما هالنى، فقد شاب شعرى وتشابكت لحيتى وتهدلت ملامحى، وأدركت لماذا قال الشيخ ما قاله فى الأول، فما الذى حدث لى طوال هذه السنين؟ ولماذا لم أعد أتذكر سوى هذه الكلمات الثلاث؟ هذا هو اللغز الذى لا أعرف له إجابة. وقد أخذت عهداً على نفسى ألا أنطق بها إلا لمن يدفع ثمناً مساوياً لما دفعته فيها.

قال الشيخ إنه يجلس على باب المدينة منذ عشرين سنة فى انتظار من يقد عليها، وأنت أول الوافدين، وإن تجارته لا سوق لها، داخل هذه المدينة لذلك فقد جلس على بابها.

قلت هلا أعطيتنى واحدة من كلماتك الثلاث فلعلى أجد فيها ما ينفع ويعين على الطريق، وقد استبدت بى رغبة جامحة فى معرفة هذا الكلام الذى أضع عمره بسببه. وهل يكون الكتاب الذى قرأه هو نفس ما أبحث عنه؟ هز الشيخ رأسه فى جد: ادفع أولاً وأنا أعطيك على قدر مالك. أخرجت من هدومى صرة من الصرر الثلاث فأخذها فى كفه وصار يزنها ثم وضعها فى عبه وقال: إليك بواحدة «من أمنك لم تخونه ولو كنت خاين» قالها الشيخ وسكت، وكنت أظن أنه سوف يحدثنى حديثاً متصلاً يأتى فيه على ذكر العجائب والغرائب التى مرّ بها، فلما طال سكوته قلت: أكمل يا شيخ: رد على بحزم قلت: ما عندى على قدر فلوسك. ولكنى أعرف هذه الجملة فما الجديد.. قال: هل جربتتها؟ أدركت أن لا فائدة من النقاش معه، وكان التعب قد حل على فرحت فى غفوة صحوت بعدها فوجدت الشيخ جالساً بجانبى فسألته عن الباب وهل اقترب ميعاد فتحه. فأجابنى بأنه فتح مرة وأنا نائم، فقلت: لا حول، ولا قوة إلا بالله فقد غلبنى النوم فضاع يومى الأول ولا بد أن أكون يقظاناً عندما يفتح فى الغد، وشعرت بجوع، وكان الشيخ أحس بى فمد يده بتمرّة أكلتها وتجرعت بعض الماء

سكن ألم الجوع، وتذكرت ما دار بيننا من حديث قبل نومي فقلت أصل ما تمنع منه: أعطني كلمة أخرى، فرد قائلاً: ادفع ثمنها. أخرجت صرة حري فأخذها وأطرق قليلاً ثم قال: «حبيبك اللي تحبه ولو كان عبد حري» وفعل كما المرة السابقة، فقد سكت عن الكلام، وصار ينظر إلى عجرا الممتدة أمامنا، بينما أخذت أتأمل فيما أنا فيه وما صارت إليه حتى. وتذكرت أخوي فسالت دموعي، والشيخ لا ينظر إلى ولا يشعر بي حتى هدأت وسرحت بنظري في الفضاء فغلبني النوم على أمري. لما سحوت فركت عيني وتلفت حولي فرأيت الشيخ مازال جالساً فسألته: ألم يفتح اليباب بعد؟ فقال: بلى فتح ست مرات وأنت نائم، تعجبت وقلت كيف يفتح ست مرات في اليوم الواحد، بل في ساعة واحدة هي مقدار ما نمته نائم: لا تعجب فإنك نمت ستة أيام بلياليها. ثم إنه ناولني ثمرة أكلتها -شريت وصرت أضرب كفا بكف مما يحدث، كيف أنام ستة أيام متصلة -وزن أن أشعر بما حولي، وهل كان الشيخ بجانبى طوال هذه المدة دون أن يغزو أو يبرح مكانه؟ وبينما أنا أتفكر وأطرح الأسئلة على نفسي، إذ به يضر إلى قائلاً: اطلع بالصرة الثالثة لأعطيك كلمتي الأخيرة زادت دهشتي وقت: كيف عرفت أن معي صرة ثالثة؟ لم يرد. أيقنت أنه قام بتقليبي أثناء نومي، تحسست هدومي فوجدت الصرة مكانها. اطمأنت نفسي بعض الشيء، فقد كان بوسعه سرقتها والاختفاء بها داخل المدينة أثناء نومي تطويل فلا أعرف له طريق جرة مددت يدي بها فأخذها وقال: «ساعة نحظ ما تتعوضش». هذه هي كلمتي الأخيرة، قلت: أعطني كلمة زيادة من عندك، فقد نفذ مالي ولا يوجد ما أدفعه لك وأنا أحببت كلامك هذا الذي أعرفه وأحفظ منه الكثير. نظر الشيخ إلى غاضباً، إنك تعرفه ولكنك لم تجربيه: هلاً جريته لتعرف فائدته، فأنا دفعت عمري ثمناً له، وأنت دفعت كل ما تملك فنصبح أنا وأنت متساويين، بقي أن تنتفع بما ملكت وإلا فسوف تتدم كما ندمت.

لقد بدأت بالفعل أشعر بالندم والحسرة على ضياع مالي في كلام أعرفه وأعرف أكثر منه، وأنا لن أكل أو أشرب كلاماً قمتم أمشي قدمي وقد استقر عزمي على أمر سوف أفعله مع هذا الشيخ الذي خدعني. فكرت أن أظل يقطاً أرقبه حتى ينام فأخذ فلوسى منه وأرجع من حيث أتيت. رجعت وجلست بجانبه ساهماً أتدبر أمرى. ولكنه فاجأنى بقوله: لا تفعل وتذكر الكلمة الأولى. تذكرت كلامه فدهشت: هل عرف الشيخ ما كنت أفكر فيه؟ لا بد إذن من الحذر مع هذا الرجل فلاشك أنه ساحر، فكيف أفعل شيئاً دون تفكير؟ وإذا فكرت فسوف يعرف! أخذت أصرف عقلى عن التفكير فى أية تدابير تجاهه حتى لا يعرف، ورأيته ينظر لى مبتسماً، كانت المرة الأولى التى أرى ابتسامته، لا بد إذن أنه قرأ أفكارى للمرة الثانية، فقد سمعته يقول: لا يذهبن بك الخيال بعيداً، ما حدث كان مقدرًا ومكتوباً لا بد من حدوثه، ثم ارتفع صوته منادياً فى الخلاء، ياطالب الحكم طلبك عندى، معى كلام للبيع. أخذ الشيخ ينادى وكأن هناك زبائن تملأ المكان، وأنا أصابتنى لحظة من وسن، فإذا بالهاتف يجيئنى على هيئته التى جاء بها فى المرة الأولى ويقول لى:

سيدتى تقرئك السلام وتقول لك الآن أنت منى،

فأنا الكلمات الثلاث، وأنت الذى على يديك

تتجسد معانى كلماتى. فادن ولا تخف، فقد دنت

لك قطوفى، وأنت قريب.. قريب

تنبعت وتلفضت حولى فلم أجد للشيخ أثراً وتعجبت من أمر الهاتف، فله مدة لم يزرنى منذ مرته الأولى حتى ظننت أنه نسينى. وقد تأكد لى هذه المرة أن سيدة المخطوط لن تتحدث إلى مباشرة، بل من وراء حجب، ما دمت لست رجلها المرتقب، وما أنا إلا إحدى رسائلها إليه، قرأت عن ذلك

— بعض المدونات، نظرت إلى باب المدينة فكان مغلقاً كعادته، لا أسمع صوتاً ينم عن وجود أحياء خلفه. دب اليأس في نفسي لما تذكرت الشيخ كيف تركني دون طعام أو شراب أو نقود، وربما لن يفتح الباب قبل ذلك. لكن حديث الهاتف طمأن قلبي. ألم تقل على لسانه إنني قريب، يا معي بكلماتها الثلاث، ربما تعرف الآن ما أنا فيه. قد تبحث لي عن حرج حتى تصل بي إلى غايتها. وبينما أنا أتفكر، إذ سمعت جلبة عظيمة تترير شيء يفتح فتلفت ناحية الصوت فوجدته باب المدينة، ورأيت عرجاً من البشر والدواب تخرج منه وتملاً المكان وهم لا يرونني أو يعرفون بوجودي بينهم قمت مبهوراً وأنا لا أصدق بنجاتي فجريت على باب وتسللت داخلاً إلى المدينة.

* * *

سكت الشيخ عن الكلام وقد ظهر عليه الإجهاد وبدا وجهه شاحباً. كُنَّ الذكرى أمته، ثم إنه بعد أن استراح قليلاً صب في حلقى سائلاً حمضياً له رائحة نفاذة من قارورة كانت موضوعة بجانبه، وتذكرت أن لي سعة ثم أتزود، وكان هذا السائل له فوائد عجيبة. فإنه لما استقر في جوفى شعرت بسخونة تسرى في بدني والدماء تجرى في عروقي وتصعد إلى راسي وسكن ألم الجوع في معدتي، وبدأ ذهني يصفو ويروق، وأخذ النعاس يغدغ جفوني فأسلمت له نفسي فرأيت مناماً عجباً، رأيت نفسي جالساً مع الشيخ على باب المدينة في انتظار أن يفتح، وكل ما حدث للشيخ قد حدث لي أنا. مقابلتي لبائع الكلام، شرائي منه الكلمات الثلاثة. وقوفى بلا حزن ولا قوة على باب مدينة أجهل ما سوف يحدث لي فيها، تلفت حولي حثاً عن ونيس فرأيته. جسده جسد طائر عملاق يسد عين الشمس ناشراً حناحيه الهائلين. رأسه رأس إنسان عجوز وخط الشيب شعره، وابتسم لي قائلاً: الأرواح الصادقة في محبتها تتلاقى وتتألف، ثم إنه أشار بجناحيه

إلى باب المدينة وقال لى: تقدم، فهى من الآن حكايتك أنت فارو ما سوف تشاهده وتعاينه. ثم إنه رف بجناحيه وطار عالياً. وبينما كان جسد الطائر يتضاءل ويتلاشى، كنت ألمح وجه الشيخ بيتسم لى مشجعاً على التقدم.

* * *

حكاية الطحان والعزيريت والجاريتين

نه انفتح الباب جريت عليه وقد ردت إلى روى بعد يأس، فرأيت مدينة
عرة واسعة الحدود بقصور وأسواق مزدحمة وحركة بيع وشراء، والناس
حية لا أحد يلتفت إلى الآخر، فأخذت أتجول بينهم دون أن يتعرض لى
حد. وأخذتني قدماى بالقرب من دكان طحان يبيع الحبوب والطحين،
يحت شيخاً طاعناً يجلس أمام الدكان وبين يديه طعام وشراب، فاشتاقت
عى له وتحركت أحشائي تطلبه، فأخذت أتلكأ أمام الدكان وعملت
عى أتفرج على الحبوب بينما أنا فى الحقيقة أنظر إلى الطعام، فلما
سبى وتتبع نظراتى فهم أنى جائع، ودون أن يرفع وجهه أو يتوقف عن
كل أشار بيده يدعونى، فلم أشعر إلا وأنا جالس أمامه أكل.

وحين رأى ذلك توقف عن الأكل وترك لى الطعام حتى أتيت عليه كله،
فما انتهيت جاء بالماء فغسلت يدى وحمدت ربه وجلست لا أعرف كيف
بدأ حديثى معه. ثم إنه جاء بشراب فشرينا وابتدرنى قائلاً أنت غريب
عن مدينتنا فمن أين أتيت؟ وإلى أين تمضى؟ وما حكايتك؟ فأعدت عليه
قصتى - وليس فى الإعادة إفادة - فلما سمعها هز رأسه قائلاً حكايتك
عجيبة، ولكن الأعجب أنك وصلت إلى مدينتنا، فأحد لم يصل إليها من
قبل، ثم سألتنى: هل مررت فى طريقك ببحر الظلمة؟ قلت لا، إنما صحراء
جرداء لا زرع فيها ولا ماء. قال: وهل صعدت جبلاً شاهقة تسمى جبال

قاف؟ أجبت: إننى لم أر فى طريقى سوى الرمال. فتعجب من ذلك وقال: اعلم يا ولدى أن لك كرامة بسط الطرق وطى الأرض والجبال، فهذه المدينة تقع خلف بحر محيط يسمى بحر الظلمة وبعد هذا البحر توجد جبال قاف وخلفها تقع مدينتنا، أرض الرجراج وأما سبب هذه التسمية فهو أن أرضها كانت رجراجية لا تستقر عليها الأقدام. وقد استقرت وعمرت لأن بها صنما من نحاس يمد يده إلى الأرض، وهذا الصنم رصد لأجل استقرار الأرض، فإذا بطل رصد الصنم ابتلعت الأرض هذه المدينة بمن عليها، وخلف هذه الأرض لا توجد أرض أخرى تصلح للحياة والزراعة ووجود بشر. وقد قيل إن خلفها سبعين ألف أرض من فضة ومثلها من حديد، ومثلها من ذهب وعنبر، وهى مشرقة بالنور، وسكانها ملائكة، لا ترى فيها شمس ولا قمر ولا حر ولا برد. طول كل أرض عشرة آلاف سنة، وخلف ذلك حجاب من ريح. وخلف ذلك حية عظيمة محيطة بجميع الدنيا تسبح الله تعالى إلى يوم القيامة.

فرح الطحان لى واطمأن إلى وعرض على الاشتغال عنده فأخذنى إلى حيث يقع مطحن الغلال وقال: تبيت هنا وتقوم بمساعدتى. فأنا كما ترى أصبحت شيخاً لا أقدر على تشغيل الطاحونة وحدى، إلا بمساعدة زوجتى، فتدبر أمرها أنت، ولكن قبل كل شيء أقول لك على سر إن شئت الإقامة بعد سماعه فعلى الرحب والسعة، وإن شئت الرحيل فأنت وما تريد. ثم إنه سكت قليلاً قبل أن يكمل: يا ولدى، إن لهذه الطاحونة قصة، فقد كانت لأخوين قبلى يملكانها، فاختلفا على من يديرها واقتتلا فقتل كل منهما الآخر: أغلقت بعدهما وصارت مهجورة إلى أن اشتريتها هى والمحل وأعدت افتتاحها وتعميرها، وأنا لا أعلم أن بها فرخاً من فروخ الجان اتخذها مسكناً، وكلما اشتغل عندى غلام فما إن ينام حتى يخرج له هذا الجنى فيذبجه من الوريد إلى الوريد، وأجده فى الصباح مضرجاً فى دمائه، وأنا قلت لك لأبرىئ ذمتى وتدبر أنت حالك.

زل على سهم الله وأنا أسمع لكلام الطحان وأفكر في هذه المصيبة، كنت نفسي: ها أنت تركت مدينتك وأهلك وقطعت المسافات وطويت سخارى وأضعت أموالك حتى تجيء عند هذا الطحان فتقتل على يد حيت. ولكن ما حيلتك. فإن تركته فألى أين تذهب فسوف تموت جوعاً عيشاً فى الطريق وليس معك لا طعام ولا مال، فاصبر لعلك تجد بية تحتال بها على هذا الجنى، فلما طال صمتى هز الطحان رأسه ندى: أنا أعذرک فلا أحد يستغنى عن عمره قال ذلك ظنا منه أننى عت عرضه فقلت: اعلم يا سيدى أن الأعمار بيد الله، والمكتوب ليس من مهرب، وأنا قبلت العمل عندك وأجرى على الله فرج الطحان بكلامى حاً شديداً وقام قبل رأسى وقال: تبيت الليلة عندى، ومن الغد تبدأ نى.

فى الصباح صحت على صوت الطحان يوقظنى، وكان قد أحضر عمداً فأكلنا، ثم بعد ذلك أخذنى من يدى حيث تقع المطحنة فأرشدنى فى كيفية العمل فى طحن الغلال وتعبئتها فى الأجوالة وتوصيلها إليه فى كى. ومر النهار سريعاً وأتى المساء، فأغلقتا الدكان ودخلت أنا المطحنة نقت بابها على نفسى وجلست وقد جافانى النوم من شدة الخوف نى: موتى وأنا يقظ أهون عندى منه وأنا نائم، وظلمت على هذه الحال نى سلطان النوم حتى أوشك الليل على الانتصاف. وقد التصقت حونى وأنا أقاوم. وبينما أنا كذلك، إذ سمعت جلبة وقعقة وأصواتا كثيرة نية. وإذا بالأرض تنشق ويخرج منها مارداً صار يتمدد أمامى وينفرد نته قلة من القل، أو قطعة فصلت من جبل، ثم أخذ ينكمش حتى عبرت ملامحه فاقشعر بدنى وبلت على نفسى من هول منظره، وكان حب بيديه جاريتين، واحدة وقفت عن يمينه سوداء وأخرى وقفت عن نته بيضاء، والجاريتان أجمل من بعضهما، وابتدرنى قائلاً: جئت

لحتفك أيها القرنان، فاختر لك ميتة فهذا لا بد منه. فلما وجدنى أرتعد وقد انعقد لسانى واصفر وجهى فحاكى وجوه الموتى أكمل: سوف أرمى عليك سؤالاً فإذا أجبتنى الجواب الصحيح تركتك ووهبتك حياتك وإذا لم تجبني ذبحتك فى التو واللحظة. قلت ولسانى يتلجج: يا سسييدى افف.. اف اف عل ما بببببالك، قال: إن لى مدة وأنا فى حيرة من هاتين الجاريتين أيهما أختار زوجة لى؟

بسملت وحوقلت ونطقت الشهادتين وجهزت نفسى للعفريت يفعل بى ما يشاء، ثم تذكرت وأنا فى هذه اللحظة الشيخ بائع الكلام الذى اشتريته منه فقلت أجيبة بإحداها لعل وعسى، تمتمت بصوت خافت: «حبيبك اللى تحبه ولو كان عبد نوحى». نطقتها ودفنت رأسى بين ركبتى فى انتظار نهايتى فسمعت ضحكته ترج المكان، رفعت رأسى فرأيته يرقص من الفرح وتقدم منى وأنا أخذت أقع فى عرضه وطوله أن يتركنى، فركع أمامى على ركبتيه وقال: أحسنت الإجابة ياإنسى، فإن لى عشرين سنة أتى إلى هذا المكان وأسأل سؤالى ولا يعرف إجابته أحد فأذبحه، وأنت قد أرحتتى وها أنا ذا أهبك حياتك هاهاهاها ه... اخطفى العفريت من أمامى كما جاء ومعه الجاريتان، بينما ضحكاته ما زال صداها يرج اللطاحونة، وأنا غير مصدق بنجاتى منه حتى ظهر ضوء الفجر فجاء الطحان وفتح الباب ومعه الكفن وآلات الغسل وهو يظن أنه يزانى مقتولاً، فلما نظرنى أمامه حياً أرزق تعجب وفرح بنجاتى، وبعد أن هنأنى بسلامتى سألتنى عما حدث، قصصت عليه الحكاية فظهرت على ملامحه الدهشة وازدادت محبته لى وصار لا يطيق فراقى.

وكان للطحان زوجة شابة من يرها يظن أنها ابنته، وكانت ذات حسن وجمال وقد واعتدال تزوجها على كبر فأنجبت له ولداً، ومن المقدر أنها سمعت من زوجها الطحان بحكايتى فجاءت ذات يوم لترانى وتتعرف بى،

— يقع نظرها على تعلق قلبها بي، وصارت تتحين الفرص للقدوم إلى
 — حنية بقصد الاجتماع بي، وكنت لا ألقى بالأل لجمالها وأتشغل
 — حن نغلال ولا ألتفت إليها وهي تتمسح بي وتزداد تعلقاً وتلح على طلب
 — عي وبينما أنا نائم ذات يوم تسلت هي إلى الطاحونة، وانتبهت لأجدها
 — عة بجوارى ملتصقة بي عارية، فنظرت إليها وجدت حسناً وجمالاً وقد
 — حت نظرف وأظهرت الظرف، فانتقلت حرارة جسدها إلى جسدى
 — ت استجيب لها إلا أن تجسدت لى كلمة من كلام الشيخ بائع الكلام
 — ت سماعى وصارت تطن فى أذنى، فاتنترت واقفاً وألقيت عليها ما
 — تها ونهرتها قائلاً: «من أمنك لم تخونه ولو كنت خاين»... فانصرفت
 — ت ضمرت لى فى قلبها. وفى اليوم التالى جاءنى الطحان وقد بان على
 — حية نغيظ وفكره تغير من ناحيتى وأنا لا أعرف أسباب ذلك. فقال لى
 — عة خأ فى البلد الفلانى وله مدة لا يعرف عن أحواله شيئاً، وأعطانى
 — عة مختومة لأسلمها له يداً بيد على ألا أتأخر عنه بالرد. فركبت من
 — تى وساعتى وأنا أضع الرسالة بين هدى حتى لا تضيع، حتى
 — تى على بلد يبعد عن ذلك الذى أقصده بمسيرة نصف يوم، وكان الليل
 — فى الأبواب فقلت أستريح هنا بعض الوقت ثم أستأنف رحلتى فى
 — حبح، فلما دخلت البلد وجدت زينات معلقة وأفراحاً قائمة والناس فى
 — حن ولهو، فسألت عن سبب ذلك فقبل لى إن أهل هذا البلد يحتفلون فى
 — تى هذا الوقت من كل عام بذكرى قتل المارد الذى تسلط على المدينة فى
 — عة من السنين وأراد أخذ أجمل فتاة فيها، وهى ابنة رجل حطاب فقير
 — عى له غيرها، وكان الناس يحبونها لجمال خلقتها وخلقها، وقد ضرب
 — تى لأهل المدينة موعداً ليقوموا بتجهيزها حتى يأتى ويأخذها فاغتمت
 — عى وعملوا ماتماً لذلك، فلما جاء الموعد قام المارد بغارة على المدينة
 — عى ختطف ابنة الحطاب ووضعها على قمة الجبل المحيط بالمدينة، وكان
 — حى أبناء ملك المدينة يعشق هذه الفتاة وبينهما محبة زائدة، فلما حدث ما

حدث اغتم هذا الأمير العاشق وصمم على محاربة المارد وتخليص حبيبته من بين يديه، فجرد له جيشاً وذهبوا لملاقاته فهزموه المارد، فجرد له ثاني فقتلهم المارد حتى أفضاهم جميعاً، ولم يجد الأمير مفرأ من الذهاب إليه ومحاربه بمفرده فانصر عليه وقتله وخلص حبيبته ابنة الحطاب، والمدينة تحتفل في هذا الوقت من كل عام بذكرى تلك الواقعة، أما حكاية الحرب التي دارت بين الأمير والمارد، وما دار بينهما من أهوال، فهي حكاية عجيبة - ليس هذا أوانها - فلما سمعت ذلك الحديث، تذكرت الجملة الثالثة من كلام الشيخ «وأن ساعة الحظ ما تتعوضش» فأقمت الليل في لهو وطعام وشراب حتى غلبني النعاس فتمت، وكان الطحان قد أراد الاطمئنان على توصيلي الرسالة إلى أخيه ومعرفة ما جرى، فأرسل ابنه للاستفسار، فمر على المدينة وأراد أن يستريح قليلاً، وبينما هو يتجول للفرجة عثر على نائماً أمام الحانة، حاول إفاقتي فلم يفلح من شدة السكر الذي أنا فيه فأخذ يفتش في هذومي حتى عثر على الرسالة فقام من وقته وساعته وسافر إلى عمه لتوصيلها. أما أنا، فبعد أن أفقت قرب العصر بحثت عن الرسالة فما وجدتها فخفت أن تكون ضاعت مني فتلفت حولي علني أجدها، فلمحني صاحب الحانة وأخبرني أن شاباً صغيراً أخذها وأنا نائم ووصفه لي فعرفت أنه ابن الطحان، واطمأنت نفسي فقممت ركبت عائدأ إلى الطحان، فلما دخلت عليه رأيته جالسا على باب الدكان وظهر الغضب بين عينيه لما أبصرني وبان انزعاجه لقدمومي. تعجبت من هذه المقابلة، وبادرني بالسؤال: كيف أتيت؟ وهل أوصلت الرسالة إلى أخي؟ فأخبرته بما حدث، وما كدت أنتهي من حديثي حتى قام فجأة على حيله ورمى عمامته في الأرض وصرخ ولطم خديه، وأنا في عجب من أمره، فلا شيء في حديثي يغضبه إلى هذا الحد، والرسالة وصلت سواء بي أو بغيري فما سبب كل ذلك؟! وبينما أنا كذلك لا أعرف شيئاً مما يدور أمامي إذ جاءت زوجته فرأته على حالته هذه فسألته عن الحكاية، أخبرها بأن

هو الذي أخذ الرسالة منى لتوصيلها. فلما سمعت ذلك شقت ثوبها
 - تصدر وأخذت تفعل مثلما يفعل زوجها وصارت تصرخ وتقول وهي
 حتر التراب على رأسها، لقد ضاع حيلتى، مات ولدى وأنا السبب. التف
 - حولنا وهم يسألوننى وأنا لا أعرف بماذا أجيبهم فأخذوا يسألون
 عنان فقال وهو يبكى: اعلموا ياناس أن هذا الفتى له مدة يعمل عندى،
 زارود امرأتى عن نفسها فأبت خيانتى وشكته لى، وأنا أردت معاقبته
 عن مقابلته إحسانى بالإساءة فأرسلت معه رسالة لأخى أقول فيها حين
 تك رسالتى فاقتل حاملها، فإنه فعل معى كذا وكذا. فتلكأ هذا الفتى
 عن طريق فأرسلت ولدى ليطمئن قلبى على أن الرسالة وصلت أخى،
 عشر عليه وأخذها منه لإيصالها إلى عمه الذى لا يعرفه، فإنهما لم يريا
 عضهما قط، ولا بد أنه قتله الآن بدلاً من هذا، ثم عاد إلى ولولته وأخذ
 يتف شعر لحيته، وعرفت أن ما حدث كان بتدبير من زوجته فقلت: اعلموا
 يا الناس أننى برىء من هذه التهمة، وما كل ذلك إلا بتدبير من هذه
 -ة الخائنة، فإنها فعلت معى كذا وكذا مما تقدم ذكره، وكانت هى واقفة
 نسمع وتؤمن على كلامى وهى تبكى عند ذلك قام الطحان إليها وقد
 عرف خبث فعلتها فألقاها على الأرض ووضع قدمه فوق صدرها
 يأسك برأسها وذبحها من الوريد إلى الوريد كما تذبح الشاة. وصار
 يصرخ ويقول: هذا جزاء الخيانة، أخذت بثأر ولدى.

هل كنت نائماً حين حدث لى ما حدث؟ وهل قمت فزعا على صوت
 شيخ يدعونى للصحيان؟ ألم يكن ما رأيته حقيقة؟ فما زال منظر المرأة
 سبيحة ماثلاً أمام عيني، والرجل الطحان وقد أصابته لوثة يهرول
 سائحا: أخذت بثأر ولدى. هل قرأت عن ذلك فى المخطوط؟ هل
 حدثنى الأميرة به؟ ويا ترى هل هذه حكايتى أم حكاية الشيخ، هو الذى
 يضر إلى الآن وقد انفرجت شفثاه عن ابتسامه ما عدت أعرف مصدرها،

أترانى إذا قلت له عما رأيته مصدق؟ أم يظن أن خيلاً أصابنى؟ يعرف أنى ما عدت صالحاً للمهمة فيفضها سيرة ويتركنى. وما الذى جرى لى حتى أصبح هكذا لا أعرف صحوى من نومى، ما يحدث حقيقة أم خيال؟ وتلك النظرة التى ينظرها لى لغة لا أعرف شفرتها، لو أنه نطق لكفانى أسئلتى التى لا أعرف لها إجابة، لكنه ظل يحدق فى مدة ساعة وم فترت ابتسامته، سادراً فى صمته، حتى أوشكت على سؤاله. جرح هذا السكون الموحش، لحظتها، وكأنه شعر بدنوى من مساءئله، تكلم: إنها حكايتى أيضاً، ولا تنس أننى كنت معك، وقد رأيتك مثلما رأيتنى. تذكرت وجه الطائر العملاق وكدت أقول له إننى رأيته بالفعل على باب المدينة حين قال: نعم أعرف، فقد كنت أنا، وما حدث لك حدث لى أيضاً فالحكاية واحدة مهما تعددت فروعها، ولكنك لن تعرف أبعد من ذلك، وأنا عندى بقية الحكاية، فدعنى أكملها لك، فهى حكايتى على كل حال.

حكاية الشيخ وما جرى له مع التوابيت كما ذكر بعض ملوك حمير وعجائب صنعتهم

بعد أن رأيت ما حدث للطحان وزوجته وولده لم أجد بدأ من تركه
بحث عن عمل آخر فظللت قائماً بالمدينة مدة دون أن أجد من أعمل
عنه حتى نفذ صبري وزهقت، ولا أدري إلى أين أتجه بعد ذلك، حتى كان
بيد. وبينما أنا مضطجع في المسجد الذي آوى إليه كل يوم، وكنت أنظر
سقفه متأملاً، وإذا بالهاتف يهتف بي:
قم أيها الرجل الكسول فقد انتهت مهمتك هنا،
ذهب إلى الأرض التي صفتها كذا وكذا، حيث
تجد موضعاً فيه ضالتك ويكون نهاية بحثك،
فاجتهد حتى تصل إليه.

فقممت من وقتي وأنا أجد في السير حتى تركت المدينة ورائي وظهرت
في الصحراء، اتجهت شمالاً كما قال الهاتف، فلمحت عن بعد جبلاً في
نقطة سوداء، فلما اقتربت منها تبينت أنها مغارة غائرة في ذلك
جبل، ووجدت على باب المغارة ثعابين كثيرة متشابكة الواحد منها مثل
خيل، ورأيت نفسي مشدوداً لهذه المغارة فصممت على دخولها، ولكن
نصف وأنا إذا تقدمت خطوة واحدة تلتهمني الثعابين والحيات! وقفت
متفكراً مدة ساعة، فلما أعيتني الحيلة حدثت نفسي بالرجوع من حيث

أتيت، وبينما أنا أستدير حانت منى التفاتة فإذا بالشعابين والحيات تتجرى عن باب المغارة مبتعدة، تقدمت حتى وصلت باب كهف فدخلت نفسى وحشة شديدة، وسمعت من داخله دويًا هائلًا، ولمحتُ على باب الكهف نقشًا بالقلم الحميري، وكنت عارفًا بقراءة هذا القلم فقرأت: ادخل يا رجل وخذ حظك من الدنيا. فتقدمت داخل الكهف فإذا على جانبيه حيات تقح ورياح تجرى، وسمعت دويًا مثل الأول، فلم ألق بالألحيات وشدت قلبي وتقدمت حتى وقفت أمام باب آخر أعظم من الأول وأشد وحشة ورهبة، ووجدت مكتوبًا عليه: تقدم ولا تخف، لو دامت لغيرنا لدامت لنا. فدخلت منه وتقدمت فرأيت بابًا أعظم مما رأيت سابقًا مكتوبًا عليه: إذا لم تكن أنت هو فارجع قبل أن تهلك وتبلغ عدمك واكتف بما رأيت.

شعرت برعدة تملكنتى وانكمشت على نفسى وأخذت أسناني تصطدم ببعضها. فماذا يحدث لى لو أننى لست هو صاحب الطلسم؟ وبينما أقدم قدمًا وأؤخر أخرى إذ زلقت إحداهما بالقرب من الباب، فإذا بتنين أحمر العينين قد برز إلى فاتحًا فمه يوشك على التهامى، عدوت هاربًا وأنا أنظر خلفى فلم أجده يركض ورائى، بل سكن مكانه، فوقف وحدثت نفسى بأنه لو كان رآنى لما تركنى، بل لجرى ورائى وابتلعنى، وما هو إلا طلسم. سرت مرة ثانية نحوه فتحرك كحركته الأولى، تنحيت عن طريقه وأخذت أمشى قليلاً قليلاً وهو يتحرك أمامى حتى جاءت قدمى عند موضع غاصت فيه، ركعت على ركبتى وأخذت أحضر بأصبعى إلى أن ظهرت سلاسل على بكرات. وكان الليل قد غشبنى وعدمت الرؤية فأسرعت بالخروج وبت ليلتى عند باب الكهف، ولما أوشك الليل على الانتصاف سمعت بكاء ووعولاً آتياً من الداخل، ونظرت فإذا بنار هائلة خارجة من داخل الكهف، لم أبرح مكانى من شدة الخوف، وأخذت النار تلتف حولى دون أن تؤذينى حتى انقطعت. ثم أتت نار أخرى أشد من الأولى فصبرت لها كذلك حتى مالت عينى وأنا فى حيرة من أمرها، ولم يغمض لى جفن حتى ظهر نور الصباح

— حث الكهف مرة أخرى وتقدمت إلى أن وصلت لمكان التنين والحفرة
— حفرتها فوجدت السلاسل، وبدأت أقلعها من جذورها حتى سقط
— من وبطل عمله. كذلك الباب الآخر الذى تقدمت إليه، ما إن هممت
نحه حتى سمعت زئيراً وظهر لى أسد بلبدة تغطى جسده يخرج ناراً من
— حريه. رجعت فرجع الأسد إلى موضعه فعلمت أنه طلسم هو أيضاً،
عريت فى موضع حركته حتى أبطلت عمله، ثم إننى دخلت من الباب فإذا
— عر عظيمة وفيها بيت يتوسطه سرير من ذهب براق عليه شيخ وفوق
— ع لوح من ذهب معلق، وسقف البيت مرصع بأصناف اليواقيت
— حزمه، وعلى رأسه فى الحائط لوح آخر من ذهب كتب فيه: أنا شداد
— ع عاد، عشت خمسمائة عام، افتضضت فيها ألف بكر، وقتلت ألف
— ع رن، وركبت ألف جواد، وها هى حالى، فمن رآنى اتعظ. ثم ملت إلى
— ركن الذى على يمينه فإذا هو سرير من ذهب وعليه جاريتان كأنهما
— عرن من رأهما ظنهما من الأحياء، ورأيت مكتوباً على لوح فوق رأسيهما:
— ع رآنا لا يثق بالزمان، وليكن على بيان، فإنه يحدث العز والهوان، أنا
— ع حتى من بنات الملك شداد بن عاد، ملت إلى الركن الذى على شماله
— ع وجدت تابوتاً لم أر أجمل منه، حاولت فتحه فلم أقدر على ذلك، ووجدت
— ع مكتوباً على لوح بجانبه: خذ، لن يفتح إلا صاحبه من يعثر على
— ع خطوط، فهو مرصود باسمه. حملت التابوت وخرجت ولم آخذ شيئاً
— ع غيره من الكنوز التى أمامى، وما إن ابتعدت قليلاً عن الجبل حتى سمعت
— ع صوت فرقعة، التفت ورأى قرأيت الكهف وقد خرجت النار من كل جوانبه
— ع يحدث انفجار وأنهار جانب من الجبل فأدركت أن الكهف انهدم بعد رحيلى
— ع ونطمت معالمه فلا يعثر عليه أحد بعدى.

أخذت أوسع من خطوى وأنا أحمل التابوت فوق رأسى. ولما شعرت
بتعب جلست لأستريح قليلاً، وراودتنى نفسى عن فتح التابوت
نعرفه ما بداخله. لم أفلح فى فتح قفله، وحانت منى التفاتة لنقش

عليه يقول: لا يفتحه إلا فلان بن فلان، فبه سوف يرى العاشق معشوقه
ويلتم الشمل.

اشتد بى الغيظ، فبعد كل ما عانيت فى الحصول عليه أجد اسما غير
اسمى، وأجد أنى لست الموعد بمشاهدة الأميرة، فبحثت عن حجر
وهمت بسحق القفل، فإذا بصوت يأتى من داخل التابوت يقول:

تأدب يا هذا واقنع بما وصلت إليه ولا تتقدم خطوة

واحدة حتى لا تندم، فلست أهلاً لهذا الأمر، وما

أنت من المواعدين، هذا تابوته، وله وحده يفتح،

وهو قد بدأ رحلة بحثه الآن، وقريبا يصل إليك

ويستدل عليك، وسوف تعرفه بعلاماته الظاهرة

والباطنة، وهذا آخر ما يصلك منى وإليك السلام.

كان صوت الهاتف واضحاً ومحددًا، فهى المرة الأولى التى يحدثنى عن
حقيقة مهمتى، فما أنا إلا سبب لتسهيل مهمة الآخر، ذلك المجهول الذى
تغير قلبى ناحيته دون أن أعرفه، أليس هو أحق الناس بمعرفتها، رؤيتها
والدنو منها، إنه رجلها وليس أنا، فكرت أن أرجع إلى الكهف وأتركه هناك،
وليبحث هو عنه كما بحثت أنا، لكن الكهف تهدم، تركته فى الخلاء
وتقدمت خفيفاً وحدى حتى ظننت أننى أصبحت قريباً من حدود العمار
فإذا بى أجدنى مرة أخرى أمام التابوت، أعدت المحاولة عدة مرات، وفى
كل مرة أجدنى أمامه، فكأنى أسير فى دائرة لا مخرج منها مركزها هو
التابوت، فعرفت أن لا فائدة، وأن على إكمال ما بدأت، فحملته على كتفى
واستأنفت رحلتى حتى وصلت إلى مدينتى فرأيت معالمها تغيرت، بحثت عن
أخوى فلم أعثر لهما على أثر ولا أحد دلنى عليهما فحزنت لهما وأخذت
أبكيهما مدة سنة حتى أيست من نفسى ومن الدنيا فهجرتها وجئت إلى

عذبة المغارة وانقطعت فيها للعبادة وتعلم الحكمة وصنعة الأقلام على أوفق
عثر على صاحب التابوت فأرد له الأمانة قبل أن يأتيني الموت، إلى
أنت فعلمت أنك صاحبه الذي على يديه يفتح ويكون قبري الذي
حسني على ظهرى لأدفن فيه.

كثرت الشيخ وأسبل جفنيه، ولونه تغير، وأنفاسه اضطربت، فأدركت أنه
عز شدة، فازداد جزعى عليه، وكيف لا وقد نمت بيننا عروق محبة. قلت
عشني على صحته: هل تحس تعباً. فأوما إلى وفتح عينيه نصف فتحة
يمس بتهدج: اعلم يا ولدي أنني مفارق الآن، وأن أجلى قد انقطع، فاصنع
معى معروفاً ولك ثوابه. قلت وقد بهت بحديثه: العمر الطويل لك يا والدي،
سرتي وعلى الطاعة. مد يده وراءه فأخرج قماشاً من الساتان وآخر من
خطن وضعهما أمامي وقال: إذا رأيتني خرجت روحى إلى بارئها فاصبر
ساعة حتى تتأكد من موتى، ثم قم بتغسلي وتكفينى فى هذين الثوبين
ته ضعنى فى التابوت.

ما كاد الشيخ ينتهى من حديثه، حتى رأيت رأسه مال إلى الأمام.
رجسده يرتخى ويميل على جنبه اليمين، فقامت جريت عليه وأخذت أقلبه
يميناً وشمالاً حتى تأكدت من أنه قبض فأنمته على الأرض، ثم خلعت عنه
ملابسه وأحضرت آلات الغسل وكان الشيخ قد جهزها فغسلته وكفنته وأنا
قرأ فى أثناء ذلك ما جاء على خاطرى من آيات الذكر الحكيم، وقد أظهر
أمامى كرامة، فإن يده أخذت تتحرك حتى جاءت على عورته فسترتها
فأدركت أنه عالى الرتبة. انتهيت من تجهيزه ووضعت أمامى وصليت عليه
وقممت بتلقينه سؤال الملكين، ثم جلست أبكى مدة ساعة حتى وجدت أن
إكرام الميت التعجيل بدفنه فوضعت فى التابوت وقرأت الفاتحة على روحه
وأرواح أموات المسلمين وخرجت.

كأنى وجدت فى هذه المغارة منذ أبد، فما أن بدأت أخطو خارجها حتى
أحسست بغربة ووحشة، ما قبل مجيئى أصبح غائماً وضبابياً، الآتى لا

أعرفه، ولا عاصم لى الآن سوى التذكر علنى ألملم نشارتى أقبض على
 حكاياتى قبضى على جمر متقد، وحكاياتى فصلتها الأميرة فى المخطوط،
 لكن أحداً غيرى وغيرها لا يعلم عنها شيئاً، وأنا الذى أعطيت كتابى
 بيمينى لم أبج للآن كيف وقع فى يدى، وهأنذا أذيع سرى للمرة الأولى،
 فهل كان مقدراً لى أن أجده فى مدينتى بعد أن أعيانى البحث فى المدن
 الأخرى؟ وتلك البلاد التى جيت طولاً وعرضاً أتقضى أثره دون جدوى،
 فلا أحد رآه أو سمع عنه أو اهتم بالتقصى مثلى، كأنى وحدى المعنى به،
 وأنا وحدى المحس بحسرة الفقد وضرورة البحث عنه، إماطة اللثام عن
 محتواه، تبصرة العباد بخطورته إذا ما عرفه الناس، وهو الذى اختارنى
 وبحث عنى قبلى، أظهر لى نفسه فى ساعة عدم، حين كنت نسيا منسيا،
 وكان يكن فى كنهه يترقبنى ويتربص بى، فى ذلك المبنى العتيق الحاوى
 ذاكرة الأسلاف، والذى كنت آوى إليه كلما دهمنى مصاب أو شعرت بغربة،
 أدمن النظر فى المدونات القديمة. ربما أصاب منها بنفحة تعصمنى، وهل
 كان لا بد أن تحدث زلزلة وينهدم المبنى حتى يظهر من بين الأنقاض؟ ها
 هو يفصح مرة أخرى عن سر من أسرارهِ، ظهوره فجأة بعد كارثة عظمى،
 فكأن الكوارث تحييه، وكأن الملمات والحوادث الجسم مقدمات لبداية
 أخرى له، كيف وقعت الزلزلة؟ وكيف تراقص المبنى على أنغام نافخ البوق
 الملاك؟ كم لبثت مدفوناً تحت أنقاض المبنى؟ خروجى فى اليوم السابع حيا
 بين مهلل ومكبر؟ كيف كنت آخذ نفسى وأردته؟ وما الذى كنت أفكر فيه؟
 إبصارى المخطوط بين الركام؟ كيف عرفت أنه هو دون غيره؟ هل أظهر لى
 علامة؟ هل سعى إلىّ ووقع بين يدى بتدبير منه؟ ما الذى حدث بينى وبينه
 وأنا فى قبرى؟ هل أحسست بألم؟ أو شعرت بعطش؟ أو ألم بى جوع؟ هل
 أعانى المخطوط على كل ذلك؟

تلك حكاية أخرى ليس هذا أوانها.

ت في أذنى كلمات شيخ الجبل: اتجه كما يحلو لك، لتقابل طرفاً
 طريق سلامة، من سلكها راح في غفوة لا قيام منها، وطريق ندامة
 لسالكها رجاء إلا من عصم، وطريق الرواح بلا غدو ينتظر فهي
 طريقك، من سلكها اقتفى خطو أسلافه، تلك طريق المحبين، وفيها
 حنهم، ومنها نجاتهم من حرقة العشق وألم الصباية، دع قلبك دليلك في
 حكمة، فقلب المحب دليله.

ونلحظ علامات يقفوها الفطن، ويهتدى إليها الذكي، فأولها إدمان
 ضر، ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه، ومنها اضطراب
 برو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه، أو عند سماع اسمه
 نحة(*)...

حدث الشيخ أن اسمها مطابق لصورتها، وأنتى حين أبحث عن اسمها،
 عندما أبحث عنها، وأنتى واجده نثاراً في المدائن، وأن لحظة اكتماله أجمع
 من أحب.

وحدث رحمه الله فقال: ليت الأجل يمتد بي لأسيح معك في الدنيا
 يكون تابِعاً لك كظلك حتى تجدها فأحظى بنظرة.

فهل ترانى بقادر على إكمال طريقي وحدى لأشاهد من وقع في عشقها
 قبي، من تعلق وجودي بمجرد النظر إليها، وصل حباثلى بحباثلها،
 نشطاري وتحول ذراتي صوبها، فمن أين وإلى أين الطريق نحوها؟ لمسها،
 تسم روائحها، السباحة في بحر بهائها الفياض، غمرى بغمر من ملاحظتها،
 صابتي بقبس من لحظها المهلك. هل مر حبيبي من هنا؟ هل وطئت قدماء
 تلك الحصباء؟ هل غفر قدمه بهذا الأديم؟ وهل تنسم هواء هذه النقطة
 من الأرض، هل وقف هنا وأخذ نفساً ورده، هل علقت أنفاسه بريح

(*) طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي.

المنطقة، ورأته شمس فطبت ظله على الرمل؟ وهل أبصره قمر ففاجأه
خسوف؟

وهل يكتمل عشقي فأقول له يا أنا؟

حكاية مدينة الحبابين وفيها ذكر صخرة الأحلام كذا بيت الأحران وهى بداية حديث الدنو .. فانتبه

من تعبت؟ نعم والله لقد تعبت وأنا أمر مر الكرام على مدن لا تغرى
- خول فأدخلها . ومدن أتلکأ فيها بحثا وتقبيا عل شيئاً يتكشف لى،
- من موحشة تبغضك فتبتعد عنها، وأخرى تهب نفسها لك من النظرة
ذوى . إلا هذه المدينة أبهى من كل المدن . ليس كمثلها مدينة مما رأيت،
عمرتها غرائب الطابع، بابها الكبير قوس قزح بيخ ألوان الطيف السبعة،
على بابها لا يوجد حراس، حصاها من حجر اللازورد، أديمها مسك
يرعفران شيدت كل قصورها من ذهب وفضة. هل حدثتني الأميرة عنها؟
كأننى جئت هنا من قبل، أعرف ما سوف أفعله. الخطوة القادمة وكيف
خطوها وإلام تفضى بى، حديثا سوف يدور بينى وبين ساكنة المدينة
نوحيدة تفاصيله أعرفها، تقدمت صوب قلب المدينة، لآلىء الأحجار
نكريمة التى تطؤها قدماى تكاد تذهب بصرى، جلوسى تحت ظل شجرة
ورفة الظلال. نعس يصيبنى فلا أفيق منه إلا بعد مدة. يغشائى ألم الجوع
فأتلقت حولى بحثا عما يقيم الأود وأجدها ثمرة تفاح ناضجة ملقاة
بجانبى، أهم بالتهاهما فتأخذنى رعدة لما ألمح آثار أسنان صغيرة مغروسة
بها، تكون فكين صغيرين لقم أصغر سوف أعرف وأعرف صاحبتة، حول
لأسنان كتابة ليس هذا العض من عيب بها. إنما ذاك رسول للقبل
فيا للطف مفتحها لغزو كينونتى، وبالصبرها وتصبرها فى انتظارى، أعرف

أنها تنتظر التفاتتى إليها الآن، ألتفت فأجدها واقفة فى شرفة قصره العالى المواجه للشجرة التى أجلس تحتها. إشارتها لى بالدنو وتقدمى صوبه بلا عائق يعوقنى، صعودى إليها ومثولى بين يديها، بهرى بجمالها. شهقة المفاجأة، اندفاعى ناحيتها ولهفة احتوائها بين ذراعى ترددى لحظة من ألا تكونها، أن تكون فقط تشبهها، تراجعى بعد عقد المقارنة، في سبحان الله، كأنهما توأم شىء وانقسم على نفسه فأنتج صنوه لا يفرق بينهما إلا من عشق، أنست لها وأنست لى، كأننا على ميعاد وكأنها كانت تنتظر مجيئى تعرفنى منذ أمد، جلست بين يديها ساعة لم أكف عن عقد المقارنة ولم تكف عن التحديق فى وجهى، كان الشبه تاما، الوجه المدور المختوم بطابع حسنه أسفل الذقن البياض الذى يشف عما خلفه، ألمح مسرى دمائها. العينين الواسعتين بسوادهما الرائق، شعرها فاحم السواد المنطرح خلف ظهرها وافر الطول، والدسامة، نعومته تكاد ترى، الجسد الفارع محكم البناء أيهما أجمل: هذا الجسد ببنائه المتناغم، أم الوجه الذى يتوجه بوسامته وقسامته وحسنه الفياض؟ كنت أنتظر مجيئك. قالت: وكأنها تلقى بكلمة عابرة، وأخذت تساعدنى فى خلع ثيابى التى بدت لى متسخة بالية وأنا أيضاً كنت أعرف أنى على موعد معك: هنا قلت وهى تسحبنى من يدى ناحيه الحمام، يدها فوق يدي. الأخرى تُحزم خصرى. وأنا منساق إليها كطفل عثر على أمه فجأة بعد غربة.

هل شعرت بخجل التعرى أمامها؟ كشفى عورتى ومكامنى، اتساخ جسدى، هل شعرت هى بذلك؟ هل ند عنها إحساس بالخجل لحظة، كسوف بنت بنوت من تعرى غريب أمامها، جلوسى بين يديها عارياً فى الحمام. انسياب الماء الساخن فوق بدنى وهى تمرسه بأصابعها الحريرية بنعومة ورقة، إحساسى بنشوة المداعبة العفوية. استجابة جسدى لأصابعها، صعودى إلى ذرى من النشوة الخالصة، تثيرى بملاءة بعد انتهائها من تحميمى، تتقدمنى وهى تميمس برهافة عصفور صغير،

عشبي فجأة وأنا اخترق ببصرى أسوارها وحجبها، جلوسى على مائدة
حنت بلذيذ الطعام وأطيبه وإقامها إياى اللقمة تلو الأخرى فكأنها
-فتنى وقد انشغلت عن نفسها بى، جلوسى بجانبها بعد الانتهاء من
-عام ورأسى فى حجرها فوق سر أسرارها وهى تداعب شعرى هل
-ست إلى قبل أن يغلبنى النوم؟ هل قالت حملتك أمانة البحث عنها ،وهل
-ت نقد تعبت يا صغيرى وما حان راحتك بعد . وهل قالت: قم يا حبيبي
-أرض تنتظر بذورك؟

فى وصف المدينة وسبب عمارتها وهلاكها

حدثتني فقالت: إن سبب إطلاق هذا الاسم على المدينة هو أن رجالها كانوا يدبون بعضهم على البعض. كذلك كانت تفعل النساء أيضاً، وكانت لهم طرق وحيل فى هذا الباب، حتى إنهم لم يروا زائراً أو ماراً بتجارته على المدينة إلا وتحايّلوا عليه، حتى تفشت الفاحشة فى طول البلاد وعرضها وانقطع طريق التجارة. ولم يعد يقصدها أحد، فكان ذلك سبباً لهلاك القوم وتدمير المدينة التى قيل إن مثلها لم يخلق من قبل.

وأما سبب عمارتها، فإن أحد الملوك الجبابرة، أراد أن يبنى مدينة تكون عجيبة بين العجائب يفاخر بها سائر الأمم والملوك فاختر أرضاً واسعة كثيرة الأنهار والغدران طيبة الهواء وأمر المهندسين فخطوا مدينة مربعة الجوانب محيطها أربعون فرسخاً، كل وجه عشرة فراسخ، فحفروا الأساس إلى الماء، وبنوه بحجارة الجذع اليمانى حتى ظهر على وجه الأرض، ثم بنوا فوقه بلبنتات الذهب الأحمر سورا علوة خمسمائة ذراع فى عرض عشرين ذراعاً، وكان الملك قد أرسل إلى جميع منابت الذهب فى الدنيا لاستخراجه والبناء به، وقيل إنه استخرج الكنوز المدفونة فى باطن الأرض من عهد آدم عليه السلام، ثم بنى فى باطن المدينة ثلاثمائة وستين ألف قصر، فى كل قصر ألف عمود من أنواع الزبرجد والياقوت المعقود بالذهب، طول كل عمود مائة ذراع، ومدّ على الأعمدة ألواح الذهب

غضة، وبنى على الألواح قصوراً من ذهب بداخلها فى طرق المدينة أنهار
 من ذهب، وجعل حصاها اليواقيت، وجعل على شطوط تلك الأنهار أنواع
 خيل والأشجار جذوعها من الذهب وأوراقها وثمارها من الزبرجد
 والذلى، وجعل للمدينة أربعة أبواب، كل باب ارتفاعه مائة ذراع وعرض
 ثمانين ذراعاً، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة، كل منارة طولها
 خمسمائة ذراع، فلما فرغوا من بنائها سير الملك إلى مشارق الأرض
 يغاربهما لجلب البسط والستور والفرش من أنواع الحرير لتلك القصور،
 يتخذوا جميع أنواع الأوانى والأطباق والقصاع والموائد والمنائر والسرج
 يتخذون من الذهب، كذلك جلبوا أنواع الأطعمة والأشربة الفاخرة والنقل
 ينحوى والطيب والشموع والبخور مثل العود والعنبر والكافور، فلما فرغوا
 من ذلك كله، اتخذها الملك سكناً له ولخاصة أتباعه، وكان أبى من جملة
 أتباع هذا الملك، فقد كان وزيره، وعشت أنا وهو وحدنا داخل هذا القصر
 لأنه لم يرزق غيرى وقد توفيت والدتى، فلا يكاد يفتحه إلا للذهاب إلى
 بيوت الملك، أما أنا فلا أخرج منه خوفاً على نفسى، وكان أبى رجلاً
 صالحاً لا يشارك الملك وخاصته فى المجون والتبذل وتلك الآفة التى
 تسلطت عليهم جميعاً، فكانوا يأتون بعضهم البعض فى الطرقات والشوارع
 والبيوت، باختصار كانوا يفعلون الفاحشة فى كل مكان فى المدينة، وقد زين
 فقهاء مملكته هذا الأمر بإصدار الفتاوى وتأليف الكتب التى عثرت على
 أحدها مطموراً تحت أنقاض المدينة وهو فى أدب الدب ونوادير أخباره
 يملح أشعاره لمؤلف اشتهر بالفسق عرف بابن الدباب، وقد أحرقته حتى
 لا تقع عليه عينا مخلوق، وهذه الكتب كان منها الكثير لأن الملك أقام
 مسابقة سنوية باحتفال عظيم لمن يكتب أفضل عمل فى هذا الباب.

وحدث فى أحد الأيام أن سمعت جلبة وحركة غير عادية خارج القصر،
 فخرجت إلى الشرفة لأنظر ما يجرى، وكانت الملكة تمر فى هذه اللحظة
 بموكبها، فلما اقتربت من القصر نظرت إلى فوق فرأنتى أطل من الشرفة

أنفجر توقفت لحظات وهى تتطلع إلى وتسأل بعض الحرس عمن يكون صاحب هذا القصر، فلما علمت أنه لوزير الملك استأنفت سيرها وأنا جلست فى انتظار أبى حتى يعود من الديوان، فلما جاء أحضرت الطعام فأكلنا وشربنا، وبينما نحن كذلك، إذا بطارق يطرق الباب فقام بنفسه ليفتحه، وكان أبى رافضاً لإقامة الخدم والحشم فى قصرنا لعلمه بفساد الجميع، فلما فتح الباب وجد حرساً ورسولاً من قبل الملكة تدعونى لمقابلتها. فلما علم أبى بذلك اغتم غمّاً شديداً وقال لى: هل رأيتك الملكة اليوم؟ فقلت نعم. هز رأسه وضرب كفّاً بكف وهو يقول لا حول ولا قوة إلا بالله، فاعلمى يابنتى أن الملكة أرسلت تطلبك، وأنا لا آمن عليك منها فهى فاجرة تفعل كذا وكذا، ولكن ما قدر الله يكون ولا بد من ذهابك فكونى على حذر. فلما ذهبت إلى مقابلتها، قادنى الحرس داخل القصر فلمحتنى إحدى وصيفاتها فتقدمتى وأنا تبعتها حتى رأيت نفسى بين يديها. أخذت الملكة تنقرس فى ملامحى وتتأمل جسدى وهى تعض على شفيتها وعيناها جحظتا. ثم إنها أشارت لى بالجلوس بجانبها على الفراش فجلست، وفى أثناء حديثها أخذت تتحسس جسدى وقد كشفت لى عن نيتها الخبيثة، ولم أدر ماذا أفعل فقلت أطيل الحديث معها عسى أن يمدنى الله بالفرج من هذه الشدة. وقلت لها: يامولاتى ما أنا إلا جارية من جواريك، وعندك منهن من يفقننى حسناً وجمالاً، فدعيني أرجع إلى أبى فليس له غيرى.

قالت: هذا لا بد منه. ثم إنها قامت على وبركت فوقى وأنا أقاوم وأرفس بقدمى الهواء وأخذ اليأس يدب فى نفسى فحانت منى التفاتة فلمحت سكيناً موضوعة بجانب طبق فأكهة بالقرب من الفراش فاستجمعت قوتى ونفضتها بعيداً عنى وبسرعة أخذت السكين ووضعتها على رقبتى وهتفت: الموت عندى أهون مما تطلبين. فلما آيست منى تركتني أرجع إلى أبى وأنا لا أصدق بنجاتى منها.

حَزَّ رجال الشرطة جاعوا في اليوم التالي وقبضوا على أبي بعد أن أوعزت سكة لزوجها أننا ندبر له مكيدة، وأراد الملك إنزال أشد العقاب بأبي عسب في وسط المدينة وظل معلقا مدة ثلاثة أيام تأكل منه جوارح الطير.

حدثتني فقالت: لم يمر على وفاة أبي بضعة أيام قلائل حتى مرضت ومات، فأخذوا في تحنيطه لتبقى صورته ولا تتغير، كذلك كانوا يعلون بموتاهم من الملوك وأرباب الحكم فلما مات رأوا أن أمرهم قد تبد وتضعفت أركان الدولة فضجوا بالبكاء، واغتمها الشيطان فرصة تدخل في جثة الملك، وأخبرهم أنه لم يموت ولا يمكن أن يموت أبداً ولكنه تعيب عنهم حتى يرى صنيعهم من بعده. ففرحوا أشد الفرح، وأمر شيطان، الذي يتكلم بلسان الملك، خاصة أن يضربوا له حجاباً بينه وبين رعية ليكلمهم من ورائه فوضعه داخل صنم وضربوا عليه حجاباً، يخبرهم أنه لا يأكل ولا يشرب ولا يموت وأنه لهم إله. فصدق كثير منهم وتدخلوا في عبادته ففشا الكفر فيهم وازدادوا إفساداً في الأرض، فبعث الله إليهم رجلاً صالحاً فأعلمهم أن الصنم لا روح له وأن الشيطان قد أضلهم، وأن الملك لا يجوز أن يكون شريكاً لله تعالى، وأخذ يعظهم ويحذرهم من نقمة الله وغضبه فقتلوه ومثلوا بجثته. ولم يمهلم الله عز وجل، فقد أصبحوا فإذا جميعهم قد أصيبوا بمرض خبيث لا دواء له، فصاروا يتساقطون كأوراق الشجر في الخريف وامتألت الطرق بالجثث حتى فنوا كلهم، وأضحت المدينة خاوية على عروشها لا يسمع فيها إلا عزيف الجن والسباع الضارية. وكنت قد ادخرت من الطعام والشراب ما يكفيني فأغلقت بابي على نفسي. وفي أحد الأيام، نصبت تحت الرمل، وكان أبي قد علمنى كيفية قراءته، فعلمت أنك لا بد أن تمر على مدينتنا في طريقك للبحث عنها، فأخذت أنتظر مجيئك، وهذه هي حكايتي من بداية حتى النهاية.

* * *

كم من الوقت مضى منذ مجيئي إلى مدينتها، جلوسى فى القصر أنا
 وهى، حديثها معى، توفى للقرب منها والتمسح بها، رنوى إليها كلما غدت
 أو راحت، تأمل جسدها الفياض المترع بالأسرار، إدمانى النظر فى بحر
 أنوثتها الطاغية المشعة، مرتفاعتها وهضابها وسفوحها، أسوارها محكمة
 التشييد، انجذابى فى محيطها ودورانى فى فلكها غير المرئى. فى حديثها
 ترياق من ألم الصباية ومحنة الوجد المشبوب، صوتها وشيش بحر يسكن
 ودعة، سكوتها وحشة ليل أبدى لا يحتمل، حدثها عن أسمائها، وحدثتى
 عن اسمى الذى تعرفه قبل رحيلى صوبها، عما أبحث عنه، عن مدن لم
 أرها بعد، وعن أناس ينتظرون مجيئى، وعن أراض دب فيها الفناء أحط
 رحلى فتزهر. قالت إن أول أسمائها يعنى الأرض فى اللغة القديمة، وإنه
 وجد منقوشا على تابوت من الذهب عثروا عليه أثناء عمارة المدينة، وحول
 الرسم دائرة فيها عبارة: أنا كل ما كان، يكون، وسيكون، وما من بشر فان
 رفع عنى ردائى بعد. هذه العبارة حفظتها، كانت ترددها بينها وبين نفسها،
 قالت إنها لم تفهم معناها حتى الآن، لكنها تحس أن لها معنى قدسياً كلما
 رددتها. وقالت إن «عنقاء» هو اسمها المعلن الذى عرفت به، هناك أسماء
 أخرى لا يعرفها سواها، وأنها سوف تعلم وليدها لما يأتى بجميع أسمائها
 وقالت إنها تعرف الشبه المطابق بينها وبين الأخرى، لذلك فهى لا تخدع
 من إدمانى النظر إليها علامات صبابتى ووجودى كلما نظرت فى عينيها،
 فأنا أتشوف الأخرى فيها، وقالت إن عشقى على البعد لازمها، لكنها تعلم
 أننى لست رجلها، وأننى لا أدرى إلى أى أرض يكون رحيلى، إن هى إلا
 محطات، فرحيلى دوماً صوب الأخرى، من أجلها أسيح سياحى، وإليها
 أقطع المسافات، تعجبت من مجالدتها على عشقى، تصبرها وعفافها رغم
 دنوى منها ومكثى بجانبها، محاولتى بالقرب التى تقابلها بالابتعاد كلما
 هممت بمداعبتها، مزج رحيقى بشذاها، تقليب تربتها، تمثلت نقش اسمها
 إذا يقول: وما من بشر فان رفع عنى ردائى بعد. هل كان نقشها يترصدنى،

- منى إلى أن لا فائدة من الدنو، وأن وصلى رهين بالأخرى صاحبة
- حضرت، فيها ولها وحدها وجدى ووجودى.

نبتت بالمدينة أياماً لا أدرى عددها، لا شيء أفعله، لحظة يصيبني ملل
نحسبني عنقاء فنهيم فى طرقات المدينة ودروبها الخرية، تشرح لى ما
حس من أمرها رأيت أشجاراً تطرح ثماراً كالبشر - تقول عنقاء إن بعضها
نشرح إنثاء، وأخرى تطرح ذكوراً. أما أشجار الأنثى فثمارها إنثى معلقات
- شعورهن، أحجامهن مثل أحجامنا، بجانبها أشجار الذكور، علامات
- كورة والأنوثة ظاهرة، كاملة الملامح والتفاصيل، يتكاثرون عن طريق
جزء، أهل المدينة كانوا يحبون هذه الثمار لحلاوة طعمها، حكاية هذه
- شجار معروفة ومتداولة، وهى عن شاب وفتاة عشقا بعضهما البعض،
عشقا طاهرًا، كان عشقهما منزهاً عن أية أغراض، فقط تمنيا العيش
جنب بعضهما البعض هربا بعشقهما وسكنا هذه الأرض وتمنيا دوام
عشقهما إلى الأبد، فتحولاً إلى شجرتين متلازمتين هما أصل كل هذه
- شجار، فى الليل تسمع أصوات نحيب آتية من هذه الثمار ومناجاة
- تنقطع حدثتني عنقاء عن شجرة من ذهب وعليها طائر من الذهب
يضاً، وقالت إذا جاء أوان حصاد القمح صفر ذلك الطائر صغيراً عالياً
فتأتى إليه الطيور من كل أنحاء الدنيا، وكل طائر يحمل بين رجليه وفى
مقاره سنبله، فيجتمع لأهل المدينة من القمح ما يكفى لطعام سنة.

كانت عنقاء تأخذنى فى كل يوم لزيارة عجيبة من العجائب فى مدينة
ندبابين، أطلعتنى على نفائسها وكنوزها، ما كان ظاهراً منها تحققتة، أما
بناقى فقد طمر، بأدمع أهلها، كأنه ما وجد من قبل. رأيت كل شيء حتى
مليت فقررت الرحيل، فما زال بحشى قائماً. أحست عنقاء بما أفكر فيه
ففاجأتنى: لن ترحل قبل أن تشاهد صخرة الأحلام، بعدها ارحل كما
تشاء، لا محل لبقائك بعد زيارتها، وعندها سوف تجد الإجابة على
سؤالك: لماذا جئت هنا أصلاً؟

صخرة الأحلام

كنا نقرب من نهاية حدود المدينة عند ناحيتها الشرقية لما رأيناها، كتلة باهرة من الضوء اللامع توهج ما حولها بألوان قزحية، توقفت عنقاء فجأة، شدتني من يدي حتى لا أتقدم. قالت: لو تقدمنا خطوة واحدة نحترق في الضوء كان من المفروض المجيء ليلاً، هكذا جرت العادة لمن يأتي هنا، أشعة الشمس المنعكسة تلهب المكان، لا أحد يستطيع التقدم نحوها الآن، ولا بد من الانتظار. أخذت أسرح نظري فيما حولى، وما تبقى من عمارة المدينة قليل، لكنه ينبئ بالفادحة التي نزلت، أخذت عنقاء يدي بين يديها، كانت تضغط عليها بشدة، بينما امتزج عرق كفى بعرقها، وبدت عينها منديتين بدمع محتبس وهي تختلس النظر إلى وجهي، وشاهدنا الشمس تنحدر سريعاً لتسقط خلف التلال البعيدة، تقدمتني وأنا أتبعها حتى اقتربنا من الصخرة العملاقة الرابضة في مهابة، لم تكن صخرة كما بدت لى من بعيد، بل هى جوهرة حقيقية، تعاشيق فصوص الزمرد والياقوت واللازورد ترصع كتلتها المستحيلة وتضئ الظلام الذى أخذ يزحف علينا تقول عنقاء إنها واحدة من أربع لا يوجد مثلهن شبيهه، وأنهن من كنوز قوم عاد وقد تم اكتشافهن حين شرع الملك فى بناء المدينة فأقيمت عليهن الدعامات الأساسية لها، وأن لهن خصيصة واحدة، من غاب له غائب يذهب إليهن، يببب ليلته ملامساً لهن فيرى فى حلمه من يبحث عنه،

عندما بادت المدينة اختفت الجواهر الثلاث، ولم تبق إلا واحدة هي هذه. تنز عناق إن حجمها كان أكبر مما هي عليه الآن، وأن جزءاً كبيراً منها سمته الأرض وتركت فقط ما نراه أمامنا، وأنها سوف تختفي هي أيضاً. سوف أشهد اختفاءها وآخر من يراها.

جلسنا جنب الزهرة، اتكأ كل منا بظهره على السطح الأملس اللامع، فترت منى، كان لون وجهها الشاحب يشف عما بقلبيها، طوقتها بذراعى مستكانت على صدري، وتسلت نعومة ملمس جسدها وسخونته إلى حسدى فسكن إليها، كم من الوقت مضى فى جلستنا هذه، لا شىء يؤنسنا سوى دقات قلبينا، تنهداتها بين وقت وآخر، سيل دمعها الدافق فى صمت على صدري، نشيجها المكتوم، توترى وترصدى لما سوف يحدث وبينما نحن على هذه الحال غفونا، ورأيتها أمامى، ولوهلة ظننتها عنقاء ولكن مع دقة نظر وتغير أحوالى عرفت أنها هي الأميرة، كانت تشير إلى وتبكي، كانت غريبة منى فأخذت تلتف حولى، مددت يدي لأمسها فابتعدت فجأة، لفت حزل نفسها فى رقصة موقعة، جسدها النورانى أخذ يتثنى بليونة ماء متدفق ومتماوج أنثوية الروح، والجسد المضوى يحيل الليل إلى بهاء سمردى من نور ونار وعطور فواحة البهجة وحدائق وأعشاب وجنة ليس كمثلها شىء. كان الجسد الأثيرى يسرع من دفق دورانه، بل سريانه كريح عرصر لا يرى مركزها، فى اللحظة التالية كان هناك انفجار كونى، نعينان أخذتا تصاعدان تكوينان أفقا له زرقاء سماء تخلق للمرة الأولى، ممانتا الصدر كاملتا النضوج تطيران ناحية الأفق لتستقرا كوكبين دريين تانثرت حولهما نجوم وشموس وأقمار كل فى فلك يسبحون، الساقان نريلتان السامقتان تحولتا إلى فرعين صغيرين لمجرى نهر عملاق نبعه نتفجر عند سرها المكنون، كنز كنوزها الذى لم يكشف بشر فان غطاءه بعد، الجسد الأرض ينبثق خضرة وزهوراً وفاكهة ونخلا وحدائق غناء، كئنها السماوات والأرض لما كانتا رتقا. هأنذا أرى لحظة فتق أخرى، جليلة

ومهيبة، ورأيت النقيض فى اللحظة ذاتها، العدم يبتلع كل هذا الانبثاق الطفولى، ينتشر سريعاً ويأخذ فى التهام كل شىء، ظلام حالك بلا هوية، سديم هوى لم أستطع النظر إليه، ورأيت شيئاً يتحرك داخل الحلقة، عمود من دخان أخذت كثافته تتضح وتشتد، ظهوره موجة وراء أخرى، قوية ومباغته، انتشاره فى السماء مكوناً كتلة غامضة لم تفصح عن هويتها بعد، لكنه الآن أخذ يكون دائرة واضحة المعالم، كان حرف الميم مرسوماً أمامى مائلاً الأفق، لا شىء غيره، حرفاً واحداً متوحداً بنفسه مكتفياً بذاته، دائرته تشبه رحماً عميقاً هائلاً، حياً ونايضاً. هل استقر لحظة قبل أن يلتهمه العدم فتساقطت منه قطرات تبلل وجهى، وهل صحوت من غفوتى وأنا أمسح على وجهى المبلل بالندى؟

كانت عنقاء نائمة ما زالت على صدرى، أيقظتها برفق فاعتدلت. وأخذت تمسح هى أيضاً وجهها. قلت لها: هل رأيت ما رأيته؟

قالت: لا لم أر رؤياك، فهذا سرّك الخاص لا أحد يستطيع رؤيته غيرك لأنك الوحيد الذى تفكر فيه. كانت الشمس لم تطلع بعد فهمنا بالمسير قبل ظهورها، وبينما أنا ألتفت ورائى، إذ رأيت الجوهرة وقد غاصت فى الأرض ولم يتبق منها سوى قممتها، وأبصرت مكتوباً عليها حرفاً بارزاً وواضحاً لا لبس فيه، تماماً كما رأيته، كان حرف الميم.

* * *

ميم، الحرف الأول من اسمها الحامل ملامحها، رائحتها، مروجها المزهرة، أحمله الآن بين جوانحى، أنا الراحل دوماً صوبها، ماشياً على صراطها فى سكة الذى يروح ولا يرجع، فما من عاشق أخلص فى عشقه إلا وسلكتها، كهذا يكون رحيلى صوب من حنت ومنت بنتف من ملامحها على نساء الدنيا، مثلما رأيت عنقاء، وكما سوف أرى كل من أقابلهن، لهن بعض صفاتها، فكأنها توزعت فيهن أو أصابهن قبس من روحها.

كذبت عنقاء فكذت أجهش، لحظات وداعها لى، بكاؤها المر على صدرى،
بسررها المكنون منذ قدومى عليها، رؤياها التى رأتها عند صخرة،
عازلة. قالت: وجدته مكتوباً فى طالعك وطالعى، هأنذا أرى فى حلمى عند
صحرة ما ظننت استحالاته، كيف أحمل منك وألد دون أن تمسنى، دون أن
تغنى رداى، دون أن تثن عليك أحشائى فيرونى فيضك، لقد استلقت
حيت فحط سيلك فى أرضى فأزهرت، ورأيت عند الصخرة ولداً يخرج
يحمى هو منك ومنى، وهو امتزاج فيضين دون ولوج.

تفضت به عنقاء وأنا أحمل عدة رحيلى جعلنى أفكر بالنكوص،
تكتفاء بما مضى وأكف عن بحثى، السكن إليها، رؤية ولدى لما يولد، تأمل
تصمعه، رصد حبوه، وقوعه لحظة يخطو خطوته الأولى، سماع لثغ صوته
ينطق أول حرف، لكن عنقاء العارفة بالطوالع تحدث أنه سوف يكبر
عياً عن حجرى، وأنه سوف يبني مرة أخرى مدينة الدبايين ويعمرها،
يسمىها باسمى، وعلى يديه تظهر كنوزها المدفونة، وهو الذى سوف يخوض
معمرته الكبرى فى البحث عنى فى كل أنحاء الدنيا، فهل يجدنى؟ تلك
حذية أخرى ليس هذا أوانها.

من ذا الذى مر من هنا قبلى، ومن ذا الذى وقعت عيناه على ما أبصره
نآن: ولا رفيق يؤنس وحدتى أتكى عليه حين يصيبنى تعب مفاجئ، أسمع
برصوته يحدثنى حديث ود، نهزم أنا وهو وحشة الصمت ونقتسم مخاطر
نطريق، تذكرت المخطوط، يحدث عن لحظات حرجة سوف أمر بها،
عاصفة من قنوط تعصف بى:

لحظة يدلهم بك الوقت، وحين ينتهى بك المطاف أن تصبح عند مفترق
ضرق، ولا تجد غيرك على ظهر دنياك، عندئذ، عليك أن تلوذ بالخيال، دع
حكايتك تقودها هناك، حيث العالم أكثر اتساعاً ورحابة، أكثر روعة وبهاء،
بهذا وحده تهزم عدمك، وبه يكون حبل نجاتك.

جبل الحكايات

كانت الشمس تنحدر ناحية الغرب وقرصها المستدير الدامى يصيبغ الأفق بلون الغروب، بينما أنا أوسع من خطواتى مجدداً فى مشيى حتى أشرفت على مكان تحوطه الجبل من كل ناحية، سلاسل من جبال سامقة فى سموخ، كانت قممها غائصة فى سماء رمادية، كأن هنا آخر حدود الدنيا، وبدا لى أننى لن أتقدم خطوة واحدة أبعد من ذلك، وأن خلف هذه الجبال لا يوجد شىء، فكدت أرجع مرة أخرى إلى حيث بدأت حين لمحته، طريقاً حلزونياً يلتف حول الجبل متصاعداً لا يكاد يبين، يكفى لمرور شخص واحد على قدر حجمى، بدأت رحلة صعودى وكلما خطوت خطوة أجد شيئاً ما يشدنى لأعلى حتى ظننت أنه أحد جبال المغناطيس التى قرأت عنها، لما اقتربت من منتصفه سمعت صوت قعقة فى الجو شديدة أضاءت الظلمة من حولى، ولحت ما وقف له شعر رأسى، إذ رأيت عفريتاً واقفاً أمامى ساداً الطريق، كان طويلاً كصارى مركب، عيناه تقدحان شرراً، مد يده فأمسكنى من وسطى فأخذت أرفض الهواء بقدمى وقد أصابنى الدهول مما أنا فيه، فلو أنه جلد بى الأرض لاختلط بعض وأنهد أساسى وفرعى، ثم إنه قربنى من وجهه فكدت أفارق من خلقته، وابتدرنى قائلاً بصوت الرعد إذا قصف: ما الذى أتى بك إلى هنا أيها الإنسانى، فقد سعيت إلى حتفك بقدميك، اختر ميتتك بنفسك، فهذا لا بد منه. أيقنت

نهايتي على أيدي هذا العفريت فنطقت الشهاداتتين وأغمضت عيني
وصرت بين يديه كقششة في وجه الريح وأنا معلق من وسطى، ها.. لا
تركني أنتظر، هل اخترت بأية طريقة تحب أن تموت؟ أخذت أبكى وأرتعد
بوقفت في طولهِ وعرضه أن يتركني، فلأى شيء تريد موتي وأنا ما فعلت
شئ ما يوجب قتلى. فنظر إلى نظرة غيظ وقال: أنت لا تعرف كلمة السر
حتى أتركك تمر، هذا هو جبل الحكايات، وأنا الحارس عليه، ولا أدع أحداً
يمر إلا إذا رمى على كلمة السر. قلت: وكيف لى أن أعرفها؟ فأجابنى
قائلاً: فتش عنها في نفسك فلا بد أنك تعرفها وإلا لما جئت إلى هنا. ولما
لنى سكت ولم أعد أعرف بماذا أنطق أكمل قائلاً:

احك لى حكاية لا أعرفها فأهيك حياتك وأدعك تمر بسلام، وإذا لم
تفعل ذلك أكلت لحمك قبل عظامك، وعليك أن تتذكر أننى عفريت
حكايات، خلقت منها وأعيش فيها وأحفظ الكثير.

كيف أحكى حكاية وأنا هكذا معلق من وسطى بين سماء ضبابية
شاهقة، وأرض ما عدت أراها؟ وما الذى يمكن حكيه لعفريت حكايات؟
فما أعرف، لا بد أنه يحفظه هو أيضاً، لكن هناك شيئاً واحداً لا يعرفه
غيرى، حكايتى أنا، سوف أحكى حكايتى مع المخطوط، ما جاء فيه، وما
حدث لى منذ وقوعه فى يدي حتى الآن، هكذا بدأت، وأخذ العفريت
ينصت لى، حتى انتهيت فنظر إلى وهو يهز رأسه يميناً ويساراً، ثم إنه
وضعنى برفق على الأرض وانفجر مقهقهاً فكأن الجبل كله يضحك: ها..
ها.. ها... حكايتك جميلة يا إنسى سوف أحكيها لأحفادي
وعشيرتي ثم رف بجناحيه وطار عالياً حتى اختفى عنى، تنفست وبلعت
بقي وأنا لا أصدق بنجاتى من يده وأخذت أكمل طريقى صاعداً جبل
'حكايات، وكلما قطعت مسافة أرى أشياء عجيبة، فهذه أمم من المردة
والجن والشياطين لا يحصى عددهم وهم بيض وصفر وشقر وبلق على
صور الخيل والبغال والسباع، ومنهم من كانت وجوههم فى أقفيتهم، ومن

له رأسان، ومن كانت رؤوسهم رؤوس ثعابين وحيات وأبدانهم أبدان فيلة، ورأيت كائنات على صورة الإنسان يتكلمون بلغة غير مفهومة ولهم أجنحة يطيرون بها، وأمة وجوههم كوجوه الكلاب وسائر بدنهم كبدن البشر، وأمة على صور الناس ولا توجد عظام فى أرجلهم فيزحفون زحفاً فإذا وجدوا إنساناً ماشياً قفزوا على رقبتة ولفوا أرجلهم حولها وسخروه لأعمالهم، وهؤلاء موطنهم الأصلي ألف ليلة وليلة، ومن كان له رأسان وثمانى أرجل، ونساء لهن شعور وأثداء يلقحن من الريح ولهن أصوات جميلة، وهؤلاء موطنهم سيرة الملك سيف، وأمة لا رأس لها وأفواه أفرادها وعيونهم على صدورهم، وخلائق لها نصف رأس ونصف بدن بيد ورجل واحدة كأنها إنسان قد نصفين، وما من إنس أو جن أو وحش وطير جاء ذكره فى حكاية إلا ورأيته، ولهم بيوت معلقة فى الهواء بنيت من الأحرف والكلمات، وعلى كل بيت يافطة كتب عليها اسم ساكن البيت وصفته وموطنه الأصلي وزمن ولادته فى الحكاية وأطوار نموه المختلفة على مدار الأزمان، وأعجب ما رأيته هو ما سوف أقصه الآن، ففى عمق الجبل رأيت قطعة من الأرض الفضاء ورجالاً ونساء وحيوانات منشغلين ببنائتها، وخلف كل هؤلاء لمحت شيخ الجبل يلقي عليهم بتعليماته، جريت عليه أحتضنه وأنا لا أصدق أنه مازال حياً وقد دفنته فى التابوت بيدي، لكن جسده انسرب من بين يدي كالهواء، ووجدته يبتسم ويقول لى: لا تعجب فأنا فى عالم غير عالمك، وهذه المدينة هى مدينتك، ولن تكتمل إلا باكمال حكايتك، فلا شئ يضيع هنا. ثم إنه تركنى وانشغل مرة ثانية بما يفعله. تركته ومضيت فى طريقى حتى وصلت قمة الجبل، نظرت لأسفل فرأيت بحراً متلاطم الأمواج. هل تنتهى زحلتى هنا؟ هل لابد لى من عبور هذا البحر الذى لا يظهر شاطئيه لناظرى؟ وكيف أعبره؟ جلست على قمة جبل الحكايات وقد أخذت الأسئلة تلح على خاطرى دون إجابة، بينما أنا كذلك إذ سمعت صوتها يقول لى:

بـ حبیبی، لم یبق لك سوى خطوة واحدة فاخطها
ولا تخف، لن تسقط في اللجة إذا كان إيمانك بي
ملاً فهيا أقودك إلى حيث ترانى.

لن حديث الأميرة يحثنى على عبور البحر، فلا طريق أسلكها غيره،
نظرت إلى اللجة المظلمة تحتى أتراجع خوفاً، فأى خطوة هذه التى
حزنها فلا يمسنى سوء، ولا أستطيع الرجوع من حيث أتيت فما عبر
عن لحكايات أحد، وعاد مرة أخرى إلى الحياة، وأهون عندى الموت غرقاً
تحولى شبحاً يسكن الجبل، وقفت وأخذت أقترب من حافة الجبل
غضت عيني وأنا أستحضر الأميرة فى قلبى وخطوت. فتحت عيني
فرايت نفسى على الضفة الأخرى للبحر، حمدت ربى أنى مازالت حيا
على، وتقدمت بضع خطوات حين لمحت عن بعد عدة أبنية متناثرة،
تدلت حيلى وأخذت أجتهد حتى أصل إليها، بدت لى البيوت مهجورة
يكنها بنيت بالمصادفة، فلا توجد طرقات أو شوارع وميادين، لا سور
يسورها، فكل جهاتها مفتوحة، لم أجد أحداً فى طريقى فأخذت أتوغل
بينها، بيوت طوابقها بنيت على الأرض بلا سلالم، تدخلها من أى طابق
فالأول مثل الأخير، وبيوت تنتهى فجأة فى الفراغ دون اكتمال، وأخرى
مائلة على جنبها كأنها توشك على سقوط، وبيوت معلقة فى فراغ فلا أحد
يستطيع الوصول إليها، المواد المستخدمة فى البناء مختلفة. بعضها بنى
بالطوب اللبن، البعض الآخر بنى من معدن لامع، أما أشكالها فهرمية
وزباعية وسداسية ومخروطية، على الطرف وبعيداً عن كل البيوت رأيت
حوتاً رابضاً على الرمال عملاقاً ومهيّباً، ورأسه فى اتجاه شروق الشمس،
أما ذيله فلا يبلغ البصر مداه، زعانفه بدت كمراوح هوائية عملاقة،
اقتربت بطيئاً حذراً من مفاجأة قد تحدث حتى وصلت فرأيت على جانب
السمكة من ناحية اليمين باباً علقت عليه يافطة كتب فوقها وبالخط الثلث:
هنا بيت الأحزان، ومن دخله فهو آمن من فرح الزمان الزائف.

بيت الأحزان

دفعت الباب بيدي فانفتح، دخلت فواجهتنى قاعة مستطيلة الشكل،
أفضت بى إلى ممر ضيق طويل، مشيت مدة ساعة وقد شملتني ظلمة،
وأخذت أتحمس الجدران اللزجة، وكلما قطعت مرحلة كان الممر يضيق
حتى أصبح لا يتسع إلا لشخص واحد يمر زحفاً على يديه وقدميه خائضاً
فى ماء آسن له رائحة نتنة، ثم ألفت نفسى فى قاعة واسعة، كانت باتساع
مدينة، طولها لا يحده نظر، عرضها مثل ذلك، وشممت هواء رطباً وقد
غشيتني ضوء مبهر مفاجئ، وواجهتنى زحمة من رجال ونساء، أخذوا
يتطلعون إلى باندهاشة بدت على ملامحهم، لكن سرعان ما انصرفوا
عنى، أثار منظر الرجال والنساء عجبى، وجوه خلاسية كهلة، لا يوجد
بينهم شاب واحد أو طفل. النساء متشحات بالسواد، الشابات منهن
تخطين الأربعين، أجسادهن ضامرة، لا أحد يتحدث مع الآخر، بل الجميع
فى صمت تام، وقفت أنا أيضاً صامتاً لا أعرف إلى من أتحدث، وأخذت
ألتفت حولى فلمحت شيخاً واقفاً منزوياً فى أحد الأركان، ولا بد أنه لمحنى
أيضاً، فقد أشار لى بالاقتراب فدنوت منه، هييته ظاهرة بينما ملامحه
تنبئ عن عمره كان أكبر من كل هؤلاء، وجهه الأبيض المدور تملؤه لحية
طويلة، ذؤاباتها محدوفة على صدره، تكاد تخفيه، وقفت أمامه وصار هو
يتأملنى، نظراته العميقة كانت تخترق حجيتى، أصابتنى رعدة، فهذا الوجه

جس غريباً عنى، أين رأيته من قبل؟ أشار لى بالجلوس، فجلست، أما هو
 عند أطرق ساعة، ثم إنه رفع رأسه وتنهَّد قائلاً: أنت هو، ننتظر مجيئكَ
 من زمن. كأنه صوت آت من جب عميق له نبر حلو أحببته، لم أعبّر له عن
 -عنى لسماع اسمى يذكّر فى هذا المكان، ولم أجعله يعرف بما يدور فى
 -عنى من أسئلة، بل أطرقت أسمع حديثه بعد أن أحكمت غلق كل منافذى
 : من أن تنصت، حدثنى عن علاماتى الظاهرة، لذلك فقد عرفنى، وعن
 -غزيرى على المخطوط، ظهور سيدة نساء العالمين لى، تكليفها لى بالبحث
 -تج. لم أشلاء اسمها من كل المدائن، رحيلى دوماً صوبها، حطى فى مدن
 -ع يطأها سوى. رؤيتى لشيخ الجبل وحديثى معه. مرورى بمدينة الدبابين،
 -عنى الذى أذف وقت مجيئه، رؤية الحرف الأول من اسم الأميرة تأكيده
 -عنى أن الحرف الثانى مدركه عما قريب، فما جئت هنا إلا لهذا السبب.
 -عناؤه لى بدنو المسافة واجتماع الشمل، إطراقه مدة ساعة بعد حديثه،
 -عزّاله فجأة عن شيخ الجبل، تهدج صوته إذ يذكره، تذكرى أين رأيته هذا
 -نرجه من قبل، الشبه التام بينهما، إلحاحه فى طلب الحديث عنه. لحظاته
 -تأخيرة كيف كانت؟ همساته لحظة احتضاره، ما أوصى به، كيف بدت
 -علامحه وهو يدنو من العدم، هل تألم؟ هل أحس بوحشة الفراق؟ حدثته
 -بالتفصيل عن كل ما سأل عنه، اهتز جسده فى نشيج مكتوم وأشاح بوجهه
 -عنى حتى لا أرى دموعه. سألته: وهل تعرفه؟ تنهد ونظر أمامه متأملاً،
 -قال إنه أخوه الأصغر. تذكرت حديثاً دار بينى وبين شيخ الجبل عن أخويه
 -نتاجرين ومفارقته لهما فسألته: لك أخ آخر؟ قال: نعم. لكنى لا أعرف
 -عنه شيئاً، ضعننا فى المدن أنا وهما إلى الأبد، كنت أعرف نتقاً من
 -خبارهما إلى وقت قريب. ما إن أكمل الشيخ حديثه حتى بدأ يسعل سعالاً
 -متواصلأ وروحه تكاد تخرج من كل سعلة يهتز لها جسده، وأخذت أنفاسه
 -تسرع وهو يحاول أخذ نفسه وقد جحظت عيناه ورفع يده يقبض على
 -لهواء بقبضته، ويده الأخرى أمسك بها رقبتة. قلت: لا حول ولا قوة إلا

بالله، وتلفت حولى بحثاً عن نجدة، فكان الناس يمررون بجانبه ويرونه ولا أحد يهتم. إلى أن هداً من تلقاء نفسه وذهبت النوبة فجلس صامتا. وأخذت أنا أتلهى بالنظر فيما حولى. رأيت أكداً من الصور مكومة فوق بعضها، صفائح بوية وأصباغ مختلفة الألوان، وبينما أتساءل فيما يفعلونه بتلك الصور والأصباغ إذ سمعت صوت يوق مباغت أرعدى وأرجف فؤادى، فكأنه صوت صاحب الصور، وما أدرى إلا والناس فى هرج ومرج وهم يتركون ما بأيديهم ويتجمعون، حتى اصطفوا فى مكان واحد كل فرد له نظيره الواقف أمامه، ومد كل منهم يده إلى الآخر وصاروا يتعاركون ويضرب بعضهم بعضاً ضرباً شديداً حتى سالت دماء جميعهم، عند ذلك جلس كل فى مكانه وكأن شيئاً لم يكن، ولمحت الشيخ يقف وسطهم يفعل ما يفعلون، فمن أين أتى كل هؤلاء الشيوخ بهذه القوة على العراك؟ وعلام يفعلون ذلك؟

كانت الدماء تغمر الأرض والحوائط بينما الرجال قد انطرحوا على الأرض بلا حراك وجروحهم تنزف. قامت النسوة فأحضرن الماء وشرعن فى تنظيف الأرض والحيطان وتضميد جروح الرجال. وحين أتممن ذلك جئن بصفائح البوية والأصباغ وأخذن فى طلاء وجوههن وملابسهن، فلما فرغن جمعن الصور وفرشنها على الأرض والتفنن حولها يتطلعن إليها، كانت صوراً لشبان وأطفال، فجأة انبعث صوت إحداهن عالياً بالصراخ فتبعتها بقية النساء وأخذت امرأة ترفع صوتها وهى تعدد بإيقاع رتيب منتظم، الأخريات رددن وراءها، ثم قفزن واقفات وهن يلطمن الخدود لطمأً سريعاً متلاحقاً، وأمسكت كل واحدة منهن بطرفى جلبابها فشقتة نصفين فما عاد يسترهن شىء، عند ذلك أخذن يتمايلن ويلتفنن حول أنفسهن حتى تعبن فارتمين على الأرض فاقدات الوعى، فقام الرجال إليهن وفرشوا عليهن ملاءات فستروهن.

كان الشيخ يجلس على الأرض مبطوحاً، أشار لى فاتجهت ناحيته، حسّت بجانبه، مد قدميه وارتنك بظهره على الجدار، تنهد وأغمض عينيه، هممت بالحديث فاعتدل ووضع إصبعه على شفתי فصمت، وابتدأ عزّ الحديث فخرج صوته واهنا ضعيفاً ومهدوداً وكأنه آخر الأحاديث.

كانت فيما مضى مدينة عامرة من أكبر مدن الدنيا، أسواقها كانت تـنـيرة فهي محط للتجارة بين الشرق والغرب، موقعها جعل التجار يتصدونها، موانئها المطلّة على البحر الكبير ازدحمت دوماً بالسفن عبيرة. طرقها البرية من عبرها فهو آمن حتى يصل إلى مقصده، سميت قديماً مدينة الأبطال. أصل التسمية أنها قدمت على مدى تاريخها الموغل عزّ القدم كل الأبطال. الخرافيين، نبتوا فيها ونموا حتى اكتملت سيرهم، خرجوا منها تسبقهم أعمالهم وأسماءهم تتردد فى المعمورة، ففى كل جيل، يعنى رأس كل قرن كانوا يوجدون، من يجتمعون حوله ويوحد شملهم، يـرـزون سيرته ويدونونها فى كتب يتداولونها من جيل إلى جيل، يضيفون إليها عبر السنين. وحدث أن المدينة أصابها عقم مفاجئ، جفت ينابيع خيال عند الناس، تغيرت أحوالهم، فقدوا الروح التى كانت تجمعهم، سـطـيرهم التى هى مصدر حياتهم، حكاياتهم وسير أبطالهم نسوها، لم يعد لهم ما يعيشون له أو عليه، وشيئاً فشيئاً بدأت ذاكرتهم تشيخ، أصابهم - - النسيان، وأخذ العدم يبتلع كل شىء. فى غمار هذه المصيبة التى حلت، سـتـتـنمو حركة سرية أخذت تنتشر فى الخفاء تدعو الناس إلى إحياء حكاياتهم المنسية، تذكر سير أبطالهم، تنمية الخيال وتنشيطه فقد ينجح عزّ ابتكار أبطال جدد يعمرّون المدينة من جديد. لم يكن زعيم الحركة معروفاً وقتها، مع مرور الوقت أخذت الحركة تشكل تياراً عرف فيما بعد تيار الإحياء، لقيت الجماعة اضطهاداً شديداً على أيدي سلطات المدينة نتي كانت تدعو الناس وتحرضهم على النسيان بوسائلها المختلفة، حتى نجا أعادت كتابة التاريخ بشكل آخر يختلف عما كان يعرفه الناس، وكونت

حركة مناهضة لجماعة الإحياء وموالية للسلطة عرفت باسم جماعة «المحاجاة» أخذت تشكك الناس فى كل شىء، وقامت بإحراق كل الكتب المدون فيها تاريخ المدينة، وكانت جماعة المحاجاة تؤمن بالعنف فتم على يديها قتل عدد كبير من جماعة الإحياء، فخاف الزعيم على جماعته من فتك السلطات ومن والاهما، فدعا إلى بناء كبير خارج المدينة وبعيداً عن العمار، وبدأت حركة بحث هائلة عن كل ما هو مدون وينتمى إلى أصل المدينة وتاريخها، بحثوا عن المعمرين والذين لم تصبهم بعد آفة النسيان. يجلسون بين أيديهم يدونون كل ما يسمعونهم، قاموا بحفظ ما سجلوه فى خزانة كبيرة وضعوا عليها حراسا يتناوبون حراستها ليلاً ونهاراً اختفوا داخل البيت بعد خراب المدينة فى الحرب التى قامت بين السلطة والناس. أطلقوا عليه «بيت الأحزان» وهناك من يسميه «بيت الخيال»، يجلسون يتخيلون كل ما مر بهم فى حياتهم، يذكرون بعضهم البعض، يتأملون الصور والمدونات. يبكون موتاهم، وظلت كل خيالاتهم منصرفة إلى الماضى الذى عاشوه أو سمعوا عنه، لكنهم أبداً ما تخيلوا ما هم فيه الآن عجزوا عن تخيل ما سوف يحدث، لقد أصابهم عقم هم أيضاً فما عادوا يعرفون كيف يبدعون أبطالاً جديداً وكانت تلك مصيبتهم الكبرى.

سكت الشيخ عن الكلام فجأة ومال رأسه على صدره وقد أغمض عينيه وبدأ شخيره يرتفع فأدركت أنه راح فى النوم من كثرة التعب والإجهاد والنزيف الذى نزع منه أضعفه، تركته يستريح وقلت أخذ أنا أيضاً حظى من النوم، وما كدت أغفو قليلاً حتى صحت على أصوات مبهمة من حولى، كانت خليطاً من لهاث وتأوهات وصراخ هامس، وعلى الضوء الواهى السابق من أركان القاعة، رأيت أجسادهم تتراقص كأشباح أخذت ترسم ظلالاً على الحائط. تذكرت ما قاله الشيخ عن طقسهم اليومى، النساء يفعلن الأفاعيل من أجل ترغيب الرجال فيهن، أما الرجال فإنهم يقبلون عليهن بلا حماس، العادة أفقدتهم الإحساس بلذة الوصل

وعدم جدوى ما يفعلونه، الإنهاك وصل مداه فارتضى الجميع على الأرض فاقدى الوعى عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، يقومون بذلك أمام بعضهم البعض، يقول الشيخ إن هناك فلسفة للجماعة تحكم أفعالهم، فالجنس غريزة مخلوقة فى النفس الإنسانية، هدفها الأساسى تعمير الكون، تناسى ناس ذلك مع مرور الوقت، أصبح نشدانه من أجل اللذة فقط، هم يحاولون إعادة إحياء هدفه الذى خلق له، فهو فى الأصل تخيل امتدادك فى آخر يأتى من صلبك، ذلك هدفهم الذى يعيشون من أجله الآن، فقد يحدث وتعلق إحدى النساء بولد يعيد مدينة الأبطال إلى سيرتها الأولى، وقد وضعوا كل ما يملكونه فى حجرة أسموها بيت المال، رصدوها لمن تلد بُدأ حتى يستعان به على عمارتها مرة أخرى.

إقامتى بينهم زادتهم ألفة بى، حدثتهم عن مهمتى، سياحى فى أرض نه الواسعة بحثاً عن اسم الأميرة صاحبة المخطوط، كل منهم أبدى عطفاً، مودة خاصة، حنا وإشفاقاً، النساء أخذن يتوددن إلى، كن يطلن نجلوس من حولى والحديث معى وأنا أقص عليهن قصة الأميرة، عشقى نها على الوصف، إقامتى فى مدينة الدبابين مع عنقاء، ولدى الذى لن تُشهد ولادته، كانت عيونهن تلمع ببريق ما كنت أدرك مصدره، لما أحكى حكاية عنقاء، يعرضن على شفاهن حتى تدمى، بيدين تأوهات مكتومة، لا إحداهن، كانت أجملهن، الشبه الكبير بينها وبين عنقاء لا تخطئه العين. تطيل النظر إلى دون حديث، وكلما جئت بذكر ولدى بدت على وجهها بتسامة غامضة، لم تفلح كل محاولاتي بالتقرب منها، الاثناس بالشبه بينها وعنقاء، تماثلهما فى كل شىء إلا نأيها عنى كلما اقتربت أو توجهت إليها بحديث، ألمحت للشيخ عن رغبتى فى الانفراد بنفسى، فى أن يكون نى مكانى الخاص، فأنا لا أدرى هل ستطول إقامتى أم تقصر.

أبدى دهشة من طلبى، فهم ينشدون الجماعة، يخافون الوحدة بحاربونها، أخذ يتشاور معهم فوافقوا، اقتطعوا جزءاً من القاعة وضعوا

عليه سترًا وفراشًا أنام عليه، وفى الأيام الأولى لوجودى معهم كان طقسىب
اليومى يتم بانتظام، ولكن جدته أخذت تخفت حتى انقطع فجأة، ز -
همسهم حولى كلما رأوا الفتاة الشبيهة بعنقاء، وكانت هى تتجنب لقائى. نه
أشأ السؤال عنها حتى لا أثير ريبه. لكنهم كانوا يعلمون ما لم أكن أعلمه
حدثنى الشيخ عنها دون أن أبدى رغبة فى ذلك، هى الوحيدة التى ولدت
فى بيت الأحزان بعد رحيلهم عن المدينة مباشرة. لذا أطلقوا عليها اسمُ
حمل كل صفاتها «حزينة» شبت وأينعت على الحزن وفى بيته، لم يرها أحد
تضحك ذات يوم، جمالها جعل الجميع يحبونها، يتقربون منها، لحظة
مجيئى حدثهم عن رؤيا رأتها، عن نطفة من خيال تستقر الآن فى
أحشائها تصبح ولدًا هو ابنى وابنها، من صنع خيالى وخيالها، على يديه
ينهدم بيت الأحزان ويسميها من جديد، ويوحد مشارق الأرض ومغاريها.
أما كيف يكون ذلك؟

فتلك حكاية أخرى ليس هذا أوانها

* * *

حين جاء الشيخ يدعونى إلى بيت المسرات، تيقنت أن رحيلى موشك، لم
يقل لى ذلك، لكنى كنت أحس بأن إقامتى فى بيت الأحزان آن لها أن
تنتهى، فى الأيام الأخيرة حدثت الناس عن إقامة بيت للمسرات، يتسرون
فيه، فشرعوا فى بنائه حتى انتهوا فأخذوا يقضون فيه أغلب أوقاتهم، لم
يفكر أحدهم فى إقامة مثل هذا الشيء من قبل، أعطوا لخلوتى اسمًا فى
الخفاء: بيت الخيال.

هل أحست «حزينة» بأمر رحيلى فجاءت لتودعنى؟ كانت المرة الأولى
التي تتودد فيها إلىّ، تقترب منى وتنفرد بى لم تتحدث، بل أخذت كفى
وضعتها على بطنها وهى تنظر فى عيني، ثم تركتني ومضت دون أن تلتفت
وراءها.

حسّت بجانب الشيخ، بينما بدا بيت المسرات كخلفية من النحل،
- حزن والنساء يتحركون هنا وهناك، ثم أخذوا يتراصون في عدة دوائر.
حسّت بينهم «حزينة» كانت ترنو إلىّ وقد تغرغرت عيناها بالحزن، بدعوا
- نغنون رقصة تحكى عن أرض أصابها عطش وجذب إلى أن جاء المطر
- هـ وأزهرت، أخذت النسوة يرقصن رقصة المخاض، أجسادهن تلوت
- عزيمة ورشاقة، الدوائر تداخلت في بعضها البعض. بينما تسارعت
- - الجميع وعلا لهاتهم وهم يتشكلون بمختلف الأشكال. ازدادت
- عتة دورانهم حول أنفسهم فكأنهم يدورون في فلك دوامة هائلة، أبطأوا
- سرعتهم قليلاً حتى توقفوا فجأة، وقفت مشدوها لما يحدث أمامي،
- نجتى سمعها الجميع. فقد شكلت أجسادهم، حرفاً استمر لحظة قبل
- يتعوا على الأرض، وفي اللحظة ذاتها، رأيت «حزينة» تخلع ثوبها فبدت
- عة. كان جسدها يضيؤ لامعاً نورانياً، وفيما بين مساحة الصدر والتقاء
- حزين كانت هناك كتابة واضحة أعرفها:

د أنت الآن يا حبيبي على مشارف لحظة هي

أبدي، دع هذا التجلى يغمر قلبك للمرة الأخيرة

فما شاهد ذلك قلبك غيرك، كما لن يراه بعدك

غيرك، فأنت سيد كل شيء الآن، وأنا أعطيك

كتابي فخذ به قوة، لا تضيعه مرة أخرى، فإن ضاع

كما ضاع قبلاً. فقل على الدنيا السلام.

هل كان هذا هو المخطوط، الذى فقدته؟ أخذت أبخلق فى الكلمات
حفورة أمامى على البطن الذى بدا تكوره واضحاً، كانت السطور تتبدل
من على صفحة الجسد الأبيض كلما أخذت صاحبتى نفساً وردته، وها
من المخطوط يعرض كله، ما قرأته قبل ذلك وما لم أقرأه بعد، وإذا السكون

من حولى تام البوح، فلا بشر، ولا وحش، ولا طير، فقط أنا وحدى سيد
الأشياء كلها، وأحسست بها تنبثق منى، كان وجهها يتلألأ نوراً وبهاءً
وفرحاً، وكانت كأجمل ما تكون وهى تومئ لى فاردة ذراعيتها، وسمعت
همسا يتردد فى قلبى:

هلم إلى يا سيد نفسى لأضمك إلى صدرى، فقد

أمضى الشوق، أن لغريتك أن تنتهى بعد خطوة

أخيرة تخطوها، وأن للعاشق المجد الأوب إلى

معشوقة ليكتمل به، أن لى أن أهمس لك: يا أنا.

مسائلك الأجابة

فى ذكر الرحلة وحراس مقابر الأمراء كذا حراس القببة

ما الذى جرى لى يا رى

هل كنت على يقين من أنى زائرته فى يوم ما؟ إن كنت قلت ذلك فقد صدقت والله، وهل وقوفى تحت سفحه وأنا بجانبه مثل قطرة فى بحر محيط، إلا قدراً مكتوباً على جبينى شفته الآن.

كانت روحى تصعد قبلى، وخطوتى القاصرة عن بلوغ سفحه تسبق سنى، هو الآن فى عينى، وقلبى ينز شوقاً ورهبة، أخذت أصعد وأصابعى مشتبكة فى يد صاحبى السالك معى، وكلما قطعت مرحلة نظرت تحتى من تجف فؤادى، وظهرت لى صعوبة المرتقى، اقترابى من قمته يعنى تحققى، قلبى يسيل أمامى، يتشوف الرؤية قبلى، يسبقنى عبر المدق حجرى الضيق، كنا نصعد غير مبالين بنبض البدن والروح، زسوت لهاتنا يطغى على صوت سكون الصمت المسموع يردده فضاء مسكون برفات جداد قيل من العماليق جاءوا بواد غير ذى زرع فزرعوا وحصدوا وبنوا وعمروا ومضوا بعد أن تركوا لنا ما يدل عليهم.. استأنفت وصاحبى عروجنا نحو القمة السابحة فى لجة سماء زرقاء شاهقة الزرقة بلون شريط النهر السارى تحت سفح الجبل العملاق، الرابض فى مكانه منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، وما هو إلا أحد رواسى الأرض خشية أن تعيد، وتد ضخم يرى على مسيرة يوم من شتى جهات المعمورة، ما قصده

أحدهم وقلح، وما من عاشق إلا ورام الاجتماع بمعشوقه فوقه، التمسه المحبون فى الأزمنة والأوقات المختلفة، قيل إن مسالكه مختبر للعشق الصادق، من عشق صادقاً وأخلص لوجه محبه سلك ونجا وكان من البالغين ذروته، وقيل إنه إذا اتحد متحابان فوقه، تملكتهما نشوة الوصال طوال حياتهما، تلك خصائصه. رأيت وصاحبى آثار أقدام صاعدة وهابطة لمن حاولوا قبلنا.. تُرى هل كانوا يأملون مثلما نأمل الآن بلوغ قمته؟ كيف كانوا يفكرون؟ ما الذى دار فى عقولهم لحظتها؟ وما الذى جعلهم يضلون فى مسالكه؟ هل آتاهم هادم اللذات لحظة بلوغ ذروته؟ أم هى إحدى خصائصه، ضياع عشاقه فى متهاته، الاكتفاء فقط بالطواف حوله، تلمس دروبه ومسالكه دون ولوجه، أم أن النية لم تكن خالصة له وحده؟

كنا نصعد فوق مدقات حجرية صلبة نحتت من جسمه تيسرة على من قصد اعتلاء منته، ربما كانت هذه إحدى حيله أيضاً، فقد يظن السالك سهولة المرتقى وهو لا يعلم أنه ما يبلغ بعض أجروميته إلا بشق الأنفس يجيئه القاصدون من شتى بقاع المعمورة لا لشيء إلا لتسجيل أسمائهم على حجارة قمته، يقولون هو باق حتى قيام الساعة، أما نحن، فإلى فناء، من تضعع وانمحق منهم فى رحلة حجهم إليه أكثر ممن فازوا بالنجاة، ومن دبوا على مدقاته تشوقاً لبلوغ قمته قلة نادرة، أما من أقلت من الدوران فى مجرته وتسئم رأسه، فهو حى ليوم يبعثون، هذا ما نمى إلى علمى وجرت به المقادير.

روى أن ذا القرنين أراد ختم حياته بتسلقه والدعاء من فوقه، فأخذ جيشه وخيرة قواده ممن ملكوا مشارق الأرض ومغاربها، وفى تلك الرحلة اصطحبه الخضر، أمل الاثنان فى ارتقائه، قيل إن الرحلة استغرقت سنة كاملة، أما الاسكندر، فقد انجذب إلى فلكه فضل، بينما الخضر تحرر من

حديته فتجاوز مجرته ووصل إلى ما لم يصل إليه أحد قبله فدامت له حياة.

سمه جبل أبي الهواء، من أين أتت تلك التسمية؟ لا أحد يعلم، هل لأن نته طاعنة في السحاب؟ أم لأن هواءه لا نظير له، هكذا جاء في الأثر، غير هو شديد النقاء لا يمكن مقارنته بهواء آخر، نسماته محملة برائحة ما نفضة تبعث في النفس جيشاناً وتحض على الحنين لأزمة مرت وأماذ فضيت، هل كانت تلك رائحة رفات أمراء الفراعين المدفونين ببطنه، لماذا حتموا به في نومتهم الأبدية، عند منتصف الجبل، تختفي معالم المدق حجري، فلا توجد طرق معبدة مثلما كانت في البداية، إنما مجرد حجارة سنونة لها حواف هشّة، من تعلق بها هوى إلى السفح وعدم نفسه، من ين سلك السالكون إذن؟ نويت وصاحبي الدوران حوله دورة كاملة، ربما ندينا إلى طريق على الجانب الآخر منه، أو عثرنا على ممر مخفى عن أنظار، كان هذا هو أملنا الوحيد، وكنا على وشك إكمال دورة حين فوجئنا بأمامنا، كان ممرًا ضيقًا يتسع لشخص واحد بالكاد، تقدمت صاحبي، ثم يلف بنا الجبل لفاً حتى ظننا ألا نهاية لطوافنا المستمر إلى أن أخذ يتسع فرأينا نفسينا في خلاء.

كنا عند السفح مرة أخرى، وأخذنا نتطلع إلى الجسم العملاق بدهشة، لقد طردنا، فكيف تم خداعنا بسهولة؟ كيف لم يفتن أحدنا لذلك لشرك؟ الممر الذي أفضى بنا إلى السفح لم يبد عليه ذلك، بل كنا نظن طوال الوقت أننا صاعدان، فهل كان ثمة ممرات أخرى؟

لقد بدأ يمارس حيله وأساليبه

بدأنا الصعود مرة ثانية على حذر من خداع قد يحدث، وصلنا إلى النقطة التي نزلنا منها، وللعجب، لم يكن ما رأيناه ممرًا واحداً، بل كان هناك آخر بجانبه موازياً له، لكنه كان أكثر ضيقاً، نظرت لصاحبي بفرح،

فها هو يا أخى الممر الصحيح، بدأ يدور بنا حول الجبل دورات كاملة تتركنا عند السفح مرة أخرى. صاحبى أصابه نصب وإعياء ويأس، بينما العناد استبد بي، أشار لى بالرجوع، فلا فائدة ترجى ولسنا من الموعودين، أسرنا فى جاذبيته وقد ينقضى العمر ونحن ندور فى فلكه، تماماً مثلما حدث لآخرين على طول الزمان ممن طمعوا فى اعتلاء متنه، ووحده يعلم أين هم الآن، تقول المدونات القديمة إن مسالكة كانت لحدوداً لمئات وألوف أرادوا المحاولة، امتحان إخلاصهم فى عشقه، ملوك وسلاطين وأبطال انقطع ذكرهم هنا، أما من نجوا فهم قلة، وتفصيل ذلك سوف يأتى فى حينه.. ما الذى كان بوسعنا فعله سوى إعادة المحاولة رغم خيبة أمل كانت مرسومة على وجه صاحبى، أما أنا، فكنت على يقين من نجاحى، من أين أتانى يقينى هذا؟ ربما ما حدث لى خلال الأيام الفائتة هو السبب، فى ثلاثين ليلة تكرر حلم واحد أكثر من خمسة وعشرين مرة، يجيئنى على هيئة هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يهتف: أذهب إلى القبة واحضر هناك، فسوف تجد ما تبحث عنه. ما الذى كنت أبحث عنه؟ لا أدرى، تركت الأمر فترة وأخذته بلا مبالاة، فى يقينى أن أحلامى لا تتحقق ورؤاى غير صادقة، لكن مع تكرار مجيء الهاتف بدأت انتباهتى، وبدأت رحلة بحث مضمينة فى المدونات القديمة عن تلك القبة التى أراد لى الهاتف الذهاب إليها، أكثر المدونات لا تذكرها، أو ربما كانت تتحاشى ذكرها، وأغلب ما عثرت عليه مجرد إشارات لوجودها، من ذلك مثلاً ما ذكره المقريزى فى خططه إذ يقول عنها: وكانت من أحسن متنزهات الخلفاء الفاطميين قبة الواء، وهى مستشرف بهيج بديع فيما بين التاج والخمس وجوه، يحيط بها عدة بساتين لكل بستان منها اسم، وعند سفح القبة فرش معدة فى الشتاء والصيف ويركب إليها الخليفة فى أيام الركوبات يتأملها من السفح ولايجرؤ من الدنو خوفاً من العطب. عشت مع القبة فى شذرات المدونات القديمة والشوق كان يحرقنى لرؤيتها عن قرب،

سبب تبعد عنى مئات الكيلو مترات، والرحلة مكلفة، لذا فقد استبد اليأس
 بمحل الأمل مع انقطاع الهاتف عدة ليالٍ، إلى أن حدث ما يلي: جاءنى
 هاتف فى تلك الليلة، وكرر كلامه على مسمعى ثلاث مرات متتالية،
 كانت تلك مرته الأولى التى يفعل ذلك وفى الصباح، جاءتنى دعوة لزيارة
 سينة القبة، لحظتها أدركت أننى موعود بها، سافرت وصاحبى الذى
 دعته الدعوة هو أيضاً بالطائرة، كان حضوراً لمؤتمر للثقافة، لكنى همست
 بحبى بما فى نيتى، لم أخبره بأمر الهاتف، لكنه تشوق مثلى للزيارة،
 رثية عن قرب واصلت صعودى للمرة الثالثة، خلفى صاحبى يقدم رجلاً
 يخر أخرى متثاقلاً فى خطوه منشغلاً بخاطره عما نحن فيه، بينما
 شطى الزائد وإقدامى بلا كلل يغريه بالتساؤل، حتى وصلنا إلى نقطة
 عوذة، أمامنا طريقان لا ثالث لهما، والطريقان يفضيان إلى السفح، وقد
 حرينا الغوص فيهما، ولا بد من طريق ثالثة، فأين هى إذن؟ أخذنا نتلفت
 حزننا، وانشغلنا حتى لم نلاحظ الأرض وهى تنشق، ولم نلاحظ أنه خرج
 منها ووقف خلفنا صامتاً، لكننا تنبهنا فجأة فارتجفنا رعباً، من أين أتى
 هذا الرجل؟ كان طويلاً وضامراً، يرتدى جلباباً مخططاً بخطوط طويلة
 ررقاء يصل إلى تحت ركبتيه بالكاد. عيناه رماديتان وشعر رأسه كان
 مصفراً خشناً وناثراً كنبات برى. أشار لنا فتبعناه، بينما قدماه الضخمتان
 نعاريتان ترتطمان بصخور الجبل، نظرنا إلى قدميه بدهشة من لم ير
 مثهما من قبل، سرنا خلفه مدة ساعة، مر بنا على طرق لم نرها قبلاً، هو
 وحده كان يعرفها، إلى أن وقف بنا أمام بوابة حديدية صغيرة وغائرة فى
 صخرة عملاقة، أخرج من سيالته حلقة مفاتيح اختار منها واحداً وضعه
 فى قفل ضخمة فانفتح، أشار لنا بالدخول فدخلنا ووقف هو بالخارج،
 واجهتنا عتمة أخذت تتلاشى ليحل محلها ضوء كابتى مضرب سرعان ما
 تعودنا عليه.. كانت هناك لوحة جدارية عملاقة منحوتة فى الصخور،
 مازالت ألوانها حية نابضة، كان الأمير الشاب قد خرج الآن فى رحلة صيد

هو وولده الوحيد، وكان الغزال واقفاً يسترق السمع متأهباً للفرار من لحظة قنص قادمة، بينما الأسد رابض يرمق ضحيته فى صبر، الأمير يجرى وراء الغزال هو ومن معه ناسياً ولده الذى يلتهمه الأسد الآن، كان الأمير راجعاً محطم القلب وبين يديه ما تبقى من ولده، الأمير يرثى ولده، هنا دفن الابن والأب. المكان يفح بجلال وسكون الموت فى الركن المقابل ظهر موضع القرايين التى كانت تقدم لأوزوريس، الإله يظهر واقفاً يحمل فى يده الميزان يزن به قلب الميت.. انتهينا من المشاهدة فخرجنا. كان جالساً واضعاً رأسه بين ركبتيه، لما أحس بنا انتتر واقفاً فأغلق الباب ومشى أمامنا، دار بنا حول الجبل دورة كاملة قبل وقوفه أمام مقبرة أخرى.. واجهتنا نفس العتمة التى تتحول بعد لحظات إلى ضوء هادئ شفيف. هذا الأمير مات شهيداً فى معركة حربية، وها هو يجتاز العالم الآخر دون حساب تحف به آلهة الرحمة.. كان صاحبه يفكر فيما أفكر فيه الآن. فالشبه واضح بين ما نراه، والحارس الواقف بالخارج لا تخطئه العين، نفس الوجه الطويل الضامر، عظام الوجنتين الناتئة، طول الجسد السامق، العينان الغائرتان الواسعتان لونها رمادى مغبر تساءل صاحبه هامساً: أيكونون قد اختاروا واحداً منهم للحراسة؟ ما لاحظته صاحبه كان صادقاً، وأنا لى وقفة مع حراس المقابر، ولن أستمر فى السياق قبل أن أفضض وأبعبع بما فى نفسى، وهى فرصة جاء وقتها طالما صاحبه فتح الباب، فاستمعوا لى وأنصتوا.

حراس المقابر

عرفت أحدهم فى مطلع صباى مع بداية فقد أول أحبتي، من هى أحق الناس بحسن صحابتي، حكايته معروفة ومدونة عندي، ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى توهماتى، أما الآن فألخص وأشقى. كان الرجل عبارة عن عظم فى قفة، لكنه من الرعيل الأول، حازق فى صنعته، يعرف الكثير عن

سرار التلحيد، رأيته لحظة دفن أمي، جاء خصيصاً إكراماً لها رغم تركه صنعة منذ زمن، كان الناس يسندونه حتى المقبرة. شعر رأسه أشعث غير، عيناه ترايبتان ولونه مخطوف، دخل المقبرة. يزحف على أربع وخرج يرمح كما الرهوان، كيف حدث له ذلك؟ ما الذي رآه لحظة الدفن؟ كيف تمت معجزة إعادة شبابه؟ تلك حكاية أخرى ليس هذا أوأناها.

آخر رأيته لحظة دفن عزيز فكدت أفارق، له نفس الملامح، وعلى الرغم من صغر سنه، إلا أنه ينتمي إلى زبائنه، صموت مثلهم، كأن الدم هرب من عروقه فجعل لونه مخطوفاً ونظراته شاردة مخضوضة جعلته منتمياً يتوحداً مع عالمه. ورأيت واحدة تجهز الكفن وهي تدندن بأغنية فكأن لا شرق عندها بين ثوب العرس وثوب الزفة الأخيرة.

كان الوقت على وشك الغروب لما انتهينا من سعيينا في وداع رفات أجداد الوداع الأخير، وظل الرجل يتقدمنا صامتاً إلى أن جاء عند معطف في الجبل وتوقف، أشار لي بالتقدم ومشى خلفي سائراً بيني وبين صاحبي، تقدمت دون أن أعرف إلى أين يقودني، لكنني كنت مطمئناً لوجوده. صاحبي خلفي، مشيت مدة ساعة دون أن ألتفت ورائي. وكنت أسمع وقع ثامهما على الممر الدائري الضيق الذي بدا بلا نهاية، ووجدت نفسي فجأة داخل قبة لها جهات أربع، نظرت خلفي فكاد يغشى عليّ، كنت أقف شرق جرف منحدر داخل القبة، ولم يكن هناك غيري، تلفت في كل اتجاهات بحثاً عن صاحبي والحارس فلم أجدهما، نظرت تحتى بحذر فترأيت نقطة سوداء تتحرك أسفل الجبل، ظلمت أتابعها حتى تلاشت، حظتها أدركت أنني بدأت أول مسعاى.

قبة فاطمية مدورة

ما الذى جرى لى يا رى

كنت وحدى، متوحداً بذاتى، مسكوناً بسكون ساكن يحيطنى إحاطة العين بالننى، وسماء أرنو إليها من جهات أربع داخل قبة فاطمية مدورة مشيدة فوق جرف منحدر، صخرة عملاقة فى نهاية بزبوز الجبل الشاهق، بدت القبة محدوفة فى فضاء بلا جاذبية، كيف خرجت عن مجرتها الجبلية؟ كيف قاومت فناءها عبر أزمنة مرتت؟ من أين جاء رسوخها ويقين بقائها؟ تلك حكاية أخرى ليس هذا أوانها.

رحلتى إلى القبة أجهدتنى، من لحظة عروجى وصاحبى إلى الجبل، ضياعنا فى متاهته، لقاءنا بالحارس، اختيار الجبل لى لأواصل الدنو، بينما صاحبى عاد من حيث بدأ. هل كان بخاطره أن يحدث له ما حدث؟ هل فكر لحظة بالفشل فى الاعتلاء وبلوغ الذروة؟ كلا والله، إنما هى الأعيب جبل لم نعرفه جيداً، لم نقدره حق قدره، وما عاملناه معاملة الند، ورغم ذلك خصنى دون صاحبى، أباح لى بسره، أظهر وفضفض بطرقه الخفية كى أصل قبته، أعطاه اسمها: قبة أبى الهواء. فى زمنى لم يعتل القبة غيرى، يحدث ذلك كل مدة. كثيرون اجتهدوا فى تحديد زمنها، أحدهم أجزم بحدوث انبثاقها فى نهاية أفول كل قرن، تحديداً فى الساعة

من فجر اليوم الأول من السنة الأولى توصل إلى ذلك بعد دراسة علوم الفلك استغرقت عمره كله، الدراسة مدونة في كتابه الوحيد في أسماه «تنوير الحلك في أخبار الفلك» لمن شاء الرجوع إليها. باحث حر حدد عدد السنين حسب التقويم القديم، في أزمنة لاحقة ظهرت عدة تسميات منها القبطى، والميلادى، والإسلامى ربط أحدهم بين القبة والنيل استخدماً التقويم الفرعونى، قال إن الانبثاق وظهور القبة على الملأ بسبب تقويم النيل، ذكر ذلك في كتابه «إتحاف الأحياء بمعرفة أسرار مسائل القبة» الكتاب مجهول التاريخ والمؤلف، وهناك من يشكك في حيدته أصلاً، لكنه مذكور في كتب الفهارس إما بمقتطف، أو بعنوانه فقط. في تصنيفه أنه من كتب الحكايات والأساطير، أخباره مروية عن سمع عن مشاهدة، إذ يقول ص ٣ من مقتطف أدرجه ابن الشبلى في كتابه «ترويض الأنفاس بما تداول من كلام الناس» ما نصه «لم ير القبة سيرة التي بجهة النيل مخلوق قط، لا في زماننا، ولا في زمن من سبقونا من لدول والأمم والخلائق، إنما هي أحاديث متواترة، وأخبار متداولة على سنة الناس، فقد حدثنى سعيد عن والده إنه قال: حدثنى رجل ممن شغلوا بعمارة القاهرة في زمن الخليفة المعز الفاطمى فقال: كنا انتهينا من تخطيط مدينة القاهرة فجاءت وسطاً بين القطائع والفسطاط، فلما كنا بالرحيل، توجهنا إلى الجنوب وتوغلنا حتى وصلنا عند جبل يكنى بـجى الهواء على الجهة الغربية من النيل، فجعلنا نخوض في النهر حتى تخطيناه إلى ضفته الأخرى، وجلسنا تحت سفح الجبل للراحة، وأخذت أنا في تأمل الجبل وما حياه الله من سعة ورسوخ، وسرحت عيناي إلى قمته فوجدتها طاعنة في السحاب، وما ظهر منها شيء لعيني، ومن شدة تعب طريق والسفر رحنا جميعاً في غفوة، وبينما أغط في نومى، انتبهت فجأة وأنا بين الصحو والنام، وإذا بى أرى القمة التي كانت غير مرئية، قد دنت يندنت وظهر في وسطها صفة بياض على قدر القبة المدورة المعمولة من

السحاب الأبيض المطعم بزرقة، وتحددت أركانها وصفاتها ومدخلها ومخارجها، وقد انتبه الجميع بعدى ورأوا تلك المشاهد العجيبة، وكنت أول من شاف ونظر ورأى ورنا وأبصر وهدق فتحقق، وكان هذا سبباً فى عمارتها، فسبحان مسبب الأسباب.

فى وصف القبة

أخذت ألملم نفسى من نثار يلفنى، وبحذر من يخشى التلف، جست بقدمى داخل القبة التى بدت وكأنها تحيا زمنها الخاص منذ ظهورها الثانى أمام أعين بناة القاهرة الفاطمية. لم تختف بعد ذلك، بل ظلت راسخة فى المشاهدة، ثابتة فى السطوع، تلمح من شتى جهات المعمورة كقبة مدورة، ليس إلا، أما كيف يراها رائيها، وفى أى صورة تتجلى فى العيون، كيف تحفظ أسرارها وكيونتها عبر الأزمنة؟ كيف تتبدى لعين ناظرها كل حسب نيته وعلى قدر مظنته؟ كيف أصبحت القبة رمزاً لطائفة لعبت دوراً خطيراً فى التاريخ الوسيط؟ كيف أعلن أحد زعماء الطائفة من فوق هذه القبة عن قيام القيامة، وعن دخوله وأتباعه الجنة؟ فتلك حكاية أخرى ليس هذا وقتها.

نرجع إلى ما كنا فيه من السياق، بعد الصلاة على صاحب البردة والبراق:

إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، والقبة من قصدها بنية الفرجة، مشاهدة ما لم يشاهد قبلاً، فإنه لن ينال منها إلا ما جاء من أجله، وسوف تظهر له كما هى، بناء مدور مطلى بالجير الأخضر المتسخ، كأنه ضريح ولى مفتوح من أربع جهات، قد يعرض عنها ويزور ذاهباً من حيث جاء دون انتفاع، لا ينوبه سوى نصب وإعياء المسعى، أما من عرف الجوهر والسر وما أخفى عن الأعين، فلا بد له من المواصله من أجل

الوصول، ربما فتحت له كنوزها، ربما باحت بسرها وأصابته بنفحة، كما أصابت صاحب حظ ذات صباح فى تجليها الأول، وهى حكاية روتها العامة وذكرها ابن الشبلى فى المصدر السابق، إذ يقول ص ٨ وما تلاها:

حدثنا أحمد بن أباديس فقال: خرجت من موطنى ومرت على نشأتى قاصداً زيارة القبّة، وذلك بعد أن قرأت وسمعت عنها ما جعلنى مؤرقاً لا أعرف نيلاً من نهار، فلما عزمتم على الرحلة، تودعت من أهلى وعيالى، وكانت نهم معى وقفة صعبة، فقد أخذوا يبكون ويندبون ويقولون لا تتركنا يا واندنا لأنك تطلب المحال، وما تزمع الرحيل إليه إن هو إلا تهاويل خيال، فافتح بوجودك وسطنا ولا تفجعنا فيك فليس لنا غيرك وصاروا يقولون نى مثل هذا الكلام، وأنا جعلت أذنًا من طين وأخرى من عجين وأقول -عكم من هذا اللغو فهذا لا بد منه فلما تحققوا من رحيلى، أخذوا يعززون بعضهم فى فقدى وأنا مازلت بينهم؛ فتعجبت وصرت أضرب كفاً بكف، وكيف اعتبرونى مت وأنا بعد مازلت بينهم، ثم إننى تودعت منهم وهم على هذه الحالة من الصياح والندب والعويل، وخرجت قاصداً أرض القبّة، وقد أصبحت ولا غاية لى فى هذه الدنيا سوى الدنو منها والرنو إليها، ذكر سعى تحت سمائها، ولعلى أشاهد ما لم يعرفه أحد قبلى، فطلبت البر لأقفر، وأخذت أنهب الطريق نهباً وأطوى الأرض طياً مدة ستة أيام ياليتها حتى أشرفت فى الليلة السابعة على جبل يُكنى بأبى الهواء، وله نعة طاعنة فى السحاب، ولكنى لم أر تلك التى جئت محدوقاً متشحتفاً يها تاركاً حالى ومالى وعيالى.. فوقفت قبالة الجبل وقلت كلمة لا يخجل قتلها «لا حول ولا قوة إلا بالله» ثم إن دموعى ساحت على خدى ولسان حنى يردد هذين البيتين:

أرى آثارهم فأذوب شوقاً وأسكب فى مواطنهم دموعى

واسأل من بفرقتهم بلأى يمين على منهم بالسطوع

ثم إننى أخذت فى تسلق الجبل، وإذ بحارس عملاق كأنه من بقايا قوم عاد يعترض طريقى، فلم يسألنى من أين أنا وإلى أين أمضى، بل إنه أشار لى أن أتبعه وتقدمنى عبر دروب ومسالك فى الجبل لا أحد يعرفها غيره، حتى انتهى بى إلى مكان فى الجبل فتأخر عنى وأشار لى أن أتقدم وحدى، وفهمت أن مقامه ينتهى إلى هنا، فلما قال ذلك تركنى واختفى كأنه مثل فص ملح وذاب، المهم أننى تقدمت صاعداً وسالماً حتى وصلت إلى نقطة فى الجبل ليس بعدها سوى الهاوية، وإذ بى أجد نفسى واقفاً على جرف كأنه صخرة محدوفة، والنيل من تحتى كأجمل ما يكون، وبينما أنا كذلك أتأمل ما حولى، أخذت الظلمة تلف الكون، فخشيت خطر الرجوع، فقد تزل قدمى، وينهد أساسى وفرعى، فقلت أبيت ها هنا ليلتى، وفى الصباح يفعل الله ما يشاء. جلست وقد هبت ريح الشمال بنسائم طرية، فأخذتني غفوة لا أدري مدتها، وإذ بى أهب من رقدتى على صوت كالرعد إذا قصف، ففركت عينى وانتبهت على شىء أخذ يظهر أمامى ويتكور ويحوطنى إحاطة السواد بالبياض، وانعقدت أنواره فكأنها الشمس وقت ظهورها، حتى استبانتم ملامحه عن قبة كاملة الاستدارة عالية البنيان ولها أربعة أبواب، دخلت من الباب الأول فواجهتني قاعة وفى صدرها أربعة لياوين، على كل لياون شبكة من اللؤلؤ الأبيض الرطب المنظوم بسلوك الذهب والفضة، وأرض القاعة مفروشة بالزعفران الجنوى الممزوج بالعنبر الكنوزى، ووجدت أسرة معمولة من خشب الساج الهندى المصفح برقائى الذهب الخالص، وعلى كل لياون شخص من النحاس الأصفر يكاد ينطق من دقة صنعته، كذلك على الأسرة يوجد بشر على صفة الراقد والجالس والواقف، ووجدت مكتوباً فى صدر القاعة هذه السطور:

يا متصلاً إلى هذا المكان

ومطلعاً على هذا البنيان

أعلم أن هؤلاء هم ملوك

مصر المحروسة من الملك

الديان على مدار

الأزمان من بداية

الخلق إلى أن

يرث الله

الأرض ومن

عليها

ثم ولجت من الباب الثانى فوجدته مثل الأول مفروشاً بالأبسطة
نخمة، ولكن من دون تصاوير لأشخاص مثل القاعة الأولى، وفى صدر
خانة، رأيت كتاباً عظيماً فاخراً موضوعاً على سنادة من خشب الساج
مرصع بالدر والجوهر النفيس، والكتاب مفتوح على صفحة العنوان
تقرأت:

يا متصلاً إلى هذا المكان ومطلعاً على هذا

العنوان، فاعلم أنه كتاب الأزمنة

والأنواء المصرية، وفى شمسها

وقمرها ونجمها وليلها ونهارها

وساعاتها وتغير فصول

سنيها وهبوب رياحها

وسقوط أمطارها وتقلب

مزاج أرضها من

وقت آدم عليه

السلام حتى

قيام

الساعة

وكان الباب الثالث مثل الأول والثانى ملاً بالملفوشات والطنافس، وفى الصدر رأيت كتاباً أعظم من السابق، لا شئ يضاهى مهابته وبهاءه، وحواف ذلك الكتاب من الذهب الإبريسم، وسطوره مكتوبة بماء الذهب على أديم الطير، ووجدت مكتوباً على صفحة العنوان:

إن كنت جئت إلى هنا لترانى

فتأدب فى حضرتى، أنا كتاب النيل

صنعة رب العباد لخير هذه البلاد

من وقت منشأه إلى منتهاه

وفى أول ساعة جريانه

ومن أين ينبع وإلى

أين يصب وجميع

أحواله إلى أن

يرث الله

الأرض ومن

عليها

قال أحمد بن أباديس: ثم إننى تقدمت من الكتاب ومددت يدي أنتزعه من مكانه، وقلت تلك هى الغنيمة الكبرى التى من حازها ملك البلاد

وعباد، لأنى أعلم أن هذه البلاد سر بقائها فى هذا النهر المبارك، فهو
 يسع من نهر فى الجنة، فمددت يدى وقبضت عليه، فلا أدرى إلا وشيئاً
 خرج من الكتاب ولطشنى فى وجهى لطشة هججت صوابى وعقلى فوقعت
 غشياً على، ولم أعد أعرف هل أنا فى السماء أم فى الأرض مدة ساعة،
 فما أفقت وملكت صوابى، أعدت المحاولة فحدث مثلما حدث فى الأول -
 ونيس فى الإعادة إفادة - وحدثت نفسى الأمانة بالسوء بتكرار المحاولة،
 فسمعت صوتاً لا أرى شخصه يأتى من ناحية الكتاب يقول: تأدب يا هذا
 فتنع بما وصلت إليه فلست أهلاً له فعلمت أن هذا الكتاب ليس لأحد
 سلطان عليه، وأن عليه رصداً لحمايته، فهو ذخيرة هذه البلاد، فإن فقد أو
 تف ضاعت بأرضها وناسها ودوابها ثم إننى تركته أسفاً ودخلت من الباب
 ناربع فرأيت سبعة أشخاص يتصدرون القاعة، وهم على صفة الواقف
 والجالس، وهؤلاء الأشخاص من النحاس الأصفر، ورأيت بين هؤلاء
 سبعة تصويرة على هيئة شكلى ورسمى، فأخذت أنظر إلى نفسى وأنا فى
 عجب واندهاش لتطابق ملامحى على ما أنا عليه الآن، وكنت السادس فى
 ترتيب الأشخاص، ويوجد سابع يقف وحيداً بعيداً، وهؤلاء هم من وصلوا
 إلى هذا المكان ورأوا ما رأيت، عدا الأخير والذى يظهر فى آخر الزمان،
 وتكون صفته على ما هى عليه صفة التمثال.

الطائفة

لحظة فكرت فى صعود القبة، كانت غايىتى ومنتهى أملى، نقش اسمى على حوافها مثلما فعل غيرى، أما وقد اعتليت الجبل، أما وقد فتح لى دروبه ومسالكه ودهاليزه، أما وقد اختارنى دون صاحبى للعروج نحو القبة، أما وقد رأيتها رؤية عين، فقد تبدلت أحوالى، وما كان هدفاً وغاية أصبح ثانوياً، على رغم أن تحققه كان محالاً، وما انتظارى وطول أملى إلا لسبب لم أكن أعلمه، فما الغيب إلا من صنع ربي ورب كل شىء، عالم الغيب والشهادة، فسبحان الذى هدانى للطلع، وسبحان الذى سخر لى جبلاً عملاقاً ما كنت ببالغه إلا بإذنه، وسبحانه سبحانه الذى جعل هذه القبة محط أفئدة تهوى إليها من كل فجاج المعمورة، لا لشىء إلا للرؤية، لتخليد أسماء زائلة وكينونات سابحة دوماً صوب الزوال والعدم، وكأن الموت ليس بحائل عن نشوان الصيرورة، وقد سأل سائل ذات يوم ابن عبد الجواد - رحمة الله الواسعة عليه حياً وميتاً - عن الموت، فاستحضر من كلام الشيخ الأكبر محى الدين أبى عبدالله بن العربى الحاتمى المتوفى سنة ٦٢٨ هجرية، رحمه الله حين قال فى المعنى: الموت سهم صوب إليك لحظة مولدك، وحياتك بقدر وصول السهم إليك وقد فصلنا ذلك فى رسالتنا فى الموت والتى أطلقنا عليها «كتاب التوهّمات» وفيها ذكر الجنة ونعيمها والنار ذات الشرار وعذاب القبر وفتنة الشجاع الأقرع والمسيخ الدجال وأحوال يوم القيامة، وليس فى الإعادة إفادة.

نرجع إلى ما كنا فيه من الطلب، ونصلى ونسلم على النبي كريم
نحسب، فإننى داخل القبة، أخذت أحملق فى تلك الاسماء المدونة على
سقف والجدران، وصرت أقلب وجهى بين هذا الاسم وذاك، عمور
منقضية، تواريخ تنتمى إلى أزمنة غابرة، أرواح وأجساد بليت إلا من
سمائها المحفورة على جدران القبة، وقريباً قرأت عن علماء استطاعوا
تسجيل أصوات البشر فى الهواء منذ سيدنا أبى البشر وحتى الآن، فطلبت
من ربى أن أحيى حياة ثلاثة نسور فقط، فأسمع أصوات أمى وأبى وأحبتى
نذين فارقوا، ما علينا، وبينما أنا كذلك، ومن شدة التعب تملكتنى
نحيظات من وسن، فرأيت فيما يرى النائم، طائراً عملاقاً حط فى وسط
نقبة، وأخذ يتلفت يميناً وشمالاً وخلفاً وأماماً، ثم إنه اتجه ناحيتى
فزاحنى بمنقاره حتى لصقنى بالجدار، ثم رجع مرة أخرى إلى المكان الذى
زاحنى منه، وصار يحفر بمنقاره مدة ساعة، وإذ بهاتف أسمع صوته
ولا أرى شخصه يهتف بى أكمل الحفرها هنا.. قالها ثلاثاً وسكت،
فانتبهت من رقدتى وأخذت أتلفت حولى فلم أجد للطائر أثراً، قلت إن هى
إلا هلوسات وحانت منى التفاتة إلى تحت قدمى فلمحت حفرة كتلك التى
حفرها طائر اللحم، فتعجبت وركعت وأخذت أكمل الحفر وأنا لا أعرف ما
لذى أحفر عليه، إلى أن اصطدمت يدي بحلقة من نحاس أصفر مجنزر
عالجتها حتى لانت فى يدي وأبانت عن سرداب، ولجت فيه وأنا أتحسس
بيدي على الجدران من شدة العتمة، وصرت أتقدم وأنا لا أدرى أصاعد أم
هابط أنا؟ وإلام يفضى هذا السرداب المظلم المليء بالوطاوط والأفاعى،
فكنت أسمع الصراخ والفحيح فأنكمش فى بعضى رعباً، ومرت ساعة
وكأنى ما برحت مكانى، إلى أن لمحت بصيص ضوء فرجع لى أملى
وتقدمت نحوه، بينما قدمى تتعثران بأشياء تتكسر دون أن أعرف ماهى،
حتى رأيت قاعة كبيرة فى نهاية السرداب تكاد تسع جيشاً، كانت القاعة
مضاءة بشعاع الشمس الداخلى من فتحات سرية منحوتة فى صخور

الجبل، وفى الصدر، رأيت هيكلاً عظيماً جالساً على مقعد عال وحوله رجال جالسون، فأصابتنى وحشة المكان ومشاهدة الهياكل برعشة فى بدنى، وضريت كفاً بكف وأنا أقول كلمة لا يخجل قائلها: أشهد ولا أجد بدين محمد النبى الأجد من هؤلاء القوم؟ وكيف اجتمعوا فى هذا المكان؟ وعلام كان هذا الاجتماع؟ وكيف أتاهم أمر الله وهم عنه فى غفلة؟ تشهد على ذلك التعابير المرسومة على وجوههم، بعضهم مازالت ضحكته مرسمة على وجهه، بعضهم كان يتحدث ويشير بيده، ملامح شتى، دهشة وتوجس، انتظار مجهول أت لا ريب، رنو إلى مقبل لا أحد يعلمه، كان كبيرهم الجالس على مقعده فى صدر القاعة متكئاً بكوعه على مسند الكرسى واضعاً ذقنه بين راحة يده شاخصاً ببصره إلى فضاء القاعة، على وجهه ملامح غامضة، على الكرسى كان اسمه محفوراً بالخط الثلث المشكل: الخوند الأعظم، من دانت له كل الطوائف، سلطان القلاع والحصون كانت هناك مائدة موضوعة أمامه من خشب الساج الهندى الأبنوسى مطعمة بالعاج وفصوص الجواهر، فى وسط المائدة صندوق من الذهب الابريسم صغير الحجم عليه قفل دقيق الصناعة أخذت أعالجه حتى انفتح فى يدي، فتحت غطاء الصندوق فوجدته ملاًناً بالأوراق، جست بيدي داخله علنى أجد شيئاً آخر فلم أجد، ما الذى كنت أبحث عنه؟ أغلقت الصندوق مرة أخرى وحملته فى يدي وتركت القاعة آخذاً طريقى مرة أخرى نحو القبة التى ما أن جلست فى وسطها حتى فتحت الصندوق وأخذت أخرج ما به من أوراق.

مسالك الأحبة فى ممالك القبة

هل كان عثورى على الأوراق صدفة؟ أم أنه كان مقدرًا لى المجيء إلى هنا وحدى لينكشف أمامى كل ما خفى من أسرار، أزمنة مرت، وحقب طويت، رجال ولدت ونمت وعمرت وخططت ودبرت واندثرت كأن لم تكن

تسعى على ظهر بسيطة قط، فسبحان الحى الذى لا يموت، من بيده الملك
 ينكوت وسبحان من صدق فى قوله: كل نفس ذائقة الموت، ها هم سكان
 حبة يتجرعونه بغتة، كيف جاءهم؟ ما الذى كانوا يفعلونه لحظتها؟ وعلام
 من اجتماعهم؟ ما الذى تفوهوا به وقتها؟ آخر ما تحدث به لسانهم؟ ولماذا
 من هذا العقاب الجماعى؟ هذا ما يخبر به المخطوط الذى عثرت عليه،
 فى نسخة الصفراء الهائشة تدل على قدمه، كتابته بعناية فائقة بخط النسخ
 شكل وحفظه فى صندوق الذهب ينبئ بجسامة محتواه، أسرار المخبأة
 فى صفحاته المائة من الحجم الكبير والمرقمة بالترقيم العبرى من ١ إلى
 ١٠٠. سريته المطلقة أغلقت اسم كاتبه وناسخه، عنوان المخطوط دون فى
 على صفحته الأولى عند منتصفها:

«مسالك الأحياء فى ممالك القبة»

فى الجهة المقابلة للعنوان من الناحية الشمال كتب: سرى للغاية -
 يخبره إلا من عصم. ينقسم المخطوط إلى جزأين رئيسيين تتدرج تحتها
 عناوين كثيرة، يبدأ الجزء الأول الذى يكون الصفحات من ١ إلى ٣٠ فى
 عرض تعاليم الطائفة وهو بعنوان: رسالة فى المعرفة الحقة.. موجهة من
 خوند الأعظم عالم الملة ورئيس الطائفة إلى أتباعه فى كل زمان ومكان
 على هيئة سؤال وجواب توضح للمريد كل ما يمكن معرفته والطريق الذى
 يجب عليه أن يسلكه للانخراط فى سلك الطائفة، وتبدأ بسؤال عن كيف
 تمتى ظهر مولانا القدير؟ فيقول الخوند إنه ظهر فى السنة الأربعمئة من
 نجرة النبوية، وقد ذكر حينئذ بأنه من نسل محمد ليخفى ألوهيته لأن
 بيانته أهملت وقل عدد من يعبدونه، وأنه ظهر تحديداً فى عام ٤٠٨هـ وقد
 ظهر ظاهراً طوال العام ثم اختفى فى عام ٤٠٩ لأنها كانت سنة مشئومة، ثم
 عاد فظهر فى بداية عام ٤١٠ واستمر عام ٤١١ وأخيراً فى بداية عام ٤١٣
 اختفى عن الأنظار ولن يعود إلا فى يوم الحساب، وهو اليوم الذى يظهر

فيه الخالق بوجه إنسان ويحكم العالم/ بقوة السيف/، أما متى يحدث ذلك فهو أمر غير معروف ولكن ستكون هناك علامات تنبئ عنه منها أن يرى الناس الملوك يتغيرون، ولحظتها، سوف يظهر بقوة السيف وينتزع منهم الحياة جميعاً، وسوف يولدون بعد موتهم بأمر القوى القدير الذى ظهر فى صورته البشرية عشر مرات تسمى محطات، أما حمزة، فقد ظهر سبع مرات فى القرون المنصرمة منذ آدم حتى النبى محمد، وقد كان يسمى شاتنيل فى عصر آدم، وفى زمن نوح كان يدعى فيثاغورس، وكان داود هو الاسم الذى لقب به فى زمن إبراهيم، وفى أيام موسى سمي شعيب، وفى عصر عيسى سمي بالمسيح الحقيقى، وكذلك بعازر، ولأننا فى حاجة إلى ألا نعرف على حقيقتنا، فنحن ندخل فى زمرة أصحاب المذاهب الإسلامية ونعترف بالقرآن، وحتى لا يساء الظن تبيننا جميع الشعائر الإسلامية، حتى شعائر الصلاة على الموتى، كل هذا فى ظاهر الأمر فقط حتى يظل الناس يجهلون حقيقتنا.

رسالة القيادة والدفاع

أنا أول مخلوقات الله، وأنا أملك صوته وقوته، وأملك العلم بأمره، أنا البرج والبيت المشيد، أنا سيد الموت والبعث، أنا الذى سوف أنفخ فى الصور، وأنا الرئيس العام للدين وسيد العفو، مقيم العدالة وهادمها، أنا ملك العالم ومحطم الشهادتين، أنا النار التى تلتهم كل شىء.

الهدف من تلك المنشآت القائمة بمصر والتى يسمونها الأهرامات

لقد شيدها القوى القدير وهو يرمى بذلك إلى بلوغ هدف ملئ بالحكمة، وهو أن يضع فيها الحجج والصكوك التى تناولتها يده المقدسة، من جميع المخلوقات ويحفظها هناك، إلى أن توضع فى مستقرها الأخير

- خل القبة حتى تقوم الساعة ولا بد من إخفائها لأنها تحوى أسرارنا، ولا ينبغي أن تكشف للناس عن أشياء يتوقف عليها سلام النفوس وحياة عقول.

جف القلم، وطويت الصحف، وقضى الأمر.

* * *

طائفة

يتحدث المخطوط في القسم الثاني منه، والذي يبدأ من ص ١٣ حتى ص ١٠٠ عن طائفة الإسماعيلية، تحديداً عن فرع من فروعها سمي بالحشاشين، يبدأ بنقطة تحول هامة حدثت للطائفة، ففي العام ٦٨٥ قام شخص يدعى مختار من الكوفة، بثورة باسم ابن علي المعروف بمحمد بن الحنفية، منادياً به الإمام الحقيقي والرئيس الشرعي للمسلمين، وقد هزم مختار وقتل في العام ٦٨٧، لكن حركته استمرت بعده، وبعد موت محمد بن الحنفية نفسه، قال أتباعه إن إمامته انتقلت إلى ابنه، وادعى البعض أنه لم يموت، إنما اختفى في جبال رضوى بمكة، وأنه سيعود للظهور عندما يشاء الله وينتصر على أعدائه، ويلقب باسم المهدي.

أما نقطة التحول الثانية، فقد حدثت بعد وفاة جعفر الصادق، الإمام السادس في العام ٧٦٥ ميلادية، كان لجعفر ابن أكبر يدعى إسماعيل، وقد حرم إسماعيل من خلافة أبيه في الإمامة، أخذها أخوه الأصغر موسى الكاظم باعتباره الإمام السابع، استمر نسل موسى حتى الإمام الثاني عشر الذي اختفى حوالي عام ٨٧٣ وهو ما عرف بالإمام المهدي أو المنتظر، وأتباعه هم الاثنى عشرية، وتبعت جماعة أخرى إسماعيل ونسله عرفوا بالإسماعيلية وظلوا يعملون في الخفاء حتى تكونت الطائفة.

وفى العام ٩٠٩ وصلوا إلى درجة من القوة دعت الإمام المستور إلى الظهور وإعلان نفسه خليفة فى شمال أفريقيا ويلقب بالمهدى، وهكذا تكونت دولة جديدة عرفت باسم الفاطمية وفى العام ٩٦٩ اقتحمت القوات الفاطمية وادى النيل، وبالقرب من الفسطاط، المقر القديم لحكومة عمرو ابن العاص، بنى الزعماء الجدد مدينة جديدة أسموها القاهرة لتكون عاصمة لدولتهم، كما بنوا مسجداً جامعاً هو الأزهر، وانتقل الخليفة المعز الفاطمى من تونس إلى مقره الجديد حيث حكم هو وخلفاؤه من بعده لمئتى سنة.

فى بناء القبة ووصفها وصفة عمارتها

يقول المخطوط إنه فى تلك الفترة، تم بناء القبة، بعد توافق ظهورها الثانى مع ظهور الطائفة، يتحدث عن رجل جاء من ساسان، استدعاه أحد زعماء الطائفة، عرف بتخصصه الدقيق، صنعته التى عرف بها هى بناء القباب، له مصنف شهير ما زال مخطوطاً، لكنه متداول، اسمه «كشف الحجاب فى صفة وعمارة القباب» قدر له أن يشتهر ويصبح مدرسة وطريقة سميت فيما بعد بمدرسة العمارة الساسانية، نسبة إلى بلد الرجل الذى لم يسمح له بتدوين خطط القبة فى كتابه حتى لا تقع فى أيدى العامة أو أحد من أعداء الطائفة، بل إنه توفى بعد إتمام بناء القبة بداء غير معروف. سر بناء القبة لا يعرفه إلا الرؤساء الكبار للطائفة، يفرد له المخطوط صفحات تبدأ بالوصف الخارجى للقبة، أحجار البناء ومن أين جلبت، كيفية عمل عقد القبة، الطلاء المستخدم، الأبواب الأربعة المطلة على جهات الدنيا، رسم تخطيطى لمداخل ومخارج القبة، الأساسات والدعائم، الفتحات السرية المؤدية لسرايب وممرات تحت البناء المقبب، القاعة الرئيسية التى عثر فيها على رجال الطائفة، فتحة سرية أخرى تؤدى إلى سرداب عميق بطول الجبل، طريقة نحت السرداب فى الصخور

رجة ميله، نُحِتَّ على هيئة سلم فى الجانب الأيمن من السرداب، رسم
حـ يوضح كيفية العبور فى حال المداهمة وانكشاف المستور، الخروج إلى
صحراء بعد عبور نفق تحت الأرض بطول البلد، مقدار المسافة بين الجبل
صحراء بالكيلو متر، الزمن الذى يقطعه العابر المجد بالدقيقة والثانية،
مـ كن تم وضع أطعمة وماء فيها للحفاظ على العابر حياً حتى يصل إلى
صحراء سالمًا، طريقة حفظ الطعام والشراب حتى لا تصاب بالتلف،
مـ تحتات تهوية غير مرئية لبقاء النفس، وضع تعليمات فى أماكن لإرشاد
عبر فى كل مرحلة يقطعها.

مائة

مـ أراد أحدهم أخذ امرأته معه، إما لتهريبها أو للائتناس بها، ما الذى
يغعه إن دهمه طارق الرغبة فيها أثناء عبورهما السرداب.

نجواب

قد يحدث ذلك رغم غرابة السؤال، فإن قال قائل هل هذا وقت
ضاجعة والمهارشة وهما يطويان الأرض طياً هرباً من مصيبة، فإن قال
مـ ك وقع فى خطأ بين لسبيين: أولهما أن ظلام النفق يورث الوحشة
مـ ونوحدة، وثانيهما بُعد الشقة بين المسافر ونقطة أمنه وأمانه ألا وهى
صحراء، لذا يتطلب الأمر بعض الراحة وقليل من المسرة، وبما أن الرجل
مـ ومراته ليس معهما ما يتساران به، فلا بأس من لعبهما بأعضائهما، وحتى
مـ لا يضيع الوقت فى العناق والتقبيل قبل الولوج، فالمناسب فى مثل هذه
مـ نحالة هو وضع الوقوف، وهو أن تستند المرأة إلى حائط النفق، ويضع
مـ نرجل يديه خلف ردفها ويجزم وسطه برجليها، ويزهر تحتها بينما يرفعها
مـ يديه صعوداً وهبوطاً أما إذا كان هذا الوضع من المتعذر القيام به، فليضع
مـ جدى رجليها فوق كتفه، بينما رجلها الأخرى مثبتة فى الأرض، وهى

مستندة على حائط أيضاً، ويرهز رهزاً قوياً حتى يفرغا معاً بلذة، ثم يواصلان الرحلة انتهى.

يقول المخطوط إنه بعد تكوين الكرسي الرئاسى الأعلى للطائفة، واستقرار مقامه فى القبة، حدث انقسام خطير، فقد اختفى الخليفة السادس الحاكم بأمر الله الفاطمى، فرفض أتباع الطائفة الاعتراف بمن تتابعوا بعده على العرش الفاطمى، وأعلنوا انفصالهم عن الدولة، توافق ذلك مع ظهور نجم حسن الصباح الذى اتخذ من قلعة الموت مقراً للحكم الطائفى.

الجنة

«من عندى، سوف يبدأ تاريخ العالم الجديد، ومن الآن فصاعداً، سوف يمسك أنفاسه بإشارة منى» كانت تلك أول كلماته وهو يعيد بناء دولته. وكان أول ما فعله، هو تكوين قوة ضاربة، تستطيع الوصول لهدفها بكل الطرق، لا شىء يوقفها إذا ما أرادت، فكر فى تكوين فريق للاغتيالات، يكون اليد الضاربة الراهبة له، بإشارة منه يغير مصائر بشر ودول وحكومات، هذا الفريق الجهنمى هو ما عرف فيما بعد بالحشاشين أو الخناقين، ومن أجل السيطرة على هذا الفريق، أنشأ جنة كتلك التى قرأ عنها فى القرآن، أقام أجمل حديقة يمكن أن تقع عليها عينا بشر. أشجارها ملأنة بكل أنواع الفاكهة، على جانب الحديقة بنى قصوراً ومقصورات عجائبية من صنع الخيال تجرى من تحتها أنهار من لبن وعسل وخمر وماء، مَنْ يقمن على خدمة الجنة، نساء من أجمل نساء الأرض. جلبن من سمرقند والأندلس وبلاد فارس، يجدن كل شىء، بدءاً من العزف على مختلف الآلات الموسيقية والغناء والرقص، وانتهاء بإقناع الرجال بأن الحور العين هن فقط دون نساء العالمين. كان يريد أن يوحى لشعبه بأن

—: هي الجنة الحقيقية، والآن لا يسمح بدخول الجنة إلا لمن أراد أن يكون حياً، كان يجلسهم حوله ويقص عليهم قصة الجنة والحدود العيون وأنهار الحد والعدل وهم يشربون الحشيش، حتى إذا ما عرف بتمكثه منهم، سبه إلى جنته وهم نائمون، وما أن يستيقظوا ويعوا ما حولهم، خروا له — جدين ..

سمر حسن الصباح يحكم الطائفة من قلعة الموت، لكن قبة أبي الهواء تغب عن عينيه لحظة كان يحلم بدخولها، حكم الطائفة منها، وكانت حر كلماته التي قالها قبل وفاته في العام ٥١٨: لو قدر لي أن أملك القبة، حكمت العالم من فوقها .

شيخ الجبل

يقول المخطوط إنه بعد وفاة حسن الصباح، حكم الطائفة عدة رؤساء تميز عصرهم بالدعة والخمول أطلق عليها مرحلة الكمون، اقتصر فيها سط الطائفة على تنظيم الصفوف والمحافظة على المكاسب التي حققها حسن الصباح، حتى جاء رشيد الدين المعروف بشيخ الجبل الذي جعل طائفة تعيش مرحلة من أزهى عصورها، يورد المخطوط مقتطفاً من حياته كما رواه بنفسه: «نشأت في البصرة، وكان أبي أحد كبرائها، وقد دخلت الدعوة إلى قلبي، ثم حدث شيء بيني وبين أخوتي أجبرني على تركهم، خرجت على وجهي دون ذخيرة أو وسيلة ركوب، وظللت سائراً حتى وصلت إلى الموت فدخلتها، وبقيت هناك حتى مات حاكمها وخلفه ابنه في حكم، فأمرني بالذهاب إلى سوريا، فانطلقت إلى هناك، وكنت لا أدخل أية مدينة إلا نادراً، وكان قد زودني بأوامر وخطابات، ودخلت الموصل ونزلت بمسجد النجارين حيث قضيت الليل هناك، ثم واصلت طريقى لا أدخل أية مدينة حتى بلغت الرقة، وكنت أحمل خطاباً لواحد من رفاقنا هناك فسلمته إليه، وأعطاني الرجل مؤناً وأتاح لي وسيلة ركوب حتى حلب،

وهناك أوصلنى رفيق آخر إلى كهف قضيت فيه سبع سنوات، حتى أذن لى بالخروج فخرجت.. لم يمر وقت طويل حتى أصبح شيخ الجبل سيداً على قلعة أموت ورئيساً أعلى للطائفة، ولكن كان حلم حياته أن يحكم الطائفة من فوق القبة، وكانت كلمات رئيسه السابق تؤرقه فى صحوه ونومه «لو قدر لى أن أملك القبة» ولا سبيل لامتلاكها بعد ما حدث، فقد ذهبت الدولة الفاطمية لتحل محلها الدولة الأيوبية برجلها صلاح الدين، الذى ما أن تسلطن حتى أعلنها حرباً شعواء على الطائفة، ذهبت كل المحاولات للنيل منه سدى، وفى إحدى الليالى كان شيخ الجبل مؤرقاً فأخذ يتجول داخل القلعة فشاهد إناءً من الفخار موضوعاً فى طاق بأحد الأسوار، فمد يده انتزعه من مكانه وقلب فوهته فوقعته منه ورقة مطوية، ولما فردها وتحقق منها، صفق بيديه ابتهاجاً، فقد وضع القدر أمامه خريطة تفصيلية لقبه أبى الهواء، وذلك الممر السرى الممتد من الصحراء حتى داخل القبة، وفى الصباح، أخبر الطائفة إنه سيعلم خبراً سوف يهز الدنيا، ولكن ليس من هنا، إنما من فوق قبة أبى الهواء، وأنه أذن لهم بالهجرة إلى القبة، سيدخلونها من الصحراء متسللين دون أن يدري بهم أحد، وأن عليهم بالهجرة فرادى ليكون أمرهم سراً.

يقول المخطوط إن الهجرة استمرت ستة أشهر كاملة، كان شيخ الجبل هو آخر من هاجر، توافق ذلك مع قدوم شهر رمضان، وفى الليلة السابعة منه، اجتمع شيخ الجبل بأتباعه داخل القاعة الموجودة تحت القبة، وأمرهم أن يظلوا ساهرين حتى الصباح، وخرج هو فاعتلى القبة ومكث بها حتى ولّى الليل وانتصف النهار، ثم إنه نزل إليهم مرتدياً ثوباً أبيض وعمامة بيضاء متقلداً سيفه، وتقدم من كرسى رئاسته ووقف أمامه، ثم إنه تحدث معلناً أن رسالة وصلته من الإمام المختفى تخبرهم بأن القيامة سوف تقوم الآن.

كتاب النيل

'للهم إن كان سعى عبدك فى غير رضاك والتلوذ بحماك تعوداً بك منك، فردنى خائباً خاسراً، وإن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، وإن كنت النية طافحة بالخلوص لوجهك الكريم، فزدنى ثباتاً وصبراً على إيغال فيما أنا فيه، فما القبة إلا وسيلة لغاية أسمى وأجل، وما عروجى وتشحتفى نحوها بهدف المواغلة فى قبة قيل ضمن ما قيل عنها إن هى إلا صدأ من أربعة صنعوا بالحكمة وعلوم الأقاليم، يخبرون بقدم غريب يغزو، أو متنطع يحوم، أو رزل يحط قدمه فى بلاد ليست له إنما القبة رمز يفتز وكنينة مسريلة بغيوم ديمومتها وأسرارها، هى نشدان مستحيل طال مكته وكمونه دون إدراك كنهه، إن هى إلا ممر للولوج إلى مصائر فاتت، وأمم وخلائق عاشت فكأنها ما عاشت ولا وعت وسعت، وعلى أى الأحوال، فإن من فطن وتنبه، بحث عن المعنى المخفى، لا عن طرطشات الكلام نغسول السائب دون لجام - فانتبه -

نرجع مرجوعنا إلى ما كنا فيه، فإننى بعد أن انتهيت من قراءة نخطوط، أخذت أضرب كفاً بكف وأنا فى عجب من بنى آدم وطغيانه وجبروته وكيف يشقى نفسه بيده، فما هى الطائفة بكل رجالها، وكبيرهم جالس بينهم شاخص ببصره متتبع روحه حال خروجها بعد أن افترى على لله كذباً وادعى معرفة علم الساعة فقامت قيامة الجميع بفتة، وضعت

أوراق المخطوط فى سيالتي وهممت بالخروج فإذا بالباب الذى دلفت منه ينغلق، رجعت إلى موضعى الأول فانفتح، عاودت الخروج مرة أخرى فانغلق، وقع الرعب فى قلبى وقلت لنفسى إن هذا المكان لا يد وأن يكون ملعوناً، ولا بد أننى هالك لا محالة بعد أن دخلت بقدى فى هذه المقبرة الجماعية، فلما آيست من أمر خروجى، أخرجت ما فى سيالتي من أوراق وضعتها فى الصندوق كما كانت، واتجهت ناحية الباب وقلت عسى أن يفتح أو أهلك دونه، فإذا بالباب يفتح وأجد نفسى خارجه، فحمدت ربى وفرحت بنجاتى وقلت أقنع بما رأيت وأفضها سيرة، وحانت منى التفاتة فرأيت باباً على يمين الممر الذى أنا فيه، فحدثت نفسى الأمانة بالسوء بأن هذا الباب وراء ما لا بد من مشاهدته، وقويت الرغبة عندى إلى الحد الذى لم أستطع السيطرة على أعضائى، فتقدمت ودخلت من الباب، واجهتني قاعة متألثة الأضواء مفروشة بالطنافس، وفى الصدر، كتاب لم أعرف أوله من آخره موضوع على كرسى كأنه الملك على عرش ملكه، والكتاب له رهبة ومهابة وتتعدد حوله الأنوار كأنها القمر إذا بدر ليلة أربعة عشر، فتقدمت منه، وجعلت بينى وبينه مسافة، ووجدت مكتوباً على صفحة غلافه إنه كتاب النيل المبارك، فتذكرت أحمد بن أبديس رحمة الله عليه، وكيف أنه رأى هذا الكتاب من قبل، وإنه مد يده إليه فى لهفة، فما يدرى إلا وشىء خرج منه لطمشه فى وجهه حتى هج صوابه ووقع مغشياً عليه، لأنه لم يكن يعلم بأن هذا الكتاب له رصد يحميه على مدار الدهور والأزمان، المهم أننى تحررت منه وركعت ساجداً لله تعالى عسى أن يمنع عنى شره وأذاه، ثم أننى جلست متربعا أمامه، وصرت أتأمل هذا الكتاب النفيس، قرأت الفاتحة وأهديت ثوابها لمن صنع هذا الكتاب الوحيد الأوحد الذى حوى من علوم الدنيا جميعها، وحفظ لنا روح أمنا الطاهرة «مصر» ترى من الذى كتبه؟ هل هو واحد أم مجموع من البشر؟ فى أى زمان بدئ بكتابته؟ هل اكتمل دفعة واحدة أم كتب على مراحل؟

جميع من تحدثوا عنه لم يروه، إنما هي تكهنات بوجوده، فطالما يوجد نيل، فلا بد من وجود كتاب له، سجل يحكى تاريخه، من أين ينبع، أصل شأته، مصباته، روافده المختلفة، البلاد التي يمر بها، طوله وعرضه، نهاية رحلته حتى مصبه في البحر الأعظم، كيف تم حفره؟ وفي أي زمن بدأ؟ من من تنبه له؟ أيهما كان أسبق في النشأة، البلاد أم النيل؟ اسم أول من شرب من مائه؟ كيف كان طعم الماء؟

الكتاب يدل على محتواه، العناية الفائقة بالحرف، بالجملة، السطر، نداد الذي كتب به والمموه بماء الذهب، حروفه المتجسدة تكاد تنطق، تشخص ما تعبر عنه، حدث أحمد بن أبيدیس أنه لحظة لمس حروف نكتاب، أينعت الحروف زهوراً بيضاء وحمراء وصفراء، وقال إن أحرف نكتاب صنعت من ماء وطين النهر، حتى الورق صنع من نفس المادة، وإن من خواصها إذا وقعت عينا إنسان على أي حرف يزهر فجأة، شبه الحرف ببذرة، وقال إن النظر ينشط البذرة ويجعلها تُخصب فتزهر، وقد تحقق كلامه، فما قرأته من صفحة العنوان أخذ يتشكل أمامي أشجاراً ووروداً، في منتصف الصفحة الأولى آية كتبت بخط الثلث العريض:

وجعلنا من الماء كل شيء حي

الآية الكريمة انشقت نهرًا جرى بين الأشجار والورود صافيًا رقيقًا، يدون أن أمس الكتاب بيدي، أخذت صفحاته تفر أمام عيني، وكأنه أنسني، ها هو يطلعني على مكنونه، ذخائره، أسراره التي لم يطلع عليها أحد قبلي ونجا، حتى أحمد بن أبيدیس الذي لم ير منه سوى أجروميته، مات بعد رؤيته حين لم يصدقه أحد برؤيته كتاب النيل، الكتاب الذي ظن البعض أنه حكاية من حكايات الخيال، أسطورة لم يعرف مصدرها أحد، فقط شائعة، الكتاب لا بد أنه موجود في مكان ما، طالما توجد حياة في لوادي، ولكن هل رآه بشر؟ هل جلس بين شاطئيه مثلما أجلس الآن؟ هل

هى خدعة منه أن يطلعنى على مخابئه لعلمه أننى لن أغادر القاعة حياً بعد قراءته؟ فلو أقلت حياً، فسوف ينفلت لسانى بالبوح، أحدث العالمين عما عرفت، أذيع سرّاً لم يعرفه غيرى، لن أطيع الكتم، فما أنا من الصنف الكتوم، إن إنا إلا حكاء وقع فى زمن جفت فيه ينابيع الخيال، لكنها صنعتى، لا أعرف غيرها، فإن بارت، فعليه العوض.

* * *

ذكر سيرة عوج بن عنق

وكيف ساق النيل أمامه

حتى جاء به إلى بلاد

مصر، كذا ذكر

قصة طوفان

نوح

*

يقول كتاب النيل: وحدث أن أمر الله نبيه نوح بأن يفرس أشجاراً تكفى لصناعة الفلك، ففرس نوح أشجار الساج فنمت فى أربعين سنة، ثم أمره بقطعها وتجهيزها، فأعيت نوح عليه السلام فى كيفية نقلها، فكان أن نقلها عوج بن عنق مقابل إطعامه وشرابه، فلما فعل ذلك، جهّز نوح عليه السلام الفلك وحمل فيه من كل صنف اثنين، وجاء الطوفان، وغمر الماء كل شيء. وطففت السفينة على الماء أربعين ليلة، وأراد عوج أن يحمل فى السفينة فمنع من ذلك، فصار يمشى بجانبها ليأتنس بها وماء الطوفان الذى غمر كل شيء لم يكن يصل حتى ركبتيه، فإذا جاع مد يده فى الماء فيصطاد حوتاً عظيماً، ورفع يده حتى تبلغ السحاب فيشويه على الشمس، وعوج ابن عنق هذا، سيدرك زمن موسى عليه السلام، وسوف يقتل على يديه..

فلما غاض الماء، ورسست السفينة على الأرض، افترق عنها عوج بن عنق
تخذ طريقه نحو الأرض الكبرى حتى وصل إلى جبل يسمى جبل القمر
ينبع منه الماء ويسيح على وجه الأرض، وكانت الأرض طرية من آثار
نطوفان، فأخذت أقدامه الضخمة تحفر مجرى عميقاً، وبدأ الماء يتجمع
متتبعاً آثار أقدامه فكان كلما نظر خلفه وجد الماء تحت أقدامه فأنس به،
حب عوج أرض الحبشة، ثم عرج على السودان حتى انتهى إلى مصر،
وعند مدينة سوف تسمى فيما بعد بالقاهرة، اتخذ طريقاً فرعياً أوصله
إلى مدينة دمياط فوجد البحر الأعظم أمامه فكر عائداً من حيث أتى
وواصل رحلته في اتجاه آخر أوصله إلى مدينة رشيد، ومثلما وجد في
دمياط وجد البحر أمامه يعوقه عن التقدم فعاد مرة أخرى حتى وصل
أسوان، وكانت رحلته قد رسمت مجرى النهر إلى الأبد فأخذ الماء يتدفق
عبر قدمي عوج بن عنق.

هل رأى عوج بن عنق القبة؟

يقول الكتاب إنه بعد أن وصل إلى أسوان أراد أن يستريح، أخذ يبحث
عن مكان يأوى إليه، فما وجد غير جبل كان الوحيد على مشارف بصره،
خطى خطوتين فأصبح عنده، كان الجبل عالياً، لكنه بالكاد كان يصل إلى
ركبتيه، جلس عوج على الأرض واتكأ بظهره على الجبل، ومد ساقيه
باتجاه ضفتي النهر فكانتا قنطرة تربط ما بين الضفتين، وأراد أن يريح
رأسه على قمة الجبل فلم يستطع ذلك، فأحضر صخرة عملاقة اتخذها
فوق قمة الجبل متكئاً لرأسه، وراح في النوم مدة ستمائة سنة حتى صحا
في زمن موسى عليه السلام وجرى عليه منه ما هو معروف ومدون، أما
الموضع الذي وضع فيه رأسه عند نومه، فهو ما عرف بعد ذلك بقبة أبي
الهواء.

حكاية تتعلق بسرّ النيل

وأن من أراد معرفته

مات من وقته وساعته

يقول الكتاب إن للنيل سرّه المخفى عن الخلائق، لا أحد دنا منه ونجا، لذا فقد كثرت الأقاويل حول نشأته، من أين ينبع، علاقته بالنجوم والأفلاك، تأثير الأبراج فى جريانه، قيل هو ينبع من الجنة ضمن أربعة أنهار كبرى: سيحان وجيحان والفرات والنيل الذى هو أعظمها، تتفق الآراء على أنه نهر العسل فى الجنة، له كراماته الخاصة به وحده، منها أنه إذا جفت كل أنهار الدنيا، فإنه يزيد ويفيض، ومنها أنه يجرى عكس كل أنهار العالم، فإنها تجرى من الشمال إلى الجنوب، أما هو فيجرى من الجنوب إلى الشمال حتى يصب فى البحر المحيط، وإن بعض الملوك أمر بالسير إلى حيث منابع النيل، فساروا حتى وصلوا إلى جبل، والماء ينزل من أعلاه بدوى وهدير صم آذانهم وجعلهم لا يسمعون بعضهم، ثم إن أحدهم صعد إلى أعلى الجبل لينظر ما وراء ذلك ومن أين يأتى الماء، فلما وصل إلى أعلاه ضحك وصفق بيديه ثم مضى إلى خلف الجبل ولم يعلم أصحابه ما أصابه، ثم إن رجلاً آخر منهم صعد ليرى ما وراء ذلك الجبل وما كان من أمر صاحبه، ففعل مثله ومضى فى الجبل، فطلع ثالث بعد أن قال لأصحابه أربطونى من وسطى بحبل، حتى إذا ما وصلت إلى ما وصل إليه أصحابى وفعلت كما فعلوا فاجذبونى من الحبل فلا أبرح مكانى، ففعلوا، فلما صار فى أعلى الجبل صفق بيديه وأراد أن يمضى فاجذبوا الحبل عندهم ونزل إليهم، فلما وصل خرس لسانه ولم يرد جواباً، وأقام بينهم ساعة ومات، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك من أخبار النيل.

* * *

كم من الوقت مضى وأنا جالس بين يديه يحكى لى؟ عن الأيام السابقة ضوفان حكى، عن فراعين جاءوا وبنوا وشيدوا ما سوف يظل أبد الدهر حياً وشاهداً، عن غزاة الوادى حكى، عن كيف بدأ الخلق، وكيف ينتهون، عن أسراره باح لى، خصنى بكينونته، فضح نفسه أمامى، تعرى دون خشية حجل، فر صفحاته أمام عيني، لا تكاد تنتهى حتى تبدأ بداية أخرى من خطة أخرى، خصوبته ظاهرة ومترعة، فيضانه جامع، مصباته تتلوى أمامى، كادت روحى تذهق من بدنى النضاح بالعرق، أنفاسى لهاثها يسمع على مسيرة يوم، طفح قلبى بمعرفة يقينية بأنى ميت لا محالة، فكيف أباح لى. وما أنا من حفظة الأسرار، كيف أكتتم أحوالى وأدارى على شمعتى، هل أهرج صنعتى وأفضها سيرة إذا أردت أن أشتري عمري؟، هل أحلف له بالكتمان؟ وهل هو مصدقى؟ وجف قلبى وارتعبت، انكبت على وجهى وانفطرت بكاءً، لقد مشيت دون أن أدري فى سكة اللى يروح ما يرجعش، ولأن، فإن مصيرى معلق بين دفتى هذا الكتاب جلست مطرفاً مدة ساعة منتظراً، ترى ماهى خطوته القادمة؟ ما الذى سيفعله بى؟ من أين يبدأ عطبى؟ الضربة الأولى من أى جهة تجيء؟ وكيف سيكون الوقع؟ هل ينتهى مصيرى من اللحظة الأولى؟ هل يحتدم الصراع بيننا وأبدى مقاومة؟ كيف تفسر صمته المفاجئ بعد فيضانه؟ وبينما أنا هكذا يمتد بى شطح الأسئلة حتى منتهاه، وتأخذنى التوهومات إلى آخر المدى، إذ خرجت من الكتاب ربح صرصر مباحته أطاحت بى وحملتتى حتى رفعتنى فى سقف القاعة فما عدت أدري موضع رأسى من قدمى، ثم جذبتنى فى اتجاه الكتاب حتى التصقت به، وانطبق على فحصرنى وعصرنى بين دفتيه، وأيقنت أنه من هنا تجيء الضربة القاسمة، وأن قيامتى قامت، وأنا أموت الآن بين دفتى كتاب لعين، وأنه لحدى حتى تقوم الساعة ولا من شاف ولا من درى، فتغرغرت بالدموع وقلت كلمة لا يخجل قائلها: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم نطقت الشهادتين وأسلمت نفسى للذى لا يموت، وأحسست روحى تتسحب

من جسدى وتسبح فى ظلام حالك زمناً خلته لن ينقضى، ثم لاحت لى بارقة ضوء من بعيد كنت أتقدم نحوها بسرعة شديدة حتى أشرفت عليها وتجاوزتها، وهبت عاصفة شديدة مثل الأولى أخذتنى وطوحت بى فوق جبل، فلما أفقت بعد أن غشى علىّ مدة ساعة زمانية نظرت إلى الجبل الذى أنا فوقه فوجدته مثل وتد عملاق، فليس له عرض، بل طويل ونحيل مثل مسمار، وحين نظرت لأسفل كدت أفارق رهبة وخوفاً، فلم تستطع عيناي بلوغ الأرض من شدة العلو، وبعد أن مرت ساعة وأنا أجيل النظر علىّ أجد طريقاً يأخذنى لأسفل حتى أعيثنى الحيلة، وعلمت أنني وقعت فى بلاء أعظم مما مر بى سابقاً، ولم أعد أتجاسر على النظر لأسفل وقد تحقق لدى أن لا خلاص لى وعظم الأمر واشتد الجوع والعطش، وفيما أنا على ذلك، وإذ بى أسمع صوتاً كصوت الرعد القاصف وقد أخذ يشتد ويعظم كلما دنا منى، فاعترانى من الخوف والرعب الكثير، وكاد يغمى على، وبقيت نحو ساعة زمانية وأنا كالغائب عن الوجود، ثم وعيت إلى نفسى وإذا بطائر عظيم الخلق ما رأيت فى حياتى أكبر ولا أعظم منه، فحط بالقرب منى، فلما رأيت ذلك أيقنت بالهلاك، فإنه إذا نظر إلى ورأى يلتهمنى، وظللت مدة على ذلك لا أتى بحركة حتى لا يرانى الطائر، والطائر لا يلتفت لى ولا يهتم بوجودى، فقلت فى نفسى: ماذا لو تعلقت برجلي هذا الطائر وربطت الحزام فى ساقه اليمنى دون أن يشعر بى وأخذت أترقبه طوال الليل إلى أن بزغ الفجر فنشر الطائر جناحيه وهم بالطيران فتعلقت بالحزام فأقلع فى الهواء وأخذ يصعد فى الجو الأعلى وأنا كلما نظرت إلى الأسفل لا أرى أرضاً ولا أى شىء فيرقص قلبى رعباً وخوفاً، واستمر الطائر آخذاً فى الصعود إلى طبقات الجو الأعلى حتى وقت الظهر، ثم عاد إلى الهبوط شيئاً فشيئاً حتى اقترب من الأرض، وخفت أن يصعد مرة أخرى فرميت نفسى على الأرض وقد غبت عن الوجود مدة ساعة فلما عدت إلى وعيى، فتحت عيني وإذا بى أجد نفسى

وكانى فى جنة النعيم، إذ رأيت أرضاً واسعة مزينة بالرياض والنباتات
 ولأشجار ذات الثمار، فلبثت نحو ساعتين متحيراً مبهوئاً، ثم نهضت من
 مكانى وقطفت بعض الثمار وأكلت حتى شبعت، ثم شربت من نهر كان يشق
 الأرض ماءً صافياً فكانت مياهه مثل العسل المصفى ولبثت جالساً فى
 مكانى حتى أقبل الليل فخفت أن يفترسنى وحش فنمت فوق شجرة
 ضخمة حتى أصبح الصباح فنزلت من فوق الشجرة وأخذت أتجول فى
 أنحاء المكان فرأيت ما تعجز عنه الأوصاف، كانت الأرض تشبه الجنة فى
 كل شىء، فكانت مغطاه بالأشجار والأزهار المتنوعة من كل صنف ولون،
 يعنى الأشجار تصدح الطيور وترنم بكل الأصوات ويشق النهر طريقه بين
 الأشجار ويتفجر ينابيع وعيوناً تجرى صافية كالفضة البيضاء فترى
 لأعمالك ذات الألوان الزاهية تسبح فى الماء آتية وذهابة، فأخذت أفكر
 فى ملكوت الله ولطفه بى وكيف حسبت نفسى ميتاً بعد وقوعى بين دفتى
 كتاب النيل، فحمدت ربى على نجاتى، وصرت أتقل بين تلك الربى حتى
 قبل المساء فأكلت لذيق الثمر وشربت ماءً صافياً، وكان القمر فى ليلة
 تمامه فأنا على تلك الجنة وقد زاد سرورى وانشرح صدرى، والنسيم
 لطيف يحمل أطيب الروائح فجلست مقدار ساعتين وأنا أتأمل إلى أن
 انتهت على غيمة بيضاء ظهرت فى الأفق، مرت على القمر فلم تحجب
 غره وهى تقترب شيئاً فشيئاً وتتساقط كما المطر حتى لم يبق لها أثر ثم
 رأيت آلافاً من الأنوار الساطعة مقبلة من مسافة غير بعيدة. أما أنا فقد
 عراني الخوف الشديد عندما رأيت ما رأيت، وقلت فى نفسى عجباً لهذه
 الأنوار، وجعلت أدقق فيها وهى تقترب منى، وفى الحال أسرعرت إلى
 شجرة عظيمة تسلقتها واختفيت بين أغصانها وأنا أرتجف، فلما اقتربت
 لأنوار صارت تحت الشجرة فتأملتها فرأيت نحو خمسمائة فتاة لا نظير
 لهن فى الحسن والجمال، وفى أيديهن شمعدانات من الذهب مرصعة
 بأنواع الجوهر وقد تقدمن فى صفوف ووقفن يضحكن ويمزحن، وكن

أحضرن على أكتافهن الفرش الفاخرة فوضعنها ثم وضعن سريراً مجوهرًا ومنقوشاً بأبداع نقش، ثم وقفن بترتيب وفى أيديهن شموع من الكافور موقدة كأنهن ينتظرن أحداً، وفيما أنا مشغول بالتفكيك فيما يحدث حولي، وإذا بأنوار عظيمة ظهرت من الجهة التى أقبل الجوارى منها، وكانت الأنوار مقبلة لجهتى، وإذا بها فتيات على نفس الهيئة الأولى، غير أنهن كن أبهى حسناً وجمالاً، وأكثر إشراقاً من الأخريات، وفى وسطهن فتاة بديعة الجمال باهرة المحاسن لم تر عينى أجمل منها كما قال فيها بعض واصفياً:

تبارك بحسن تبارك الله

جل الذى صاغه وسواه

كل الورى فى جماله تاهوا

قد كتب الحسن فوق وجنته

أشهد أن لا ملىح إلا هو

وكانت كلما قريت منى زاد وجهها بهاء وإشراقاً وأخذت محاسنها بمجامع قلبى ولم أعد قادراً على الثبات فى مكانى فكدت أقع فتشبتت جيداً، فلما اقتربت الفتاة من السرير والجوارى بين يديها فجلست وجلس بعض الجوارى حوالىها وهى مطرقة إلى الأرض، ثم رفعت رأسها وقالت: أسمع صوتاً فوقى، ولا بد من وجود شخص غريب هنا، وأمرت الجوارى بالذهاب للبحث والتفتيش وبينما أنا أفكر فى الخطر المحقق بى، كانت الجارية التى تشبهها حسناً وجمالاً تقترب من الشجرة التى أقف فوقها فجعلت تطوف حولها حتى وقعت عيناها على فتبسمت وقالت انزل ولا تخف، فليست الشجرة مكاناً لائقاً بك، فبعد أن سمعت منها هذا الكلام اللطيف نزلت وقد اطمأن بالى وهدأ فكرى وأخذتتى الجارية إلى سيدتها

وسيدة الكل فأجلستني بجانبها وأخذنا في المنادمة، وأنا كلما نظرت إلى وجهها لم أقو على الصمود فأرد بصري مرة أخرى وقد أخذني الانبهار من كل ذلك الحسن والجمال فليس لهما نظير في الدنيا، ومرت ساعة ونحن على تلك الحال، فأمرت جواريتها بإحضار الطعام والشراب، فأحضرن طعام بسرعة لا يمكن وصفها وأتين بسفرة عليها أطباق من الذهب نرصع بالدر والجوهر وفي داخلها من الأطعمة تشرح الصدر وتجلب سرور، كذلك أقداح الشراب بعضها من حجر الفيروز وبعضها من نياقوت الأحمر، فأخذتني من يدي وجلست بجانبها وحولنا البنات بالشمعدانات المضاء، وصارت تنادمني وتلقمني في قمى وأنا كنت جوعاً فأخذت أكل من يدها حتى اكتفيننا، وأحضرت البنات الأباريق في الحال وأخذن في غسل يدي بماء الورد ونشفننا بمناشف من الحرير البديع اللون، وغسلت هي أيضاً بعدي ثم أخذتني من يدي وذهبت بي إلى السرير فجلسنا عليه، وبعد ذلك حضرت سفرة الشراب، وتقدم نحو من خمس عشرة فتاة لخدمتنا فملأن الأقداح وناولنني وناولن سيدتهن فشربت وشربت، وأخذ الشراب يدور علينا وقد أحضرن آلات الطرب من العود والقانون والناي والجنك والدف وجعلن يضربن عليها وهن يغنين ويطنين بأعذب الأصوات وأشدها رقة وعذوبة حتى هاج غرامى وهيامى وبت لا أعرف رأسى من رجلى، وكيف لا وأنا في حضرة هذا الجمال الذى كاد يغمى على من شدته، فظهرت على وجهى علائم الفرح والنشوة، فلما رأته فتاتى ما أنا فيه تبسمت وقالت بلسان عذب وصوت كتغريد البلابل إن شاء الله يكون قد زال عنك العناء ولم يبق عندك شئ من الخوف والخجل فقلت نعم يا منيتى، يكفى جلوسى قريك والتمتع بالنظر إلى وجهك، فإنى الآن فى أتم الحظ والانشراح، فسرت من كلامى وأظهرت لى من دلائل الحب زادنى جرأة إذ طوقت عنقى بذراعيها الناعمين، فكدت أغيب عن الوجود، وكان الشراب العتيق قد نال منى مع تلك الأصوات البديعة ومن

رقص البنات الجميلات ذوات القدود المائسة والعيون الناعسة، وهن كالبدور الساطعة، كن ينهضن عشرات عشرات ويرقصن رقصاً يذهب العقل، وكانت فتاتي على مثل حالي، فوجنتاها التهبتا احمراراً حتى فاقتا الورد، ورأيت شفيتها محمرتين يكاد الدم ينفجر منهما فدفعنى ذلك إلى تقبيلها وتطويق عنقها، فلما سككت ولم تبد ممانعة أخذت فى تقبيلها فى شفيتها وعنقها وأنا أشعر بلذة عجيبة ولم أعد أعرف كيف أتصرف فمددت يدي إلى صدرها فلما لمست نهديتها غبت عن وعيى لأنى شعرت بيدي تلمس جسماً ناعماً كما لا توجد نعومة فى أى شىء فى هذه الدنيا، وأخذت يدي تلعب بنهديتها واقتربت بشفتي منهما وأخذت أقبلهما وأشم ما ينبعث منهما من عبير الروائح العطرية التى تتعش الصدور وتبعث الموتى من القبور، وكنت فى المرة بعد الثانية أضع شفتي على حلمة الثدي الوردية المنتصبة فأمتصها مصاً لطيفاً حلواً، ودعتنى الشهوة فأرسلت يدي إلى المكان المطلوب والسر المكنون فكأنى لمست بقجة من الديقاج محشوة بقطن مندوف لا يوجد أخف ولا أنعم وأملس منه، حينئذ دفعتنى الصبية بلطف وتبسمت وقالت مهلاً يا ضيفى العزيز فكن قانعاً بالمداعبة والملاعبة والضم والتقبيل فلا يمكن أن أسمح لك هذه الليلة بالوصول، وإن كنت تحبني وترغب فى مصاحبتى فلا تخالف كلامى واصبر وتحمل فتتل كل ما تريده، وإذا كنت لا تقدر على التحمل الآن فهالك كل هؤلاء البنات فهن أباكر وعلى حسن وجمال ولا يوجد لهن مثال فاختر واحدة تتم معها أو إن شئت فكلهن أمامك إن تقدر، ثم قالت: دعنى أختار لك واحدة، ثم أشارت لجارية بديعة فى الحسن والجمال، فتقدمت منى وأخذتني من يدي وتقدمتني قليلاً وأنا أسير خلفها فرأيت قوامها المشوق وهى تemis وتبتشى أمامى ومؤخرتها تترجرج فكأنها الماء، وما زلنا نتقدم حتى وصلنا إلى صيوان منصوب، فرش بالأبسطة البديعة الفاخرة وقد جلس حوله مئات من الجوارى الحسان، فلما رأينى قمن ونهضن لاستقبالى، ثم التفنن

خيري وقدمتني إلى سرير في جانب الصيوان فأجلسنني وانصرفن، وجاءت نتي التي اختارتها لي صاحبتى، فلما أمعنت النظر إليها تعجبت، فهي لا تحف في جمالها ومحاسنها عن صاحبتى، ولأول وهلة شعرت بأن هناك حدة، فربما كانت هذه الفتاة هي فتاتي الأولى وقد غيرت ثيابها لتمتحنى، ثم بعد أن دققت النظر علمت أنها تشبهها فقط، وإنها بارعة الجمال، ثم أخذت أقبلها وأعانقتها لأطفئ شوقى إلى الأخرى، وأخذت هي أيضاً فى مدقة والبوس حتى انحلت مفاصلى ولم يبق لى رفق إلا إذا وضعت المرود فى حجلة، وإذ ذاك نهضت الصبية فأحضرت الشراب وناولتنى من يدها فأخذت ترب وأعانق وأقبل وأرشف وأمص حتى بلغ السيل الزبى ودار الشراب فى لى فغبت عن الوجود، وفى الحال نزع ثيابى ونزعت هي الأخرى ثيابها بحببتها إلى والتصقت بها التصاق اللام بالألف فأزلت بكارتها، وصرفت باقى لى معها بلذة لم أذق مثلها طول عمري.

فلما أصبح الصباح، وأضاء الكريم بنوره ولاح استيقظت أنا والصبية فأخذت تمرسنى وتقبلنى حتى قضينا حاجتنا من بعضنا البعض، ثم نهضتنى وأخذتنى من يدي إلى صيوان آخر فخلعت ملابسى، وأخذت فى صب الماء على رأسى وبدنى وهى تملس على جسدى وتدعكه، فلما انتهت من تحميمى، ألبستنى ثوباً ملوكياً وأخذتنى من يدي مرة أخرى إلى صيوان الأول فأجلستنى وتركتنى لتستحم هي أيضاً.

وبعد أن جلست وحدى، نهضت وقصدت الخروج إلى الحدائق للتنزه، وبعد أن طفت نحو عشر دقائق عدت إلى الصيوان وفى ظنى أن أجد فتاة قد فرغت من الحمام، وأنها فى انتظارى، ولكنى لم أجد الصيوان ولا الفتاة ولا شئ غير ذلك فجلست مذهولاً عدة ساعات وأنا لا أصدق بما حدث، فلا يمكن أن يكون كل ما جرى لى حلماً، فلم أكن نائماً ولا بد أن ما حدث لى كان حقيقة ولم أجد ما أفعله سوى أن أضع رأسى بين ركبتي

وأبكى جنتي التي ضاعت وهؤلاء الفتيات الحوريات وما فعلنه معي، ثم قمت وأخذت أطوف في الأرض كالمجانين وأنا أقول أين يا ترى أجدهن؟ وإلى أي مكان ذهبن؟ ومن أين أتين؟ وهل يمكن أن يتاح لي رؤية تلك الصبية رائعة الجمال والتي أخذت قلبي معها وتركتني صريع هواها، وظللت هكذا أطرح السؤال تلو السؤال وكلما تذكرت ما كنت فيه انهمرت دموعي، ونسيت الطعام والشراب حتى أتى المساء فقلت في نفسي ربما كانت عادتتهن أن يذهبن في الصباح ويأتين في المساء فلأذهب إلى المكان الذي وجدتهن فيه بالأمس، وبالفعل ذهبت إلى حيث كان اللقاء الأول وجلست أنتظر وأنا بين لعل وعسى وقمت إلى النهر فغسلت وجهي ورأسي، وخيل إليّ في لحظة ركوعي إلى الماء إنني رأيت وجهها يطل من خلال الماء لحيظاً كانت تقترب وتتبعث منها الروائح العطرية، وحينئذ تيقنت من أنهن الفتيات فصفقت من الفرح وقفزت في الهواء أكاد أطيّر، وأما البنات، فقد بدأت بالورود أفواجاً وأفواجاً وأخذن في تهيئة الأبسطه وتهيئة المكان كما كان بالأمس ثم نصبن السرير في الوسط ووقفن ينتظرن سيدتهن، وإذا بالمشاعل ظهرت من بعيد ووصلت صاحبتى وجلست على السرير وانتظمن حولها كما تنتظم النجوم حول القمر، فاقتربت من السرير غير خائف، فلما رأته البنات وقفن بين يدي، ونزلت حبيبتى عن سريرها وأخذتني من يدي ورفعتنني إلى جانبها، أما البنات فأخذن آلات الطرب بين أيديهن وبدأن يعزفن عليها ويغنين بأصوات رخيمة، وبعضهن قمن للرقص وقد كشفن عن سيقان كأغصان البان وعن نهود كأنها كواكب درية تتبعث منها الأنوار، ثم إن فتاتي أبدت لهن جميعاً إشارة الانصراف فقممن في الحال وابتعدن، فكدت أطيّر فرحاً لظني أنها أرادت، أن تخلو بي فضممتها وأخذت أمتص من شفثيها ريق أحلى من العسل المصفي، وهي لم تمنع وأنا أضم وأقبل وأمتص وأدغدغ وأداعب، ولم أعد أطيع صبراً فطلبت ما تطلب الرجال ولسان حالي يقول:

إنما الوصل للمحبة شاف

مثل ماء يصب فوق الحريق

فلما رأت الفتاة ما أنا فيه من انعدام الصبر، وأنتى أخذت سروالها بين
عابعى تلمساً لما تحته. أمسكت يدي وقالت صبراً يا حبيبي لا تكن عجولاً
تدم فيما بعد ففى التانى تنل ما تشتهى، فقلت هيهات يا حبيبتى أن أقدر
على الصبر وأنشدت هذين البيتين:

كيف اصطبارى والهوى فى أضلعى

سرى فما منه مكان قد خلا

مع أن من أحببته أحظى به

فمشاهداً ومعانقاً ومقبلاً

ثم زاد بى الوجد من شدة العشق والهيام فجرى لسان حالى بما فى
نسى:

لو قلت للقلب صبراً فى محبتها

لما أطاع فإن الصبر يضمنى

ويلى إذا لم أنل ما سحرت بها

وصلاً من السقم يشفينى ويحيينى

فقالته وهى تتبسم تبسم الدلال والفتنة: لقد أفهمتكم منذ الليلة الأولى
— زعم الصبر والتانى وإلا فسوف تندم، أما إذا صبرت نلت ما أنت طالب
— تضيعنى بقله صبرك ثم أشارت لإحدى جواربها وكانت لا تقل عنها
حناً فأخذتنى من يدي ونمت معها فى السرير.

فلما أفقت من نومى لم أجد أحداً بجانبى كما حدث بالأمس وكالعادة،
تد جئن فى المساء، وأخذتنى حبيبتى من يدي فأجلستنى بجانبها وأخذت

تداعبني وأداعبها حتى نفذ صبرى فقلت لها: يا حبيبتي هذه هى ليلتى الثالثة معك، وأنتى تمنعيننى عنك، وأنا لم أعد أصبر ولا بد من أن أجعلك تحتى هذه الليلة وإلا فسوف أقتل نفسى ويصبح دى فى رقبتك فلما سمعت منى هذا الكلام أطرقت وقد تورد خذاها وسال العرق على جبينها وعنقها، ثم إنها نظرت لى وقالت: إنك بتسرعك هذا سوف تفقدنى إلى الأبد، وإذا كان لا بد من ذلك فدعنى أريك شيئاً تقرأه، فإذا فهمته ترجع عن طلبك، وإلا فافعل ما تريد وطلبت من جواربها صندوقاً أخرجت مفتاحه من جيبها وفتحته وأخرجت منه كتاباً أول ما رأيت عرفته، ذلك هو كتاب النيل الذى جاء بى إلى هذا المكان ففتحته على صفحة فرأيت صورتها بطول الصفحة والماء يخرج من فمها وأنفها وأذنيها وشرابها وقدميها فكأنها النيل، فلما رأيت ذلك تعجبت ولم أفهم فنظرت إلى وقالت: ألا زلت مصرراً على رأيك فأعطيته الكتاب وقلت: هذا لا بد منه فإننى إن لم أفعل عدت نفسى أمامك فى الحال.. فتيقنت من صدق طلبى ونيتى، ثم إننى قبضت على خصرها بيدى وطال سلاحى وكاد يخرج من غمده، فلما رأت الفتاة ذلك، قالت لى: أدر وجهك حتى أتهيأ لك فأدرت وجهى فى الحال فرحاً بنيل الوصال، ولم تمر دقيقة حتى قالت: در بوجهك حتى تتل المراد، فأدرت وجهى - ربنا يكفيكم شر ما رأيت - فإذ بى ألطخ لطحاً مثل المرزبة على عيني فغشى على مدة ساعة، فلما أفقت، تلفت حولى فلم أجد أحداً، ووجدت نفسى فى صحراء بلقع، فشرعت فى نتف شعر رأسى وخبط يدي على صدرى وأنا أبكى وأنوح من كبد مجروح وأقول ليتنى سمعت كلام الصبية، ليتنى انتظرت كما قالت، ليتنى وليتنى، وندمت حيث لا ينفع الندم على الجنة التى أخرجتنى منها، ولكن أنا السبب بتسرعى ولهفتى فلا ألومن إلا نفسى، ثم قمت وأخذت أمشى فى الصحراء، وكلما مشيت فلا يوجد سوى رمال، إلى أن جئت خلف جبل رملى وجلست من شدة الإعياء وضربنى اليأس فأوهنتى وأدركت أنى ميت

بمحاولة، ربما من العطش، أو الجوع، أو يخرج وحش فيلتهمنى، شددت حياي وأخذت أصعد جبل الرمال بإحساس من هو مفارق، واصلت صعودي حتى وقفت على قمته، ورأيت تحته نهراً من الماء الجارى رد لى روحى . تعشت بالأمل فأخذت أنزل الجبل وأنا أجرى فأتدحرج حتى وصلت إليه . زيميت نفسى فى الماء وأخذت أشرب وأغتسل فكان ماؤه أحلى من العسل، بعد أن شربت كفايتى ورطبت جسدى أخذت أجد فى السير بمحاذاة النهر مئاً لا أدرى مدته على أجد أحداً من البشر، أو طريقاً أسلكه إلى بيتى، حتى وصلت إلى جبل يعترض النهر، والماء ينبع من ذلك الجبل ويصب فى نهر، وحاتت منى التفاتة إلى رجل قائم يصلى تحت شجرة تفاح بالقرب من الجبل، فلما رأيته استأنست به وتقدمت منه سلمت عليه فقال لى من أنت، فذكرت له اسمى وحسبى ونسبى، فلما سمع ذلك نظر لى وتبسم، وأشار لى بالجلوس فجلست أمامه وقلت له أين أنا، وما الذى جعلك تقيم هنا منفرداً بينما أرض الله واسعة؟

قال الشيخ: أما أين أنت فأنت على شط النيل المبارك، وأما أنا فاعلم ننى أبو العباس الخضر، وعن تبسمى عند سماع اسمك لأننى أنتظر مجيئك، فأحد لم يسح سياحتك هذه، لا قبلك ولا بعدك، لكن الكتاب ختصك دون غيرك هل تعرف لماذا؟ لأنك منه، وأنت ابنه فاغتنمها فرصة واجتهد فى معرفة النيل - أبيبك - فما جئت لهننا إلا لهذا السبب ثم قال مشيراً لاتجاه الجنوب: ستمر عليك حية ترى آخرها ولا ترى أولها، فلا تفزع لرؤيتها، وهى معادية للشمس، فإذا طلعت الشمس هوت إليها لتلتقمها، ولحظة ترى ذلك، أركب على ظهرها، فإنها تذهب بك إلى نقطة لا أحد غيرها يصل إليها عند الشاطئ الآخر للنهر، فأمشى فى بره، فإنك تقع فى أرض من ذهب، وبها جبال وأشجار فلما مضيت وفارقته بعد أن دعى لى، فعلت ما قاله لى حتى وصلت إلى أرض الذهب، فنظرت إلى قبة من الذهب ولها أربعة أبواب، ورأيت النيل ينحدر من جوف تلك القبة،

وأردت المضى إلى ما وراء القبة. فإذا بصوت أسمعته ولا أرى شخصه يقول
لى:

قف مكانك ولا تتقدم، فقد انتهى إليك علم النيل، فاقنع بما وصلت
إليه، فما وراء ذلك إلا الجنة.

المرصد

يقول ابن تهماني في مصنفه الوحيد، الفريد في نوعه والمسمى «المقاصد في المراصد» أن القبة شيدت لغرض الرصد والإخبار بقدم غريب، وأنها وحدة من أربعة يطلون على حدود الكون المصري، فمن ناحية الجنوب مرصد قبة أبي الهواء، والثانية كانت عند الحدود الشرقية فوق جبل سيناء، وبنيت الثالثة غرباً فوق جبل السلوم، أما الرابعة والأخيرة فبنيت على أطلال منارة الإسكندرية القديمة، وقد طمرت القباب الثلاث على مدار الزمن لأسباب تفصيلها مغو، وحكاياتها مغرية بالإفاضة، لكنها تخرج بنا عن السياق وليس هذا مكانها، أما الرابعة، قبة أبي الهواء، فقد شاء لها التاريخ أن تبقى، ألا يصيبها الفناء والعدم مثل نظيراتها، وأن تظل وحيدة، متوحدة بذاتها، شاهدة على تاريخ أمة، حافظة لتراثها، وتد من أوتاد عزتها، مستودع لأسرارها وسرائرها، كنز كلما اقترب منه أحد لاقتضاض بكارته، حل شفرة طلسمه، باء بفشل مؤكد، ورجح عنده الخسران، وما اقتربى إلا بمقدار، فما أنا من رجالها، لأسعى لسبر غورها، للخوض في معامعها وزعم العلم بكل ما يحيط بها، لا لست كذلك، ورحم الله رجلاً عرف قدر نفسه، إنما أنا حوام طواف حولها على أتى منها بقبس، أو تصيبني بنفحة، أو تصحح مساراتي ومداراتي، تؤطرني داخل مجرتي، تجعلني أدور في فلك خاص بي وحدي، بعيداً عن أنجم وكواكب وشهب

ونيازك لا أنتمى إليها، ومع ذلك أنسب لها، وهذا من قصر النظر، فشتان بين طبخ أمى، وطبخ زوجتى، المادة واحدة، لكن النَّفس يختلف، وهو حديث شرحة يطول، ويخرج بنا عن السياق - فانتبه.

الحقيقة الغائبة

يحدث ابن تهانى أنه عندما بدأ التفكير فى بناء المرصد، تم اختيار ثلاثة معماريين من ثلاث بقاع مختلفة، كل منهم تخصص فى طريقة أصبحت تعرف به، الأول يدعى محب الدين الساسانى، لندرة فنه أصبح علماً من أعلام العمارة الساسانية، آثاره باقية، أشهرها ما هو موجود فى «المدائن» عاصمة دولته والمسمى بطاق كسرى، أودع فى هذا البناء الضخم كل خبرته وبراعته فى عمارة القباب، له مصنفات كثيرة أهمها كتاب «اللباب فى عمارة القباب»، الثانى جاء من الأندلس، اسمه صفى الدين. لكنه عرف بالأندلسى، له مؤلف شهير وحيد، نادر فى تصنيفه أسماه «أنساب القباب فى الجاهلية والإسلام» الكتاب تتبع تاريخى للقباب، أول من فكر فى إنشائها، أول قبة ظهرت على وجه الأرض، من الذى بناها، تطور القباب من زمن إلى آخر، طرق عمارة القباب، المواد المستخدمة على مر العصور، أشهر عمارها، الغرض منها، من سميت بأسمائهم.. أما المعمارى الثالث فمن مصر، قيل أن شجرة نسبه معروفة، نقيه، ينتمى إلى أحد فراعين مصر العظام فى عصر الأسرات، شرب الصنعة على أيدى أجداده، ينسب له مصطلح «قباب الهواء» وله مصنف فى هذا الباب كان متداولاً فى وقته أسماه «عقد اللواء فى بناء قباب الهواء»، المعمارى يدعى نور الدين الضبعى، نسبة إلى بلدته كوم الضبع، جمع نور الدين بين عمارة القباب وعمارة المراصد، وكان عليه وحده يقع العبء الأكبر، تكلمة ما بدأه أصحابه بعد مقتلهما، المصدر لا يعرف متى بدأت عمارة القباب، ولا فى أى عصر شيدت، لذا فقد أغفل تاريخ ميلاد كل من المعماريين الثلاثة، وإن

ه يغفل تاريخ وفاة اثنين منهم هما محب الدين الساساني، وصفى الدين ديسلي نقلاً عن كتاب «فتوح مصر وأخبارها، كذا عمارتها وآثارها» لابن ريس البرلسي، الذي ذكر في حوادث سنة ثلاثمائة قبل الميلاد أن تخلصين صعدا إلى قبة أبي الهواء وألقيا بنفسيهما فغرقا في النيل، وقال لهما أصابتهما لوثة قبل أن يلقيا حتفهما، وأن الأقوال تضاربت حول موتهما، فقيل إنهما دس إليهما سم في الطعام يذهب بالعقل بعد مدة من توله، وإنهما ألقيا بنفسيهما من تأثير السم، وقيل إنهما تخلصا من حياتهما بعد اكتشافهما عيباً في البناء لا يمكن تداركه وإصلاحه. ويعلق بن تهاى قائلاً: إن المعماريين الثلاثة عاشوا في القرن الثالث الهجري وإن كان لا يعرف تاريخ مولدهم تحديداً إلا أن ما خلفوه من آثار يدل على ذلك، فكيف يتأتى وجودهم قبل الميلاد بثلاثة قرون إلا إذا كانوا غيرهم، نكن هذه الحادثة تلقى ظلالاً قوية حول تحديد تاريخ القبة، وهي تجيب في نفس الوقت على السؤال الذي شغل أذهان المؤرخين لعقود طويلة: أيهما أسبق في الظهور القبة أم المرصد؟ وإذا كانت القبة قد أنشئت أولاً، فلأى غرض أنشئت؟ وفي هذا الصدد، فهناك أقوال كثيرة، بعضها لا يعدو كونه حكايات وأساطير تداولتها العامة زمناً طويلاً حتى أخذت صفة التاريخ الرسمي والذي رجع إليه مؤرخون متأخرون، لا باعتباره حكايات، وإنما باعتباره تاريخاً معتمداً، وأبرز دليل على ذلك ما أورده ابن إدريس البرلسي من إلحاق أسماء بناء القبة والمرصد في حوادث سنة ثلاثمائة، والثابت تاريخياً من الوثائق التي عثر عليها المؤرخ ابن حياح ونشرها تحت عنوان «أوراق ووثائق القبة»، إنها كانت مقراً لطائفة دينية مكونة من تسعة وأربعين عضواً، كانت هذه الطائفة تنادي بعبادة النيل باعتباره المصدر الحقيقي للحياة، وتسموا بعبدة النيل، أو طائفة التسع وأربعون، وهو العدد السرى الذي كشفت عنه وثائقهم لقطع أجزاء جسد أوزوريس المنثورة في النيل، وقد اختفت هذه الطائفة من الوجود ولم تترك سوى

بعض النصوص الدينية التي كانت تتلى في صلواتهم، بعد ذلك اتخذتها طائفة أخرى مقراً سرياً لنشر دعوتها، وقد لعبت هذه الطائفة دوراً هائلاً في العصر الإسلامي الوسيط، وقيل كل ذلك، فإن أمراء الفراعين كانوا يوصون بالدفن حولها لاعتقادهم أنها معبر آمن للحياة الأبدية.

التاريخ بين الواقع والأسطورة

تقول أوراق ووثائق القبة التي جمعها ابن حياحب في مخطوطة تحمل تاريخ القرن الرابع الهجرى، وهى نفسها التي نشرها وعلق عليها ماسينيون فى طبيعتها الأولى، أنه بعد اختفاء المعمارى الساسانى، والآخر الأندلسى، وقع عبء تكملة عمارة المرصد على يدي نور الدين الضبعى، الذى جعل لها أربعة أبواب، كل باب يطل على جهة من الصحراء، وجعل على كل باب رصداً يخبر بقدوم غريب على مسيرة يوم، وهذا الرصد على هيئة رجل نصف جالس، يحمل فى يده بوقاً ويتحرك على قاعدة تجرى على عجل، وذلك كله من النحاس الأصفر، فإذا لمح شيئاً آتياً من جهته، انطلق البوق وتحرك الرصد دائراً فى كل الاتجاهات، أما القبة، فقد شيدت على هيئة السماء، لرصد سكانها من شمس وقمر ونجوم وشهب ونيازك وحركة دوران الأرض حول الشمس وجميع التفاعلات التى تحدث فى مجرة درب التبانة بحسابات فلكية دقيقة. ويعلق ماسينيون على تلك النقطة فيقول إن نور الدين الضبعى اكتشف دوران الأرض حول الشمس قبل جاليليو بعدة قرون، ودليله على ذلك هو ما صنعه نور الدين، فقد جعل القبة تدور حول الشمس مرة كل أربع وعشرين ساعة وأسماها الدورة الصغيرة، وهناك دورة سنوية تسمى المتوسطة، أما الدورة الكبرى فتحدث كل مائة عام، أما كيف كانت القبة تدور؟ كيف جعل أرضية القبة هى الدنيا، وسقف القبة سماءها بكل ما تحويه؟ كيف كان يتنبأ بسقوط مطر، أو احتراق نيزك، تكون نجم يصل إلى اكتماله بعد خمسة ملايين من السنين، أقول نجم آخر

حتراقه، كيف حدد الأنواء والأزمنة؟ كيف سمي الشمس والنجوم
بالتقمار والليل والنهار وساعات تغير فصول السنة وهبوب الرياح وسقوط
المطار وربط حركة مد وجزر البحار بظهور القمر وحركته في السماء
عند كله هو ما تضمنه كتابه الجامع «عقد اللواء في بناء قباب الهواء» لمن
رجوع إليه، انظر على سبيل المثال الفصل المعنون بـ الأزمنة والأنواء،
يصل: القبة ظاهرة كونية، كذلك الفصل التالي القبة أصل الإنسان، وفيه
ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه لو لم توجد القبة لاخترعها الإنسان،
لأنها تلازمت جنباً إلى جنب، مع ظهور آدم عليه السلام، وأن الإنسان
أول عرف أشكالها البدائية عن طريق النظر إلى بطن الأنثى الحامل
وهي تنتفخ وتتكور فتأخذ شكل قبة كاملة.

يتحدث ماسينيون في مقدمته لأوراق ووثائق القبة عن نقطة في غاية
الأهمية متخذاً من الفصول الثلاثة التي أشرنا إليها سابقاً من كتاب نور
سبين الضبعي سنداً لكلامه، فيقول إن هذه الفصول قد جاء من نسخها
بعد كتابة نور الدين لها بثلاثة قرون، ونسبها لنفسه، وقد فعل ذلك أكثر
من مؤلف دون إشارة للأصل، هناك على سبيل المثال كتاب الأزمنة لأبي
على محمد بن المستنير المعروف بقطرب، وكتاب الأزمنة والأمكنة
لمرزوقى، الأزمنة والأنواء لابن الأجدابى، كتاب الأنواء لابن قتيبة، كتاب
الأيام والليالي والشهور ليحيى بن زياد الفراء، وهذا يقود إلى فكرة أن
كثيراً من المصادر الأساسية في التراث العربي مجهولة المؤلف حتى الآن،
لأنها نسبت خطأ إلى بعض الشخصيات الشهيرة في عصرها، وأغفل
التاريخ مؤلفيها الحقيقيين مثل كتاب رسائل إخوان الصفا الذي ظل
مجهول المؤلف إلى أن ذكر أبو حيان التوحيدى مجموعة المؤلفين الذين
قاموا بكتابة الرسائل الاثنتين وخمسين في كتابه الإمتاع والمؤانسة، فتناول
الناس هؤلاء المؤلفين باعتبارهم حقيقيين، والحقيقة التي كشفت عن
نفسها بعد عدة قرون هي أنهم من اختراع أبي حيان، إنما مؤلف هذه

الرسائل شخص واحد لجأ إلى هذه الحيلة لاتهام الخليفة له بالزندقة والخروج على الدين، وقد ترك رسالة كتبها فى آخر حياته بعنوان «عين الحسود» كشف فيها عن اسمه الحقيقى وهو ابن تماضر البصرى، وأن سبب العداوة والبغضاء التى كنها له معاصروه هو أنه خرج على الناموس التأليفى، وألف مالم يكن مألوفاً من قبل.

المراصد الأربعة

بعد مقتل محب الدين الساسانى وصفى الدين الأندلسى، وجد نور الدين الضبعى نفسه يعمل وحيداً، وكان عليه إكمال ما بدأه صاحبا، فأتم البناء فى عشر سنوات، جعل المراصد الأربعة متطابقة فى صنعتها، إذا تحرك رصد يخبر بقدم غريب، تحركت الثلاثة الأخر فى التو واللحظة، أما كيف جعلها تختفى كلها فى لحظة واحدة، فما زال السر مجهولاً، أوراق القبة لم تشر لذلك، لكنه مؤكد بحادثة دخول الفاطميين مصر، فقد دلت الأرصاد على قدومهم، ومع ذلك اختفت بيدي نور الدين نفسه الذى كان قد مر على اختفائه مائة سنة لحظة الغزو، لكن المؤكد أنه شوهد هو وتمرد، الجارية التى عشقها، عشية الغزو فوق القبة، وهى حكاية تناقلها الرواة، وذكرتها أوراق القبة.

حكاية نور الدين مع الجارية تمرد

لما التقى المعماريون الثلاثة، حددت إقامتهم فى مكان سرى لا يعلمه سوى نفر قليل من رجال الخليفة، وكانت أبحاثهم عن بناء المرصد تتم فى سرية تامة، لا أحد غير الثلاثة يعرف سر البناء، دهاليزه، ممراته وسرديبه، اختفائه إذا ما داهم الأعداء، ظهوره مرة أخرى، قدراته الهائلة على شن حرب شاملة، أسلحته الخفية المجهولة فى ذلك الوقت، ومن بينها سلاح المغناطيس الذى كشفت عنه أوراق القبة إذ تقول إنه بواسطة قوانين

نجازيية، توصل المعماريون الثلاثة إلى عمل مغناطيس هائل الحجم يجذب فيه كل كائن حي ولا يتركه قبل أن يشفط دمه من العروق، تقول الأوراق إنه في ذلك الوقت كانت الدولة العباسية توشك على انهيارها، بل إنها كنت تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكان الخليفة العباسي يدرك أنه لو قُدِّر لهذا بناء أن يتم، فسوف ينقذ دولته من الضياع والوقوع في أيدي الفاطميين نذنين بدأوا في تكوين دولتهم الجديدة، ولم تكن أعينهم خافية عن مصر نتي سوف تصبح فيما بعد عاصمة دولتهم، وكان المرصد يمثل تحدياً جديداً أمامهم لا بد من اجتيازه، وقد أوعزوا لرجالهم في مصر بالأيدعوا هذا البناء يتم بأية طريقة، وقد تمكن فريق اغتياالاتهم من طائفة الفداوية من دس السم لمحب الدين الساساني وصى الدين الأندلسي في طعامهما، فأكلا ولم يأكل معهما نور الدين فنجا، لكن السبب الحقيقي لنجاته هو ذلك اللقاء الذي تم بينه وبين محبوبته. تمرد جارية الخليفة ومحظيته في نفس الليلة التي أكل فيها المعماريان الطعام المسموم ما حقيقة هذا اللقاء؟ وكيف تم؟ هل تم بإيعاز من الخليفة ورجاله كما قيل في بعض الروايات؟ وهل كانت هناك محاولة لإنقاذ المعماريين الثلاثة من مؤامرة تسربت بعض خيوطها؟ ولماذا تم إنقاذ نور الدين فقط عن طريق تمرد؟ وما هو الدور الذي لعبته الجارية على رجال القبة؟ أسئلة لا تجيب عليها الأوراق إجابة شافية، حتى قصة عشق نور الدين الضبعي وتمرد لا تؤكدها أى من مصادر تلك الفترة، على الرغم من ذبوعها وانتشارها وتسربها إلى بعض القصص الشعبي، مثل قصة تودد الجارية في ألف ليلة وليلة، وهى فى الأصل قصة تمرد الجارية، كذلك قصة حكاية نور الدين مع الجارية تمرد التي كان عازفو الرباب يتغنون بها، بل إن هناك قصة تحمل عنوان «فى ذكر مرصد أبى الهواء» كانت متداولة فى وقتها تحكى عن كيفية بناء المرصد وذكر المعماريين الثلاثة الذين وقعوا فى حب جارية، وكيف قتل نور الدين منافسيه حتى يفوز بمحبوبته تمرد، وتظل هناك نقطة أخيرة لم

خيرى عبد الجواد - الأعمال الكاملة

تحسمها أوراق القبة أو القصص الشعبي أو أقوال المؤرخين الذين تناولوا القبة والمراصد الأربعة، ألا وهى اختفاء نور الدين وتمرد وظهورهما بعد مائة سنة من فوق القبة أثناء الغزو وقد تحولوا إلى طيفين وتلك حكاية أخرى ليس هذا أو أنها .

تقرير أخير حول القبة

في البدء كانت القبة

بهذه العبارة أستهل بإيجاز ليس فيه محل للإبهام، تقريرى، أكتبه لكل جهات الدنيا، فقد ينجح مسعى لإنقاذ ما تبقى، للحيلولة دون الانهيار التام لشاهد على عز قوم كانوا فيما مضى بناة حضارة تشهد لهم، لاعليهم تقريرى أكتبه لله وللوطن، لا أمالى حاكماً أو محكوماً، مجرد من كل هوى فى نفسى، اللهم إلا الحقيقة وحدها أضعها أمامى، لا أحميد عنها، وقد يسأل متنتع لم ير من كل ما سقناه إلا قشرته فضاع منه الجمهور: هل خلت حياتنا من كل مساوئها ومشكلاتها حتى تسوق لنا حوادث وخرافات عن بناء لا يسمن ولا يغنى، هل اكتفين من كل شىء فما بقى لنا إلا 'لتسلية؟ والجواب عندى له وجهان:

أولهما: أن القبة حقيقة وواقع كبناء عاش دهوراً وحقباً وأزمة لا يعلمها إلا من عاشها.

وثانيهما: أننا لو افترضنا جدلاً بأن القبة ما هى إلا خرافة - وهو افتراض غير مقبول علمياً وتاريخياً - فإننا نقول وبالله التوفيق إن كثيراً من حقائق العلم، كانت فيما مضى محض خرافة، وإن تاريخ العالم يمتلئ بخرافته، وإن كل منا يعيش خرافته الخاصة ويصدقها، وهى أكثر واقعية من الواقع ذاته، ونرجع إلى ما كنا فيه من السياق.

القول فيمن رأى القبة قبل المرصد

هناك إجماع بالقدم، القبة أزلية، ظهورها على الأرض تزامن مع ظهور الخلق، البعض يرى أن أول ظهورها لم يكن بمصر، إنما كان بالهند، توجد آثار تدل على ذلك، أحد جبال الهند الشهيرة يسمى «بجيل القبة»، وهناك حكاية متداولة تحكى كيف انتقلت القبة إلى مصر واستقرارها فى موضعها، ومن رأى القبة فى زمنها الأول قلة، أسماؤهم معروفة، هؤلاء كانوا موعودين بها، لم تظهر لغيرهم، فلم يكن الثبات حالها، اختفاؤها كان تاماً، ظهورها المفاجئ على مشارف كل قرن مقدر ومحسوب بدقة لنا الآن، وهو ما لم يكن معروفاً من قبل.

القول فى أن القبة بناء حجرى لا ضر منها ولا نفع

وهو قول مردود عليه، ذلك أن القبة عاشت أحداثاً لم يعيشها بناء غيرها، وتحدث الشواهد بأنه ما امتلكها أحد، إلا وامتلك الدنيا، إذا ظهرت واستقرت، استقر كل شيء، اختفاؤها انتكاس للأرض والنفوس وانفلات زمام أمور الكون، وفى هذا المعنى قيل:

أنا إن قدر الإله مماتى

لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

بناء القبة

نم يحفظ لنا التاريخ أسماء بناء القبة، لكن من المعروف أنها بنيت أكثر مرة على مدى تاريخها، أما من هو بانيها الأول؟ أول من فكر في إنشاء؟ واضع اللبنة الأولى في البناء العملاق؟ أمر غير معروف ومحير، تحزيت الآراء حوله، رأى يقطع بأنها خلقت مثل الأرض والسماء والنجوم والكواكب، ورأى ينادى باعتبارها من أفعال البشر، فالقبة بنت الإنسان، فما فجر القضية الشهيرة في العصر الوسيط: هل القبة مخلوقة أم نية؟ لكننا نؤكد بما لا يدع للشك سبيلاً إلى نفوسنا حقيقة أن القبة مثلها مثل كل مخلوقات الله وجدت منذ الأزل لضرورة ملحة، ومع مرور الزمن، تغيرت أوضاعها، واستقرارها في أرض غير تلك التي وجدت عليها، ذلك التحولات التي صاحبها كثيرة، نشوءها في أرض غير الأرض، انتقالها من جبل على جبل أبي الهواء، ظهورها واختفاؤها المفاجئ، تحولها بعد ذلك من مرصد، اختفاء المرصد عقب دخول الغزاة، انعكاس كل حضارات شرق القديمة على البناء يدل على بناته، فمن المؤكد أنهم شرقيون، وأنهم كانوا أمناء لتراث أمتهم، من بينهم حفظ لنا التاريخ اسم واحدة تدعى نكة، حكمت البلاد عقب غرق فرعون وجنوده إثر تتبعهم للنبي موسى في نجر، قصة المطاردة والغرق معروفة، من شاء الاستزادة فليقرأ كتاب سيرة المحبوبة في أيام الملكة دلوكة» الكتاب فريد في نوعه، يحكى تلك

الفترة الحالكة والمجهولة من التاريخ، ما الذى تحدث به فرعون قبل الغرق، كيف وافته منيته بغتة، سكرات موته كيف كانت، حديثه إلى جنوده لحظتها، مناجاته لنفسه، الكتاب يجيب على سؤال تردد هل تاب فرعون قبل غرقه ورجع إلى ربه؟ بأى كلمات التوبة تفوه إذا كان حدث ذلك، خروج دلوكة على الملأ لتعلن نفسها ملكة على النساء والأطفال خلفاً لفرعون الغريق، تفكيرها فى بناء حائط يلتف حول كل البلاد عرف بعد ذلك بحائط العجوز، إدراكها العلاقة بين اختفاء القبة وغرق الفرعون، شروعها فى إقامة بناء على هيئة القبة ليكون رمزاً للقبة المختفية. أسماء كثيرة فوق حائط البناء المدور، أى هذه الأسماء كان الصانع الأول؟

لم يكشف التاريخ عن كل أجوبة الأسئلة

يومية هروب

الفصل الأول

فى ظهيرة يوم حار

(١)

كان أول ضوء للنهار يتسلل من الشباك الصغير الوحيد ذى القضبان ننفوفة بالسلك المخرم، واهناً لا يكاد يبدد الحلقة الداكنة بالداخل، بينما شمعة التاسعة أو العاشرة الملتصقة بالجدار تجود بأخر ضوء لها تتراقص ذؤابتها قبل أن تغرق فى السائل الشمعى وتنطفئ.

نهض الجميع يفركون عيونهم من نوم قلق بعد أن سمعوا النداء الذى أطلقه الجندى على باب الزنزانة: انتباه يا بغل منك له.

تململ هو فى وقفته وأخذ ينقل ثقل جسده من ساق إلى أخرى، كان أول من لمح الجندى على باب الزنزانة من وقفته خلف شباك صغير داخل حمام يطل على الطرقة الداخلية للقسم، ظلّ واقفاً طوال الليل، ومنذ مجيئه فقط ليستطيع التنفس، حين انفتح الباب ودخل، دهمته رائحة نتانة وعفونة فكاد يتقيأ، وشعر بخوف مفاجئ لرؤيا الأجساد العارية المرصوصة فى الأرض، كاد يقع على أحدهم فضحكوا جميعاً وقالوا فى نفس واحد: سم الله. أشار له آخر بالجلوس بجانبه وأفسح له مكاناً فجلس مستنداً بظهره إلى الحائط. قال له: نورت، رسم على شفثيه ابتسامة وهز رأسه، وبلا مقدمات وجد يده تتحسس جسده وجيوبه فنظر إليه مستفسراً، زفر لآخر متحدثاً، عاوز تقعد هنا ومحدث يلطشك هات خمسة جنيه، شعر

بالخوف فجأة وهو ينظر إليه، كان ضخماً وأصلعاً وله سمات المجرمين، كان يرتدى كلوتاً، فقط، باقى جسده كان عارياً وثدياه ضخمان ومتهدلان، أخرج من جيبه خمسة جنبيات أعطاها له دون أن يتكلم، حفلات الاستقبال فى الزنانيين سمع عنها كثيراً، ولو أن أحداً صفعه على وجهه فسوف لا يتحمل الصفعة ويموت فيها. قرفص ساقية ووضع ذراعيه حولهما وأسند رأسه المغبر، كانت الرائحة لا تطاق والساعة لم تتجاوز العاشرة مساء فى ليل يولييه/ تموز الساخن ولم يمض على مجيئه سوى ثلاث ساعات فقط قضاهم فى حجرة المباحث. أحسّ بضيق فى تنفسه فقام وسار حيث الحمام، أراد أن يغمر رأسه بالماء الذى رآه يتدفق بحرية من حنفية لا تغلق، كانت مفاجآته الكبرى حين وجد للحمام شباكاً صغيراً وجد أحدهم يقف خلفه، وللحظة شعر أن حياته معلقة بهذا الشباك،. تقدم من الواقف وقال له: تسمح لى أقف مكانك شوية، نظر إليه قليلاً قبل أن ينطق: بخمسة جنيه، لم ينكر، أخرج من جيبه وأعطاه فترك الشباك، أخذ نفساً عميقاً فشعر بالراحة، لم يلق بالأبالماء المتدفق والذى أغرق قدميه، فقط تشعلق . بحديد الشباك وأخذ يتنفس هواء حراً حتى الصباح.

(٢)

انفتح الباب الحديدى وأخذوا يخرجون واحداً واحداً عند سماع الاسم، جلسوا فى الممر أمام الزنزانة، بينما انفتحت الزنزانة الأخرى وأخذت النساء يخرجن هن أيضاً فى صف واحد كان عدده أقل كثيراً من الرجال، كانت الزنازين مقامة فى مكان منفصل عن قسم الشرطة بالقرب من مدخله، ولها مدخل واحد عبارة عن ممر ضيق وقف فيه وصفا الرجال والنساء، تعمد أن تكون جلسته فى أول الصف حتى يستطيع مد بصره خارج الممر فيرى الناس فى الخارج، أخذ يبحث ببصره عنها حتى وجدها فاطمأن، كانت جلسة فى مدخل القسم بالقرب من الممر وقد ارتدت جونلة

بلوزة رمادية بينما ظهر وجهها ويجرى مجهداً دون طلاء، أشارت مبتسمة فهز رأسه وانشغل بمتابعة ما يجرى حوله، جاء عامل البوفيه يده بكوب شاي وكعكة وأشار إليها، ألقى نظرة ناحيتها فهزت بها، شرع في تناول فطوره، ولمحها هي أيضاً تفعل مثله، بعد أن انتهى حرج سيجارة أشعلها وتأمل ما حوله، كان طابور النساء قد بدأ حديثاً مع رجال، بينما انشغل الضابط النوباتجي بعد قوائم الزاهيين إلى المديرية كَشَفَ عن صحيفة سوابق كل منهم، وأخذت شمس يوليه / تموز تسلط حميمها على المكان، مسح عرقه بكم قميصه وشعر بتميله ساقيه فافتش أرض ومدّ رجليه أمامه، ولح فتاة تفعل نفس الشيء فبانَت ساقها اليمنى بعاء منتوفة الشعر قبل أن تضعها تحت مؤخرتها، أخرجت ثديها بيدها، صغيراً منتصباً ومدوراً بينما ظهرت نبقة حمراء مشرعة في الهواء ريمة قبل أن تغيب في فم طفلها المضموم إلى صدرها، كانت أجمل من طابور النساء وأصغرهم، بيضاء ممتلئة قليلاً في بلوزتها الحمراء ذات صدر المكشوف، وجونلتها السوداء المحبوكة أظهرت خطوط الساقين الخذيين، أحست بنظراته فجوابته ونظرت هي أيضاً إليه وقد أعطته تسامة مغوية، ارتبك وارتد ببصره إلى فناء القسم وإلى حيث تجلس زوجته، هذا هو يومه الثاني الذي يقضيه مع هؤلاء البشر، أكثر من ستين حلاً في حجرة لا تزيد عن مترين في مترين ودورة مياه مسدودة وحنفية يه تغرق المكان بمياه لها رائحة كريهة حاملة مخلفات الأمعاء وبول مخمر.

وهو يومه الثاني الذي يقضيه بعيداً عن زوجته ولم يمض على زواجهما يوم قليلة وها هي تمضى شهر غسلها متقلبة بين القسم والمديرية.

هبوا واقفين عند سماع النداء، واصطفوا كل اثنين وراء بعضهما، تراجع عز إلى الورا متسللاً حتى أصبح في آخر الطابور، وبدأ المخبرون يضعون نكلابشات في الأيدي، كل اثنين شمال أحدهما مع يمين الآخر، حين أتى

الدور عليه لم يبق معه أحد يزامله فى الأصفاد، وبدا أن عدد الكلابشات كان قليلا ما أغضب أحد المخبرين فزقق: عاوز كلابش لوحدك يا روح أمك، وأخذ يجول بعينه بحثاً عنم يزامله، لحظتها، وكأنها كانت ترقب ما يحدث، انتترت واقفة وقبل أن يقع طفلها التقطته وجرت ملتصقة به: حطنى معاه والنبي يا حضرة الصول، أنا أزامله، فرفع بشفتيه وهو يهز رأسه الطيور على أشكالها، مدى إيدك يا مرة، وانت يا وله وللحظة، شعر بتوتر عندما لامس جسدها جسده، بينما هى ابتسمت وهى تمد يدها الشمال بينما رفعت طفلها قريبا من كتفها وقالت: كده أحسن لى ولك، ها أريحك، جاء أحد المخبرين ولم من كل واحد ثلاثة جنيهات مصاريف عربية الميكروباص التى سوف تنقلهم إلى المديرية، غاب قليلاً ثم عاد معلناً ذهابهم إلى المديرية مشياً على الأقدام لأنه لا توجد عربية محترمة تشيل هذه الزبالة البشرية كما قال.

(٣)

كانت الشمس تفتح ناراً حين تحرك الركب، وكان الرجال والنساء يمشون فى طابورين وحول أيديهم القيود الحديدية، وكانت الوحيدة فى صفوف الرجال مقيدة به، ولأنها شعرت بأحدهم يتحسس مؤخرتها، فقد قالت له نمشى فى آخر الصف أحسن، ولم يشعر بهما العساكر والمجندون الذين يمسكون العصى والبنادق على الجانبين، وهما يقفان ويتأخران قليلاً حتى أصبحت فى آخر الصف، قبل أن يتحرك الركب أرادت زوجته الذهاب معهم، لكنه أشار لها بالرجوع إلى البيت، ولمحها تنظر إليه والمرأة المقيدة فى يده فأرسل إليها نظرة عتاب ولسان حاله يقول لها: هل هذا وقت الغيرة، يعلم أن سبع سنوات من الحب المتبادل التى توجت بزواج دام عدة أيام هو ما جعلها تنظر بعين الغيرة من امرأة تمسك بيده، وانطلقوا مجتازين شريط السكة الحديد حتى وصلوا بداية شارع الجامعة، ورأى

العربات حين تجتازهم تهدئ من سرعتها وتنظر إليه، كذا فتيات وفتيان الجامعة كانوا ينظرون إليه هو فقط دون الآخرين، أو هكذا شعر فأخذ يتصبب عرقاً، ومدّ يده الحرة فمسحه، وشعر بحاجة إلى سيجارة فأشار لها أن تمدّ يدها في جيبه ناحيتها، أرادت معايشته فوضعت يدها في جيبه، وقبل أن تمسك علبة السجائر والولاعة أتجهت يدها قليلاً إلى عضوه فانصب، وانتفض هو ونظر إليها فضحكت وهي تعطيه السجائر، لازم تأخذ عنواني وأنا هاأرووك، إلا بالحق ماقولتليش اسمك إيه يا خويا، شعل سيجارة وفكر في إعطائها اسمه الحقيقي، لكنه تراجع فجأة وقال: محمد، اسمي محمد، عاشت الأسامي يا خويا، أنا بقى اسمي زينب وشهرتي زوزو، عنواني ما يتوهش، وصفت عنوانها بدقة شديدة، وبالفعل نو أراد الذهاب إليها فسوف يصل بسهولة، منهم لله ولاد الأبالة، كنت شغالة وزى الفل، لكنهم قبضوا عليا متلبسة، قال من خلال دخان سيجارته، أول مرة. عدلت من طفلها النائم على كتفها وقالت: أول مرة وحياتك، مش عاوزين يسيبوا الناس في حالها منهم لله.

كان الركب قد وصل إلى منتصف الطريق فعبروا تقاطع شارع الجامعة مع شارع الجيزة والدقى وقد تحولوا إلى طابور واحد طويل يلهث من شدة الحر والتعب، كذلك كان الجنود والمخبرون يشعرون بالتعب والظماً فطلبوا منهم وهم يلهثون أن يسيروا ببطء، أصبح هو وهى فى المنتصف تماماً فكانا الحد الفاصل، بين الرجال والنساء، فجأة سألته: وأنت يا خويا، جاى فى إيه، لم يكن عنده نية للكلام، ورجاها فى سره أن تتركه لحاله، وشعر بالزهق وهو يجيب سؤالها: جيش هروب من الجيش، ولا بد أنها أحست به فاكثفت بهز رأسها ولم تعلق، انتهوا من الشارع واتجهوا إلى مبنى المديرية، كان أمام المبنى حاجز حديدى رفعه أحد الجنود أمام المبنى فدخلوا من باب جانبى حيث ممر يفضى إلى ساحة حولها شبابيك كثيرة، أشاروا لهم بالجلوس حتى يعطوا أسماءهم لموظفين يستخرجون لكل اسم صحيفته

الجنائية، جلس وجلست بجانبه، وأخذ طفلها يتململ حتى صحا من نومه فأخذته فى صدرها، وبدأ يبكى، وبينما كان يشعل سيجارة شدت يده وأدخلتها فى فتحة القميص ونظرت إليه وقالت: طلعه عشان الواد بيعيط، جعان يا عين أمه.

الفصل الثانى

الحياة مرة أخرى

(١)

توقفت العربية الميكروباس أمام مبنى سرية الشرطة العسكرية، نزل وتبعته زوجته، ثم بدأ كل من فى العربية فى النزول، انتظموا فى طابور وأحاط بهم الجنود، اقتادوهم إلى باب جانبي ضيق يفضى إلى حجرة لاستقبال فأجلسوهم بينما بدأت إجراءات التسليم والتسلم التى لم تستغرق وقتاً، تحركوا مرة أخرى إلى الداخل، ومن بعيد، كانت زوجته تشير إليه حتى اختفت عن عينيه. أدخلوهم إلى حجرة صغيرة تقع على جانب الممر، جلسوا صفّاً واحداً على قرافيصهم وجلس جندي فى مواجهتهم يحمل مقصاً كبيراً، تذكر أنه رأى هذا المقص فى يدي رجل كان يمر من حارتهم منادياً: أقص الحمير. تقدموا واحداً فواحد وأخذ يضع المقص كيفما اتفق فى رؤوسهم فيجز الشعر من منابته، كان هو آخر المتقدمين، وأخذ يتلقى بيده شعره الذى كان يقع كاملاً أمامه، بعد الانتهاء تحسس رأسه فظهرت تحت أصابعه نتوءات كثيرة، ثم أمرهم بالوقوف صفّاً واحداً فى مواجهة الحائط مرفوعى الأيدي وكل واحد يصفع الذى يليه فأخذوا يصفعون بعضهم على أقفيتهم، تقدم أحدهم وأخذ يصفعهم على التوالى مدة ساعة، فلما أحس بالتعب اقتادهم إلى فناء المبنى حيث توجد حنفية مياه متصلة بخرطوم ضخم يشبه خرطوم المطافى، وأمرهم

بخلع ملابسهم فوقفوا عرايا لا يستترهم شئ، انتفض الخرطوم واندفع الماء يغمر أجسادهم، ورغم حرارة الجو، إلا أن الماء البارد جعل أجسادهم تتلوى وتتقلص، وشعر بعريه أمام الجميع فتضاءل في نفسه، بعد أن انتهوا من الاستحمام الإجبارى أشار جندى إلى الحديقة التى يكسوها النجيل فى منتصف المعسكر، كانت أشجار الصفصاف على الجانبين سامقة وكثيفة وكانت أوراقها تتساقط بانتظام فتملأ الأرض. سوف يقومون الآن بالتقاط أوراق الصفصاف وأعقاب السجائر وبقايا الطعام بعد أن سمح لهم بارتداء السليب فقط، وبدا لهم أنهم كلما رفعوا بعض الأوراق نبتت أخرى فى نفس اللحظة، فالأشجار لا تكف عن رمى أوراقها، وقبل أن تغيب الشمس، كانوا قد انتهوا من تنظيف المعسكر فأخذوا يجرون فى المعسكر يمسك كل منهم مشمعاً يساوى به الرمال بينما البعض كان يرش الماء، اقتادوهم إلى حيث العشاء المكوّن من رغيف (جراية) وثلاث ملاعق مربي اللارنج ذات المذاق المر. وبعد أن انتهوا أغلقوا عليهم الزنزانة حتى الصباح، تسلم كل واحد بطانيتين، واحدة للفرش تحته، وأخرى للغطاء، كانت الزنزانة بجانب البوابة واسعة نظيفة ولها شبك يقع قريباً من حراس البوابة، فجأة شعر بحاجة إلى التدخين بعد أن فرش البطانيتين وجلس فوقهما مقرصاً ومستندا بظهره إلى الحائط، أحسّ بالضيق فقد أخذوا كل متعلقاته، أوقفوهم صفاً واحداً للعرض أمام ضابط الشرطة العسكرية فأمرهم بأن يضع كل واحد أشياءه على المكتب فامتثلوا للأمر، كرّر الضابط: نظفوا جيوبكم وأجسادكم من كل شئ. نسى هو دبلة زواجه فى أصبعه، فجأة تذكرها وأخذ يخلعها ببطء، وقف أحد معاونى الضابط وتجوّل أمامه بلا مبالاة، وفى لحظة استدار وصفعه على وجهه بقوة ارتج لها جسده، كانت المفاجأة عنيفة جعلت عينيه تحتبسان بالدموع، وأخذ ينظر إليه طويلاً فانحفرت ملامحه فى ذاكرته، الآن فى زنزانته يتذكره بسهولة فيشعر بالاختناق وتصعب عليه نفسه، لو حدث وقابله مرة أخرى فسوف يجعله

يـم، لقد انحضرت أصابعه على قفاه الذى يؤله كلما تذكره، دفن رأسه بين كـبتيه، هو الآن مدير كبير فى مؤسسة حكومية، وهذا الجندى قد تمّ تعيينه بعد انتهاء تجنيده فى نفس المؤسسة، سوف يستدعيه كل يوم ويتلذذ بهانته، بل سوف ينقله إلى بلاد لم يسمع عنها من قبل، أما الجزاءات فحدث ولا حرج. لا، إنما سوف يكون قائده فى الشرطة وسوف يضعه فى سجن بعد أن يصفعه ويجعله يركع فى مذلة طالباً العفو، هل تريد نصفة على قفاك أم مؤخرتك أيها الجندى، يريد سيجارة، سوف يكون نتقامه فوراً وقوياً، كل من أهانه سيأخذ نصيبه، بدءاً من لحظة القبض عليه وحتى حضوره إلى هنا، يجعلهم صفا واحداً ثم يبدأ الاحتفال. لم يشعر بحاجته لسيجارة مثل الآن، كان يدخّر عدة علب أخذت منه كلها على نبوابة، هنا غير مسموح بالتدخين، أما فى قسم الشرطة، فكل شىء مباح حتى الجنس، كان اليوم الأول هناك من أصعب الأيام التى مرت به، أما الأيام التالية، فعن طريق واسطة خرج من الزنزانة وأصبح يجلس فى نوبتجية بجانب الضابط، ثم بعد ذلك فى حجرة عامل التحويلة على دكة خشبية، كانت الحجرة ضيقة بها مكتب وتليفون ودكة مربوطة بسلسلة من حديد شباك صغير يطل على حديقة وعلى الشارع الخارجى، من جلسته كان يرقب المارة فى الشارع. كم حسدهم على تلك الحرية التى يتمتعون بها، عامل التليفون يدعى إبراهيم، تجاوز الأربعين بقليل، له شعر رمادى وشارب ضخم، توثقت علاقته به، وكان يقتسم معه الطعام والفواكه والعصائر التى تأتى بها زوجته.

كان يجلس بالساعات ينظر إلى الطريق الخارجى من خلال الشباك ولا يقطع تأمله سوى دخول ضباط وأمناء الشرطة للحديث فى التليفون. له ثلاثة أيام يرقب المارة فى الشارع، وكم تمنى وجوده بينهم الآن، لكن بصره يرتد إلى عامل التحويلة الجالس بجانبه، كان الوقت يمر بطيئاً، وهو الذى

تعود على الحركة جلس صامتاً ملموماً فى بعضه، وحدث فى الليل ما لم يكن فى الحسبان، امتلأت الحجرة فجأة بالنساء، وفى القسم لا يوجد سوى زنانتين واحدة للرجال وأخرى للنساء وفى بعض الأحيان تمتلئ حجرة الرجال عن آخرها فيتم الاستعانة بزنانة النساء أيضاً ويتم وضعهن فى حجرة النوبتجية أو مع عامل التحويلة على الأرض، إحدى عشرة امرأة جئن فى هذا اليوم وملأن الحجرة، احتل هو الدكة الخشبية بينما فردن ملاءة وجلسن على الأرض تحت قدميه، عشرة منهن قبض عليهن فى قضايا آداب، أما الباقية فقد تخصصت فى السرقة، كن جميلات بابتذال، وأخذن يثرثرن وكأنهم فى نزهة، عرف أن كل واحدة منهن جاءت بمفردها، ولم يعرفن بعضهن سوى هنا، وأنهن على مستوى عال من الثراء ولهن اتصالات بالكبار، لذلك فكن على ثقة من خروجهن قريباً، اقترحت إحداهن أن تروى كل واحدة حكايتها حتى لحظة القبض عليها، وغمزن له: سوف تعرف أسرارنا، ولكن لا بأس، فلم تعد غريباً وبدأت الأولى حكايتها فقالت:

(٢)

الحكاية الأولى

كنت طفلة صغيرة حين حدث ذلك. فقد كنت أعب مع الأطفال أمثالي، وكان يوجد رجل يسكن جنب بيتنا كبير فى السن، وكان ينظر لى دائماً فى الروحة والجاية نظرات لم أكن أرتاح إليها، رغم أننى كنت طفلة لا تعرف عن الدنيا أى شىء سوى اللعب، وتحين الرجل فرصة وجدنى أقف فى الحارة وحيدة وقال لى إنه يريد أن يرينى لعبة جديدة وأخذ يتحايل حتى أخذنى عنده، ثم أنه أخذ يتحسس جسدى ويقبلنى من فمى وهو يضمنى، فخفت وأخذت أصرخ لكنه وضع يده على فمى، ويده الأخرى أخرج بها شيئاً من بنطلونه ووضعها فى فكاك يغمى على، وأحسست وكأن سيحاً

محمياً يكوى جسدى، ولما فرغ تركنى من بين ذراعيه، وأنا مكومة على الأرض وقد سالت دمائى على أفخاذى فارتعبت وبكيت بكاءً شديداً من رؤية الدماء ومن الحرقه الشديدة التى تحرق جسدى، وأخذ هو بخوفنى تارة ويرغبنى أخرى ويقول لى لا تخبرى أحداً بما حدث حتى لا أقتلك، وبالفعل لم أخبر أحداً ولكن أصبحت ذابله لا أكل ولا أشرب وزاد نحولى، وكانت أمى ترقبنى ولم تخف عليها حالتى فصارت تلاطفنى وتجرجرنى فى الكلام حتى حكيت لها ما حدث، فأخذتتى من يدى وذهبت إلى القسم فأخذوا أهوالى واستدعوا الرجل فلم يستطع الإنكار أمامى وأخذ جزاءه فى الحبس، أما أنا، فقد عانيت كثيراً فى حياتى من تلك الفعلة والتي كلما تذكرتها اشمأزت نفسى من الرجال، وكبرت ونما جسدى وأنا نافرة من رجال، ولا أطيق الاقتراب منهم، إلى أن تعرفت على شاب جارنا، وصار يتودد إلىّ وأنا أهرب منه وهو لا يزداد إلا إصراراً على تعرفه بى حتى وقعت فى حبه، وفى ليلة من ذات الأيام دعانى هذا الشاب إلى بيته فترددت فى البداية، ولكنى وافقت لما رأيت منه من أدب ودمائة خلق، وقد لمح لى بأنه يود الزواج منى، وفى تلك الليلة كان رقيقاً معى حتى أنه كان يجلس بعيداً عنى فأطمأنت نفسى إليه، ثم أخذ يتحدث عن زواجنا وحياتنا معاً وقد انتقل إلى جوارى فجأة وأخذ يتحسس جسدى بيده ويداعبنى فانحلت مفاصلى فتجاوبت معه ولم أبدأ ممانعة، وإن هى إلا لحظات لم أعرف بعدها أفى الأرض أنا أم فى السماء من شدة النشوة، فكانت ليلة من أجمل الليالى إفترعنى فيها ثلاث مرات ورجعت لى ثقتى فى نفسى، ولم يعد لى صبر عن الابتعاد عنه فاستغل ذلك، وكان يعمل فى ملهى ليلى فكان يأخذنى معه ويقدمنى على أننى خطيبته لأصدقائه ومعارفه فيعجبون بى وبيجمالى الذى بهرهم، وكنت كلما حدثته عن أمر زواجنا ماطلنى وأدار دفة الحديث لجهة أخرى فأحسست أنه يتهرب منى وأن زواجنا من المحال، فتعرفت على غيره وصرت فى كل يوم أنتقل من

رجل لآخر وكانوا يدفعون لى بسخاء، إلى أن كانت ليلة كنت فيها عند ثرى عربى فى شقته بوسط البلد، فداهمت الشرطة الشقة ليلاً فوجدونى عارية فى سريره فتم القبض علىّ واعتبروه هو شاهد ملك وبدأت الإجراءات حتى جئت إلى هنا وهذه حكايتى.

الحكاية الثانية

ثم تقدمت الثانية فقالت:

أما أنا فحكايتى تختلف وإن كانت النتيجة واحدة، نشأت نشأة فقيرة فأبى كان يعمل «عتالاً» وكان رزقه ضيقاً يوم يعمل ويظل أشهراً لا يجد قوتنا، ونحن ثمانية، ثلاث بنات وثلاثة صبيان غير أبى وأمى، وبشاء حظه التمس أن تكون بناته جميلات، ولم تكن أمنا جميلة مثلنا، لكنها كانت صبية وتصغر أبى بأعوام كثيرة، وحياتنا تسير على منوال واحد لا يتغير، أبى يخرج صباحاً بحثاً عن عمل، ونحن نجلس فى البيت لا نجد ما نأكله فكانت أمى تشحت من الجيران بعض الدقيق والزيت والسكر وتعمل لنا زلابية أو فطير نأكله فتسكت بطوننا حتى يحضر أبى متعباً ومحطماً من المشاوير التى قطعها بحثاً عن أى عمل دون جدوى، فتعمل له أمى ما يأكله، وكانت ترقبنا نكبر أمام عينها وهى عاجزة عن فعل شيء تجاهنا وترى أبى قليل الحيلة فتنطحى ركناً وتظل تبكى، وكنا نرقبها فنبكى أيضاً لبكائها، وحدث أن امرأة تعمل خاطبة، وهى جارة لنا، جاءت لزيارتنا ذات يوم، فرأتنى أنا وأخوتى، فحدثت أمى عن أمر زواجنا، وفى اليوم التالى جاءت إلى بيتنا، وبصحبته ثلاثة رجال عرب فى سن أبى فأعجبوا بنا ودفعوا لأبى مبلغاً من المال، وفى خلال أسبوع كنا قد تجهزنا للسفر، فأما أختى الصغرى فسافرت إلى البحرين، والوسطى سافرت إلى قطر، وأنا طرت

— نسعودية، وكان الرجل عجوزاً فلم يستطع القيام بواجبه نحوى فكان
يذهب يتناوبوننى سراً واحداً وراء الآخر، وكل ذلك بأكلى وشربى،
يعملونى معاملة العبيد فلم أستطع الاستمرار وطلبت الرجوع إلى
عسر، فرجعت يا مولاي كما خلقتى وما نابنى سوى أن فقدت عذريتى،
بعد علمت أن أختى الصغرى ماتت هناك لأنها كانت طفلة صغيرة،
بأخرى ضاعت بعد أن هربت من بيت زوجها ولا أحد يعرف عنها شيئاً،
كنت أنا قد تغيرت ونضج جسدى فأصبح محل اشتهاى الجميع فأخذت
أحس عن طلاب المتعة لأطعم أبى وأمى وأخوتى حتى قبض علىّ وأتيت
فى هنا.

الحكاية الثالثة

واعدتلت الثالثة وسرحت ببصرها فى سقف الحجرة وقالت:

أما أنا فلن أظيل عليكم، لأنى كلما تذكرت حكايتى أنهمر دمعى على ما
فقدت، فقد كان لى زوج محب وأولاد وبيت، وكان زوجى يتمنى لى الرضا
أرضى، لكن نفسى الأمانة بالسوء أبت إلا أن أسير فى طريق الوحل، كان
زوجى يعمل حلاقاً، تزوجنا على حب وكانت أحواله متيسرة فأسكننى فى
شقة جلب لها كل شىء، فأنجبنا فى ثلاث سنين ثلاثة أولاد، وكان لى أخ
يأتى دوماً للسؤال عنى، فجاء ذات يوم وبصحبتة صديقه ومكثا فترة ثم
ذهبا، وتكررت زيارات أخى وصاحبه فى غيبة زوجى، وكان صاحبه شاباً
ظريفاً أخذ يطرى على محاسنى ويلمح لى بالنظرات أنه معجب بى فى
غفلة من أخى، فأخذت أميل إليه وأشجعه، حتى جاء فى إحدى المرات
بمفرده وتهيات لنا الظروف، فزوجى فى عمله، وأولادى عند أمى، ولا أحد
معنا فى البيت ومن أول لمسة منه ذبت بين ذراعيه ونسيت كل شىء إلا ما
أنا فيه، واتفقنا أنا وهو أن يأتى كل يوم بعد أن يذهب زوجى إلى عمله.

فكان يرقب زوجى حتى يخرج ثم يأتى إلى فيجندى مهياً له. وحدث فى أحد الأيام أن كان عندى، كان زوجى من عادته أن يتركنى نائمة فتذكر بعد أن ذهب إلى عمله أنه نسى شيئاً على البوتاجاز فرجع وفتح بمفتاحه حتى لا يوقظنى وتسحب داخلاً فسمع أصواتاً آتية من حجرة النوم ففتح الباب ووجدنى عارية فى أحضان ذلك الشاب، ومن شدة ذهوله أخذ يصوت ويلطم خديه، انتهب الشاب فرصة ذهول زوجى فقفز من البلكونة وهرب، أما أنا فقد اكتفى بتطليقى بعد أن أعلم أهلى بما حدث، ووجدت نفسى فى الشارع فجأة بلا زوج أو أولاد أو أهل، فذهبت إلى ذلك الشاب فطرندى خوفاً من الفضيحة، فلم أجد أمامى سوى المشى فى الطريق الذى اخترته لنفسى وهو ذنب زوجى وأولادى، ثم أنها أخذت تبكى وظل الجميع يواسيها حتى هدأت.

كان الليل قد انتصف، وتغيرت نوبتية عامل التحويلة فحل محله عامل آخر لم يكن يشعر تجاهه بارتياح، وتكومت النسوة على الأرض والتصقن ببعضهن وأخذن فى النعاس، بينما جلس هو فوق الدكة الخشبية لا يستطيع النوم، وتأمل عريهن فشعر بتوتر وانتصب، وتذكر زوجته وزواجه القصير، ما الذى تفعله الآن، هل هى نائمة، أم أنها سهرانة تفكر فيه، تذكر ليلتهما الأولى معاً فازداد توتراً، أتى بعض أمناء الشرطة فوجدوه مستيقظاً، أمروه بالنزول إلى الزنزانة للمبيت فيها، ألمه ذلك وأشعره بالإحباط، فقد كانت صحبة هؤلاء النساء تروقه، فهى أهون فى كل الأحوال من صحبة حلمبوحة أبو قصة أو عبده كوارع ومحمد كرشة وغيرهم من الأسماء العجيبة والتي تضمها زنزانة الرجال قضى الليل مؤرقاً حتى الصباح حين أتى عامل التحويلة ليخرجه من زنزانه.

لما اجتمع بهن مرة أخرى أخذن يضحكن، يغمزن بعيونهن ويتهامنن،

عُدرك إنهن يعرفن أشياء لا يعرفها، لكنه كان متشوقاً لسماع بقية حديثهن غيآن.

الحكاية الرابعة

تقدمت الرابعة فقالت: إن حكايتي تبدأ من حيث نشأت، كان أبى رجلاً مزواجاً يعشق النساء، وهو وإن كان فقيراً فإن النساء كن يعشقنه، كانت أمى الثامنة فى ترتيب نسائه، والرابعة ممن كن على ذمته، والأعجب من ذلك أنه جمعهم فى شقة واحدة صغيرة بأولادهن، فكنا ثمانية عشر أخاً وأختاً غير أربع زوجات وأبى فيبقى مجموعنا ثلاثة وعشرين فرداً، وكان أبى رغم فقره، وسيماً طويلاً ممشوق القوام يعتنى بنفسه وبمنظره حتى تحس أنه أحد أبناء الأثرياء، وكانت زوجاته جميلات أيضاً فأخذنا من أبى وأمهاتنا ذلك الجمال، وكنت أنا أجملهن، وكان أبى يلذ له جمع زوجاته لأربع على سرير واحد بعد أن ننام جميعاً ويبدو أنهم أحيان ذلك فكن يتفنن فى إرضائه والتقرب إليه، وفى ليلة من الليالى رأيناهن وأبى عارياً بينهن فأخذنا نتفرج عليهن ونسمع أصواتهن وهن يظنون أننا نائمون، فأخذنا نقلد أبى وزوجاته أنا وأخوتى فى لعبنا فكنا نخلع هدومنا ونتفرج على أعضائنا ونتحسسها ونقلد أصواتهن وهكذا استمرت ألعابنا إلى أن كان يوم من ذات الأيام كنت نائمة بين أخوتى فأخذ أحدهم يتحسنى فاستسلمت لمداعبته وعملت نفسى نائمة وظننت أنه يلعب معى، فما كان منه إلا أن مدّ أصبعه وخرقنى ففض غشائى، وارتعبت وأخذت أبكى، لكن نم أخبر أحداً، وكنت وقتها ابنة أربعة عشر ومن يرانى يظن أننى ابنة عشرين، وقد أحببت ابن الجيران، وكان شاباً فقيراً، وتقدم لخطبتي فوافق أبى لأنه كان يتمنى أن يزوجنا جميعاً، وكانت إجراءات الزواج سريعة حتى حلت ليلة الدخلة، فى تلك الليلة أخبرت أمى بما حدث من أخى فلطمت خديها ولم تدر كيف تتصرف، ثم أنها أحضرت زوج حمام ذبحته ولطّخت

بدمه مندولين خبأتها في صدرها وأخبرت عريسي أنها سوف تدخل معى هي وحدها لإزالة بكارتي لأننى مرتعبة وخائفة، وانطلت الحيلة على الجميع وخرجت أمى تزغرد وقد نشرت المندولين على يديها والجميع يظن أن هذا دمي، واستمرت الأحوال بزوجى تمر من سيء إلى أسوأ فيوم يعمل وعشرة يظل جالساً في البيت بلا عمل حتى ضقت ذرعاً وأخذت أتشاجر معه كثيراً وأعايره بأنه عاطل، فلما أعيته الحيلة قرر السفر إلى العراق لعل حظه هناك يكون أسعد حالاً، وانقطعت عنى أخباره مدة طويلة كنت أثناءها أدبر حالى من هنا وهناك، لأسد رمقى، ثم أنه أرسل لى خطاباً يخبرنى فيه بأنه لم يجد عملاً حتى الآن وأن على أن أصبر، فلم أجد ما أفعله سوى أن أخرج للعمل، وأن أعتمد على نفسى، ولكن كنت كلما ذهبت إلى عمل أجد من يتطلع إلى جسدى ويساومنى عليه فأتركه إلى عمل آخر وهكذا أخذت أتقل من عمل لآخر حتى وقعت على عمل كان صاحبه شاباً وسيماً وأظهر لى اهتمامه بى وأنه وقع فى حبى فأحبهته أنا أيضاً وأسلمت له قلبى وجسدى حتى سئم منى فهجرنى، فاسودت الدنيا فى وجهى وأقسمت أن أجعل الرجال يرتمون تحت قدمى، فأخذت أعطى نفسى لمن يدفع أكثر وقد اشتهرت، وأخذ أكابر البلد يجيئون إلى طلباً للمتعة حتى تشاجرت مع أحدهم فأبلغ عنى فقبضوا على وأتوا بى إلى هنا وهذه حكايتى.

الحكاية الخامسة

ثم تقدمت الخامسة وقالت: كان لى جار شاب ظريف نشأنا سوياً فأحبهته وأحبنى، وتقدم لخطبتي فوافق أهلى لما عرفوه عنه من الاستقامة ودماثة الخلق، واستمرت خطبتنا ثلاث سنوات كان خلالها يجهز نفسه للزواج، وفى أثناء ذلك كان يأتى إلى منزلنا فكان أهلى يتركوننا سوياً فنتداعب بالأيدى والأرجل والضم والقبلات المختلصة فيتأجج شوقى إليه وأتطلع إلى اليوم الذى يضمنى معه سرير واحد، وقد جاء هذا اليوم ويا

نيته لم يأت، فبعد أن أغلق علينا الباب خلعت ملابسي وتهيأت له فأخذ يضمني ويقبلني حتى غبت بين ذراعيه، واشتعل جسدي من الرغبة في تمام الوصال، فإذا به يتركني ويتكوم بجانبى وبينام فتعلت بأنه متعب ولا بد لي من إتمام ذلك غداً، وفي الغد يتكرر ما حدث، فأردت أنا معرفة ما به فاقتريت منه وأخذت أرغبه في وأداعبه وأمسكت آلته فوجدتها ميتة لا حياة فيها، وإذا به يرتمي في حضني ويبكي مرّ البكاء فعرفت أنه ليس له في النسوان، وأثناء بكائه أخذ يرجوني ألا أفصح سره فوعده وقد دفعته لعلاج فذهب لعدة أطباء دون جدوى، وظللت معه مدة ثلاث سنوات وأنا بكراً مازلت، وفي مواجهة شقتنا، تقع شقة أخرى يسكن فيها شاب عازب نحني ولمحته أكثر من مرة في صعودي وهبوطي، وكان يبتسم لي بأدب فأردت تحيته دون أن نتكلم، لكن إشارات عينيه لم تكن خافية على من كانت في مثل حالتي، وفي إحدى المرات بينما كنت صاعدة إلى شقتي كان هو يقف على باب شقته فتبادلنا الحديث لدقائق، فصارحني بأنه معجب بي واني بإشارة من يدي يرتمي تحت قدمي، فكنت أردته بلين الكلام فلم ينقطع رجاؤه وظل يلاحقني في غدوى ورواحي ويتغزل في مفاتيحي ويبعث حبه حتى وقع قلبي في محبته وصرت أتحين الفرص للاجتماع به، وكان زوجي يراني ساهمة واجمة فيظن أنني متعبة ولا يدرى أنني أفكر في ذلك شباب، وفي أحد الأيام كان زوجي مسافراً في عمل يغيب فيه أسبوعاً، فارتديت قميص النوم الذي ارتديته لزوجي ليلة الدخلة وتزينت وأفرغت نعطور على جسدي فكنت كأحسن ما يكون، ثم أنني فتحت الباب وانتظرت خروجه وعملت نفسي مشغولة بالقرب من الباب وأنا أتحين خروجه فلما خرج ورآني على ما أنا عليه وقد انكشف جسدي فأخذ ينظر بي مبهوراً وهو يظن أنني غافلة عنه، ورفعت نظري إليه وكأنني فوجئت، وسألني عن زوجي فقلت إنه مسافر فتقدم مني وأغلق الباب وراءه وأخذني بين ذراعيه وأنا أدعى المقاومة حتى وقعت ووقع فوقى وخرقني برمحه

فصرخت من شدة الألم، ثم بعد ذلك لم أتركه حتى أفرغنا ثلاث أو أربع مرات بلذة عجيبة، وصرت لا أقدر على فراقه، وكان زوجى قد لاحظ اهتمامى بنفسى فجرت الدموية فى وجهى وجسدى وصرت أجمل من الأول فبدأ الشك يلعب فى عبه فأخذ فى مراقبتى دون أن أدرى فكان يخرج إلى عمله ولا يذهب بل يحضر إلى شقتنا فلا يجدنى وأكون أنا فى تلك اللحظة بين أحضان ذلك الشاب، وفى يوم من الأيام ذهب كعادته فتهيأت أنا لملاقاة الشاب وكان زوجى يختبئ أمام المنزل ليرقبنى وأنا نازلة فلم أخرج ودخل شقتنا فلم يجدنى فتأكد من أننى فى الشقة المجاورة مع ذلك الشاب فذهب إلى قسم البوليس وعمل محضراً لى وجاء ومعه الشهود واقتحم الشقة فوجدونى عارية بين ذراعى الشاب فأثبت علينا جريمة الزنا وهكذا جئت إلى هنا.

(٣)

تكررت حكاية نزوله إلى الزنزانة كلما جاء الليل ووجده أمناء الشرطة أو الضباط مستيقظاً، وكان يعجب لماذا يريدون إزاحته فى الليل وتساءل عن الغرض من ذلك إلى أن همست له إحداهن قائلة: إذا أردت أن تعرف فتصنع النوم حين يأتون وسوف ترى بنفسك، وكان بالفعل متشوقاً لمعرفة ما يحدث فتصنع النوم حين رأهم آتين، وأرهف حواسه لما يدور حوله، ألقوا عليه نظرة فوجوده نائماً، وحتى يتأكدوا هزه أهدمهم، ثم بعد ذلك أخذوا يتحسسون النساء وسحب كل واحد واحدة واختفى بها داخل المبنى. ظل راقداً متصنعاً النوم حتى أوشكت الساعة على الثالثة صباحاً حين بدأت الفتيات يتسخبن إلى الحجرة منهكات، وبمجرد لمسهن الأرض نمن، وبدا له أن جميع من فى قسم الشرطة يعرفون ذلك حكى لزوجته عما رآه وسمعه، لم تعلق، فقط ابتسمت واحمر وجهها فأحس غيرتها، فى الصباح الباكر تمّ ترحيلهن إلى مبنى سراى النياية وأفرج عنهن بكفالة من مبنى

تسم، صعدين خصيصاً وسلمن عليه، ضغطن على يده فى مودة غير متعلة، ابتسم وقال: ما يحزن نفسى أنتى لن أسمع بقية حديثكن، ضحكت حدة وغمزت له بطرف عينها، يا خويا يعنى هاتسمع أم كلثوم، على كل حزن ممكن نسمعوها لك بس مش هنا، تعالى لى وهأ أروك وأسمعك لحد صبح، أعطته عنوانها ورقم تليفونها، الباقيات فعلن مثلها، بعد أن غادرن مكان شعر فجأة بالوحدة ولم يجد ما يفعله سوى أن ينام. يحضر ابراهيم عمل التحويلة صباحاً فيجلس خلف المكتب يرد على التليفون، يقوم بتدوين المكالمات فى دفتر كبير أمامه، ولم تكن المكالمات تخرج عن بلاغات عن جرائم تحدث أو حدثت، اقترح عليه أن يقوم هو بالتدوين، كان يمسك -نظم الجاف المربوط من منتصف بدويارة فى الدفتر ويدون بالساعات، جرائم قتل، سرقة، حرائق، ثأر، شيكات بدون رصيد، اغتصاب، زنا، قال لـ ابراهيم ذات يوم: هل تريد الاستحمام. أوما له بالإيجاب فأخذه من يده فى دورة المياه، وكانت زوجته أحضرت غيارات داخلية، غمز له: ممكن تأخذ مراتك معك، أحس ناحيته بالامتنان، فهو يعرف أنهما تزوجا حديثاً، لكن ليس هذا بالمكان الملائم، شكره وأخذ حماماً بارداً فشعر بالانتعاش، ثم بدأ يصطحبه إلى مقهى يقع بالقرب من مبنى القسم، يجلس معه ساعة يتناولان الشاي والقهوة وقد ينضم إليهما بعض المخبرين، كانت تلك جلسات تجدد نشاطه وتعيد إليه توازنه، يتنفس هواء حراً، ثم يرجعان مرة أخرى إلى حجرتهما.

شعر بحاجته الشديدة إلى سيجارة شم رائحتها فملأت خياشيمه، تلفت فلمح أحدهم يدخل بحذر، كان يضع السيجارة فى راحة يده فلا يظهر منها سوى الفلتر الذى يضعه فى فمه فتتوهج السيجارة فى راحة اليد دون أن يلمحها أحد، وآخر كان يجلس بجانبه يبدد الدخان بكرتونة فى يده، لو لمحه أحد حراس البوابة فسوف يكون عقابه صارماً، كانوا معه فى زنزانة واحدة فى القسم لذا فهم يعرفون أنه يدخل كثيرا وكان يعطيهم

مما معه. اقترب منه الذى يدخن وأعطاه السيجارة فأخذها متلهفًا وامتنص نفسًا عميقًا ابتلعه ثم بدأ يخرج بهبطء، وأحسّ بدوار وخدر لذيذ، له يوم كامل لم يدخن، ترك له السيجارة وانضم إلى زملائه وأخذوا يبحثون فيما بينهم ثم رجع إليه وقال له: أنا شاورت الزملاء وقررنا أن تدخن أنت فقط، وأخرج من ثنية رجل البنطلون ثلاث سجائر، وكذلك فعل الآخرون فكان المجموع ثلاث عشرة سيجارة من ماركات مختلفة تكومت أمامه، قالوا إن السجائر تؤثر فيه بشكل كبير وهم يرونه متعبًا من عدم وجودها بينما يستطيعون التحمل، لم يستطع الكلام، فهذا الموقف النبيل لا يجد له مبررًا خاصة أنه لا ينتمى إليهم ولا يجمعه بهم سوى الحبسة، لكنهم أسروه بهذا الموقف، قرر أن يخبئ السجائر تحت البطانية فهى مكان آمن، وإنه يستطيع تدخين سيجارة كل ساعة حتى موعد الزيارة فى الغد.

كان متعباً فتمدد فوق البطانية وفرد بدنه، حين يكون الجسد متعباً فإن الذهن يصبح صافياً، هو لا يستطيع تبرير ما حدث، كأنه مقدر، ومكتوب أن يهرب ثلاث عشرة سنة كاملة، حدث ذلك فى منتصف السبعينات، تحديداً عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف، وبعد ثلاثة شهور من موت أمه، موتها كان زلزلة، وكان كارثة بكل المعانى، كان موته هو أيضاً الذى اعتاد القول: لو جرى لها شيئاً فسوف يموت وراءها، الآن يدرك أن لا أحد يموت وراء أحد، وأن الزمن يضعف من الكوارث الكبرى، الغريب أن مرور الزمن يشعره بحنين جارف إليها ويعمق إحساسه بالفقد، ودائماً ما يجلس يتمثلها فى حياتها اليومية، إيماءاتها، التفاتاتها، تبسمها وغضبها، قامتها إذ تنتصب واقفة، نبرة صوتها، لحظات خفوتها إذ تهمس، لحظة رنت إليه وهو يحلق ذقنه للمرة الأولى، تلهفها على احتضانه والزهو حين تراه أطول منها. وإذا ترى منابت شعر شاربه مخضرة، وإذا تراه يشاغل ابنة الجيران فتسعد.

كانت السيجارة الثانية بين شفثيه يشريها ببطء، واجتاحته مشاعر أسى حوْها، ماتت دون الأربعين، وكان هو أيضاً صغيراً، وتردد في نفسه سؤال، لو لم تمت، هل كان سيهرب؟ وكانت الإجابة واضحة أمامه، نعم كان سيهرب كما هرب من قبل من أشياء كثيرة، هو ذات طبيعة هروبية، ومنذ كان صغيراً وهو دائم الهروب، من البيت والمدرسة وزملائه، واستمرت هذه الصفة ملازمة له حتى كبر، في العام الثاني والسبعين، حين قامت حركة الطلبة الشهيرة في الجامعة، كان هو أحد زعمائها، ترك زملاءه يقطعون في أيدي الشرطة وهرب، بل أنه اتصل منهم بعد ذلك، ربما كانت هذه المرة هي أطول هروياته، ثلاث عشرة سنة من الهروب المستمر، لم يقطع الالتحاق بوظيفته، يطلبون دائماً شهادة تأدية الخدمة العسكرية، يكن عليه البحث عن عمل يأكل منه هو وإخوته الصغار وأبيه المسن، ولم تكن المسألة سهلة، لكنه رضى بأعمال يدوية شاقة لم تكن مناسبة لشاب حصل على ليسانس آداب. في الثامنة مساءً يعود إلى البيت ولا يخرج أبداً تحت أية ظروف، فقد تقابله دورية شرطة، أو يقع في أحد الكمائن نصبوية على الكبارى، أول شيء يفعلونه هو طلب بطاقة تحقيق شخصية، ثم بعد ذلك شهادة تأدية الخدمة العسكرية، الغريب أنه في الأيام الأولى من هروبه سرقت محفظته وبها البطاقة وكارنيه الجامعة بصور له ولأمه، وقد ظل بلا هوية حتى يوم زواجه.

انتهت السيجارة فأطفأها في الأرض، وفكر أن اليوم هو الخميس، وأن الجمعة إجازة، وسوف يتم ترحيله يوم السبت، أمامه الغد بطوله إذن، كان جميع نائمون الآن وأصوات شخيرهم تتناغم وتتردد في المكان، ولا بد أن الساعة تجاوزت الثانية صباحاً لأن الحراسة على البوابة تغيرت منذ دقائق، ففي كل أربع ساعات يتم تغيير الوردية، فكر أن عليه النوم الآن، أمامه ثلاث ساعات قبل حلول موعد فتح الزنزانة في الخامسة، فرد سانه وأغمض عينيه فراح من فوره في النوم.

(٤)

فى الخامسة صباحاً انفتح باب الزنزانة، وانتشروا واقفين على صوت الحارس، خرجوا صفّاً واحداً حتى فناء المعسكر، ألقى إليهم بالتعليمات: عليهم للمة أوراق الصفصاف الكثيفة على الجانبين، وانتشروا يجمعون الأوراق، ولم تكن المهمة سهلة، فكلما التقطوا بعضها سقط غيرها، واستمرت اللعبة حتى العاشرة، ثم أخذوا يرشون الزرع بعلب صفيح صغيرة مدة ساعة أخرى، بعد ذلك اقتادوهم إلى الميس حيث تناولوا إفطاراً مكوناً من رغيف واحد وبعض حبات الفول المدمس، وإلى الزنزانة مرة أخرى، الساعة تقترب الآن من الواحدة ظهراً، وأمامه أربع ساعات كاملة قبل موعد طابور التمام فى الخامسة، لم يشعر بالرغبة فى التدخين فتمدد على نمрте وفرد البطانية حتى غطت رأسه، وحملق فى خروم البطانية فكانت عشرات النقط المضيئة تتراقص أمام عينيه: أمينة زوجته، أين هى الآن؟ وما الذى تفعله فى تلك اللحظة؟ هل هى نائمة، مستيقظة؟ فيم تفكر؟ فى البيت أم عند أمها؟ يشعر بحنين جارف إليها، يذكر لقاءهما الأول، أول حديثهما، كان ذلك فوق كوبرى قصر النيل بعد رسالة دسها فى كتاب «آلام فيرتر» وحملها إليها أخوها الصغير، فرحته بها لما أتت، حديثه المتصل وإيماءاتها وهى تنظر إليه بإعجاب، كانت فى الثانوية العامة، لكن وجهها يسبح فى طفوليته الأزلية، حدثها عن كل شىء مرّ بحياته حتى لحظة لقاءه بها، عن علاقته بأخرى عرفها قبلها، حدثها عن هروبه من التجنيد وأنه لو لم يفعلها لمات فى وقتها، وعن متعة التمرد على كل ما هو سائد، كانت طفلة ترى العالم للمرة الأولى من خلاله، يذكر اندهاشتها الأولى وأسئلتها البكر، اقترايه منها وتشممه رائحة عذريتها الطازجة. ارتجافتها إذ يمسك يدها البضة الطرية، مواعيد ما بعد المدرسة فى كازينو الزهرة، بحثهما الدائم إذ يجلسان عن الجرسون ومعرفة تحركاته

اختلاس قبلة، فى كل المرات التى ذهبا فيها للكانينو لم يضبطا فى وضع مخل، كانا يرصدان حركاته ويستمتعان بذلك، يفعلانه بنشوة طفلين يتشfan العالم للمرة الأولى، فارق السن بينهما ست سنوات جعلته المعلم - نرشد وقائد مسيرة حبهما، كان وقتها فى الرابعة والعشرين، أما هى تسمى الثامنة عشر مراهقة جميلة لم تهجر طفولتها بعد، كان يشعر أن مجرد لمسة من أصابعه تهز كيائها، يتدفق الدم فى كل جسدها بل كان يسمع صوت تدفقه فى العروق، حدثها عن الأخرى، اسمها نادين، وهى تسمى أعطته موعداً، حدث ذلك فى مكتبة كانت تعمل بها وكان هو يطلب مكالمة تليفونية لا يذكر لمن أخذت تلاحقه بنظراتها ولم تمهله، ذهب متأخراً فوجدها تنتظره على النيل، صارحته بحبها من أول نظرة وصارت تنفزل فيه بينما جلس صامتاً ومربوگاً، نادين تكبره بعدة سنوات، تقابلا بعد ذلك عدة مرات، حدثته عن موت أمها وأبيها، رعاية أختها الكبرى تزوجة لها، جمالها ونضجها جعلها الخطاب يفدون على أختها الكبرى وزوجها طلباً ليدها، لكنها لم تحب أحداً ممن تقدموا لها، قالت إن أبرز ما يميزه هو طول الفارع ووجهه الأسمر الوسيم وأن عينيه السوداوين بنظراتهما الحزينة هما ما جعلها تتعلق به، وقالت إنها وصفته لأختها فأحبته هى أيضاً على السماع لأنه يشبه ممثل هندی. وكان هو صامتاً طوال الوقت مشوش الذهن، ضربت له موعداً آخر فى حديقة الأورمان، وندھشته وجد معها أختها كى تراه عن قرب، جلسنا أمامه وظلنا تحدقان فيه طوال الوقت، تحدثت أختها عن ذلك الممثل الھندى والذى تحبه حب عبادة وقارنت بينهما، قالت: أنت النسخة المصرية، لكن تعرف، أنت أكثر طولاً ووسامة منه، وشعر بفرحتهما فى تلك اللحظة وهما تغازلانه، بينما هو أغلق نوافذه الخارجية وانفصل عن عالمه، يفعل ذلك دائماً كلما حاول للهروب من شىء ما. هذا الشىء كان يجرحه، ويشعره بالهانة، سلبيته فى مواجهة عالمه، بأنه ليس فاعلاً، هروبه الدائم إلى أمه وكأنها يقينه

الوحيد، مر شهر على موتها كأنه مازال مربوطاً بجبلها السرى، كانت تمثل له كل شيء، رحلت في الأربعين فزلزلت كيانه، قربه منها جعله يرى الموت وجهاً لوجه: كيف مرضت؟ كيف لمح بداية غروبها؟ شمستها إذ تأقل، سكرات موتها، زغراتها وإيماءاتها وإشاراتنا، آخر ما نطق به لسانها، لا شيء يعوض فقدتها، منذ تلك اللحظة، يشعر بالموت طوال الوقت، يناصبه العداء، تحولت معركته مع الموت إلى مسألة شخصية. فاتحته نادين في الزواج، قال إنه هارب من التجنيد ولا يملك شيئاً، انقطعت عنه أسبوعين ثم جاءته، كان ثمة شيء فيها قد تغير، وفاجأته بأنها تزوجت من ثرى عربى، سافر هو وسوف تلحق به بعد شهر، تزوجت في شقة مفروشة في وسط البلد، تعرف عليها عن طريق خاطبة وتزوجها على الفور، اصطحبتته إلى الشقة وهناك صارحته إنها فعلت ذلك لأنها تحبه، وقد أدركت استحالة زواجه منها لأن ظروفه صعبة، نادين أدخلته دنيا المرأة للمرة الأولى، أعطته كل ما تريد إعطائه امرأة محبة لرجل، حتى المال الذى تركه لها زوجها، كانا يتقابلان يومياً في الشقة، وكانت هي مثل اسفنجة تريد امتصاصه لآخر قطرة، أما هو، فلم تكن المسألة تعدو محاولة أخرى للهروب من مشاكله التى لا حل لها.

سمعهم يندھون عليه فى الخارج، انتبه وهبّ واقفاً باتجاه الباب، انفتح باب الزنزانة ورمى له أحد الجنود قميصه وحناءه، قال له زيارة فى الخارج. أكمل ارتداء ملابسه واقتاده إلى حجرة الاستقبال، ولم يكن به سوى امرأة جلست فى ركن الحجرة، وتسمّر فى مكانه، آخر ما كان يتوقعه أن يجدها أمامه، تذكرها على الفور رغم التغير الهائل الذى يشاهده الآن. كانت زينب أو زوزو زميلته فى الكليشات، وقفت وأخذت يده فى يده وأجلسته بجانبها ولمحت دهشته فابتسمت وقالت: سألت عليك فى القسه فدلونى على هنا، ودلونى أيضاً على اسمك الحقيقى، كانت ترتدى بلوزة سوداء ناعمة أظهرت كتفيها وجزءاً من صدرها، وبنطلون جينز، وكنت

حية. وأخذ الجنود يبصون عليها ويتهاامسون، أخرجت من حقيبتها أربع
 — سجائر وعلبة عصير مانجو فتحتها وأعطتها له: إشرب يا خويا، دول
 — زين يا عين أمك. ضحك للهجتها الريفية رغم مظهرها الأرستقراطي،
 — فتح علبة سجائر وأخذ يدخن بشراهرة، سألها عن أحوالها فأخبرته أنها
 — سارت على ذمة القضية بكفالة، وإنهم يراقبونها لذلك فهي لا تعمل الآن
 — — أمورها بصعوبة، جلست معه ساعة تحدثه، أخرجت ورقة وقلماً
 — كت عنوانها ودستته فى جيب قميصه: أول ما تخرج وينفك حبسك
 — حى فوراً أو تتصل، سلمت عليه بحرارة ومضت بعد أن وعدت بزيارة
 — حرى. قال إن ترحيله غداً ولا داعى لتعبها، شكرها ودسّ فى يده بعض
 — سجائر وترك الباقي لها وقال انه سوف يتصل بها فور خروجه، حلّ
 — — فخرجوا صفّاً واحداً للحمام ثم بعد ذلك ذهبوا للعشاء ثم العودة
 — — إلى أخرى للزنازة، وشعر بسعادة غامرة أن هناك من يهتم بأمره، وأنه
 — — لن يكون فى هذا المكان، تنهّد وأخذ يدخن، سافرت نادين وانقطعت
 — حرها، تعرف على أمينة وتوثقت علاقته بها، أحبها حباً جارفاً بينما
 — — أخرى توارت عن الذاكرة، أخبرته أمينة أنها فاتحت أمها، وأنها تعرف
 — — حلفتها، وأنه لا بد من التقدم لخطبتها وسوف يوافقون، إنهم يتفهمون
 — — عروفه، سوف يعرف من أبيها فيما بعد أنه كانت له نفس المشكلة، وأنها
 — — ما وقفت عائقاً أمام مستقبله، بل تزوج ثلاث مرات أثناء هروبه، لكنه
 — خبرها أيضاً أن مشكلته لا بد لها من حل، وأنه يجب تسليم نفسه، فى
 — — المساءات فوجئ بنادين تتصل به، وأنه وصلت وتريد رؤيته، حالاً، مرت
 — — ستان على آخر مقابلة لهما، ووجدها فى انتظاره، كانت معها طفلة ابنة
 — ستين، أرادت نادين احتضانه وتقبيله أمام ابنتها لكنه اكتفى بالسلام،
 — كت إنها رجعت بالأمس فقط، وأنها مجنونة من عدم رؤيتها له، لم تكن
 — تعرف علاقته بأمينة وأخذت تحدثه عن أحوالها هناك، وأنها تكره زوجها
 — خاصة بعد ولادة ابنتها وأنها طلبت منه الطلاق رغم أنه يحقق كل طلباتها،

ثم سألته فجأة، إذا أنا طلبت الطلاق ووافق هل تتزوجنى، لا أريد منك شيئاً سوى أن تكون معى ومع ابنتنا، ونظرت إليه تستطلع فى وجهه وقع المفاجأة، نعم هى ابنتك، لكنه لا يعرف شيئاً، كان صمته طويلاً قبل أن يحدثها عن حياتها التى أصبحت تحياها بعيداً عنه، ثم عن الأخرى التى أصبحت كل شىء فى حياته، وأن عليها عدم طلب الطلاق طالما زوجها يحبها، وما هو ذنب الأخرى وقد أصبح هو كل أملها. كان يتحدث ببساطة جارحة، وكانت هى تسمع وقد جحظت عينها وأخذت تعض شفتها حتى أدمتها، فجأة انفجرت فى بكاء مكتوم وقامت وأخذت ابنتها وخرجت دون كلمة واحدة، سوف لا يراها بعد هذه المرة، إلا أنها سوف ترسل له خطاباً من هناك تهدده بفضح علاقته بها لدى زوجته وأنها الآن غنية وقادرة وسوف تدمر مستقبله، وقد سأل نفسه مراراً: كيف تستطيع ذلك؟

(٥)

فى الخامسة صباحاً اصطفوا فى فناء المعسكر، بعد التفقد نودى على كل واحد باسمه، تقدم من مكتب الأمن معه مندوب الشرطة الذى سوف يتسلمه ويكون عهده من الآن، تسلم متعلقاته: ثلاثون جنيهاً، ساعة يد. دبلة فضة، ارتدى ملابسه الملكى، كان مندوب الشرطة العسكرية طويلاً مثله، وضع فردة كلابش فى يده اليمنى، والثانية وضعها فى يده هو اليسرى وأغلقها ووضع المفتاح فى جيب سترته العلوى، قال له ضاحكاً: لو أردت الهروب فعليك قتلى أولاً. لم يضحك، ونظر إلى أوراق الصفصاف تملأ أرض المعسكر، غمغم: أمضغوها إذا شئتم، خطأ خارج المعسكر فلمح زوجته وأخته فى انتظاره، الآن يستطيع التدخين متى شاء، تقدمتا منه وناولتاه سجائر وماء، وناولته زوجته ساندوتش وأعطت الآخر، جلسوا يأكلون أمام محطة الأتوبيس، بعد الانتهاء، وجد الجندى يفك القيد من

قال له: باين عليك ابن ناس ومش وش بهدلة، منظرنا مش حلو كثير
 مش ها ترضى لى الأزية، أوعدنى ما تهريش فأنت عهدتى وأخش
 سجن بدا لك. هز رأسه وقال ثق بى، ثم أن أختى وزوجتى معى فكيف
 عرب، ركبوا عربة ميكرباص حتى رمسيس؛ ومن هناك استقلوا آخر
 حتى الهايكستب، قال له: تعرف مكان الكتيبة؟ قال إنه تركها منذ مدة
 عية، لكن من المؤكد أنه سوف يعرفها إذا لمح بعض العلامات. أخذ يتذكر
 بعض الضباط، قائد الكتيبة وقتها ترقى وأصبح عقيداً وقد انتقل إلى
 مدرسة العسكرية، يذكر أيضاً النقيب هانى قائد العمليات، والنقيب أحمد
 الخير، والملازم أبو السعود، أما الجنود فلا بد أنهم أنهاؤا خدمتهم،
 خذت العربة تطوى الطريق بينما أخذ يفكر كيف سيستقبلونه؟ من من
 قدامى يتذكره؟ كان مشهوراً بقرابته لقائد الكتيبة الرائد عبدالصير، لم
 يكن قريبه، إنما جاره الذى تربى معه، اقتربت العربة من نهاية سور كان
 يعرفه جيداً فأشار للسائق بالتوقف. نزلوا وتقدموا ناحية الممر، اجتازوا
 تريط السكة الحديد ومروا من تحت أحد القطارات الواقعة حتى انتهوا
 فى طريق أسفلتى، تقدم هو والجندي بينما فى الخلف كانت أخته وزوجته،
 يمين حولهم، كانت الصحراء تحوطهم وشمس يوليه فى منتصف السماء
 تصب لهيبتها فوق رعوسهم، ظلال الأجساد المكدودة انطرحت خلف
 ظهورهم المحنية تتن من لفتح الشمس، تقدم الموكب حزيناً صامتاً فى طريق
 خلت إلا من بعض عربات الجيش تمر مسرعة بين الحين والآخر، وكان
 صوت لهاثهم يعلو الآن، بينما الطريق بدت بلا نهاية، ما الذى سيفعلونه
 معه؟ سمع الكثير عن حفلات الاستقبال فى سجون الجيش، المساجين
 نقدامى سوف يحتفلون به على طريقتهم الخاصة، سوف ينهالون عليه
 ضرباً ويأخذون ما معه، يكلفونه بحمل خرائطهم، ويضعون قصاصات
 نغماش المغموسة فى الزيت بين أصابع قدميه حين ينام ثم يشعلونها،
 يعطونه آخر نمرة لينام عليها بالقرب من جردل البول، وإذ يستغيث فلا من

مغيث، إنه أحد الأعراف الراسخة التى يعرفها الجميع، أحسّ بالرهبة وهم يقتربون من الطريق الذى أصبح دائرياً ثم انعطفوا إلى طريق آخر مواز للأول، يقتربون الآن من قيادة اللواء، يذكر أن للكتيبة مدخلاً خاصاً يؤدى إليها مباشرة، اقتربوا منه يتقدمهم جندى الشرطة الذى تحدث مع جندى الحراسة على البوابة فتركهم يمرون، دلفوا إلى بوابة الكتيبة ومنها إلى حجرة شئون الأفراد، تطلع إليهم مساعد تعليم الكتيبة فتقدم منه جندى الشرطة بالأوراق، تمّ التسليم والتسلم بسهولة، جلس فى الحجرة وتقدّم منه الجندى فسلم عليه وهمس: هل تريد شيئاً؟ شكره وطلب منه إخبار زوجته وأخته أن تذهبا، غادره ورجع إليه مرة أخرى بطعام وسجائر، جلس وحيداً وأخذ يتطلع حوله، كانت الحجرة بناءً حجرياً مطلياً بالجير بها مكتب يحتل نصفها، علقت على الحوائط جداول بالألوان تحدد مهمات شئون الأفراد، باقى الحجرة امتلأ بالصناديق الخشبية (الكراسنة) بينما جلس جندى فى ركن الحجرة يغسل سترته فى نصف جيركن بلاستيك كبير، وكان مساعد التعليم يلتقط سترة الفسحة من فوق مسمار فى الحائط فقال له: تنام هنا حتى أجيء فى الصباح وأحضرك، هزّ كتفيه دون أن يعلق، كان مأخوذاً وشعر برهبة المكان، ها هو هنا مرة أخرى لا شىء تغير: الجدران الصماء والطلاء الجيرى المغير. مكتب قائد الكتيبة على رتبة عالية فى مواجهة شئون الأفراد، الحجرة التى على يمينه مكتب العمليات، غادر الصول المكتب سريعا ليلحق بالجهاز، لا أحد الآن فى المعسكر إلا الخدمات والنوباتجية، عرف من الجندى أنهم سوف يتركونه هكذا عدة أيام دون تحضير، يفعلون ذلك مع العائدين من هروب، إذا التزم وظل جالساً فى المعسكر تبدأ الإجراءات، أم إذا هرب مرة أخرى، فبركة يا جامع، أضاف الجندى: تستطيع الذهاب الآن إلى بيتك وتحضر باكراً، فلا أحد يهتم بك الآن، تشبث بالفكرة، وشرب فى تنفيذها، بعد ثلاث ساعات من الركوب المتواصل أخيراً حطّ بيـ

حضان زوجته التي فوجئت، كانت خارجة توأً من الحمام بقميص نوم
يسر. شعرها المبلول بلل وجهه ورقبته، استقبلها الحار أنساه تعبها، أخذ
بارداً وغير ملابسه، أكل بشراسة وتحدث مع زوجته ثم اضطجع
حبا حتى شقشقة الفجر الأولى فعاد مرة أخرى، قبل أن يفطن أحد
بـ. في الصباح، انتشر خبر عودته من هروبه الطويل، سمع عن قائد
كتيبة الجديد، لكنه لم يستدعه لبيت في أمره، وظل يذهب إلى البيت
سراً يغادرون المعسكر ويعود قبل طابور التمام، في إحدى المرات تزود
بـ من قائد الكتيبة القديم للجديد، قال إنه أحد تلاميذه، وإنه خدم
تحت قيادته ولن يرفض له طالباً، عند عودته للكتيبة، كان يتحسس
رسالة في جيبه طوال الوقت، وشعر باطمئنان للمرة الأولى، كانت
مترحة فقرأها عدة مرات:

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز محمد بك غريب

تحية طيبة وبعد

كيف أحوالك، والله لكم وحشة ولك مدة لم تتصل بي فلعل المانع خيراً،
رجو الاتصال بي للاطمئنان عليكم وعلى أسرتم الكريمة، وأعرفكم بأن
حامل هذه الرسالة يخصني أمره، وله ظروف خاصة سوف أشرحها لكم
حين نتقابل، وكل ما أرجوه منكم تسهيل مهمته والتعاطف مع ظروفه
بخدمته إن أمكن، وربنا ما يحرمنا من أياديكم البيضاء وفعل الخير وتقبل
مودتي.

أخوكم

مقدم عبد البصير

كان جالساً فى مكتب التدريب حين دخل عليه الصول مساعد التعليم مشيراً له: هيا بنا أدورك لمكتب القائد، سار بجانبه حتى باب المكتب، تركه وغاب بالداخل دقائق ثم نده عليه أمراً: تقدم يا جندى، صفا.. انتباه.. ثابت تقدم الصول من قائد الكتيبة ووضع الأوراق أمامه ووقف انتباه صائحاً تمام يا فندم، كان جالساً خلف مكتبه يدخن، يقترب من منتصف الثلاثين بوجه أبيض مشرب بحمرة تميل إلى السمار وشعر أشقر قصير، وعيناه الزرقاوان أخذتا تتطلعان إليه، وبدا وجهه وسيماً وهو يبتسم قائلاً: حمدلله على السلامة، وما الذى جعلك تقطع أجازتك؟ لم يجب فضحك. وبدت لهجته التهكمية مريحة إلى حد ما فأخرج الخطاب من جيب سترته وقدمه له. وقف صامتاً بينما فرد الخطاب ورجع بظهره إلى كرسيه المتحرك وأخذ يقرأ حتى انتهى فتطلع إليه: من أين تعرف المقدم؟ قريبي ي فندم، وسيادتك تقرب له إيه! ابن خالتي. كده! طيب، بص بقى يا حضرت. هاله هاله على الجد والجد هاله هاله عليه. مش كده؟ أوماً إليه فأضاف: لو كنت عايز تخلص أنا هأساعدك، أما لو عايز تلعب بديك قوللى من دلوقت نفضها سيرة، إيه رأيك. بدأ الحديث يأخذ شكلاً ودياً وقال له: اجلس، فجلس وصرف الصول ولم يعد غيرهما فى المكتب، قال له: احكى لى حكايتك بقى.

لما انتهى من حكايته ظل القائد صامتاً لحظات ثم وقف فجأة واتكأ بيديه على المكتب وقال: طيب، شوف يا سيدى، المفروض أن تدخل الحبر اليوم لحين محاكمتك، لكن أنا مش هاعمل كده، أنت باين عليك مش وشر بهدلة، ها تقعد فى مكتب التدريب، أمام مكتبي، وعلى مسئوليتى، وعاوزن تبيض وشى يالله انصراف.

فى مكتب التدريب لم يكن يفعل شيئاً، فقط يدخن ويظل منتظراً حتى تحين الساعة الثانية فينطلق الجهاز عائداً بهم إلى بيوتهم، وينطلق من أيضاً إلى بيته دون استئذان أحد، كان يعرف أنه بعد الثانية لا يوجد تمد.

تدم يأتى عند توزيع الخدمات فى المساء، أما هو، فمن المفروض أن
سنة فى الحبس وليس فى الكتبية لذا، كان مطمئناً لما يفعله، وقبل طابور
عباح، يجدونه متسكعاً أمام المكاتب، فى ذلك اليوم، لمح قائد الكتبية
رشد أمام مكتب التدريب، أشار له فجرى نحوه. قال له مبتسماً تعرف إن
نيا مقلوبة عليك، وأمن اللواء أرسل لوضعك فى الحبس، لكنى أنكرتك.
رع كف يده على كتفه ونظر إليه: بص يابنى، أنا ها أخدمك خدمة
نمرتك، عارف السلك ده، وأشار بأصبعه إلى سلك شائك يحيط بالمعسكر،
تجد فتحة فى السلك دور عليها تجدها، أخرج منها، أوعى تخرج من
سكة الأمن يمस्कك، أول ما تخرج، إديها السكة، مد يده فى جيبه أخرج
نارت: الكارت ده به نمرتى فى البيت، اتصل بى وطمنى إنك وصلت، يا لله
مع سلامة، مشى مسرعاً ناحية السلك فزق محذراً: أوعى يمسكوك
فى الطريق، أنا معرفكش، فاهم، لم يشعر بالخوف كما شعره هذه
حظة، ظل يبحث حتى وجد فتحة السلك فاجتازها، وتلفت يميناً ويساراً
ع يجد أحداً على الطريق ولمح معسكراً مهجوراً فى الناحية الأخرى، هل
يجاز الطريق ويمر من خلال هذا المعسكر؟ لكنه مكشوف وسوف يلمحونه
فى البوابة، أيضاً التحريات المنتشرة فى المنطقة سوف توقفه، ما الذى
يعله الآن؟ ثلاث كيلو مترات لا بد من قطعها مشياً على الأقدام فى
مطقة مكشوفة حتى يخرج إلى الطريق السريع الذى لا يخلو من رجال
شرطة والتحريات، جلس على حجر محتمياً بساثر الخدمة متطلعاً إلى
نطريق، لو لمح أحدهم، الآن، فسوف يدخل مرة أخرى من السلك
يختفى فى كتيبته، فى المرات التى ذهب إلى البيت لم يكن يعرفه أحد، أما
آن، فالجميع يبحثون عنه، وربما كانوا يحملون صورته، وإذا رجع كتيبته
سوف يجيئون لأخذه، ولن يحميه قائد الكتبية، وفى الحبس، سوف ينتظر
جراءات المحاكمة التى قد تطول عدة أشهر يقضيها محبوساً، كان الحل
نوحيد أن يعبر الطريق إلى الجهة الأخرى أسرع من البرق، يختبئ فى

المعسكر المهجور حتى حلول المساء، قام وأخذ يتلفت حوله، ولما اطمأن جرى إلى الناحية الأخرى، وجد حجرة على البوابة الرئيسية معرشة بصفائح الصاج ومبنية بالحجر، وكان هناك سرير من الحجر أيضاً فوقه بطانية قديمة، وفي مواجهة السرير شباك صغير يطل على الطريق، جلس وتسمّرت عيناه على الطريق من خلال الشباك، اختبأ عدة مرات عند سماعه أقدام على الطريق، مرّ الوقت بطيئاً قبل أن يحلّ الظلام، تسحب خارجاً ومشى خلال المبنى المتهدمة من المعسكر حتى وصل نهايته، الآن عليه عبور الطريق الرئيسى، سوف يصبح مكشوقاً أمام عيونهم، خاصة وهو الوحيد الذى يمر على الطريق الآن، وقف وتلفت حوله فلمحها، عربة كارو لا يعرف من أين جاءت، كانت محملة ببراميل مياه ضخمة، مرت أمامه فلم يتردد قفز فوق العربة وتوارى خلف البراميل، لم ينتبه سائق العربة لما حدث، أخذت العربة فى سيرها فانتهت من الطريق الرئيسى واجتازت بوابة الشرطة دون أن ينتبه لوجوده أحد، كان قلبه يرتجف من احتمال تفتيشها، لكنها مرت بسلام حتى ابتعدت بمسافة كبيرة فقفز منها. وقف على الطريق السريع وأخذ يشير للعربات، توقفت إحداها فركبها. أشعل سيجارة ونفث دخانها ببطء، أخرج الورقة المدوّن عليها تليفون الرائد وتسلى بقراءة الأرقام، عليه الاتصال به فور وصوله ليعرف منه ما الذى يفعله بعد ذلك، وضعها فى جيبه مرة أخرى وأغمض عينيه وراح فى النوم. لم ينتبه إلا حين وصلت العربة ميدان رمسيس.

(٦)

وضع سماعة التليفون وأخرج من جيبه خمسين قرشاً أعطاها لصاحب المكتبة ثمناً للمكالمة، لم تستغرق دقيقتين، قال له أنا يا فندم، فطلب منه الحضور فوراً، وصف له العنوان بدقة، فى الطريق إليه فكر فيما يمكن - يطلبه منه، كانت شقته تقع فى الدور السادس، العمارة ضخمة تطل على

من مباشرة، ضغط الجرس ففتح له، كان يرتدى بيجامة مقلّمة ويضع فى
 عنقه سيجارة، مد يده وسحبه إلى الداخل، أجلسه فى الصالة وجلس أمامه
 - نضعاً ساقاً فوق أخرى، تحدث ببساطة ولم تكن له رهبة الكتيبة قال: أنت
 عرف أنهم جاءوا وسألوا عنك بعد خروجك من مكتبى وقلت لهم ليس
 عنى جندى بهذا الاسم، أنا خدمتك خدمة عمرك، جاءت فتاة بصينية
 تسمى وضعتها أمامهما ووقفت، أشار إليها: المدام، هبّ واقفاً ومدّ يده سلّم
 عينا، كانت جميلة شقراء مثل زوجها، لكن فارق السن بينهما بدا كبيرا،
 عطاها عمراً لا يزيد عن العشرين، لفت نظره وهى تغادر، بنظرون
 لاستريتش المحبوك على رديها وساقياها الممتلئتين، تركه ودخل إحدى
 الحجرات، وركّز هو فى احتساء كوب الشاي وتأمل الشقة، كانت كبيرة،
 سات الجمال واضحة فى أركانها، ثلاثة أطقم أنتريه وضعت فى
 تريسيبشن، حوض أسماك كبير وضع على «أرج»، بعض أصص الزهور
 نباتات الزينة وزعت فى الأركان مع إضاءة منبعثة من أباجورات صغيرة
 حجم، عاد حاملاً عدة أوراق فردها على التراييزة، أمامهما، شوف يا
 سيدى، هذه التصميمات لعدة موديلات من البلوفرات، أريدك أن تنسخها،
 تعرف؟ أومئ بالإيجاب فأكمل: عندى مصنع بلوفرات صغير، وأريدك توزع
 نى على قدر ما تعرف، ثم تركه وغاب مرة أخرى، وعاد حاملاً عدة
 بوفرات موضوعة فى أكياسها، هذه دستة، وزعها وأحضر باكراً بالنقود،
 فاهم، فى طريقه إلى بيته فكر: هذا هو الثمن إذن، لا بأس، لن يعدم
 وسيلة فى بيعها، سوف يعرضها على أصدقائه بنفس ثمنها، ويعرض
 بعضها على حماته فهى صاحبة بوتيك ملابس، ابتسم وتنهّد، فقد أفلت
 من حياة الكتيبة والسجن وسخافات الجيش، أما التصميمات، فسوف
 يعطيها لأحد أصدقائه ممن يهوون الرسم، وإلى أن تحين إجراءات
 المحاكمة سوف يكون بائع بلوفرات فى مصنع يملكه ضابط فى القوات
 المسلحة له زوجة جميلة.

انحصرت علاقته بالجيش فى قائد كتيبة، وكانت مقابلاتهما تتم بانتظام فى منزله، يذهب إليه يومياً بالنقود التى باع بها البلوفرات، ويعود بأخرى جديدة، فى إحدى المرات قال له سيرحل اللواء كله لعمل مشروع ضرب نار ابتداء من غد، وأنا سويت حالتك لتكون هنا، ولكن عليك بالحضور كل يوم، وستعطيك المدام البلوفرات وتسلمها النقود .. مفهوم؟

فى اليوم التالى كان واقفاً يطرق الباب، وكانت هى التى فتحت له، بدت فاتنة بجسد أبيض يشع ضوءاً تحت روب حريرى أسود محبوبك، قالت: تفضل، لكنه لم يتزحزح وصعد الدم إلى وجهه فارتبك، تأملته لحظات قبل أن تغيب ثم تعود بالبلوفرات قال لها: غداً أحضر لسيادتك النقود، شيعته بنظراتها حتى غاب فى لفات السلم، فى الطريق إلى منزله فكر فيها، واستدعى فى نفس اللحظة أخرى تشبهها كثيراً، وظلت المقارنة منعقدة بينهما حتى انتصر لعفاف، الأكثر أنوثة وتوهجاً، لكن جمالها كان وحشياً بلا رتوش، أما رغبتها، فكانت مستعرة دوماً، تعرّف عليها عند أبيها، كان جاره، يذهب إليه ليلعبا الطاولة ويتبادلان الحديث، رجل عجوز وحيد تزوج ثلاث مرات وأنجب قبيلة، كانت عفاف ابنته الصغرى من زوجته الأخيرة. كل نسائه تركته وسافرن إلى الخليج ليعملن خادماً، حتى عفاف طلقها زوجها وسافر للعمل فى العراق فبقيت مع أبيها تؤنس وحدته كان كلم ذهب إلى أبيها وجدها تنظر إليه من فوق السرير الوحيد فى انجيرة، كان جسدها الممدد جميلاً وأسطورياً، واعترف لنفسه فيما بعد أنه لم ير أنثى أو ذقناً بمثل هذه الدقة والجمال، سرعان ما أخذت منه موعداً فى غفلة من أبيها، وتقابلا عدة مرات بالخارج، ورأى فى عينيها عطشاً لا يرتوى للحب، واتفقت معه على اللقاء فى انجيرة بعد خروج أبيها للعمل، لن تغرّ الباب وراءه، بل تتركه مفتوحاً فى السابعة والنصف صباحاً كان يدفّ الباب برفق، دخل وأغلقته وراءه بالترياس، ولا بد أنها نامت، فقد وجدته مغلقة العينين وممددة بكامل أنوثتها، عارية إلا من سوتيان وكلوت أسود .

سألت على جسدها الأبيض المحمر، صعد بجانبها وبدأ مداعبتها ففتحت
 سبيلها ببطاء كمن لم يفاجأ بما يحدث، بل تمطت وتشاءبت بإغراء، ثم
 خنته بين ذراعيها وسرعان ما اعتصرته في بدنها الملهوف، ظللا يمارسان
 حثيما حتى أحس بالإرهاك، أما هي، فقد كان جسدها يتلوى تحته ويشهق
 -- رغبة وهو يتلون ويتشكل بألوان الطيف، ولم تتركه إلا حين وثقت من
 ريته غداً في نفس الموعد، وبالفعل كان على باب حجرتها صباحاً هذه
 الية وجدها عارية تماما، ولم تكن نائمة، أخرجت منابع اللذة من مسام
 حسه، أرشدته إلى مكانها هي أيضا فظن صوت رغبته في أذنيه عالياً
 عمن أن الدنيا كلها سمعتها، ظل على علاقة بعفاف فترة طويلة حتى جاء
 جرد الذي فاتحته في أمر الزواج، فجبن وخاف، ممن كان خوفه؟ ولم تره
 بعدها أبداً.

حين ذهب إلى بيت الرائد حسب الموعد، فتحت له زوجته ودعته
 دخول، قالت قبل أن تجلس، أنا بأعمل الشاي، تشرب معي، أوماً موافقاً
 أخذ يتابع أسفل ظهرها ببيروزاته وتموجاته الرجراجة، كانت ترتدى جيباً
 نسيراً أسود على بلوزة بيضاء مفتوحة عند الصدر، وشعرها الأشقر
 ساب ناعماً فوق ظهرها وصدرها، أحضرت صينية الشاي وانحنت
 تصعها أمامه، هل كانت تتابع نظرات عينيه في تلك اللحظة؟ نظرت إليه
 بعسى شفيتها وضعت ابتسامة مبهمة، جلست في مواجهته وأخذت تصب
 شاي: محمد قال لي إنك متزوج صحيح؟ هز رأسه موافقاً فتابعته، من
 حكما الأصغر؟ هي.. عندها ثمانى عشرة سنة وأكبرها بست سنوات. أنا
 يضا مثلها، لكن محمد يكبرني بالكثير، عندي سؤال وتجاوبني بصراحة،
 قانت ووضعت كوب الشاي أمامه وترددت قبل أن تقول، واحدة صاحبتى
 تقول إن الرجال لهم.. أقصد يعنى أعضاؤهم هي أيضا طويلة جداً
 وانشغلت بتقليب كوب الشاي الموضوع أمامها، وشعر بها تنظر إليه من
 تحت لتحت، كان السؤال مفاجئاً فارتبك، وشعر بالدم يصعد إلى وجهه،

وأخرج من جيبه نقوداً وضعها أمامها، ومررت لحظات لم يعرف كيف يتصرف وبتلقائية وقف وقال بتلعثم: سيادتك تأمريني بأى شىء؟ وأحست بارتباكها فوقفت هى أيضا وضحكت: والشاى؟ قال وهو يخطو ناحية الباب بلهوجة، مرة أخرى، وكان يخرج حين سمع صوتها إسمع، البلوفرات لم تجهز، عد غداً الساعة الثامنة مساءً، طوال الطريق ظل سؤالها يدور فى ذهنه، كان يبحث عن معنى لما قالتها، امرأة جميلة تعيش حياة مترفة، ولها زوج وسيم له وظيفة محترمة، يملك سلطة ما، تترك كل ذلك وتنظر إليه هو الفقير المعدم، إن زوجها بكلمة منه يستطيع وضعه فى السجن، ما الذى يملكه ولا يملكه زوجها، وهل تحاول إغواءه بذلك السؤال؟ أسئلة كثيرة طرحها على نفسه، لقد تصنع عدم الفهم والخجل حتى لا يقع فريسة سهلة وما أدراه أنها وزوجها ينصبان له فخاً حتى يطمئنا لدخوله وخروجه، لكنه أيضاً شعر بالزهو وازدادت ثقته بنفسه، فإن له جسداً رائعاً تشتهيته كل النساء، ألم تتغزل فيه عفاف وهما على الفراش، قالت له: تملك جسداً مثل مانىكان، وذلك الطول الفارع، ولك عينان سوداوان واستعان وأهداب وحواجب لا تملكها أجمل امرأة من لحظتها وهو يتعهد جسده بالاهتمام الواجب نحوه، كان يتغذى جيداً، ونام جيداً ويمارس بعض الرياضة، شعره الأسود الناعم كان يسرحه ويفرقه عند منتصفه فيبدو وسيماً بغمازتيه اللتين لا تظهران إلا عندما يضحك، قال لنفسه يطمئنها: لا تتعجل الأمور يا فتى، ودع المسائل تجرى فى أعنتها، فمن يعرف؟

فى المساء ومع اقتراب الموعد، أخذ دوشاً ساخناً بعد أن حلق ذقنه ووقف أمام المرأة يتأمل جسده عارياً من خلف وأمام، وأخذ يتحسس برفق فسررت قشعريرة لذة فى بدنه، وأخذ عضوه بنبض مثل سمكة خرجت لتوها من الماء، كان مستثاراً وظل طوال الليل يحلم بهذا اللقاء، تخيلها على فراشه عارية تتلوى فى أوضاع مختلفة حتى الصباح، وتخيل لقاءهم.

الخطوة الأولى هل تكون منه؟ أم يدعها تبدأ هي، هل تلمح له فترمي الكرة في ملعبه، أم أنها بجرأتها تقوده مباشرة إلى الفراش، كان على يقين مما سوف يحدث.

كانت الساعة تعلن الثامنة تماما حين دق جرس الباب، بعد لحظات فتحت له ودعته للدخول، كانت ترتدى روبا حريراً أحمر أحببته على جسدها فلف قوامها وأظهر رشاقتها، ودهمته رائحة ياسمين مسكرة خطت برشاقة أمامه تقوده إلى الأنتريه فرأى رديها يرقصان طرباً، جلس وجلس أمامه واضعة ساقاً فوق أخرى فانفلتت من طرف الروب بيضاء ناصعة، ممتلئة وملفوفة، قالت: تشرب إيه، اقتربت منه ونظرت إلى بنطلونه، كان منتفخاً ومقبقباً فانفجرت شفتاها القرمزيتان عن ابتسامة إغواء، قالت: تعالي شوف مصنعنا الصغير، سحبته من يده إلى الداخل، كانت أصابعها طرية ودافئة استكانت في كفه الكبيرة، وبحركة بدت عفوية لمست عضوه فرأته صلباً قوياً، وسمع شهقة خافقة صدرت منها، أرتته حجرة صنع البلوفرات، ثم أخذته من يده فانساق وراءها مستسلماً، اتجهت به إلى حجرة نومها، أوقفته على حافة السرير والتصقت به، همست: أنا النهارده هافترسك، كان هو مستسلماً لها ومنوماً، ووقفت أمامه عارية، وعلا صوتها في استتارة كاملة وأخذت تخمش ظهره بأظافرها فاندفع إليها بكل رجولته، وشهقت شهقتها الأخيرة قبل أن ترتدى على صدره وتدفن رأسها في إبطه.

أفاقت بعد ربع ساعة فرفعت رأسها وقبلته، ودفنت رأسها مرة أخرى في صدره وهمست، يبدو أن كلام صديقتي عن الطوال صحيح، ضحكت وأردفت، الواحد ده للتجربة ما يتحسبش، وأخذت تدغدغ صدره وعنقه بشفتيها وأخذاً يتمرغان على الفراش حتى فرغاً وبدت هادئة بجمالها الارستقراطي بعد أن ارتوت، قالت: تعرف أن دي المرة الأولى من خمس

سنوات، أجمته المفاجأة فأكملت، نعم، محمود مالوش، وهو يعالج حتى الآن، بلا فائدة، قامت وأخذته من يده ووقفا تحت الماء الساحن سوياً، ذكرته بأمه وهي تدعك جسده وتدلّكه، ثم رشت عليه من عطر زوجها وهي تلبسه ملابسه وهمست له: اذهب الآن وتعالى غداً، فلن أتركك حتى أشبع منك.

لم يرغب في الذهاب للمنزل، وخطر بباله أن يجلس على الكورنيش قليلاً، كانت أضواء النيون المنبعثة من الفنادق والعوامات تتلألأ في مياه النيل المنساب برقة، وعجب لتلك السكينة التي تجتاحه الآن، تلك الحياة التي تاق إليها، حياة الناس الذين لا ينتمون إليه، الناس التي تعيش في أضواء الليل الملونة والنسمات الطرية المنعشة والسهرات الحمراء المعطرة، حياة تختلف عن حياة ناسه في الأحياء الشعبية، كان يعرف أن القاهرة تحيا حياتين، واحدة بالنهار، وتلك القاهرة العرقانين الذين يجرون صباحاً على أرزاقهم، القاهرة الازدحام وعادم السيارات والأتربة والغبار والعرق صهد الشمس، تلك القاهرة القاهرة، أما القاهرة الأخرى، القاهرة المعز، فهي أضواء النيون الملونة والأنفاس المعطرة وعربات المرسيديس ونساء يتحمن بالشمبانيا واللبن الحليب ويتمرغن فوق صدور الرجال، القاهرة رجال المال والأعمال والعوامات والشقق المفروشة وهمسات المومسات على أجساد عرب الخليج وأقدام الراقصات في شارع الهرم وعماد الدين وجامعة الدول العربية المغطاة بأوراق البنكنوت، والبارفانات الباريسية، إلى أيهما ينتمي الآن؟ إلى نساء ملوثات بمنى عشاقهن؟ أم إلى نساء ينتظرن أزواجهن وهم يحملون طعام العشاء، دائماً ما كان يقول لنفسه عند عبوره من حيه الشعبي العشوائى إلى الخارج والعكس إنه عبور بين حضارتين، حضارة تنتمي إلى الليل، هو يعشق الليل، الليل هو الشعر والموسيقى ورجال متخمون وعربات فارهة وفنادق تسهر حتى الصباح تراق فيها زجاجات الشمبانيا والويسكى ونساء جميلات عاريات وجوههن تضج

شهوة يتحمن بمنى عشاقهن وهمسات عاشقة وتأوهات الشبق على فرش ناعمة سابحة فى إضاءة خافتة، الليل فى حيه الشعبى هو الفضيحة الكاملة، هو عرى من لا يجد ما يستره، والنائم على لحم بطنه والارتداء على البلاط استسلاماً للنوم بعد يوم عمل شاق، هو رائحة العرق والأحنكة نجاعة والبحث عن مأوى، بينما الصباح هو الجحيم بعينه، أشعل سيجارة وأخذ نفساً عميقاً نفثه ببطء، ما هى خطواته القادمة، تلك المرأة جرتة فى علاقة لا يعرف مداها، إنها قبلة موقوتة من الشهوة لا ترتوى، ما مصيره إذا عرف زوجها؟ وكمن يشاهد فيلماً سينمائياً يشارك فى تأليفه أخذ ذهنه يعمل بشكل عجيب، أخذ يتخيل بعض السيناريوهات لما يمكن أن يحدث إذا اكتشف زوجها علاقتهما، وشعر بلذة الخلق وهو يتأمل تلك المشاهد:

المشهد الأول: يفتح الباب بالمفتاح، ويدخل عليهما حجرة النوم فجأة، يقف على رأسيهما ويراهما عاريين، يتابع ببصره مؤخرته صاعدة هابطة فى عرى زوجته، يخرج مسدسه ويفرغه فى جسديهما فيموتا .

المشهد الثانى: يخبره البواب بحضوره كل ليلة ومبيته حتى الصباح، يطرق الباب فتفتح له زوجته بالروب على اللحم، يتجه إلى حجرة النوم ويبحث عنه، يجده تحت السرير عارياً يخرجته ويسلمه إلى قسم الشرطة عارياً كما ولدته أمه .

المشهد الثالث: يقطع أجازته فجأة فيرجع رجوعاً مفاجئاً إلى المنزل، يخرج المفتاح، يبحث عن زوجته فلا يجدها، لكنه يسمع صوتاً آتياً من حجرة النوم، يتجه إليها على أطراف أصابعه، يدفع الباب فجأة فيجد زوجته عارية فى حضنه، يقف مندهشاً ومحملقاً فيهما، ينتبهان له فيجريان إليه يكتفانه وينهالا عليه ضرباً حتى يلفظ أنفاسه، يحملان أشياءهما ويغادران البلد إلى أوروبا حيث يتزوجان ويقيمان سوياً إلى الأبد .

المشهد الأخير: يقوم باستدعائه فجأة إلى الكتيبة، يوقفه أمامه، يزعم فيه: أنت متصور أننى لا أعرف ما تفعله، سوف ترى الآن عقابى، يأخذه من يده إلى السجن، يوصى عليه الجنود والحراس والمساجين بضربه ليل نهار، يذيقه من العذاب ألواناً، يقرر الانتقام منه فور خروجه من السجن، تنتهى مدة عقوبته ويخرج، يترصده حتى تحين له الفرصة، سوف يخطفه ويعلقه من قدميه ويمارس الجنس مع زوجته أمامه، سيجعله يستعطفه ويرجوه أن يتركه، ولن يتركه قبل أن يطلقها ويتزوجها.

وصل إلى بيته فوجد زوجته فى انتظاره، خاف أن تحس بعملته فافتعل مواضيع مختلفة، حدثها عن متاعبه مع الرائد، وأنه يعتمد إتعبه، يطلب منه المزيد من العمل، قال إنه طلب منه التأخر كل يوم فى منزله، وأنهم يعملون هو وآخرون حتى وقت متأخر، وقد يتطلب الأمر المبيت يوماً أو يومين لمضاعفة الطريحة، خاصة وأن زوجة الرائد عند أمها وتركته بمفرده، أخذت تحته على عدم الزهق، وأن يسمع كلام الرائد حتى ينتهى وتتراخى الغمة. كان يخاف من فراسة زوجته، حدثته يوماً عن جلسة جلسها فى بيت أحد أصدقائه، وصفت لها الشقة بما فيها وكأنها تعرفها أو كانت معهم، ولم يكن ذلك إلا حلماً رأته فى نومها، لقد صدقها ورهبها، ففراصة المحب الصادق لا تخيب، هكذا قرأ فى «طوق الحمامة».

(٧)

جلس على مقهى ، قريبا، من بيت الرائد وطلب شايأ أخذ يتأمل الوجوه من حوله، عادته كلما جلس فى مكان لأول مرة، كان قد اتصل بها حسب الموعد فقالت تعالى بعد ساعة، لم تشأ محادثته فى التليفون، بل أنهت المكالمة سريعاً، قال لنفسه هل يكون الرائد قد حضر، لقد شعر بتوتر فى نبرات صوتها، تلهى بشرب الشاي لا يدرى لماذا نظر خلفه فى تلك اللحظة، رأى شخصاً جالساً يتصفح الجرائد يرتدى بذلة وكاسكيتة فوق

رأسه، وتذكر أنه رأى هذا الوجه قبل الآن، وابتسم له، إنه مخرج شهير رآه كثيراً فى التلفزيون، ما زال فيلمه الأخير يعرض فى دور السينما. نظر إلى مرة أخرى فانتبه له وأحنى رأسه وابتسم، وبحركة بدت طبيعية طوى نجرائد وانتقل إلى جواره، مدّ يده فسلم عليه: على الدببىكى، طبعاً يا فنديم، المخرج الكبير، رأيت حضرتك فى التلفزيون، كذلك شاهدت ثلاثة أفلام، من إخراجك. هزّ المخرج رأسه وبدت على وجهه علامات دهشة: كده... تعرف أن وشك شدنى، كمخرج طبعاً، فوتوجينيك خالص ويسرق نكاميرا، ما فكرتش تمثّل؟ عراه الخجل ينظر إليه يكاد يأكله بعينه، لا، فى الحقيقة لم أفكر، دا انت وسيم خالص، طول بعرض ما شاء الله، شفت فيلمى الجديد، هزّ رأسه نفيماً فأكمل أنا عندى نسخة الماستر إذا تحب تشوفها، وممكن أتكلم معاك فى الشغل إذا تحب تشتغل سينما. إيه رأيك، شوفك بكره فى نفس المكان، والبيت قريب من هنا. نظر إلى ساعته فوجد الوقت حان، استأذن وانصرف مؤكداً على الموعد.

فتحت له الباب ولاحقته بقبلة طويلة، وقادته إلى حجرة النوم قال وهى تجلس أمام المرآة تضع البارفان بعد أن خلعت الروب: أسفة يا روى، كانت أخت محمد عندى لما طلبتنى، طلّت شفيتها بروج بنفسجى مثل لون القميص الذى ترتديه، ولما انتهت اقتريت منه وطبعت قبلة فوق رقبته ثم تركته وأشعلت له سيجارة ولها ووضعته فى فمه، طوقها بذراعه وأخذ يفرك حلمتها النافرة فوق القميص، قال انتظرت على مقهى قريب من هنا، تعرفى قابلت من، المخرج على الدببىكى، قالت: جارنا، عمارته جنب عمارتنا، ابتسم: وعرض علىّ العمل فى السينما وقال إن وجهى فوتوجينيك، ردّت باسمة: طبعاً يا حبيبى وشك فوتوجو، وضحكت بدلال: والمقطع الأخير اتركه لى. ضمته إلى صدرها وضغطته، وهمست تعرف، وأنا جنبك، باحس أن الدنيا دى كلها ملكى، وساعات أتمنى أن محمد

يختفى من الوجود ونفضل أنا وأنت وبس. لكن ساعات تانية أحس نحوه بالإشفاق والعطف، فالذنب ليس ذنبه، أرادت تغيير الحديث فقالت بتمثيل: ما رأيك يا سيدى عبدتك وجاريتك عادة تعزمك على قضاء يومين فى الإسكندرية، اعتدلت وتصنعت الجد، بص يا سيدى، محمد مش هايجى قبل أسبوع، والشقة بتاعتنا هناك فاضية، تيجى نعملها والنبى، أخذت تقبله بدلال، نفسى تبات معايا طول الليل وماسبنيش، أدهشتها موافقته السريعة حتى أنها ارتمت فوقه من شدة فرحها، وبدت كطفلة فى أشد حالات المرح. قالت: من بكرة، قال إن لديه موعداً مع المخرج غداً فى مسائل شخصية، وغمز بعينيها، خليها بعد بكرة، موافقة يا سيدى، ثم همست فى أذنه: يالله بأه عاوزة أشبع منك.

كان مواعده مع المخرج فى العاشرة مساءً، لكنه وصل بعد الموعد بنصف ساعة، ولدهشته، فقد وجده فى انتظاره، هبّ واقفاً فور رؤيته وسلم عليه بحرارة، اعتذر له عن التأخير فقال له ولا يهملك المهم أنك جيت، تحب ترتاح شوية ولا نمشى، أخذه من يده وسارا كصديقين قديمين حتى دلفا إلى عمارة، صعدا للدور الرابع حيث شقته كانت حقاً شقة مخرج فنان، ففى كل ركن فيها لمسة فن، قاده إلى أنترية وضع فى واسطه تلفزيون وفيديو على ترابيزة معدنية، تحب تشرب إيه، بص يا حبيب قلبى، أنا حبيتك من أول نظرة، عندى ويسكى سكوتش وبراندى وحشيش، هزّ كتفيه أى حاجة تركه ودخل المطبخ أحضر كأسين وزجاجة ويسكى وقطعة حشيش أخرجها من ورقة السلوفان وأخذ يهرسها بأصابعه حتى لانت، وضعها فى سجائر وأشعلها، كان سعيداً فهتف: بص بقى، ليسقط فيلمى الجديد، أنا عندى فيلم لازم أرجعه بكره، ما تقولش لعدوك ضغط أزرار الريموت فظهرت الصورة لفتاة عارية، مضت نصف ساعة شاهدا خلالها عدة أفلام قصيرة، وشعر بدوار من تحت تأثير الحشيش والويسكى، أحس

به فقال: إيه.. مالك، عملت دماغ، ضحك بلا معنى وهز رأسه، تسمحلى أحط رأسى على حجرك، أنا داخ زيك، انتبه للحظة أن شيئاً يحدث، وفى اللحظة التالية كان المخرج يقوده إلى حجرة نومه ولدهشته، فقد أطاعه وسار وراءه منتصباً ومهتاجاً.

(٨)

فى الصباح الباكر كان واقفاً داخل محطة القطارات تحت الساعة، ولم يطل انتظاره، فقد لمحها قادمة برشاقة وقد ارتدت قميصا وبنطلونا أظهر رشاقتهما وجمالها، حمل عنها حقيبتها وسارا فى اتجاه قطار الإسكندرية، كانت تضع على عينيها نظارة سوداء أضفت جمالاً على بشرة وجهها البيضاء، وتذكر نادية لطفى فى فيلم النظارة السوداء فابتسم. جلست ملتصقة به وأخذت كفه فى كفها فأحس دفئها. قال: ماذا أحضرت فى الشنطة؟ قالت بدلال: لم أحضر معى شيئاً، فقط ملابس داخلية وشوية قمصان نوم، أصل نويت أجننك، ومالت عليه وهمست: وهاجننك. لست فى حاجة لقمصان النوم حتى أجن، ثم أنك ترتدينها كى أقوم بخلعها لك، فما الداعى لارتدائها إذن، ضحكا وكانت تنظر إليه بافتنان وامتزج عرق يده بيدها واستلقت برأسها على كتفه وأغمضت عينيها وأحس أنفاسها حارة ومعطرة تلفح وجهه، أشعل سيجارة وأخذ يرقب الطريق خلف الزجاج الشفاف، إلى أى شىء يؤدى هذا الانسياق وراء تلك المرأة؟ يترك زوجته ويسافر فى طريق لا يعرف نهايتها، وماذا لو عرف زوجها، فإن مصيره معلق بيديه، هز رأسه بعصبية، كأنه يؤكد لنفسه أنه مسير فى هذا الطريق، لو لم يخضع لرغبتها فمن يدرى ماذا كانت ستفعل، كانت ستفجر فى وجهه وتحطم مستقبله، يكفى أن تلتفق له عند زوجها فيجره إلى السجن، أما الآن، فإن قدرته على إشباع تلك الرغبة الجامحة تجعلها طيبة بين يديه تتمنى له الرضى يرضى رغم فارق الوسط الاجتماعى الذى

يعيشه كل منهما، فى بعض الأحيان يشعر بضآلة نفسه أمام استسلامه لها، لإشباع رغبتها التى لا ترتوى، قالت له ذات مرة وهى بين ذراعية إنها تريد أن تشربه، وكانت ذلك بالفعل، فهى تمتصه قطرة قطرة وبيبطة، والآخر الذى قابله بالأمس، لقد امتصه هو الآخر، استغل انبهاره به، وبالعالم السينما، وربما سذاجته، وقاده إلى الفراش، رغم أنه أبعد ما يكون عن الشذوذ، لكن يكفى السقوط مرة واحدة، والانحراف من أعلى ببطء شديد والاستمرار فى السقوط، الاقتراب من الأرض سوف يأخذ وقتاً، لكنه حتمى.

ظلت نائمة حتى توقف القطار فى محرم بك، أيقظها ونزلا وأخذا عربة إلى المعمورة، كانت الشقة لها مدخل خاص على البحر مباشرة، تركها ونزل يشتري طعاما لهما، عند رجوعه، فتحت له فتسمر فى مكانه، كانت خارجة من الحمام ترتدى غلالة حمراء شفافة وقصيرة شعرها المبلول منكوش والماء يقطر منه، أمسك خصرها وضمها إليه، همست له: هاتتبل لكنه التصق بها أكثر وطرحها على أرض الصالة، قالت: مش قلت لك هاجنك، بس أنت تسرعت، دانا كنت عملا لك سيناريو يجنن، أسند رأسه لكرسى فوثيه وأشعل سيجارة، وأخذ يتنفس ببطء، وغمزت له: جسمك كله اتبل، هاتخذ برد كده، مدّ يده ودسها فى فخذيها وضحك كله يهون عشانك، قامت تسوى نفسها فأخذ يتابعها، تلك المرأة شحنة متفجرة من ديناميت الرغبة تشتعل ذاتياً فى أى وقت، ربما كانت الآن فى نظره أجمل امرأة فى الدنيا، أجمل حتى من عفاف، تبعها إلى الداخل وجلس على حافة السرير بينما كانت تسرح شعرها، إسمعى يا غادة، إيه رأيك أسيب مراتى وتسيبى الرائد ونتجوز، ممكن نعيش فى أى بلد عربى، حدثته من خلال المرأة: أد كده بتحبنى، قامت وخطت نحوه ودفعته بيدها فى صدره فوق فوق السرير ووقعت فوقه وهمست وشفثتها تدغدغان عنقه، وأنا مخلياك عايز حاجة يا حبيبي، أنا ملكك أهو أعمل اللى أنت عايزه، ثم أن الوضع كده

عن محمد يدفع، وأنت جوزى وحبیبی، وحتى لو عرف فلن يطلقنى،
حس يحتاجنى بجانبه، ديكور فى بيته وأمام أصدقائه، بس أنا خايفة لما
حس موضوعك ماشوفكش، لف ذراعه حولها وعصرها فى جسده، دا
- تحت مدمن غادة. همست: يا حبيب غادة.

عد عودتهما، وجد المخرج على الديكى قد اتصل به وترك له رسالة،
عده موعداً فى وسط البلد فى فندق شهير فذهب إليه، وجده فى
غذره، ورحب به بلهفة وقال له: وحشتنى، أنت سافرت ولا آيه، طب مش
ترى. حدثه عن ليلتهما، وأنها كانت رائعة، نظر إليه: أتمنى أنها تتكرر،
حس بالغثيان من حديثه وأراد أن ينهيه فقال: إسمع، أنا لا أنتمى لعالمك،
ست شاداً، بل أحب النساء ولا أستطيع تكرار ما حدث، انفع المخرج
عبر الغضب بين عينيه: يا حبيبى أنا فنان، والفنانين لهم عالمهم الخاص،
بعض نزواتهم، ودى ضريبة النجاح، حدثه عن مخرج كبير آخر يفعل نفس
- يعمله، وعن كاتب سيناريو شهير، ومذيع لامع، وكثيرون من الوسط
على والأدبى ولا أحد يدينهم، ثم هل رأيت الفيلم الأخير للمخرج إياه، إنه
تاريخ لعلاقاته الجنسية مع الشباب، كان يوغل فى صمته، بينما الآخر
يحاول إقناعه، وشعر بالملل فاستأذن وانصرف على وعد بلقاء آخر، كان
بم أن هذا آخر لقاء معه، وأن عليه تجنب الأماكن التى يتواجد بها.

اتفقت غادة معه على أن تدفع هى ثمن البلوفرات التى يأخذها منا،
كنت له لا تتعب نفسك، خذها واركنها عندك ولا تشغل بالك، وسوف
قول لمحمد أننى آخذ منك ثمنها، كانت تعطيه ما يحتاجه من نقود، فى
- -ئ الأمر رفض، وكانت هى تلح عليه، اشترت له ملابس على ذوقها
خاص وتصرت أن يرتديها أمامها، تقول له: أريدك أنيقاً دائماً، فى إحدى
رات أهدته سلسلة ذهبية فأعطاهما لزوجته وأخبرها أنه اشتراها
حصيصاً لها، أراد إرضاء زوجته بأى طريقة، إحساسة بالذنب إنه مع

الأخرى دائماً جعله يتلمس رضائها، أما عادة، فما كانت تتركه لنفسه لحظة، تشرب رحيقه طوال الوقت بلا ملل دون ارتواء، وشعر بأنه غير طبيعي من تلك الرعشة التي بدأت تصيب أصابعه وذلك الألم فى مفاصله، ذكره ذلك بزمن مضى، فهو يعرف تلك الحالة، كان وقتها فى الإعدادية، وكان الوقت صيفاً، وشقتهما الصغيرة تفتح ناراً فيطلع إلى السطوح يذاكر حتى الصباح، فى الجهة الأخرى من السطح سكنت حديثاً امرأة تدعى خيرية كان زوجها صولاً فى الجيش ولاعب كمال أجساد يدعى شوقى، كان شوقى طويلاً عريضاً بارز الصدر والعضلات، أما هى فكانت شابة صغيرة الحجم ولها أرداف بارزة مستديرة، كان زوجها يمكث فى الجيش خمسة عشر يوماً ومثلها فى البيت، رآته سهراناً يذاكر أمام باب شقتها، قالت له: ممكن أطلب منك طلب،. تصحيني الساعة خمسة الصبح، فى الخامسة صباحاً كان يدق بابها، كرر الدق عدة مرات، ولما له ترد دفع الباب بيده فانفتح، ورآها نائمة فى الصالة على مرتبة اسفنج عارية إلا من كلوت، باقى جسدها كان مكشوفاً أمامه منتصباً وراءه ورأى شعر أبطيها وعانتها أسود ناعما، تصبب عرقاً وشعر بدغدغة بين فخذه ولم يدر ماذا يفعل، رجع إلى الباب ثانية وأخذ يدق عليه بقبضته تململت وقامت نصف قومة وأمرته بالدخول، رفض فألحت عليه ورفض قامت وفتحت الباب، قلت لك أدخل متخافش مش هاكلك، رآته يتطلع إلى صدرها العارى فضحكت: مكسوف، طب استنى، دخلت ارتدت روبر وعادت إليه مرة أخرى، خطأ داخل الشقة وأحس بقلبه يرجف بينما توتر ما بين فخذه، ازداد، أنا سايبه الباب مفتوح على حسك وعشان تدر تصحيني، أصل شوقى فى الجيش، تلاقيك يا حبة عيني تعبت من المذاكرة والسهر، كان صامد يحتضن كتابه فوق صدره، سحبته من يده إلى حجرت النوم، بص بأه، أنا عاوزاك تفرد ظهرك وتريح شوية، مافيش حد هنا جاءت بزجاجة برفان، دى بأه هاتنمشك، فككت قميصه ووضعت له تحت

بطيه وفى وجهه وصدره وكانت يدها تزيد توتره، وضعت هى الأخرى خلف أذنيها وتحت إبطيها وبين فخذيها، وأخذ العرق ينز من جبينه بينما ندم اندفع إلى عروق رقبتة ووجهه ضحكت انت ماشفتش واحدة قالعة قبل كده؟ هز رأسه نفيًا فاقتربت منه وتحسست صدره، يعنى أنا أول واحدة تشوفها، أوماً بالإيجاب، والنبي باين عليك خلبوص وهارى البنات، طب إيه رأيك فيا، باين مش عجيباك، رفع رأسه ونظر إلى صدرها منتصب أمام وجهه يكاد يلمسه، أخذت يده وضعتها فوقه، ومدت يدها فجأة وأمسكت ما بين فخذه فأجفل وصار يرتعش، وأخذت تمرسه بأصابعها حتى أصبح مثل وتد، سللت بنطلونه وأدنته من فمها وأخذت تعتصه ثم انطرحت فوقه، وصرخ لذة ونشوة، وضعت يدها على فمه حتى هدأ الاثنان، عند الباب همست له: لا تقل لأحد ما حدث، دا سرنا أنا زُنت بس، أنت الآن رجلى وحبيبي وكل يوم تصحيني فى نفس الميعاد، وفى كل يوم كان يقول لأمه أنه ذاهب للمذاكرة فوق السطوح، وفى كل يوم ينام فى شقة خيرية حتى آدمنها. فى الأيام التى يأتى فيها شوقى كان يشعر بالاكئاب، وكان ينظر فى الكتب بالساعات دون أن يعي شيئًا، وأحست أمه أن تغيراً ما حدث له، بدأ يهزل ويصاب بأنيميا، كما أنه أصبح شاردًا - ثما، تتبعته فى إحدى المرات، وعرفت أين يذهب وبحكمة، طلبت من خيرية ترك المنزل بدلاً من الفضيحة والشوشرة، وتركت خيرية الشقة بهدوء، وذهب هو إلى المستشفى يعالج من آثار خيرية، لكنه لم يسلم أيضاً عن عبث الممرضات، كان ابن عمه يحضر إليه بعض المجلات وكتب نغامرات للتسلية، فيجلس بالساعات يقرأ من شرفة العنبر بينما نمرضات الصغيرات يتقافزن حوله يعابثته، فى الليل كانت إحدهن فى نوبتجية، صغيرة وجميلة، عند مرورها رآته جالساً يقرأ بينما الجميع ينام، ابتسمت وقالت: بتقرأ إيه؟ مد يده بالكتاب فقرأت عنوان الغلاف، خذنى بعارى للمؤلف عزيز أرمانى، هزت رأسها: لا يا خويا دى قصص قلة

أدب، أنا بحب قصص إحسان عبدالقدوس، عندك منها، أخرج من درج الكومدينو مجموعة قصصية لإحسان بعنوان «شفتاه»، قالت له تعالى أجلس معي نقرأها سوا، دخل معها حجرة الممرضات، لم يكن هناك غيرهما، جلس على تروللي الكشف بينما جلست تحت قدميه على كرسي وأخذ يقرأ لها، كانت القصة تحكى عن علاقة حب بين ولد و بنت انتهت إلى الفراش، أنصتت إليه مغمضة العينين، وفي لحظة ذروة القصة، وضعت يدها فوق فخذه تعابثه، وأمسكت يده وأمرته أن يدسها بين فخذيها ويفعل ما تفعل، وسمع صوت تأوهات بينما ارتكنت بظهرها على الجدار مغمضة العينين، وفكت أزرار البالطو الأبيض ثم القميص وأخذت تداعب صدرها، وكان جسدها ينتفض ويتقلص هو ووجهها، وشهقت وكأنها فى النزاع الأخير، ثم أخيرا تراخى جسدها فسحب يده وقد تبلت أصابعه بلزوجة منيها، كانت توظفه من النوم ليقوم بمداعبتها بيده فتؤجج ناره ولا تسمح له بأكثر من ذلك. وامتنع ذات يوم فتذللت إليه وقالت إنها تخشى أن تفض بكارتها، لكنها سمحت له بأن يضعه بين فخذيها فقط. وفي ذروة هياجها همست له بأن يخترقها، ولكنه تراجع لا يدري لماذا. وأحس بالقوة لانتصاره على نفسه، بعد خروجه من المستشفى تحاشى أن تقع عينه فى عين أمه، وهى بدورها لم تحدثه عن شىء، اكتفت فقط بأن ربتت على ظهره ونظرت إليه مبتسمة: والله كبرت يا جمال وبقيت تعرف تحب، قالتها بفخر أم كبر ابنها فجأة وأصبح رجلاً.

فى المساء، اتصل بغادة، همست له فى السماعة، محمد هنا، ثم انقطع الخط فجأة، حدثه قلبه بكارثة، ربما عرف بما يحدث، هل باحت له فى لحظة ضعف؟ هل رآهما أحد معاً فأخبره؟ لماذا قطعت الاتصال فجأة؟ لا بد أن شيئاً قد حدث، وما الذى يفعله الآن؟ هل يذهب إليه وكأنه لا يعرف شيئاً أم ينقطع عن الزيارة ويهرب بجلده. ألم يوصه بزيارتها كل يوم فإذا انقطع فجأة فقد يشك فى أمره. فتح له الباب ونظر إليه بعينية

خضرواين وابتسم: أهلا بالأستاذ، تفضل، قاده إلى الداخل وأجلسه فى لانتريه، حمدالله على السلامة يافندم، قال ونظر إليه من تحت لتحت عله يقرأ شيئاً فى وجهه، لكنه كان هادئاً مبتسماً، عادة حكمت لى على كل اللى تعمله، وقع قلبه بين قدميه رعباً، ما الذى حدثته عنه، هل قالت له على كى شىء؟ دى بتشكر فيك قوى، آه، تنهد من القلب، وشعر بارتياح مفاجئ، شكراً يا فندم، ياللى النساء الأبالسة، قال لنفسه وأخذ يبحث بعينه عنها، ولايد أنها سمعت صوته، فقد جاءت بدلال، سلمت عليه وجلست على حرف الفتويه الذى يجلس عليه زوجها واتكأت بيدها على كتفه: أنا شكيتك لمحمد، تصور، الأستاذ يفضل واقف على الباب وما يدخلش، ردّ محمد: ما أنا عارفه، أصله بيتكسف، وأخبار البلوفرات إيه، قالت عادة تصور يا محمد باعها كلها وادانى الفلوس، قام محمد فانتهزت الفرصة ونست ورقة فى يده ثم تركته ودخلت هى أيضاً، عاد وفى يده بلوفرات أخرى: بما أن كل البلوفرات اتباعت أنا هازود السعر خمسة جنيه، وعلى فكرة أنا جاي أربعة وعشرين ساعة وراجع تانى المشروع، وعاوزك تجينى وتجيب معاك الفلوس، استأذن وانصرف سريعاً، تنهد بارتياح، فقد مرّ لقاءً بسلام وتبددت مخاوفه، تحسس الورقة التى أعطتها له فى جيبه، وفور عودته للمنزل فتحها وقرأ:

حبيبى.. جاء محمد فجأة وعلى غير انتظار، محمد سألنى عنك فقلت نك تجىء كل يوم وأنك تقف على الباب وتأبى الدخول، محمد سيعود غداً نى العمل فانتظر يوماً وتعالى لأضمك إلى صدرى، واعمل حسابك تبات عندى قبلاى الحارة.

لم تكن الرسالة تحمل توقعها، وعدّ هذا من علامات ذكائها، فإنها تخشى أن يستخدم ضدها فيما بعد، من بين الناس اللواتى عرفهن، كانت عادة أكثرهن ذكاءً وحيوية، متفجرة الأنوثة وعلى استعداد لممارسة الحب

في أية لحظة، ربما كان الحرمان الذي تعانیه له دخل في هذا، سألتها مرة لماذا لم تطلب الطلاق منه، قالت إنها طلبت منه في لحظة يأس، ودهشت لرد فعله، فقد انفجر باكياً ودفن رأسه بين ركبتيها، قال لها تطلب أي شيء وتفعل أي شيء، ولكن لا تتركه فهو يحبها ولا يستطيع العيش دونها. لحظتها شعرت بالإشفاق له، بل ضمته إلى صدرها وأخذت تبكي معه، من وقتها، يلبي كل رغباتها ويتركها تفعل ما يحلو لها، وهذا ما كان يطمئنها بعض الشيء حول رجود فعله إذا عرف علاقتهما.

في الصباح الباكر، حمل حقيبة هاندباج وركب إلى محطة القللي. استقل عربة بيجو ذاهبة إلى السويس، وعند الكيلو ٥٣ أشار للسائق بالتوقف ونزل واتجه إلى الصحراء، لمح عدة خيام متناثرة في عمق الجبل فأدرك أنها قيادة اللواء، اتجه إليها وسأل عن كتيبته، لمح جندي المراسلة الخاص بالرائد فسلم عليه وأشار إلى خيمته، لكنه ذهب إلى الجبل الآن. فهناك مشروع ضرب نار يحضره قائد المنطقة المركزية، ثم أكمل،، ممكن تنتظره في الكانتين لحد ما يرجع، طلب شايًا وباكو بسكوت وجلس وأخذ يتسكع بعينيه في أرجاء المكان حتى تجاوزت الساعة الثانية ظهرًا حين أحس بحركة غير عادية فعرف أنهم عائدون، غادر الكانتين وقف أمام خيمته ولمحه آتيا في عربة جيب مفتوحة، تقدم منه فسلم عليه فأخذه إلى خيمته، هنا من أمتي؟ من الصباح يا فندم، جبت الفلوس هز رأسه وأخرج من جيبه العلوي لفة أوراق نقدية أعطاها له، لو يعلم أن زوجته هي التي أعطته هذه النقود! شوف، المشروع ينتهي بعد بكره، أنت تنزل دلوقت ومتنساش تعدي على المدام تشوفها عايزة إيه واتصل بي بعد بكره في البيت، يالله مع السلامة.

عند عودته لم يمر على منزله، بل اتجه رأسًا إلى منزل الرائد، ضغط الجرس ففتحت له وعند الباب قبلته، وتعجب لجرأتها، جيت بدرى عر

نير العادة، كنت فين؟ تساءلت وجلست على ركبتيه وأخذت أصابعها
 نعب شعره بينما أنفاسها المعطرة والحارة تلمح رقبتة، كنت عند الرائد
 نى المشروع، وأوصانى بك وأمرنى بالمرور عليك، ضحكت ودفنت رأسه فى
 نسرهما بمرح. بجد، وأنت جيت تعمل بالوصية طب يالله قوم أوصنى حتى
 نبع، أنا هاطلب منك طلب، أأمرنى يا روى. عايز أنام ولو ساعة واحدة،
 نشوار هدنى، وعلى فكرة المشروع ينتهى بعد بكرة ومفيش قدامنا غير
 نيلة، ولا يهملك سنتصرف، سكة غادة كلها مسالك، قالت وقادته إلى
 نحجرتها فأنامته وقبلته: مش هاأزعجك، نام براحتك لحد ما تشبع، وراك
 ننا لحد الصبح، وكان بالفعل يشعر بالتعب فأغمض عينيه وراح فى النوم،
 ن من الوقت مضى، لا يدرى، لكنه أفاق فشعر بها تلتصق به ويدها تعبث
 ن من تحت الملاءة، همست صح النوم يا حبيبي، كفاية عليك كدة، كانت
 نرية تماماً وجردته من ملابسه، وأراد أن يقوم ففردت ذراعيه وصلبته
 نبيها وانطرحت فوقه وأخذت ترهز حتى غابت عن الوعى، وصرحت
 نرختها الأخيرة قبل أن ترتدى على صدره ساكنة.

(٩)

مرّ يومان قبل أن ينتهى المشروع ويعود الرائد محمود إلى منزله، كان
 نغم بوصوله فاتصل به مساءً، وقال له لا تجهد نفسك بالمجىء الليلة،
 نصاه بتسليم نفسه إلى الكتيبة صباحاً، فقد جاء أمر من المحكمة
 نستدعائه، وضع السماعة وأشعل سيجارة، غداً يبدأ الشقاء، وأمامه اليوم
 نخط، فقد يحتجزونه من الغد، ولم يدر لماذا تذكر زوزو فجأة، سوف
 نضربها الآن، ألم تقل له أطلبنى فى أية لحظة، عرفته من صوته فقالت
 نهفة، أركب تاكسى على حسابى وتعالى فوراً، العنوان معك ما يتوهش،
 نن البيت يقع على ترعة المريوطية، ولم يجد صعوبة فى التعرف عليه،
 نرجدها فى انتظاره على باب الشقة، ضغطته فى صدرها وقبلته، كانت

أكثر جمالاً من المرة التى رآها فى معسكر الشرطة، قاداته إلى حجرة بها مقاعد عربية، جلس على الأرض وجلست أمامه خرجت امتى؟ سألته ولم تنتظر إجابته فأردفت: حمدالله على السلامة، دى مفاجأة بمليون جنيه، معقولة لسه فاكرنى، كانت المرأة التى عرفها فى الحبس قد تلاشت الآن، أما التى أمامه، فهى أخرى أكثر جمالاً مما كان يظن، ترتدى ملابس غالية وصاحبة ذوق رفيع وتتبعث من جسدها رائحة بارفان غالى الثمن ولديها خادمة تحمل طفلها، قالت إنها منذ أن خرجت والزبائن ما عادوا كما كانوا، يخشون المجيئ إليها خوفاً من حدوث كبسة، فالشقة أصبحت معروفة لدى شرطة الآداب، كانت الفضيحة بجلاجل حين أخرجوا ستة رجال بنسائهم ملفوفين فى الملاءات والدنيا كلها تفرجت على المنظر، لكنها تعتمد الآن على الزبائن القدامى لأنها تقدم إليهم بضاعة مثل طابع البوستة مضمونة ومقفولة بختم ربه، ترحمت على الصيف وأيام الصيف حين يجىء العرب ويجعلون الدنيا تزدهر، أما الآن فإنها تفكر فى بيع الشقة والانتقال إلى مكان جديد لا أحد يعرفها فيه فربما رجعت الأوضاء مثل الأول، حدثته كصديق قديم عن حياتها منذ أن كانت صببية فى الثانية عشرة، وكيف كانت تذهب وراء سيدتها التى كانت تعمل لديها تحمل له حقيبة بها سجائر ومناشف، وكان الزبائن يضاجعون سيدتها أمامها، تذكر ذلك اليوم حين اتفقت سيدتها مع أحدهم وقبضت ثمنها وأمسكتها له ارتعابها من منظر الدم المراق على فخذيها والآلام المبرحة التى لازمتها طويلاً، لكنها عاودت الكرة تحت ضغط الحاجة، وسرعان ما اعتادت ذنوب الأمر، ماتت سيدتها بعد أن عرفت منها أصول الصنعة، كانت هذه حقيقية تعرف كيف تعمل بشياكة ودون تبذل، تقول أهم شىء الواحد: تحافظ على البرستيخ بتاعها وتكون عزيزة النفس بدون وضاعة، وأهم من كل ذلك، كانت لها صلات سياسية، تقول: بدون صلات سياسية يصعب عمك خطراً ولا تساوى شيئاً فهى التى تحمى وتجعل للواحدة ظهراً تعتمد

عنه، سألته فجأة:، ويتعمل إيه دلوقت؟ هز كتفيه وقال إنه لا يفعل شيئاً، وأنه فى انتظار محاكمة عسكرية ولا يدري ماذا يحدث فى الغد. نظرت فيه وسرحت للحظة وسألته: ما تفكر تشتغل معايا، ضحك، ودهمه السؤال فرتبك. أعمل إيه؟ معايا، أنت جسمك جسم مانىكان، طول بعرض، وسيم، رشيّة، وتدوّخ أيه واحدة، فكر أنت بس وأنا أخليك تاكل الشهد. اعتدلت وتخذت شكلاً جاداً وهى تتحدث، وجلس صامتاً مبهوراً بما يسمع، حدثته فقالت إن المهنة تطورت بشكل سريع ومخيف مع تطور الحياة، دخلها كمبيوتر وشبكات الأنترنت والموبايل وأفلام الفيديو وحتى شرائط نكاسيت، حتى الأماكن تغيرت، فبعد أن كانت فى شارع عماد الدين وكلوت بك والكيت كات ومحمد على وعوامات النيل، أصبحت الآن فى شارع الهرم وجامعة الدول العربية، النوعيات أيضاً تغيرت فدخلها فتيات أرسقراطيات وسيدات مجتمع علاوة على الراقصات والممثلات الشهيرات حتى أن إحداهن وصل أجرها عن ليلة واحدة ثلاثين ألف جنيه، لم يعد شارع الهرم منطقة جذب للسياح كما كان من قبل، بل القرى السياحية الجديدة فى شرم الشيخ والبحر الأحمر والساحل الشمالى، أما العرب الكحيتى، فهم يذهبون الآن إلى جامعة الدول العربية، وقد ازدهر الشارع فانفتحت مطاعم جديدة للوجبات السريعة مثل كنتاكى وصب أوأى وتيك أوأى وومبى وغيرها وأضواء ملونة لا تنطفئ طوال الليل، ومبى مثلاً تكونت حوله حلقات من وجبات الجنس السريعة، والعرب يذهبون إلى هناك، الرجل يلتقط ما يحلو له من فتيات وليست هناك مشكلة، فمأسرة الشقق المفروشة متواجدون هناك أيضاً ويؤجرون الشقة بالساعة، كذلك النساء يلتقطن ما يروق لهن من الشباب، لكل هذه الأسباب فهى تفكر بالانتقال لجامعة الدول العربية، فهى المستقبل المزدهر لهذه المهنة.

لم يكن مندهشاً لما تعرفه من معلومات عن مهنتها، كان يعرف أكثر من ذلك فقد قرأ مرة تقريراً عن سوق الدعارة أو تجارة الجنس، ويعرف أنها

أكثر انتشاراً الآن برغم تحريمها، مما كانت عليه قبل الثورة، ويعرف أيضاً أن الشواذ من الجنسين لهم أماكن تجمع معروفة، وأن بعض الكبار يملكون شققاً يؤجرونها مفروشة ولا أحد يجزؤ على مهاجمة هذه الشقق، فهي محمية، وأنه في السبعينيات تطورت الدعارة ووجدت لنفسها ثغرة في القانون، فتدفقت فجأة وفود العرب على قرى بعينها وأحياء شعبية فقيرة للزواج العرفي أو بعقد، من فتيات صغيرات لمدة تتراوح بين أسابيع أو أشهر حسب الاتفاق نظير مبلغ يدفع للأهل، وكان الاتفاق مريحاً لكل الأطراف، فالأسرة الفقيرة التي لا تملك قوت يومها، لكنها تملك فتيات مثل ورود صغيرة لم تتفتح بعد، وجدت نفسها تستطيع العيش قليلاً عن طريق بيع بناتها نظير حفنة دولارات، أو ريالات، والعرب الباحثون عن المتعة الآمنة، وجدوا أنها طريق سهلة غير مكلفة، فهم يستطيعون التهام جسد بكر جميل طوال فترة إقامتهم دون دفع مصروفات إضافية بدلا من فتيات الليل الجشعات، ثم أنهم مسلمون فلا بد وأن يكون كل شيء حسب الشريعة الإسلامية، وبذلك يكون قد كسب الدنيا والدين!

كان عرضاً صادقاً وحماسياً، ونظر إلى ساعته وهبّ واقفاً: ياه، الوقت سرقتنا، إحنا لسه قعدنا، أنا عازمك على السهرة عندي، قالت وابتسمت وببلاش يا سيدي، إيه رأيك؟ اعتذر معللاً بأنه يجب أن ينام مبكراً ليصحو فجرًا للذهاب للكتيبة، عند الباب صافحته وضغطت على كف يده: أنا تحت أمرك في أي وقت، الزيارة دي ما تتحسبش وهستناك مرة ثانية. وعلى فكرة، فكر في اللي قلته، نحط إيدينا في إيد بعض ونشتغل سوا.

الفصل الثالث

المحاكمة

(١).

كانت إجراءات بدء المحاكمة مملة وكئيبة، ففى الثامنة صباحاً، يذهب إلى المكتبية لاستكمال الأوراق، ثم يصطحب مندوباً خاصاً عينه الرائد عرفقاً له إلى المحكمة، فيقف فى طاوور طويل يكاد لا ينتهى لمجرد توقيع ورقة أو السؤال عن بعض الإجراءات، واستمر ذلك مدة أسبوع، وأخيراً حدد موعد المحاكمة يوم اثنين بعد اسبوعين، وأراد الرائد محمد إراحته مرفقاً من بيع البلوفرات حتى يتفرغ للإجراءات فاقتصررت مقابلته له فى مكتبية ولم يعد يذهب إليه فى المنزل، كذلك لم يعد يرى غادة زوجة نرائد، فى آخر مرة ذهب إلى المحكمة، قابل شاباً فى أحد المكاتب، ضابط برتبة نقيب، تعرف عليه على الفور، إنه أحمد سامى زميل الجامعة هو لم يعرفه، لكنه عرفه على نفسه فاحتضنه وقبله، كان معروفاً فى الجامعة وجميع يتوددون إليه، وكان أحمد أحد الذين يتوددون إليه متمنياً أن يصبح من شلته، فى ذلك اليوم، أصرّ على توصيله بعربته، وفى الطريق عرف حكايته، كان أحمد يقترب بملامحه من الفتيات، التقاطيع الدقيقة وئشعر الأسود الناعم والعيون السود الواسعة مع ميوعة فى حركاته وكلامه، وكانوا يطلقون عليه اسم شادية لأنه يرسل شعره على جبينه فيشبه قصة شادية الشهيرة، أما الآن، وقد أصبح نقيباً ونائباً للأحكام فى

المحكمة، فقد حلق شعره واتسمت نبرات صوته بالشدة بعض الشيء، قال له: لماذا لم تتصل بى، كنت حلت لك هذه المشكلة ببساطة من الأول، أما الآن، فلا بد من المحاكمة، على أن المسألة تتطلب تكتيكا من نوع آخر، أعطاه موعداً فى أحد مقاهى وسط البلد، وفى المساء، كان يجلس على المقهى فى انتظاره، ولم يتأخر، سلّم عليه وجلس لجانبه وأخذ يتحدث: شوف يا سيدى، الحكم الذى يناله شخص فى حالتك وظروفك هو ثلاث سنوات مع الرفق من الخدمة. صمت وتطلّع إليه قليلاً ثم أضاف: أما وقد قابلتني فسوف أخدمك خدمة العمر، خدمة صديق لصديقه، لكن المسألة تحتاج بعض النفقات، رسم علامة استفهام على وجهه فأكمل: سوف نحصل على سنة مع الإيقاف، وهى معجزة، لكنها تتحقق بإذن الله، اعتمد علىّ، كم تحتاج؟ تساءل وتطلّع إلى وجه صديقه، ثلاثة آلاف، عهد مين ده. ومد يده وتناول كفه وهزها، والعشيرة دول مافيش جنيه واحد ها احطه فى جيبى، هادفها كلها لأصحاب نصيبها، اتفق معه على تسليمه نصفها قبل المحاكمة والنص الآخر بعدها.

لم يكن تدبير ثلاثة آلاف جنيه بالأمر الهين، خاصة وأنه لا يمتلك مني شيئاً، لو عرض الموضوع على عادة فسوف تتصرف وتعطيه المبلغ، فكر فى الاتصال بها، ربما كان الحديث فى التليفون غير مجد، سوف يذهب إليها ويحدثها وهى بين ذراعيه، لن ترفض أبداً فى مثل هذه الحالة، حين ذهب إليها، كانت مفاجأة إنه لم يجد أحداً، أخبره البواب أنهما سافرا ولا يعرف متى يعودان، وقف حائراً لدقائق ثم استقل تاكسياً إلى المريوطية. كـ الوقت مساء حين وقف على باب زوزو، أخبرته الخادمة أنها تأخذ حماماً فى انتظارها وأخذ يدخل بعصبية، ولا بد أن الخادمة أخبرتها فتد جاءت من الحمام مباشرة كانت تضع فوطة على شعرها وقد ارتدت ردى على الجزء الأعلى من جسدها، أما ساقبها وفخذبها فكانا عاريين، قبت وجلست بجانبه وأشعلت سيجارة، خطوة عزيزة دا أنت بتاع مفاجات

حرفى الموضوع مباشرة، وقال إنه يحتاج لثلاث آلاف جنيه من أجل خفية، وأخذت تهز رأسها تشجعه على الحديث حتى انتهى، المبلغ داير قوى ما أملكش ربعة دلوقت، ممكن أدبره بعد شهر، هز رأسه نفيًا: سئنة مستعجلة ولازم يندفعوا خلال يوم أو يومين، صعب جداً، قالت عرفت إلى الأرض ساهمة لدقائق ثم رفعت وجهها إليه مبتسمة، ولا بيت تدبر عشان خاطر عيونك، فإكر الموضوع اللى كلمتك عنه، موضوع ية؟ قال وهو يطفئ سيجارته بعصبية. لحقت تنسى، مش قلت لك نشتغل زى. أنت ابن حلال، فيه زبونة من الخليج، ومحتاجه لشاب بمواصفات خاصة يقيم معها لمدة شهر، وكل المواصفات تنطبق عليك إيه رأيك؟ ودى رفح كل اللى تطلبه، وأنا عن نفسى مش عاوزة حاجة المرة دى، المهم تنضى مصلحتك وسيب تدبير المسألة على أختك وما تحملش هم، يعنى تفرج مجهودك كله لها. يالله بأة فرفش، لم يشعر بضالة نفسه كما يحسها نين. ها هو ينزلق إلى طريق لم يكن يتخيل مجرد التخيل أنه الطريق الوحيد أمامه الآن، ولدهشته، سمع صوته يقول لها بمذلة وهل يبقى موضوع بيننا سرًا لا يعرفه أحد، صرخت: يعنى موافق، وارتمت عليه حتضنته وأخذت تقبله، صدقنى مش هاتندم، ومن ناحية الأسرار اعتبره على بير مالوش قرار وكل شغلنا أسرار يا عيونى، ثم غمزت بعينها: لكن يا زوى، أدوقك الأول وأعابن البضاعة، مش يمكن ما تنفعلش، ودون تردد، يكأن الأمر لا يعنيه، خلع كل ملابسه، وفى لحظة كان يقف أمامها عارياً، ورفع ذراعيه فوق رأسه وأخذ يدور حول نفسه ووسط دهشتها سمعت صوته يقول: وأنا ضامن بضاعتى، وعلى التجربة.

فى مساء اليوم التالى مر عليها حسب الاتفاق بعد أن اعتنى بنفسه عناية خاصة، فبدا مثل نجوم السينما لامعاً ونظيفاً يفوح منه عطر غالى نثمن، ولم تتمالك زوزو نفسها، صفرت بنفسها إعجاباً وغمزت بطرف عينها: سيدى يا سيدى على الجمال والشياكة، يا أرض احرسى، سار

أمامها ومشت خلفه وأمسكته من وسطه: بس تعرف، أنت خسارة في البهدلة مع ولاد الـ... لم تكمل وأخذته إلى الداخل، كان يتوقع وجوده فأخذ يتلفت حين رأى المكان خالياً، أشارت بأصبعها وهمست: بالداخل. جت قبل منك بنص ساعة، وقف، وبدا عليه القلق بعد أن تركته زوزو لدقائق، كان كل تفكيره ينحصر الآن في شيء واحد تمناه، ألا تكون دميمة حتى لا يتعذب. مرت الدقائق بطيئة قبل أن تظهر زوزو ووراءها امرأة لا يظهر منها سوى عينيها، كانت ترتدى عباءة سوداء من رأسها حتى قدميها، قدمتها له باسم سارة ثم أشارت لها: ارفعي الكلام الفارغ ده. الدار أمان، وخلعت العباءة، ولوهلة حملق فيها غير مصدق ما يراه، رأى أنثى حقيقية أمامه، كانت أربعيني، ولها ملامح ظبية وحشية، ترتدى أحدث ما توصلت إليه خطوط الموضة، بلوزة سوداء مطرزة ولامعة بحمالات دقيقة كشفت عرى صدرها وكتفيها وتحت إبطيها، وجيبة بيضاء ميكرو جيب أظهرت ساقين رائعتين ملفوفتين وطويلتين، كان لون بشرتها خمرياً، وشعرها الأسود الدسم شديد النعومة، تناثر على كتفيها وظهري وأحس بقلق خفي، وبدا أكثر عصبية حين جلست أمامه واضعة ساقا فوق أخرى، فاستطاع تمييز لون الكلوت الملموم على جنب مظهرها شعر عانتها شديد السواد، وأخذت الأسئلة تطن في رأسه: امرأة بكل هذا الجمال تبحث عن رجل بأجر؟ في الوقت الذي لو أشارت لزحفوا على ركبتيه أمامها؟

كانت ترمقه من تحت لتحت، وشعر بنظراتها تخترقه فتلملم في جلسته، واشتعل وجهه احمراراً فضحك تعجباً لقدرة حتى الآن على الشعور بالخجل، وأحست زوزو بتوتر الجو فهتفت: تشربوا إيه: كرفوازيه في عندك. وأنت؟ أي حاجة، خرجت زوزو وتركتها وحدهما، تنحج، وأحس أن عليه يقع عبء قطع الصمت فقال: إزيك، كيف أنت؟ ردت وعدلت من وضع ساقها وابتسمت وهي تتابع نظراته المستقرة على فخذيها العاريين

— تعمل يا عزيزي؟ هز كتفيه: حالياً، لا أعمل شيئاً، وشو كنت تعمل من
 — لا شيء أيضاً، قال وبدأ يشعر بضيق، ولم تمهله، بل دخلت في
 — نوع مباشرة: ولكن لن تكون عاطلاً بعد اليوم، شوف سيدي، قالت إنها
 — لأولى التي تزور مصر، وأنها تشعر بغربة خاصة إذا كانت بمفردها،
 — جاءت قبل زوجها، وسوف تمكث شهراً وحدها قبل أن يلحق بها
 — عمل في أوروبا، وأن الفيلا التي يملكها زوجها في منطقة موحشة
 — حصر الجديدة، وأنها تريد مرافقاً لها، تريده صديقاً أكثر منه مرشداً،
 — تراه مناسباً وسوف ينسجمان سوياً، فتحت حقبتها أخرجت عنواناً
 — بنته له، وقالت إنها تريده منذ الصباح الباكر فهي لا تريد تضييع الوقت
 — أن ترى كل شيء في القاهرة، أما النقود، فلا يحمل لها همماً، دخلت
 — بزجاجة الشراب وأكواب وضعتها أمامهم وأخذت تصب الشراب،
 — أنت: أصلى وزعت الشغالة عشان نبقى على راحتنا. نظرت إليهما
 — كملت: شكلكم اتفقتم، وغمزت بعينيها: أخرج أنا منها بقى، ضحكوا على
 — عابتها، وتناولت سارة كأسها شربته دفعة واحدة وقامت واقفة: أيام
 — زرى، فأنا أنتظر هاتفاً من زوجى ولا بد من الرحيل الآن، قامت معها
 — وزو لتوصيلها، عادت بعد دقائق تبتسم وتنظر إليه بدلال: المرة هاتنهبل
 — نيك، أنت عملت لها إيه؟ أحس بالخجل فأطرق إلى الأرض، شوف يا
 — خنيا عملت مكسوف، وأنت باين عليك جن صور، تعالى بقى نتكلم بالشغل،
 — نا لى عشرة فى الميه على أى زيونة أجيبها لك، موافق ولا لأ؟ ولما لم يجب
 — كملت: طيب تعالى بقى أدريك على شوية حاجات تتفعلك، وضحكت وهى
 — تسحبه من يده إلى الداخل.

(٢)

فى الثامنة صباحاً، كان يطرق الباب الداخلى للفيلا، وظل الجرس يرن
 والباب يطرق فترة طويلة قبل أن يفتح الباب، وظهرت ساره على مدخله

كانت نائمة، وشعرها يغطي وجهها وقد ارتدت شورت وبلوزة قصيرة أظهرت بطنها، تركته على الباب، ودخلت فدخل وراءها وأغلق الباب، ووجد نفسه وحيداً فى الصالة لا يعرف ماذا يفعل، وجاء صوتها نائمة: أنا هنا. تعالى: تتبع مصدر الصوت فوجد نفسه فى غرفة نومها، كانت نائمة على بطنها ورأسها مدفون بين وسادتين، وقف يتأمل تكوين جسدها البديع للحظات، ولما لم تنتبه له جلس على حافة السرير ومرر أصابعه على ظهرها وردفيها بحركة يعرف تأثيرها جيداً، كانت زوجته تقول حين يفعل ذلك أن لك أصابع ساحر تسرى فى الجسد مثل الكهرباء، ولما لم تبد مقاوفاً، تذكر أن عليه بدء العمل فصعد بجانبها.

قال لزوجته أمينة وهو يضع فى حقيبته بعض أشياءه إنه سوف يذهب مع الرائد فى مأمورية لمدة أسبوع، واهتزت مشاعره حين دعت له بالتوفيق والعودة بالسلامة. فى طريقه إلى سارة، اتصل بالرائد فعرف أنهما له يعودا بعد. كانت جالسة فى فراندة الفيلا يلفها الظلام والصمت. لمحت يدخل من باب الفيلا فأشارت له، تقدم نحوها وجلس بجانبها، كان الجو خانقاً فارتدت بلوزة على اللحم وسليب فقط، وأمامها على الترابيزة. وضعت زجاجة ويسكى سكوتش ووعاء من الثلج وكأسا. قامت أحضرت كأساً أخرى وصبت له، وأدارت جهاز مسجل موسيقى ناعمة، دخل هز أيضاً فخلع ملابسه واكتفى بفانلة بحمالات وشورت، أشعل سيجارة وارتحف من كأسه ببطء وتلذذ. قالت: تحب ترقص. وضع الكأس جانباً وبدء يرقصان، وضعت رأسها على كتفه فأحس أنفاسها الساخنة تهب وجهه، وفتح جسدها برائحة ياسمين منعشة ومثيرة. وأخذت أصابعها تعبت برقبته وظهره وتضغط على مؤخرته. همست: أشعر بالدوار فقد شريت كثيراً، تركته وارتمت على أحد الكراسى ورفعت ساقها إلى مسند الكرسي وأشارت له: تعالى هنا جنبى، تعرف، أنا عشت كثيراً فى أوروبا، ودائماً أسأل نفسى سؤالاً لا أجد الإجابة عليه، وهو أن الناس فى أوروبا يعيشون

في جو من الحرية المخيفة، بينما نحن مكبلون بأغلال كثيرة كالدين
وخلق والعادات والتقاليد والأعراف وأشياء كثيرة لا توجد إلا في عالمنا
غريب، وهم يتقدمون، بينما نحن نعود إلى الوراء فهل العيب فينا وفيما
عتقده؟ قل لي. أخذت تنظر إليه بعينين نصف مغمضتين. وبدت له
سراة ولذيذة. وارتشف من كأسه قبل أن يرد عليها: أنا لم أذهب لأوروبا
سنت. ولكن يبدو لي أن الناس هناك حلت مشاكلها بنفسها، وقد تبدو لك
حرية التي يتمتعون بها مخيفة على اعتبار أنها حرية مطلقة، بينما هي
سرتلك حرية مقننة، فهؤلاء الناس صنعوا تقاليدهم بأيديهم، وأما نحن
نسرورثنا هذه التقاليد فظلمنا أسرى الماضي، وهذا هو الفارق بيننا
بيهم. ليس للدين دخل في هذا الموضوع، بل على العكس فهم بمفاهيم
سيعتبرون أكثر تديناً، فالمساواة والعدل والحرية والحث على العمل
سخدم هي جوهر جميع الأديان، هم يفعلون ذلك بينما نحن نكتفي
سعتوس. قالت: هل تظن أن للحروب التي خضناها طوال التاريخ ضد
سنتعمار وضد إسرائيل دخل في هذا التخلف؟ ضحك بصوت عال،
سبته كريمة من الضحك فشرق ودمعت عيناه، وانتبهت هي له، صب
سسه كأساً أخرى قذفها في فمه دفعة واحدة: أية حروب تقصدين، بل
سرس الهزائم المتوالية التي خاضها العرب، أقول لك على شيء، قد
سمشين له، فكثيراً ما فكرت أن العرب لم ينتبهوا أبداً أنهم مهزومون على
سزل الخط، فقد تحولت تلك الهزائم بقدره قادر إلى انتصارات ورقية،
سسينا في الواقع وانتصرنا على الورق. بدت له صورة العبارة الأخيرة
سبب: فأخذ يرددها. وبحركة تمثيلية وقف أمامها وانحنى واضعاً يده فوق
سرس: أقدم لك سيدتي أحد أسلافك المهزومين، أقدم إليك أحمد عرابي،
سخطفي كامل، سعد زغلول، جمال عبد الناصر، محمد أنور السادات...
سرتريدين فرعونيات، خذي عندك: حورمحب، أحمس، تحتمس، رمسيس
سرس. خوفو، خفرع، منقرع، ودلوكة أعظم ملكة في التاريخ. وانهار فجأة

فوقع على ركبتيه، وبدا سكراناً يحادث نفسه: هذا هو تاريخى الذى أ. فوق ظهري أينما وليت، تاريخ أعظم الحضارات، وأعظم الهزائم أي وبدا صوته خافتاً وهو يندن: خلى السلاح صاحي.. صاحي.. لو ذ الدنيا صحيت مع سلاحى، يا حينا الكبير.. والأول والأخير، طوف وش قوم بإيمان وقوم بضمير.. ودوس على كل الصعب.. على كل الم وسير، وصوت بلدنا، يا صوت ولادنا، صوت الوطن، وبلدنا على الت بتغسل شعرها، أنا إن قدر الإله مماتى، انتصرنا يوم ما هب الجيش لو مت يا أمى ماتبكيش، الأرض بتتكلم عربى تقول حطين، لا تصالغ قلدوك الذهب، الشيكولاته ساحت راحت ما طرح ما راحت، كوز الم انخرم.. وسقطت قريك فالتقطنى واضرب عدوك بى فىنى الآن حر وحر.. يا حلوة.

اعتدلت سارة وبدا عليها أنها أفاقت على صوته الذى علامنذ وتحول إلى نشيج مكتوم، وبكى، بكى كما لم يبك من قبل، بكى طفن التعسة، وبكى يتمه وشبابه الضائع المهان، وأخذ ينهنه مثل طفل فقد فجأة. وارتمت عليه سارة وضمت رأسه إلى صدرها، قبلت وجهه وش دموعه، همست له: تعرف، أنا أحس بنفس شعورك ودائماً ما يتم إحساس بالضياع وخراب النفس. قال: سرقوا أحلامنا ولاد الكلب. - كل شىء، ولم يتركوا لنا أى شىء، سلسال لا ينقطع من الخونة والأذ ولا فائدة فكل شىء فى سبيله للانهيان. أرادت أن تسرى عنه فت تعرف، قابلت مرة فى باريس امرأة معها فتاتان تعرفت عليهن، عرفن المرأة تدعى «حسنا» من الجزائر، ورأيتها تؤجر فتاتها للأخوة ن هناك، وحكت لى قصتها، تعرف من هى تلك المرأة؟ إنها زميلة ج بوحدير» نفذت معها كل العمليات وسجنت وتعذبت معها. قالت إنى قيام الثورة الجزائرية لم تجد ما يسد رمقها هى وبناتها فتحولن نة إلى مومسات تتجولن فى كل العواصم العربية من المحيط إلى نح

ت تضحك وتقول لى إن الوحدة العربية التى لا يغلبها غلاب تجسدت
ع هون، وتشير إلى ما بين فخذيهما، فالعرب لم يلتقوا على شىء، إلا هذا.
سحكت سارة وداعبته فابتسم، وقالت تعابته: قم بنا نوحده كلمة العرب،
يست هذه مهمة قومية أن تفعل فى الفراش ما عجز الأشاوسة عن فعله
ع ميادين القتال.

(٣)

كان لديه موعداً مع أحمد سامى، صديقه نائب الأحكام، فذهب إليه
ع منزله، لكنه لم يكن قد وصل بعد فجلس على مقهى قريباً من بيته
حيث يلمح إذا جاء، مرت ساعتان قبل أن يلحظه آتياً من بعيد يرتدى
سنة الجيش الكاكي حاملاً فى يده حقيبة سامسونايت سوداء، اتجها معاً
ع المنزل، وقبل أن يجلس ناوله مظروفاً به ألفان من الجنيهات، أما الألف
ثالثة، فبعد إتمام العملية، أوقف تاكسياً وتوجه إلى حيث يقيم مع سارة،
وكتشف أن أسبوعاً مرّ وبقى أسبوع آخر قبل يوم المحاكمة، وشعر بحنين
مفاجئ إلى زوجته، سارة لا تترك له وقتاً، اشترطت ألا يفارقها. وفى
مقابل، تعطيه كل ما يطلب، تقول إن له جسداً فرعونياً جميلاً. وإنها
سوف تمتصه حتى القطرة الأخيرة، هى مثل أرض شراقى لا ترتوى أبداً،
بل تطلب المزيد. قالت إنها سوف ترتب أمورها بحيث يكون معها فى أى
مكان تقيم فيه، وقالت إن زوجها رجل أعمال معروف يسافر كثيراً ويحب
أن تكون معه، لكنه يهملها وينصرف إلى عمله، لذا فهو يتركها على حريتها
فى البلاد التى يسافران إليها، ومن السهل ترتيب الأمور من إرسال تذاكر
لسفر والحجز له بالقرب منها، وهو بدوره رحب بالفكرة، لكن هناك عقبة
تحول دون ذلك، وهى فى سبيلها للحل، حدثها عن هروبه ومحاكمته
المنتظرة، وسعيه لإيجاد حل لها.

مرّ أحمد سامى فأخذه إلى حلمية الزيتون حيث قابلا أحد الأشخاص يدعى عوض، يعمل رئيساً للأمن بمستشفى الأمراض النفسية بالقوات المسلحة، وكان أحمد قد اشترى له قطعة حشيش جيدة، قال له: هذه القطعة تجعله يفعل أى شىء، فهو مدمن، وكان أحمد محقاً، فقد سال لعابه حين رآها وأصبح مهياً لسماع كل ما يقولانه، حدثه أحمد عن المشكلة، وأن عليه إدخاله المستشفى لمدة أيام فقط والحصول على تقرير به دخوله وخروجه وتوصيف للحالة بأنها اضطرابات نفسية. ثم غمز له فتركهما بمفردهما دقائق، ولحق به أحمد وعلى وجهه ابتسامة: أبسط ي عم، كل المسائل تمشى كما نحب، سيقوم بإدخالك غداً، لكنه يطمع فى مبلغ كبير يقول إنه مدير المستشفى. قال لا يهم، الفلوس موجودة، فقط، لا تجعلنى أقضى يوماً واحداً فى السجن.

(٤)

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحاً بقليل حين تلملمت وفتح عينيه، وكان المنبه الموضوع على الكومودينو من ناحيته وبالقرب من رأسه سكت منذ دقائق، أزاح ذراع سارة عن صدره وتسحب بهدوء من جنبه خشية إيقاظها، ووقف لحظة يتأمل جسدها البديع العارى والمتقوس فى حالة استرخاء تامة، ثم انسل خارجاً فأخذ دوشاً بارداً أنعشه وارتدى ملابسه وخرج، كان الصباح مازال مضرباً ومندى، أشار لعربة أجرة، كت المسافة قصيرة والشوارع هادئة، بعد دقائق توقفت العربة أمام المستشفى ولمح عربة أحمد الدبكي بالقرب من السور فاتجه إليها. أغلق العربة واتجه سويماً إلى الباب الرئيسى فدخل منه، اتجه إلى مكتب قائد الأمن بالقرب من البوابة، وجداه جالساً خلف مكتبه، قام ورحب بهما فجلسا. يكن بالحجرة أحد فأشار له: درست الحالة كويس؟ أنت مصاب بعد. اكتئاب وفقدان ذاكرة. هز برأسه بالإيجاب. لقد درس الحالة بالفعل.

أحد الكتب، وعرف أعراضها جيداً، سوف يظل صامتاً طوال الوقت، وسوف يبدو أحمد القلق من خلال حركات يديه ووجهه، يدخن كثيراً ويسرح في لا شيء، ينسى بعض التفاصيل حول تاريخ ميلاده ونشأته، نعزوف عن الطعام، فهناك من يرقبه طوال الوقت، وفي النهاية يكتبون تقريراً بالحالة، وإذا جاء التقرير في غير صالحه، هناك تبدأ مهمة المدير فيقوم باسبئداله بأخر يكون به المطلوب بالضبط. أخذه من يده إلى حجرة مدير. قال: انتظرني لحظات بره. دق الباب ودخل وأغلقه خلفه، غاب بعض الوقت فبدأ يشعر بالقلق، عاد وأمره بالدخول، كان مدير المستشفى يجلس خلف مكتب ضخم، جسده الضخم يتناسب مع حجم المكتب، وقف أمامه صامتاً في وضع انتباه بينما وقف رئيس الأمن بجانب المدير. كان صوته هادئاً وعميقاً وهو ينظر إليه: أنت فعلاً مريض، ولا بتتمرض؟ شعر باضطراب وتخيل للحظة أن فخاً نصب له، وأن المدير لا يعرف شيئاً، وسوف يكشفه ويسلمه للشرطة العسكرية الآن، ولم ينقذه من تلك اللحظة إلا صوت صاحبه يرد على المدير: طبعاً مريض يا فندم كما قلت لسيادتك وشرحت حالته. نظر إليه، ثم أخذ يدون في ورقة أمامه وناولها لرجل الأمن الذي اتجه إليه وهتف: انصراف. حين غادر مكتب المدير تنهد بارتياح ونظر إلى رئيس الأمن فابتسم يطمئنه وأشار إلى الورقة: ورقة دخولك المستشفى وقعها المدير، وكل شيء ماشى حسب اتفاقنا، تتبقى بعض الإجراءات وينتهي الموضوع، أخذه من يده يوقع الورق في عدة مكاتب حتى أنهى الإجراءات: مبروك، أنت دلوقت محجوز من النهارده، وكلها أيام وتخرج بالتقرير. تبعه إلى المكتب حيث كان أحمد سامى جالساً فأخبراه بما حدث. سلم عليه وعلى رئيس الأمن الذي شد على يده قائلاً: مش هاسيبك، اطمئن، هاأمر عليك من وقت للتانى. جاءت إحدى الممرضات وقادته إلى أحد العنابر وأشارت إلى سرير خال في آخر العنبر فاتجه إليه. كان العنبر كبيراً وواسعاً به ثمانية عشر سريراً متقابلين، بعض

المرضى كانوا جلوساً فأخذوا يتأملونه وهو يمر بينهم. استلقى على سريريه وأغمض عينيه، وشعر براحة وهدوء، هو الآن مراقب منذ هذه اللحظة، وأي حركة يقوم بها تسجل في ملفه، لذا فقد وضع لنفسه برنامجاً سوف يقوم بتنفيذه تدريجياً، لا أحد يعلم بوجوده هنا الآن، زوجته تعلم أنه في مهمة مع الرائد منذ أسبوع، الرائد وزوجته عادة لا يعلمان عنه شيئاً، وسارة لم يقل لها عن تلك الخطوة، لابد أنها سوف تتساءل عن سر تغييره. قد تسأل زوزو، لكن زوزو أيضاً لا تعرف شيئاً. قال لنفسه: هذا وضع مثالي، لأول مرة يجد نفسه حراً وقد تخلص من كل من ارتبط بهم في خطوة واحدة، وبدا ذهنه صافياً، ولا يدري لماذا يتذكر الآن فجأة يوم وفاة عبد الناصر، خروجه هو وشباب الحارة يحملون الأعلام السوداء يطوفون حواري بولاق الدكرور من خلفهم النساء يرتدين الملابس السوداء والجميع يهتفون: الوداع يا جمال يا حبيب الملايين، كانت أمه بينهن، سيرهم على أقدامهم حتى كويرى القبة ليروا جثمانه ويودعونه لثواه الأخير، دائماً ما تقترن لحظة موت جمال بلحظة موت أمه، كلاهما كانا حجر أساس في حياته، وبموتهما شعر بهذا الأساس ينهد وأن حياته هي الأخرى في طريقها إلى الانهيار، هو الآن على مرمى البصر من الجامع الذي بنى جمال ليدفن فيه، كان موت جمال مقدمة لموت الوطن، أو موت الأفك الكبرى العظيمة. لحظة أخرى تستدعيها الذاكرة واضحة، ظهور السادات على الشاشة يوم الخامس عشر من مايو عام واحد وسبعين، إعلانه عن الملأ بشكل تمثيلي على ثورة التصحيح، تطهير مصر من مراكز القوى إحراقه لأشرطة التسجيل التي سجلت مؤامرتهم لقلب نظام الحكم وتساءل لحظتها أي حكم هذا الذي يقليبونه، أليسوا هم الحكام، وأي رحمة هؤلاء الذين لهم السادات في لحظة، سوف يراهم فيما بعد عند تأسيب الحزب الناصري، وقد انحنت ظهور ما تبقى منهم وتهدلت جلودهم وسوف يقول لنفسه إنهم رجال هاشون ضعفاء، استطاع لهم في قنـ

حد مثل فراخ شاردة. فى أحد الأيام، كان يمر على أحد المحلات فى باب
 - ي تخصص فى بيع الأشياء القديمة، ورأى أمامه عدة تليفون معروضة
 - ب. وتسمّر مكانه غير مصدق، كان التليفون الخاص بحجرة نوم عبد
 - سر، لونه أسود أبنوسى. طويلاً وأنيقاً ودقيق الصنع كان الروس قد
 - نده لجمال، قرأ اسم عبد الناصر محفوراً، ثم أسماء مكتبه وأعضاء
 - حس قيادة الثورة. سأل الرجل عن ثمنه، كان ثمنه مائة جنيه وكانت
 - حيه خاوية ولم يعرف كيف يتصرف، جرى إلى أحد أصدقائه ممن
 - يعين ويعيشون باسم عبد الناصر. أراد اقتراض المبلغ منه فاعتذر، حدثه
 - ن تليفون فقال له انتظر دقيقة، وأدار قرص التليفون أمامه، تحدث
 - حترام بالغ إلى أحد الأشخاص، فجأة أعطاه السماعة وهمس له: سامى
 - ف على التليفون، تحدث معه وصفه له. أما الآخر فقد حدثه بألفة من
 - حيه منذ زمن قال له صفه لى فأخذ يصفه له بدقة، لونه، الأسماء
 - جودة على العدة بالترتيب. عقب بعد حديثه: ذلك هو تليفون حجرة
 - ب. اقترح عليك الحديث مع هدى عبد الناصر. أعطاه رقم تليفونها،
 - نزل صديقه بها وتحدث معها، قالت إنهم باعوا كل ما يخص عبد
 - صر «لط» فى مزاد. أعطاه عنوان المحل. لحظتها ضحك وتساءل: ألا
 - يجد مع أحدهم مائة جنيه لشراء عبد الناصر. لحظتها فقط عرف لماذا
 - ترا بهذه الهشاشة، لقد باعوه حياً وميتاً. فى طريق عودته مرّ على المحل،
 - رأى سيدة عجوز تساوم البائع على العدة، واشترت عدتان، بمائة جنيه،
 - حدة تخص عبد الناصر، والأخرى رسم أحمد ها التاج الملكى للملك
 - ن ريق لم يكن قد رآها.

جاء موعد الغداء فأحضروا إليه صينية بها أرز وخضار ولحم وبرتقالة،
 - ت أعطته الممرضة بعض الأقراص، وكان عليه إظهار بعض التقلصات
 - مها، وباغتته فجأة بسؤالها عن اسمه فلم يرد، وتمدد على السرير، ثم
 - دم وأخذ فى السير جيئةً وذهاباً، وأحسّ أنها ترقبه فاستمر فى السير

حتى ذهبت فاستلقتى مرة أخرى على سريريه دون أن يمس طعامه. واستدعى تصاويره مرة أخرى.

كان السادات قد أعلن عن رغبته فى زيارة القدس، والصلح مع إسرائيل، حدثت بعدها مناوشات بينه وبين العقيد القذافى الذى وصمه بالخيانة، وأصدر السادات قراره بمهاجمة ليبيا وتأديبها عسكرياً، كان هو وقتها يخدم فى الجيش خدمته الإلزامية، وتحركت كتيبته للوصول إلى الحدود المصرية الليبية، ووصلوا إلى مرسى مطروح، وصدر لهم الأمر بالاستراحة بعض الوقت ثم مواصلة الزحف حتى السلوم، كانت المهمة ثقيلة على الجنود والضباط على السواء، لقد خاضوا حروباً كثيرة ضد أعدائهم الإسرائيليين، لكنها المرة الأولى التى يحاربون عرباً مثلهم. وظرّ طوال الطريق يفكر: ماذا يحدث لو هرب؟ العقوبة معروفة محاكمة ميدانية عقوبتها الموت رمياً بالرصاص، أليس أفضل له من أن يقتل أو يقتل بـ سبب؟ وهل لو قتل يصبح شهيداً؟ إنه لا يحارب عدواً له، ولا يدافع عن أرضه، وليست هناك أية قضية يدافع عنها، المسألة كلها تصفية حسابات بين زعيمين على زعامة المنطقة، مسألة شخصية، فى مرسى مطروح قد لنفسه: تلك هى الخيانة بعينها، فليس هناك أبشع من زعيم يخون شعب من أجل مصالح شخصية. وحين استأنفت القافلة رحلتها، كان هو قد اختفى، ركب عربة عاد بها إلى القاهرة وهو يردد: الزعماء يموتون، الشعب فى التى تعيش.

حين أتت الممرضة بطعام العشاء، نظرت إلى صينية الغداء فرأتها تـ تمس، وتعمد هو أن يشعل سيجارة أمامها ويأخذ نفساً طويلاً ثم يرميها إلى الأرض ويدوس عليها بقدمه بشدة، بل أخذ يضرب بقدمه السيجار بعنف حتى أذابها فى البلاط، ثم أشعل أخرى. خرجت الممرضة دون تتحدث معه، كل شيء يسير كما خطط له تماماً، عليه ألا يسترخى. شب

يرقبونه، ولا بد أن يفتعل حادثة صغيرة تبرهن على خطورة مرضه، نظر إلى المريض النائم في مواجهته وخطر له خاطر، جمع في فمه كمية كبيرة من البصاق واتجه ناحيته وقذفها في وجهه. انتتر الآخر من فوق السرير؛ صفعه صفعه قوية، ولم يعد في حاجة إلى تمثيل، فقد ألمته بشدة فبكى، توجه إلى سريريه وأخذ يضرب رأسه في الوسادة بانفعال وغضب، ولم يظل انتظاره، فقد جاء ثلاثة رجال ثبتوه في السرير وأعطوه حقنة مخدرة فنام على الفور.

في الصباح، شعر بهدوء لم يشعر به من قبل. فقد نام نوماً هادئاً طوال الليل، وتذكر ما حدث بالأمس فكاد يضحك، لكنه تماسك حتى لا يشعر به أحد، له الآن يومان في المستشفى، وبقي له يومان آخران، وهو يمشى على برنامجة بدقة، وسوف يستدعى تصاويره إلى أن تأتي المريضة.

(٥)

لم تؤرقه مشكلة في حياته مثلما أرقته مشكلة أخوه الأصغر، فقد سافر إلى العراق في منتصف الثمانينيات ليشق طريقه بعد أن أغلقت في وجهه سبل الحصول على عمل، مكث في العراق ثلاثة شهور فقط قضاهام عاملاً في مصنع للملابس الجاهزة، عاد بعدها وقد تبدل إلى آخر كارهاً للحياة، كان يقضى الساعات وحيداً شاردًا لا يكلم أحداً، وإذا خرج يختفى أيضاً بالساعات، أين يذهب؟ ما الذي حدث له هناك؟ أطال لحيته فجأة، وأصبح ينظر لكل شيء بعين الحلال والحرام، وكان عنفه يزداد في معاملته مع أخوته، صب هجومه عليه، شرب السجائر حرام، الفرجة على تليفزيون حرام، لعب الطاولة حرام، قراءة الكتب سوى القرآن والسنة حرام. كلما تناقشا اتهمه بالكفر والضلال. كان يحس أزمة أخيه النفسية لما حدث في العراق. لكن ما الذي حدث له هناك؟ لقد ظلّ سرّاً لم يبيع به لأحد. وعرف أنه انضم لإحدى الجماعات، وأنه يذهب لأحد المشايخ كل

يوم، كان يردد مثل ببغاء ما يسمعه عن الشيخ. قال له فى إحدى المناقشات أنا لا أعترض على ما تفعله، فقط عليك قبول الرأى الآخر دون تفكير، أنا أؤمن مثلك بالله ورسوله، لكن لا أنظر تلك النظرة الضيقة مثلك، كان دائماً يستشهد بأحد أبيات المتنبي الشهيرة: أغاية الدين أن تحفوا شواربكم، يا أمة ضحكت من جهلها الأمم. فيرد عليه قائلاً: حتى المتنبي الذى تستشهد به كان كافراً وادعى النبوة. لقد تفاقمت الأزمة بينه وبين أخيه إلى حد المقاطعة. فى بداية السبعينيات، أطلق السادات الجماعات الدينية من المعتقلات، وأعطاهما الضوء الأخضر لمزاولة نشاطها مرة أخرى، فعل ذلك لضرب القوى الوطنية وجماعات اليسار، وانطلقوا يعيدون تنظيم صفوفهم ويصححوا مسارهم إنطلاقاً من مقولة زعيمهم الروحى سيد قطب أن التغيير لا بد أن يأتى من القاعدة إلى القمة، ولا بد من ارتباطهم بالناس عن طريق تقديم خدمات، فبدأوا فى إنشاء منشآت خدمية بديلة عن الحكومية. مسجد فى كل شارع وحارة عبارة عن مجمع خدمى به مدرسة وحضانة ومستوصف، مصارف إسلامية رفعت شعارات ضد البنوك الربوية وتحمل أسماء إسلامية، فى المواسم والأعياد، كان يرى البيت يتحول إلى خلية نحل ومخازن للغلال واللحوم، كانوا يحملون كشوفاً دوّنت فيه أسماء عائلات فقيرة تعيش تحت حد الفقر، وكانت الحقائق البلاستيك تحمل إليهم يومياً مكدسة بالخضار واللحم والمواد التموينية. كان يرى الناس يأتون إلى أخيه، يقفون طوابير من أجل الحصول على حقيبة تموينية، أو مساعدات مالية. وفى ظل غياب الحكومة والأحزاب السياسية، كان هذا هو البديل الناجح أمام الناس، ربما كان يعجب بهم فى قرارة نفسه، بل أن بعض أصدقاء أخيه أصبحوا أصدقاء له، وكثيراً ما كانوا يتناقشون فى السياسة والدين، بل أن بعضهم سأله ذات يوم قائلاً نحن نعرف أنك ناصرى، وكثيراً ما نتعجب حين نراك تذهب إلى المسجد للصلاة بيننا!

يذكر تلك الليلة، كان مؤرقاً ولا يدري سبباً لذلك، وكان أخوه أيضاً مزرقاً، فجأة جاء ليجلس معه، وراه ساهماً، كانت الساعة قد تجاوزت حدة صباحا، قال له: عندى يقين بأنهم سوف يداهمون البيت اليوم. استفسر منه عرف أنهم قبضوا على بعض أصدقائه وقد أخبروهم أنه أراد المبيت عنده، لكنه عدل رأيه قائلاً إنه سوف ينام بين أولاده في نومه وتركه ومضى. كانت المرة الأولى التي يراه مهزوماً وخائفاً، أحسّ بالخوف أحمد، كما لم يحس من قبل، فقد سمع عن حفلات التعذيب، مهمة بيوتهم، وتصفيتهم جسدياً. أسر بأكملها تمت تصفيتهما، وبيوت تم حراقها. لقد قرأ مرة في إحدى جرائد المعارضة أن الجماعات المتطرفة تطلبها حكومة أكثر تطرفاً. يعلم أنهم يحتفظون بملفات لكل من له نشاط سياسي أو ديني، ولا بد أنهم سيفرقون بينه وبين أخيه، فهم يعرفونه جيداً أثناء هروبه من التجنيد، جاءه ضابطاً شرطة وقال له أنها يستطيعان مساعدته وتسوية الأمر إذا دلها على أسماء بعض أصدقائه. استمرت حسنة معهما أربع ساعات كاملة دون طائل. قال إنه لا يعرف أية أسماء ليست له صلة بأحد، وقف أبوه غاضباً وقال لهما يا بني أنت وهو إحننا من مالناش دعوة بحد. منذ لحظتها، عرف أنهم يرصدون حركته، وأن له عنفاً لديهم.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل، حين سمع صوت عربية تقف أمام الباب بغتة، جرى إلى الشباك المفتوح، ومن وراء الستار رأى عربية ميكروباص تسد باب البيت، وخلفها عربية أخرى، ورأى الجنود والضباط ينزلون من العربية مدججون بالرشاشات. وفي لحظة واحدة أدرك الموقف. رتبك للحظات. ماذا يفعل؟ هل يغلق بابه على نفسه ويتركهم ينفردون به؟ هل جاءوا وفي نيته تصفيته جسدياً؟ وإذا كان الأمر كذلك هل يخطئون تصفونه هو؟ أم يتم قتلها هما الاثنين؟ أحس لحظتها بحب جارف نحو أخيه، وتمنى ألا يحدث شيئاً مما تخيله الآن، ربما لو أراهم نفسه يعطلمهم

لحظات تعطيه فرصة للهروب. سمع خبطاً على باب أخيه، وفتح هو باب شقته فى الدور الأخير ووقف على السلم وقال: من؟ ورأى الجنود يحاصرون شقة أخيه بالدور الثانى. وبدأ ينزل السلالم ببطء، وانتهبوا له، وأخذت الرشاشات تتجه نحوه، وانطلقت فى وجهه كشافات ضوء قوية ومبهرة فلم يعد يرى شيئاً، ورفع ذراعيه فوق رأسه، ووصل إليهم فأحاطوا به. وظنوه هو، لكنه أنكر فصدروه ناحية الباب وأمروه بالطرق، كانت رشاشاتهم تلاصق ظهره، وبدأت أفكاره تتسارع مع دقائق قلبه، سوف يسلمه لهم بهدوء خوفاً من غدرهم به، هو يثق أن أخاه لن يكون عنيفاً، إنما العنف يبدر منهم عند أى حركة حتى وإن كانت غير مقصودة، فى تلك اللحظات المتوترة نادى عليه، أراد أن يسمعه صوته حتى يطمئنه، دقائق مرت كسنوات قبل أن ترد زوجته، أمرها بفتح الباب. تلكأت لحظات قبل فتحه، اندفعوا داخل الشقة وانشروا فى كل الحجرات، سألوها عنه فأنكرت وجوده، أخذوا يفتشون كل شىء. اتكأ هو على حائط وتهدد، سألوها بشكل مباغت عن بطاقته، وكانت هى سريعة البديهة فى هذه اللحظة فأجابت أنها معه فى جيبه، ورأه تدسها فى جيب جلبابها خلسة. بعد قليل سأله الضابط عن اسمه وهز يفتش فى كتب أخيه وبدا الحوار هادئاً ومهذباً، وتبادلا السجائر. وإمعاناً فى الحبكة، فقد نزلت زوجته بعد أن أغلقت الباب وراءها وسألته عن المفتاح لأن الباب أغلق وراءها بفعل الهواء، وصعدت مرة أخرى وأخذت تخبط على الباب حتى يفتح الأولاد النائمون بالداخل، وصدقوا التمثيلية. وانتهوا سريعاً ومضوا بعد أن أخذوا بعض الكتب على وعد بتسليمه فى الصباح. سأل زوجته: راح فين؟ أشارت إلى المنور. فتح الشباك ونظر فـ يجد شيئاً. وكان هو حين أحس بهم نط من شباك حجرة النوم إلى المنور. ثم صعد على المواشير إلى شقة أخيه بالدور الأخير.

فى الصباح خرجت الصحف بمانشيتات عريضة عن تنظيم إرهاب جديد، وإحباط محاولة لقلب نظام الحكم، كان اسم أخيه يتصدر القائمة

بعد ذلك بتهريبه فى شقة آمنة حتى سقطت القضية وأفرج عن كل معتقلين.

(٦)

كان نائماً حين حدث ما لم يكن فى الحساب، فقد فتح عينيه فجأة على المريض الذى افتعل معه مشاجرة، يقف أمامه جنب السرير، ولم يجنله، فقد أطبق بكلتا يديه على عنقه، ضربه بقدمه فى بطنه وصرخ، حين أتوا، كان الآخر يرقد فى سريره، أشار ناحيته: كاد يخنقنى، دا عامل عيه نايم. لكنهم لم يصدقوه، وحسبوه يهلوس. واغتنمها فرصة فلم يصحح ما ظنوه، وعدها نقطة فى صالحه، لكنه لم ينم طوال الليل خوفاً من إعادة المحاولة.

عند منتصف النهار، انتبه على صوت رئيس الأمن، جاء ليراه كما بعده، قال: تشجع هانت، كلها يوم أو يومين وينتهى التقرير. حكى له عما حدث بالأمس، وأنه كاد يموت خنقاً بين يدي الرجل. هز رأسه: نعم قريت على حصل فى التقرير، وهو على كل حال فى صالحك. قال له أنه بدأ يشعر بالملل، ثم أنه يخاف أن يعاود الرجل المحاولة. ودعه على وعد -نجىء إليه غداً. له حتى الآن أربعة أيام، وبقي على موعد المحاكمة ثلاثة أيام، ولا أحد يعلم بوجوده هنا سوى صديقه أحمد وهذا الرجل رئيس الأمن، وكان من المفروض أن يخرج غداً، فما الذى يحدث؟ أصبح على حذر من كل من حوله، وزادت تقلصات وجهه وأصبحت تتم دون إرادته بعد أن كان يفتعلها، وأخذ القلق يستبد به. وأخذ يهرب كثيراً إلى أحلامه، سترعت ذاكرته كل من عرفهن من نساء، نادين، غادة، زوزو، أمينة، سارة، عفاف، أوقفهن صفواً واحداً ومارس معهن الجنس دفعة واحدة، وأخذ عضوه ينتفخ فضغط عليه بشدة حتى انفجر سائله، أخيراً هدأ فراح فى نوم مرة أخرى.

مرّ يومان دون أن يسأل عنه أحد، حتى رجل الأمن لم يحضر، كان قد ملم أشياءه استعداداً للخروج، وأحسّ بقلق مبهم، وأن شيئاً غير عادى يحدث. قال لنفسه: لا بدّ أنهم يكتبون التقرير الآن، وأنهم سيرسلون فى استدعائه فى أى لحظة، ويذا أن الوقت لا يمر، وأن الزمن قد توقف، اتخذ قراراً بمقابلة المدير، فلعلهم نسوه. استدعى إحدى الممرضات وطلب منى مقابلة المدير فى أمر عاجل وهام. فأمهلته بعض الوقت، ومرت ساعة فطلبها مرة أخرى وأخذ يلح فوافقت، فى طريقه إلى حجرة المدير، مر على حجرة رئيس الأمن فلم يجده، سأل عنه فعلم أنه قام بإجازة طويلة كان المدير جالساً خلف مكتبه كما رآه أول مرة، تقدم منه ووقف أمامه ورآه ينظر إليه بدهشة من يتذكر أين رأى هذا الوجه من قبل. قال سيادتكم نسيتنى ولا إيه؟ هز المدير رأسه: لا يا بنى فاكرك طبعاً. فى حاجة؟ كان ميعاد خروجى من يومين وما خرجتتش لغاية دلوقت. أى خير يا بنى؟ سأل المدير. دب الخوف فى قلبه فجأة، وأخذت تقلصات وحج تعمل عملها. سيادتكم افكرتتى، رئيس الأمن جابنى ليك واتفقنا على التقرير عشان المحكمة. أخذ يحملق فيه وتساءل: أى تقرير؟ ومين جابك هنا؟ شرح له الأمر مرة أخرى. هز المدير رأسه كمن تذكر فحاه.. التقرير، اطمن يا بنى، شفاؤك قرب ما تخافش. إنفعل وأخذ يعلو: ولكن أنا مش مجنون وماجيتش المستشفى إلا عشان التقرير. منى مفهوم، كلها يومين وتخرج بالسلامة. أشار للممرضة فسحبته من يده.. ملفه على المكتب والمدير يدونّ به بعض الملاحظات ثم أعطاه للممرضة التى أخذته من يده وخرجت به. كان مفتاضاً فأخذ يتحدث إلى بصوت عالٍ فى طريقه إلى العنبر: الراجل مش فاكرنى، وبتاع الأمن إجازة، وأحمد سامى اختفى، ومحدث يعرف إنى محجوز هنا. عاملنى كمجنون. شعر بالاختناق، وبأنه محاصر، لا بد أن هناك خن أو هى مؤامرة ضده، من الذى دبرها؟ ولماذا؟

يومية هروب

حين دخل العنبر، جلس على سريره هادئاً، وسرح ببصره إلى الخارج،
: استدعى حياته السابقة كلها، وأخيراً تنهّد، كان يفكر الآن في وضع خطة
نحروب من هذا المستشفى اللعين.

كيد النساء

اعمال خيرى عبد الجواد ج ٢

كيد النساء يشبه الكي
من مكرهم رحت هارب
يتحزّموا بالحنش حيّ
ويتعصبوا بالعقارب
(ابن عروس)

القسم الأول

(١)

بديعة

تحايلت «بديعة» على ملائكة روحها الخيرة، واختارت بإرادتها الحرة صاحبة هاروت وماروت ملاكى السحر.

تعلمت فنونه السوداء على أيدي شياطين الإنس وأرادت تجريب ما نعمته فى بنى آدم، فاختارت الشاب الذى سوف يصبح زوجها وأبا لابنتها حيدة فتحية.

سمه نور، كان يشبه رشدى أباطة بقامته الفارعة وبنيانه المتين وشعره الناعم، والذى كان يثبته إلى الوراء فاستحال لونه إلى الرمادى بفعل صابون والفضلين. كان عاطلاً عن العمل فامتهن البلطجة، وكان دائم حرب من الشرطة فاستحالت سيرته إلى أسطورة بديعة الخاصة والسرية نرقت فى عشقه، ولم يكن هو يشعر بها، لكنه جاء إليها «على ملا وشه» كعاً ومدلهاً ومعتزلاً بحبه لها لما سحرت له عن طريق عبد القوى بائع ضمام فى الظاهر والساحر الشرير صاحب الأعمال السفلية التى دخت بولاق الدكورور كلها، طلب منها «أتر» نور، فأخذت تتحايل علها تعثر على حنة من هدومه فيها ريحة عرقه، اتفقت بديعة مع بعض «الصيع» على التحرش بنور والإمساك بخناقه وهريده هدومه، قالت من يجيئنى حنة من هدومه له عندى مكافأة.

وفى صبيحة أحد الأيام، وبينما كان نور يمشى فى حارة على أبو حمد مختلاً فخوراً يقول «يا أرض انهدى...» هاجمه ثلاثة شبان مفتولو العضلات، لكن نور الذى كان يفوقهم قوة، خلع هدومه فأصبح عارياً إلا من الكلوت وطوَّحَ بقدمه فى الهواء كما كان يفعل بروسلى، الذى شاهدته فى فيلم «الرأس الكبير» حين عرضته سينما مرمر، فجاءت فى محاشه الأول وسقط على الأرض فاقد الوعى، والثانى ضربه بقبضة يده فى وجهه فانفجر الدم من أنفه، والثالث أعطاه مقص رجل أوقعه ووقع فوقه وأخذ يضربه حتى صرخ «حرمت والنبي يا عم»، ثم ارتدى هدومه ومضى. بديعة التى كانت جالسة فى بيتها الكائن بحارة على أبو حمد تنتظر أن يأتوا لـ «بأتر» نور، عرفت بالواقعة، فازداد هيمانها به، وهمست لنفسها: «والله لـ كان ضريبه لكرهته» وفكرت أنه لن يأتى «بأتر» نور سواها، فكان أن ابتدعت خطة وهى أن تتعرف على أخته فهيمة فتعرفت عليها وصارت صديقتها الوحيدة؛ وفى أحد الأيام، ذهبت معها إلى منزلها، لم يكن نور موجوداً، أمه كانت جالسة بالقرب من شباك يطل على الحارة الضيقة عجوز تعدت الثمانين وفقدت بصرها منذ أربعين سنة.. تقول إن المليجـ رحل ونور فى بطنها حته لحمه لم تتشكل بعد. زينب ابنتها البكر، ونور جـ بعد رحيل والده بثمانية أشهر. وتركتهما زينب وذهبت لشراء باكوشاى من محل بقالة على أول الشارع. قالت بديعة إنها ذاهبة لشرب الماء من المطبخ، وتسلمت إلى الحمام فعثرت على هدوم قرب الغسالة، أخذت تقلب فيها حتى عثرت على لباس نور فخبأته فى صدرها وعادت إلى نور التى عرفت أن اسمها تهانى.

عادت بديعة إلى بيتها وحين انفردت بنفسها أخرجت اللباس من صدرها وأخذت تقلبه فى يدها، كان أبيض كالحا ومبلولاً، قريبته من أنجب فشممت رائحة عفنة مع رائحة أخرى نفاذة أدارت رأسها وجنتتها، حتى وضعت اللباس بين فخذها ونامت عليه.

فى الصباح لم تستطع بديعة الذهاب إلى الساحر عبدالقوى كانت تشعر بكسل لذيذ فأخذت تتمتع . تذكرت لباس نور فقامت وخبأته فى -إلابها، أحست أنه كان معها طوال الليل. وقررت ألا تعطى عبد القوى أتر -ر. فقط أعطته اسم أمه حين قابلته، فكتب ورقة بدم الغزال وطلب منها -بتها فى الماء ورشها على عتبة بيتهم وفى الأماكن التى يخطو فيها؛ -سهرت حتى اقتراب الفجر ثم تسللت وهى تحمل علبة صفيح ملأنة بالماء -رشتها كلها على عتبة بيته وفى الطريق التى يمشى فيها.

كانت تحلم بنور كل يوم، يجيئها فى أنصاف الليالى ويظل معها حتى -صباح.. كانت تقوم وكل حنة فى جسمها تؤلها وكأنه كان يعصرها -صراً! حلمت بديعة حلماً غريباً لم تستطع تفسيره: دخل عليها ذات يوم -ؤها الكبير حفىنى يجر خلفه كلباً مربوطاً بسلسلة، أخذ الكلب «يزوم» -يوش، فلمحت دموعه تسيل على وجهه، نظر إليها باستعطاف وجلس -حت قدميها، وهى حالما رأت الكلب شعرت بدقات قلبها تتسارع وتعلو مثل -نى، أدارت وجهها خبأته استحياء، وقالت لأخيها حفىنى: هل هان عليك -ر بيتك حتى تدخل عليهم شابا غريباً. وهتف حفىنى مستنكراً. شاب -ريب! إنه كلب وجدته فى الشارع فعجبنى شكله وصعب على فأحضرتة. -نت بديعة. إنه شاب مسحور وغابت لحظات عادت بعدها بطاسة ملأنة -بماء، قرأت عليها بالسريالية، ثم قالت إذا كان الله خلقك كلباً فكن كما -نت، أما إذا كنت مسحوراً فارجع إلى صورتك التى خلقك الله عليها. ثم -عت الطاسة فى وجه الكلب فغطس وانقلب شابا جميلاً كان هو نور بعينه، -نى ما إن لمح وجهها حتى وقع فى غرامها وتزوجها ودخل عليها فوجدها -رة ما ثقبت، ومطية لغيره ما ركبت، فأطلق مدفعه على قلعتها فهدمها. -ن هذا الحلم هو نفسه الحلقة التى سمعتها مساء الجمعة الماضية من -ف ليلة وليلة بصوت زوزو نبيل، لكنها لم تتذكر أنها سمعت ذلك من قبل، -نط الحلم وحده شغلها عدة ليال متواصلة، وخافت إن هى أخبرت أحداً

لشك فى قواها العقلية، وخافت أكثر أن يتحقق الحلم فينقلب نور قرداً أو كلباً ولا تعرف كيف ترجعه إلى صورته الأصلية، لذا فقد قررت ملازمة عبد القوى الساحر عليها تتعلم منه شيئاً يعينها على أيامها القادمة، وتعلمت «الجلجلوتية الصغرى والكبرى وكيف تربط محلولاً وتحل مربوطاً والطوائع وعلوم السيمياء والأبواب والعزائم والبروج والطبائع والطلاسم وأبواب المحبة والدخول على الحكام وضرب الرمل وخلخلة الهوا الكبرى وشبشية زعزوع وشبشية ناصور وشبشية أبو الرياح ومندل المرأة ومندل طيفور وفتح الكنوز...»، وفى خلال ستة أشهر كانت تفوقت على أستاذها حتى أني سخرته لخدمتها هى التى لم تدخل مدارس أو تتعلم القراءة والكتابة، لكنى حفظت كل ذلك على السماع. وفى خلال تلك الشهور والأيام، كان حب نوري يتمكن من قلبها حتى ملك كل حياتها، فأقسمت إن حضر شيطانها فسوف تأمره أن يأتى به مكبلاً وممسوخاً، وسوف يستعطفها فتعطف وتحن وتسر وتطلق سراجه بعد أن ترده بشرا سويًا.. حلمها الذى حلمت به ذات يوم لكن نور العصى على شياطين الجن والمعوز من سحر بديعة هزمها ودحر السجن متهما بالسرقة.

بديعة لم تيأس أو تسل حب نور، وحين علمت بالخبر من أخته ضربت كفا بكف وقالت كلمة لا يخجل قائلها: لا حول ولا قوة إلا بالله. وأرجعت ما حصل لنور إلى العكوسات، واتهمت شيطانها بالخيانة، وقررت تحارب حتى النهاية فذهبت إليه فى السجن، وهو الذى لا يعرفه. يرها قط، سألته سؤالاً وهى تنظر إلى عينيه مباشرة: هل سرقت نور أخذ يتفحصها من قدمها حتى رأسها فوجدها طويلة بلا داع ندى وأكثر نحافة مما تتحمل عيناه، ووجد أن أنفها المديب يعطى مشرقة لدمامة وجهها. اسمعى يا ست إنت، قال نور مشيراً بازدراء لحظته بيد أنا لا أعرفك، ولكن أقسم بشرف أمى إنى لم أسرق، وإننى برىء من الأمر.

زاد عجبه حين سمع صوتاً يشبه نقيق ضفدع عطشان يقول له: أنا نسقك، وسوف أعمل على إظهار براءتك، ولكن بشرط. سكتت وأخذت خن في عينيه؛ وهو أطرق برأسه إلى الأرض مفكراً في شرطها: ماذا سأفعل أن يكون، ومن هي أصلاً حتى تتمكن من إخراجه؟

أن تتزوجني. سمع نور جملتها الأخيرة لحظة انتهاء موعد الزيارة، فيما كان يغادرها فكر في جملتها بإمعان، وأحس أن هذه المرأة توشك أن تحصره فغمغم لنفسه: مش لو خرجت من هنا!

نكن نور لم يمكث في السجن أكثر من أسبوع، خرج بعده حراً طليقاً، لكن من ذلك فقد استطاعت بديعة تقديم الجناة الحقيقيين للمحاكمة، أما كيف حدث ذلك فهو سرها الذي لم تطلع أحداً عليه، حتى ابنتها الوحيدة نحية لم تعرف عنها شيئاً. شيء واحد كانت تعرفه فتحية، حكته أمها من المرات أمامها، كيف جاء نور صباح يوم أحد ليخطبها من أمها وخيها الأكبر حفنى، وكيف استسلم لكل شروطهما، والأغرب من ذلك أنه تزوجها بعد الخطوبة بعدة أيام.

(٢)

نور

أنا لا أعرفه، فكيف أكتب عنه، هل أكذب؟ أو أتخيل أحداثاً لم أعشها. أؤلف، أؤلف عن شخص عرفته وأنا فى السادسة من عمري؛ وكانت علاقتنا أنه كلما رآنى ضرب يده فى جيبه وأعطانى نوعاً من البونبون يسمى نادلر، فأفرح لذلك وأحبه وأتمنى مقابله دوماً.

اسمى خيرى عبد الجواد، مؤلف قصص وروايات، من عرفنى فقد اكتفى، ومن جهلنى أقول له إجابة على سؤاله كيف أزج باسمي فى هذه الكتابة، هكذا عينى عينك وقد جرى العرف أن يكون الكاتب الراوى مخفياً يحرك أحداثه من وراء مكتبه، لا أحد يعرف فيما يفكر، أفكاره يطرحها على السنة شخصه، آماله وطموحاته وأحلامه يدونها على الورق من وراء حجب. أنا غير هؤلاء يا صديقى، أنا أكتب عن نفسى فى كل ما كتبت، ليس حبا فيها إنما نفسى هى الوحيدة التى أعرفها وعشت معها وخبرتها فى كل أحوالها. وقديماً قال أحد الفلاسفة اعرف نفسك وهأنذا أحاول معرفتها. وكانت بديعة أقدر منى على معرفة نور. وكيف لا، وهى التى أحبته وتزوجته وأنجبت منه ابنة وحيدة اسمها فتحية. سوف يأتى الحديث عنها فيما بعد. لذا، فسوف أكتفى بما قدمت بديعة عن نور فى الفصل الأول، أما ما لم تعرفه بديعة فهو ما سأتحدثه أحكيه.

خرج نور من بديعة بعد خروجه من السجن مباشرة، ورفضت أم نور أن
تـ معها في حجرتها، فأخذته بديعة ليسكنها مع أمها وأخوتها، عاشا
- حجرة صغيرة لها باب منفصل عن الشقة يفتح على بئر السلم، بينما
تـ أم بديعة والتي كانت تسمى أم حفنى على اسم ابنها البكر. هي
حنى ومحاسن (فهيمة) وصديقة فى الحجرة الأخرى. نور ظل عاطلا
- نعمل، وسجائره ومصروف جيبه كانت بديعة توفرهما له من معاش
ب. تسرق من بـ أمها ما تيسر كلما سنحت لها الظروف، وكانت أمها
حرف، لكنها تفاوضت فى أول الأمر، ثم رأتها تسرق ذات يوم فواجهتها،
غضبت بديعة وكرهت أمها فى تلك اللحظة وتمنت أن تسخطها قردة،
تنت هي فلوس أبى، ونور لا يشتغل فما حيلتى! تحبى أولع فى نفسى
بـتاح الجميع. وأم حفنى لم تأخذ بتهديدات بديعة ولا بصوتها العالى،
تنت لا بد من حل. علا صوت بديعة وأمها، وخرج نور على صوتهما
رغف يتفرج، لم يكن بالمنزل غيرهم، وتجرات بديعة ومسكت فى خناق
بـ وقالت لها خنقتينى يا شيخخة، ما تموتى وتريحينا من بخلك وقرفك.
بـ بديعة صعبت عليها نفسها فضربت بديعة على وجهها بكف يدها..
حرجت عفاريت بديعة من عينيها فردت على أمها بقلم مثله، وجاء نور
نزعدها فى كتفها فصوت، ودفعتها بنتها فوقعت على الأرض وقدمها
يمنى تحتها، صرخت: رجلى انكسرت. ومن شدة الألم أغمى عليها.
حملها نور وجرى وبديعة وراءه إلى مستشفى بولاق الدكرور العام. قرر
حكيم علاجاً يزيد عن واحد وعشرين يوماً وجبست رجلها واتهم نور
بديعة بالاعتداء عليها. ونور الذى له سوابق هتف حسبى الله ونعم الوكيل
فيك يا شيخخة، ورمى يمين الطلاق على بديعة التى وقفت مذهولة لا تدرى
ماذا تفعل فى المصيبة التى حطت على رأسها. فلا هى تقدر ترجع لبيت
أمها بعد أن طردتها هى وأخوتها، ولا هى على ذمة نور، ماذا أفعل يا ربى،
تساءلت وأخذت تبكى، ومن بين دموعها تذكرت أن لها أقرباء فى الشارع

نفسه، فذهبت إليهم وحكت حكايتها كما تخيلتها هي فبدت مظلومة، وتعاطفوا معها ويعد إلحاح منهم رضيت بالإقامة عندهم.

هنا أبدأ الحكاية وأنا على يقين مما حدث فى تلك الفترة، فقد كنت طرفاً فيها، ذلك لأن العائلة التى أقامت عندها بديعة عائلتى، كان أبى عامل البناء قد رضى بإقامة بديعة بين الأسرة كأحد أفرادها الذين تجاوز عددهم أربعة عشر فرداً، كان لديه ست بنات فلم يضره أن يزدن واحدة أخرى، كذلك أمى التى كانت تكبر بديعة بعدة سنوات رأت أن تعطف عليها بعد أن سمعت حكايتها. لم تكن بديعة تمت للعائلة بصلة، اللهم إلا صلة الجدور، وذلك أنها من القرية نفسها التى تقع فى محافظة المنوفية وتسمى «كوم الضبع»؛ وكانت تنتمى لإحدى العائلات الفقيرة التى لم تكن لها أرض أو زرع بل كانت تؤجر نفسها للعمل لدى الآخرين بأجر لم يكن يكفى للطعام، فاعتمدت على ما يمنحه الآخرون مما يفيض عن الحاجة.

أصبحت أنا ابن السادسة أرى بديعة أمامى فى كل لحظة، بل إننى كنت أصحو من نومى فى بعض الأحيان لأجدها نائمة بجوارى على سريرى بملابسها الداخلية، وقد انحسر اللحاف عن جسدها الأبيض البض، بينم كنت أشم رائحة عطرها وعرقها وكانت تبدو لى جميلة. وذات مرة صحت فوجدتها نائمة بجانبى كعادتها على ظهرها شبه عارية، كانت تضع إحدى ذراعيها تحت رأسها بينما ذراعها الأخرى طوحت بها قريبة منى، وصدرها بدا مثل ربوة عالية بيضاء ومدكوكة، وقد باعدت ما بين ساقىها فانحسر الكلوب على أحد جانبي فخديها فظهر شعر عانتها كثيفاً وأسود ناعماً، مددت يدي فأمسكت أصابعى بعض شعرها وشدته صرخت وقامت منتورة تلتفت حولها فى زعر، وبعد لحظة تنبعت إلى الفاعل لم يكن سوى، فنظرت إلى وتبسمت ولفت ساقىها حولى تك. تعصرنى ونامت مرة أخرى.

تعلقت ببديعة وتعلقت أكثر بمداعبتها لى. كنت أنا الوحيد الذى تسمح - بتقبيلها من فمها، وكنت أحب ذلك لأستمتع بطعم أحمر الشفايف الذى يشبه رائحة القرنفل، وفى كل يوم، كانت تسخن بستلة الماء على الوابور جاز السكاتى، الذى لم يكن سوى دانة مدفع عثر عليها أبى بعد الحرب ثم بمعالجتها لتصلح موقداً، وقبل الماء تكون قد أتت بكسرونة ووضعت فيها بعض السكر والماء، وتتركها حتى تغلى ثم تقوم بصيها على البلاط فتجمد قليلاً حتى تصير حلاوة لينة تفرکہا بأصابعها ثم تفردها على مريض من جسدها تنزع الشعر منها، كانت عملية مؤلمة لأنى رأيت بديعة تصرخ فى كل مرة، وحين تنتهى يكون الماء قد غلى فى البستلة. فتضعها على الأرض وتضع الطشت النحاسى الكبير فى منتصف الحجرة، ثم تخلع ملابسها وتجلس فى الطشت وتصب فوق جسدها الماء الحار بعد مزجه بماء البارد، سمحت لى ببديعة بالاستحمام معها مرة، ورأيتها تحك جسدها الأبيض بالليف بشدة حتى كاد الدم يتفجر منه.

بديعة أصبحت ركناً أساسياً من أركان منزلنا، وبدا أن لا أحد يستطيع لاستغناء عنها، أنا الذى كنت أنتظر مداعباتها لى والتمسح بها فى كل وقت فقد أدمنت رائحتها. وأمى التى حملت عنها بديعة بعض أعباء المنزل، وحتى أبى الذى كان يصحو مبكراً للذهاب إلى عمله فيجد بديعة قد صحت قبله وجهزت فطوره.

لا أحد يدرى ما الذى كان يدور فى ذهن بديعة فى تلك الفترة، لكن أمى المريضة دوماً والمجهد طوال الوقت بدأت تشعر بالخطر من بديعة، وأخذت مشاعر الغيرة تعصف بها، لكن ما الذى تفعله؟ أخذتتى ذات مساء وذهبتنا سوياً إلى منزل نور، قابلنا أمه، وسألتها أمى عنه فقالت إنها لم تره منذ أشهر ولا تعرف عنه شيئاً، ودعت على بديعة التى طفشت ابنها وخربت بيته. لكن أخته كانت تعرف، فقد سمعت أنه يعمل عرضحالجي

على باب أحد أقسام الشرطة، واحد من الجيران شافه مرة هناك، لكن أين؟ لا تدرى.

خرجت أمى من بيتهم وهى مصممة على إيجاد نور بأية طريقة، فهذه هو الحل الوحيد. بيتى هيتخرب، كانت تغمغم وهى تسحبنى من يدى وتهتف قائلة: المرة داخلة على خراب البيت. مستغنية وفاجرة ولاحد حاكمها.

شعرت بأزمة أمى، وكنت أرى دموعها على خدها طوال الوقت فى صمت، ولا أحد يدرى ما بها سواى. وفجأة أصبحت لا أطيق بديعة كرهتها وبت لا أطيق رائحتها. ورأيتها للمرة الأولى امرأة دميعة، وأنها ن تكن جميلة فى يوم من الأيام، وأخذت أعقد المقارنة طوال الوقت بينى وبين أمى فأنتصر لأمى.

بعد عدة أيام عرفت أمى مكان نور وأخذتنى وذهبنا إليه. كان يجلس أمام قسم الشرطة على البحر، أمامه ترابيزة تظللها شمسية وقلم وعد دفاتر وأختام، كان يرتدى جلابية ناصعة البياض فوقها جاكيت بدلة أسود وكان أكثر تأنقاً عن ذى قبل، وعند رؤيته لى أخرج من جيبه أقرص النادلر وناولنى إياها، شرحت له أمى كل شىء من طقطق للسلام عليك وفى النهاية قالت له: تعالى خد مراتك ولمها فى بيتك يا ابن الناس. نور منفعلاً وظهرت سنته الذهبية متألقة بانعكاسات الشمس، وقال: عيلة وسخة والمرة دى خرابة بيوت، ابعدينى عنهم.. الله لا يسبئك. انشغل نور بعض الوقت بكتابة عرض حال لإحدى السيدات وانشغلت أنا بمتابعة الداخلين والخارجين من وإلى القسم، وكانت أمى جالسة مطرفة فى صمت. انتهى نور مما فى يده، وقال لأمى وهو يرتب بعض الأوراق: شىء يا أم جمال دا موضوع مالوش حل، وأنا زهقت من الحتة كلها وربنا مد ولقيت عمل شريف ونسيت شقاوة زمان، وأنا لغاية دلوقت عمال أفكر.

بني رمانى على العيلة الوسخة دى. أكيد عاملين لى عمل، وأنا متأكد،
 - حتى كرهت أمى وأختى اللى مالهمش غيرى وما شفتهمش من ساعة
 - حصل اللى حصل.. تفتكرى دا طبيعى؟ قالت أمى: يا نور يا خويا
 - سرين البطن بتخانق وبيحصل أكثر من كده بين الرجل والسبت بتاعته،
 - خلاق خراب بيوت يا خويا. هيه اللى بعثاكي، قال نور! فحلفت أمى
 - يدنات المسلمين إنها جاءت من ورائها وقصدها الخير. سلم علينا نور
 - عز يقول ربنا يقدم اللى فيه الخير. قالت لى أمى ألا أخبر أحداً بأننا
 - دنا نور. وحين رجعنا إلى البيت وجدت أمى بديعة نائمة على سريرها
 - عمدان بقميص النوم ولم يكن أبى موجوداً، فغضبت أمى وشخطت
 - عيا، وقالت : استرى نفسك يا مرة، البيت فيه رجالة، فقامت بديعة
 - رجهت إلى حجرتى وأغلقت الباب على نفسها.

بديعة اشتغلت لنا فى الأزرق فتشاجر أبى مع أمى وكاد أن يطلقها.
 كنت رائحة البخور تملأ البيت وكانت بديعة تغغم طوال الوقت بكلام غير
 مفهوم، كانت ترش عتبه بيتنا بالماء الملون فيطأه أبى، وكاد يموت حين
 عطته طعاما كان معجوننا بدم العادة فتقيأه، ولت أمى هدومها وسافرت
 لى بلدتنا، وقالت إنها لن تعود إلا إذا مشت بديعة. وأبى قال أنا لا أجيء
 على الولايا وانكسف يكلمها، لكنه سلط عليها بناته يضايقنها، غير أنها لم
 تضايق، وكشفت أختى حجابا مخبئاً فى كيس المخدة التى ينام عليها أبى
 بعد فوات الأوان، ذلك أنه أصيب فى جسده بحساسية جعلته لا ينام بالليل
 أو بالنهار، وجلس فى البيت بلا عمل بينما جسده كان يبدل جلده طوال
 نوقت. وعلمت أمى بخبر مرض أبى فقالت دا ذنبى وأسرها أبى فى نفسه
 نتي صعبت عليه، ومع قلة حيلته ومصيبته التى جاءت من حيث لا يدرى
 كان يصرخ من شدة الوجع، وبناته كن يتناوبن على تغيير جلبابه وغياراته
 لداخلية كل ساعة، وكان جلده يخرج ملتصقاً بالجلابية التى كانت تنز

صديداً وماء. بينما كان يلوك المضغ فى فمه. قال أبى جرح السلامة كز
يوم له علامة، وجرح الندامة التمس له طبيب. وجاء الطبيب وكتب له
علاجاً وأوصى بعدم الاقتراب من البيض والفرولة. وراق مزاج أبى بعد
ذهاب الدكتور وقال لنا: مش لما نلاقى الغموس نبقى ناكل فرولة! ومـ
بوزه وقال: هاؤ.

ونور الذى غطس بعد زيارة أمى له، ظهر فجأة يحمل فى يده كبر
فاكهة. قال إنه بمجرد سماعه بمرض أبى ترك ما فى يده وجاء فور
سلامتك يا عم محمد، يا غالى.

وانتهزها أبى فرصة وفاتحه فى أمر بديعة: ما تردها يا نور وترج
الجميع، وبديعة التى ما إن علمت بمجىء نور حتى وقفت خلف البـ
تنتصت وهى على سنجة عشرة، فسمعتة يقول: شوف يا عم الحاج، هـ
على الجد والجد هاللة هاللة عليه. اللى ينكسف من بنت عمه ما يجتـ
منها عيال، واللى أوله شرط.. ما هو أنا جاى أردھا بس بشرط. كانت كـ
شروط نور عبارة عن شرط واحد، أن تتبرأ من عيلتها الوسخة! وإن كـ
عايزانى تعتبرنى كل عيلتها، ودا اللى عندى. تنحج أبى ونادى على بديـ
فجاءت وهى عاملة نفسها مكسوفة وقالت: أيوه يا حاج. مش تجيبى حد
للراجل يشربها، قال أبى وأشار لنور، فغابت بديعة دقائق وعادت بصـ
عليها كوب شاي وضعتها أمام نور، الذى نظر إليها فرأها زى
فأعجبه شكلها.

نور جاى يردك يا بنت الناس وانتو مالكوش غير بعض، بس له شـ
اللى تشوفه يا حاج، وسى نور شروطه كلها على عينى وراسى من شـ
قالت بديعة ونظرت بدلال لنور الذى ما إن سمع كلامها، الذى ينحط
الجرح يبرد، حتى هتف: شرطى إن إحنا نبقى فى حالنا لا تقوليلى
ولا أقولك أهلى، أهلك هما أنا، موافقة يا ستى؟

حفنى بعد أن فكت الجبس عجزت، رجليها عقدت على الكسر
 سجت لا تستطيع المشى عليها، وحين عرفت أنها لن تمشى أو تتحرك
 رجليها مرة أخرى صوتت وبكت، ودعت على ابنتها بديعة وزوجها نور
 تشوف فيها وفيه يوما أسود من قرن الخروب.. وحفنى، ابنها البكر،
 طويلاً نحيلاً وجهه يشبه قساوة قلب بديعة، كان يعمل نقاشاً باليومية،
 معاش والده الذى كان يعمل عطشجى بالسكة الحديد، كان يستر
 حته فهيمة وصديقة وأمه العاجزة ولم يفكر فى الزواج قبل أن يدخل
 بيت العدل؛ ورغم ذلك، فإن حفنى وقع فى حب «صفاء» ابنة الناس
 كان يبيض شقتهم فى شبرا من أول عينه ما وقعت عليها وحكايتهما
 مديّة ومعروفة. ليس هذا أوانها.

نور العايق الشاطر.. ربنا نفخ فى صورته وهداه، استقام فى عمله أمام
 حسم وحبب فيه خلقه، وبين عشية وضحاها، شوهد يتردد على الجوامع
 على الوقت بوقته ولم يعد يترك فرضاً ولا سنة، والسبحة استقرت بين
 تابعه تعبث بها على الدوام، وخلال ستة أشهر ازداد وجهه بياضاً وألقا
 عز الإيمان، واسودت جبهته من أثر السجود، وتمتع بشفاوية جعلته يطرح
 على بديعة فكرة مصالحة أهلها وطلب السماح من أمها، إلا أنها رفضت
 سنة، وقالت يا نور أنت أهلى وكل ناسى وربنا يخليك لى.

وأذاقته تلك السنة ما لم يذقه طوال حياته من سعادة فاضت على
 زحجه حتى طلعت تقابل ربا اسمه الكريم. أما كيف حدث هذا التحول
 زرق؟ فهو ما تكشف عنه كراسة كتبها بخط يده ووضعها فى ظرف، وكتب
 فيه بالخط العريض: لا يفتح إلا بعد موتى، وأنا لله وأنا إليه راجعون.

(٣)

منامات نور

جاءت بديعة بعد موت نور إلى بيتنا، كانت ترتدى جلابية قتيبة سود، وطرحة أيضاً، وكانت تبدو على وجهها سمات الحزن على زوجها، أمر قابلتها بالأحضان وقبلتها من هنا ومن هنا، وأبى عزاها في زوجها وأخذ بخاطرها. جلست بديعة مسهمة ونظراتها زائغة، وكانت تحمل في يدها كيس نايلون ملفوف كذا لفة، أخذت تفكه ببطء وأخرجت منه كراسة بجلدة خضراء.. فرت الدمعة من عيناها وقالت إنها كانت تقلب في حاجات نور بعد ما مات - الله يرحمه - فوجدت هذه الكراسة وأشياء أخرى، وفي حين رأت خطه عليها انخطف قلبها، فهي تعرفه رغم أنها لا تقر به. تكتب، وأحست أنه ترك هذه الكراسة لها وحدها، فربما أراد أن يقول - شيئاً انكسف أن يقوله في حياته. مدت بديعة يدها بالكراسة ليقرأها لها، وتنحنح أبى واستأذن من بديعة في الانصراف، كذلك فعل أمى بنكاء وطيبة، فربما كانت هناك بعض الأسرار لا يجب أن يعرفها. قالت بديعة وأشارت بيدها: تعال هنا جنبى عشان أسمعك كتر. فجلست بجانبها ورائحتها القديمة لم أعد أشمها. على الغلاف الأحدث الخارجى كان هناك مربع كتب فيه: الاسم، الفصل الدراسى: العام. تحب بعضه، وفى الخلف كان جدول الضرب من واحد لمائة، وفى أول صدر كتب بالخط الجميل: منامات نور بن عبد الرحمن لما تاب الله على

حذت أقرأ بصوت عال وبديعة تسمع: أنا - وأعوذ بالله من كلمة أنا - نور
 - عبدالرحمن العرضحالجي بمحل عمله الكائن أمام قسم شرطة الجيزة
 - البحر، أقول قولي هذا وأنا في دار الحق، وأنتم في دار الفناء، عشت
 حياة طويلاً وعرضاً بحلوها ومرها، سرقت وكذبت وعصيت فما الذي
 ذيف آخذه في النهاية سوى حفرة متر في متر وقطعة قماش تستر
 نذرتي أمام خالقي. أقول لكم ما قاله شيخى ابن عروس لما تاب الله
 نية.

حرامى وعاصى وكذاب.

عاجز هزيل العطايا

وتبت ورجعت للباب

حياً جزيل العطايا

باب الحرام واسع لا آخر له، وأنا مشيت فيه وتوغلت وما عدت أعرف
 باب أرجع، حتى أننى نسيت الأبواب الأخرى، لكن لما ربك يريد يقول
 شئ كن فيكون، ورحمته واسعة، فلما أراد لى الهداية، أرسل لى
 علامات على هيئة منامات، وأنا الذى كنت أفهمها وهى طائفة، فهمت
 بعيت الرسالة، ومن يقرأ كتابى هذا فليتعظ، وليأت بورقة وقلم ويكتب:
 بحان الله وبحمده عشرة آلاف مرة ويوزعها على أمة المسلمين، فإنه
 - حج بإذن الله.

- منام ١

فرايت أننى داخل قاعة مظلمة، فلا لها ضبة ولا مفتاح، وكأنى فى
 - بكة ماء لونها أسود، من وقع فيها أكله تمساح. ورأيت جمل المنايا نخّ قدام
 - ب وأخذنى على ظهره المشوم وراح.

* * *

- منام ٢

رأيت نفسى جالساً فى مكان واسع رحيب، وإذا بكراسى صفت وجلس عليها أصحابها، وقال كبيرهم: اهدموا هذا البيت، وأشار إلى بيتى. فرفع أحدهم النبوت وأراد وضعه تحت أساس البيت، فتعلقت بنبوته وصرخت: لأى شىء تريد هدم بيتى. فلما رأتى تعلقت بنبوته هتف: يا دايم. ودفعنى بنبوته فغبت عن الوجود مدة ساعة. وحين أفقت، وجدت نفسى فى واد ليس به صريخ ابن يومين، فمشيت فيه حتى انتهيت إلى شجرة عالية خضراء مورقة، فصعدت فوقها وجلست مختبئاً بين الفروع، وإذا بى أجد رجلاً لا أدرى من أين جاء، وأخذ يكنس تحت الشجرة ويرش الماء، ثم أخذ بعد ذلك أحجاراً من الأرض وصار يصفها على هيئة كراسى فصارت مثل الديوان، ثم نادى قائلاً: بسم الله تفضلوا، فالمكان خال. وما إن انتهى من كلامه حتى أقبل رجال كثيرون، وجلس كل واحد منهم على حجر من تلك الأحجار، ثم بعد ذلك جاء رجل جليل القدر والمقام وعليه مهابة، فنهض جميعاً وسلموا عليه بأدب، وعرفت أن هؤلاء الرجال جميعاً من أولياء الله وذلك من أسمائهم التى ناداهم بها الشيخ الجليل والذى لم يكن سوزى القطب الكبير سيدى أحمد البدوى رضوان الله عليه، كان بينه وبينى عمى فى الله، وكنت كلما ضاقت بى الحال وانغمست فى الشقاوة والحرام أذهب إليه فى مقامه المعروف بطنطا، فكنت فى اليوم الذى أريد الذهاب إليه أصحو ميكراً على غير عادتى، وأخذ حماماً حتى أصبح فى حضرته طاهراً، وحين أصل المدينة، أتجه مباشرة إلى ساحة مسجده فأجلس على قهوة فى مواجهة المسجد، أشق ريقى وأشرب الشاى مع شيشة تفاع حتى إذا ما انتهيت من كل ذلك أخش المسجد وأتوجه مباشرة إلى ضريح مولانا حيث أجلس بالقرب منه، وأبدأ بقراءة الفاتحة لأمواتنا وأمرت المسلمين ثم أخذ فى مناجاة القطب الغوث، فلا أشعر إلا ونفسى المكروته هداً ونفسى تنزاح عنها الهموم والغموم وكأنى اغتسلت فى بحر حـ

يعطفه. تلك كانت علاقتي به، فلما رأيته فرحت واستبشرت خيراً، وجلس على أكبر الحجارة والتفت إلى أحد الواقفين وقال له: يا جوهرى سمعنا غاتحة فى صحايفنا وصحايف أولادنا وإخواننا وأعمامنا وتوابعنا : نأخذين عنهم وعنا، بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قرأ الفاتحة وقرأها جميع الحاضرين بصحبته وبعد ذلك قال: يا جوهرى مد قدامنا بساط طريق. فقال له سمعاً وطاعة. ثم إن النقيب قام على قدميه وقرأ فاتحة، وقال الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، اعلّموا أيها الحاضرون الناظرون تسمعون أن هذا القطب الذى قريه الله واصطفاه هو سيدى أحمد بدوى أمرنى بفتح بساط الطريق بين أيديكم، وها هو مفتوح وعليه الأنوار توج لمن يأتى ولن يزوح، لمن له حق ولا يصل إليه، أو له جار وجار عليه، فاسمعوا ما أقوله من الخطاب، ومن كان له خطاب فليحضر إلى هذا نيا ب أمام سيدى أحمد وبحضرة جميع الأقطاب ليأخذ له حقه من خصمه بالعدل والإنصاف، لا ظلم اليوم، فلا أفلح من ظلم إن الله سريع حساب. فما أن أتم النقيب كلامه، وإذا بيد امتدت فكانها رقبة جمل ومسكتنى من وسطى ورفعتنى من على الشجرة، وقدام سيدى أحمد بدوى وضعتنى، وكانت هذه اليد للنقيب المسمى بالجوهري الذى قرأ فاتحة، وقال: أنا مدحت النبى والأصحاب وفتحت بساط الطريق، ويناديت على من كان صاحب دعوة أو له حق فظهر لى هذا الرجل فوق شجرة، فما تقول فيه.

فقال شيخ العرب: هاته عندى. فلما وقفت بين يديه كنت أرتعد خوفاً ومهابة لهؤلاء الرجال. فتبسم لى سيدى أحمد البدوى وطببطب على ظهري فسكنت الرعدة وثبت فؤادى فى التو واللحظة، ثم قال لى: كفاك شقاوة يا نور، أنت من الآن محسوبنا بإذن الله. والتفت إلى رجاله وهتف: اقرأوا فاتحة لأخيكم بالهداية. ثم قال: يا جوهرى خذ بيده وأدخله البستان

المعلوم فأخذنى من يدي وسار بي قليلاً فإذا بنا على باب بستان فدخلنا، فوالله ما إن ولجنا من الباب حتى شممت رائحة من أجمل ما يكون، ورأيت منظراً كأنه الجنة فوقف بي عند شجرة نبق وقال لى: مد يدك خذ ما هو مقسوم لك. فمددت يدي وقطفت سبع حبات فكان طعمها أمرّ من الصبر. وقطفت سبع حبات أخرى طعمها أشد مرارة من الحبات الأولى، وصررت أقطف وأكل والمرارة تزداد ونفسي اشمأزت والنقيب يرقبني ويحثنى على قطف المزيد حتى قطفت سبعاً وعشرين حبة دون أن أجد حبة واحدة حلوة، فنظرت إليه وقلت كفى فقد عافت نفسي هذا النبق، فتبسم في وجهي وقال: خذ ما قسم لك، فمددت يدي وقطفت واحدة كانت الأقرب إلى أصابعي فكانت رائحتها كالعنبر ولم أذق في حياتي لا أحلى ولا أشهى منها. عند ذلك أخذنى من يدي ورجع إلى سيدي أحمد البدوي الذي قال لى: هل أكلت من الشجرة؟ قلت: نعم. قال صف لى ما أكلته، فوصفت له طعم السبع والعشرين حبة، والحبة الأخيرة التي كانت حلاوتها زائدة فقال سوف أنبئك بتأويل ما أكلت: فأما الحبات السبع والعشرون التي أمر من الصبر فهي سنون حياتك الماضية، وأما الحبة التي حلاوتها زائدة في أيامك القادمة، ثم إنه ضمنى إلى صدره وتركنى فصحوت من النوم.

يقول الراجي عفو ربه نور بن عبدالرحمن: هذا ما رأيته في منامتي وأنا أعلم تأويله، فهو ليس كما قال شيخى ومولاي سيدي أحمد البدوي إنما الحبة زائدة الحلاوة هي ما تبقى لى من الدنيا، والموت قادم لا محالة هو أقرب إلى من لحظة نفس خارجة أو داخلة، لذا فقد أخذت من السلامة بعد سكة الحسرة والندامة لعلى أفوز برضا المولى عز وجل. فقولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، وعزائي أن كل حى إلى زوال وموت الحى الذى لا يموت، صاحب الملك والملكوت

(٤)

حفنى

جمع حفنى القرش فوق القرش ليبنى شقة لنفسه فى البيت الذى تركه
 أب والمكون من دور واحد، وحين انتهى انتقلت أمه والبنتان إلى الدور
 حنى وتركن له الدور الأول، حيث كانت الشقة عبارة عن حجرتين وصالة
 غنشة مياه، كان حبه لصفاء قد زاده نحولا من كثرة السهر والتفكير فيها
 حتى ملأت عليه أحلامه وخيالاته، لم يكن يدري أن حبه كان من طرف
 حد فقط - طرفه هو - ولم يكن مؤهلا بطبيعته السمحة الطيبة بلا
 نخسية حقيقية أو إرادة، لقيادة هذا الفرس الجامح المسمى صفاء، كانت
 نغر منه بعشر سنوات، وبينما كان هو طويلاً مفرطاً فى الطول كانت هى
 تسيطة القامة تكاد تصبح قصيرة، ومع نحولها الشديد كانت تملك
 خنداً رائعاً كل ما فيه مدور: الوجه، العينان، الصدر، الخصر النحيل
 غوف، الأرداف الممتلئة المستديرة بنعومة وليونة. ولم يكن فارسها على
 ية حال. وما تملكه فى تلك الأيام لم يكن حبا، كان شيئاً يتجاوز الحب،
 سد أراد امتلاك هذا الجسد الجميل بأى ثمن، ولم يكن يفكر فى
 حساسها نحوه، وهل تبادل له حبا بحب واشتهاء ورغبة، لم يكن يعنيه ذلك،
 نض أن يمتلكها، أن تصبح ملكاً له وحده، ووحده تقع عينه عليها، على
 سد الجسد الرائع بتكوينه المثير وتلك البشرة التى فى لون القشدة شديدة
 بىض والنعومة. كانت مشكلته أن له أختين لم يتقدم أحد لخطبتهما بعد،

كانت أخته الكبرى فهيمة والتي تكبره بخمس سنوات هي المشكلة الحقيقية.. لم تكن تتمتع بأى قدر من الجمال، قامه قصيرة وجسد ضامر هزيل، علاوة على وجه له تقاطيع منفرة. كانت فهيمة تشعر أنها لن تتزوج أبداً، فهي تعدت الثلاثين دون أن تتاح لها فرصة للمس رجل، ولم تكرر فى حياتها السابقة، أى حين بلغت وأصبحت الدورة الشهرية تأنيب بانتظام، لم تكن لها تجارب من أى نوع مع أقرانها من شباب الحى، على العكس من أختها الصغرى صديقة التى مشت مع طوب الأرض وكانت تحكى لها عن مغامراتها البريئة مع الشباب، كانت تشعر بالغيرة من حكايات أختها، لكنها فى نهاية الأمر كانت تقول لنفسها إنها لو أرادت أن تكون مثل صديقة لفعلت، لكنها لا تشعر بالحنين إلى الرجال فإنبه مقرفون، كانت فهيمة ترى فى تجربة أختها الكبرى بديعة مع نور - يجعلها تزداد كرها لتلك الفئة من البشر الذين ينحصر كل تفكيرهم فى تلك القطعة من الجلد بين أفخاذهم وكيف يشبعونها. وحين جاء محمد عبدون، الشاب الذى يعمل سواقا على عربة نقل، لخطبة صديقة أعز فهيمة أنها موافقة على زواج أختها الصغرى قبلها، وقالت إنها ربه تفكر فى الزواج أصلا. وانحلت إحدى العقبات التى كانت تقف فى ضل حفى، فهي هى إحدى أختيه سينزاح همها، وبناء على ذلك فقد فاتح صفاء فى الاكتفاء حتى بخطبة فى الوقت الراهن، ولدهشته، فقد الموافقة ومن ثم الخطبة التى رفضتها صفاء أول الأمر. كانت تشعر لديها فرصة فى الزواج أفضل من الارتباط بهذا النقاش الهزيل. تدرك ما يتمتع به جسدها من جمال، وحين كانت تمشى فى الشارع تحس بوخزات العيون فى جسدها، لكنها كانت تدرك أيضاً ومن عيون الرجال ما لهذا الجسد من سطوة على العقول والقلوب.

تزوجت صديقة من محمد عبدون، وانتقل للإقامة معهم فى شقة - الثانى، كانت الأم العاجزة قد استقرت هى وابنتها فهيمة فى حد

حجرة الأخرى أقام فيها محمد عبدون وزوجته صديقة التي لم تكن تعرف أن القدر يعمل لصالحها مثلما يفعل الآن، فقد اختار لها زوجاً شاباً زوسياً له جسد رائع متناسق كان يحلو له طوال الوقت استعراضه أمامها، - يمكن يتجول في حجرتها الضيقة إلا بالكلمات مستعرضاً عضلات - راعيه المفتولة وخصره النحيل، فإن مهنته الشاقة في السواقة والعتالة - كسبته بنية قوية، كانت نظراتها تلاحقه أينما ذهب وهي تشعر بسعادة غامرة أن رضى عنها زمانها أخيراً، وهي التي لم تكن أبداً جميلة، كادت أن تصبح جميلة يوم عرسها في عين زوجها الوسيم المستعرض دائماً، ولم تكن تعلم من التحرش به وملامسة جسده طوال الوقت حتى يستجيب لمداعبتها، على أنه لم تمر بضعة أشهر حتى انتفخ بطنها وسمنت وترهل جسدها، كما أن ملامح وجهها غير المتناسقة ازدادت تنافراً مع مرور الوقت، وكان محمد عبدون يتأمل زوجته وقد أصبحت حركتها بطيئة من أثر الحمل، ويتساءل: كيف تزوج هذه المرأة؟ هل هو الحب بمراياها العمياء، أم أنه شيء آخر لا دخل له فيه؟ إنه القدر الغاشم الذى أوقعه في هذه الورطة!

بعد زواج صديقة، عمل حفنى بكل طاقته حتى يستطيع تجهيز شقته، وعمل على إصلاح العلاقة بين بديعة وأمه وأخته فحين مات نور فجأة، لم تخبره أخته، بل عرف من آخرين، وذهب هو وحده للعزاء، ذلك أن أمه والبنيتين رفضن الذهاب معه، بل إن أمه اعتبرت موت نور جزاءً عادلاً لما فعله معها هو وابنتها، فبسببهما أصبحت عاجزة مدى الحياة.

ذهب هو وحده، وأخذ بخاطر أخته التي أصبحت وحيدة، وعرف أن نور ترك في بطنها طفلاً عمره ستة شهور. عرض عليها العيش معهم في بيت الأسرة، لكنها رفضت بشدة وقالت إن أمها طردها ولم تكن تطيقها لا هي ولا زوجها - الله يرحمه - أحس حفنى أنه عمل ما عليه، وقال إن الأيام قادرة على محو العداوة وأن مصارين البطن تتعاكز وأن الضفر ما يطلع من اللحم وتركها ومضى. وحين تزوجت صديقة، لم تحضر بديعة عرس

أختها ولم يدعها أحد أصلاً، فقالت بركة اللى جت منك يا جامع، لكنها أخذت على خاطرها وصعبت عليها نفسها ولما اقترب موعد زواج حفنى ذهب إليها مرة أخرى، وقال لها: المرة دى مالكيش حجة، أنا جيت يا أختى أعمل اللى على ولا بد من حضورك وهى فرصة يلتم الشمل مرة ثانية. قررت بديعة حضور فرح أخيها وقالت له: سمعت أن عروستك حلوة. تساءل حفنى بدهشة، كيف عرفت! هى فعلاً جميلة وها تحبها لما تشوفها.

وفى حارة على أبو حمد الضيقة عمل حفنى فرحه على الضيق، له يعزم إلا قرايبه الذين يحبهم، كذلك بعض أصحابه، وجاءت العروسة بكل أهلها وهى زى الفل حتى أنه ظهر بجانبها مثل الغراب النوحى. كانت صفاء رافضة الزواج منه، ولم تستطع أن تحبه، لكن الأم والأب أصرّا على إتمامه، وقالت أمها إن الحب يأتى بعد الزواج وإن حفنى شاب طيب وعلى نيته، وإنها تستطيع أخذ حباب عينيه وطيه تحت جناحها، وليلة الدخلة دخلت معهما أمها وأخذوا شرفها بلدى، وعملوا زفة بالمحارم المنعاصرة بالدم لفت بولاق الذكرور كلها، وحفنى الذى لم يكن يصدق نفسه أخذ يتحسس جسد صفاء، وملمس بشرتها الناعمة يسرى بين أنامله فيشعر بالعجز عن عمل أى شىء، وكانت هى أكثر جرأة منه فخلعت له كل ملابسها ووضعت مخدة تحت ردفها وساعدته على الإنعاض وهى ترهز من تحته حتى هدم قلعتها وخربها، وانتهت الليلة على خير. وفى يود الصباحية جاءت أخته فهيمة بصينية عليها فطير مشلت، عملته منذ الفجر عند سيد الفطاطرى وعسل نحل. وشعر حفنى أن الدنيا تضحك له فصار يلقم عروسته الفطير المغموس بالعسل وهو لا يشبع من النظر إليها وهى بقيمص نومها الأسود المحبك الذى كاد يأكل من جسدها الأبيض حتى. وظل مقيماً فى البيت أسبوعاً كاملاً لا يفعل شيئاً سوى أن يأكل وينام مع عروسته حتى خلصت فلوسه فنزل الشغل بالعافية، وهى ما صدقت أن خلصت منه حتى تنهدت راحة، فهذا المخلوق الذى يشبه الصرم لا يشي

حتى أنهكها، وطلعت لأول مرة أمام البيت وجلست قرب العتبة تنفرج
 عن المارة من جيرانها، سكان حارة على أبو حمد، وتتكلم مع النسوان
 نراثة والغادية.. وجاءت صديقة لتجلس بجانبها ويدور بينهن الحديث
 ننى لا ينقطع فى الأسرار الخاصة والعامه، حدثها صديقة عن زوجها
 محمد عبدون، وكيف يعصر جسدها ويجعل عظامها تططق على نار
 جسده، وأنها لم تعد تحتمل ثقل جسده وعضلاته المفتولة التى لا تترك
 جسدها إلا وهو كالعجينة الطرية. وصفاء لمعت عينها شهوة، ولم تحدثها
 عن أخيها حفنى العامل مثل خيال المآة، ولا عن المجهود الكبير الذى
 يبذله كلما اقترب منها، ولا النهجان وانقطاع نفسه وكأنه جرى من بولاق
 نذكرور للعتبة، ولم تحدثها صديقة عن العلة الساخنة التى تأخذها كل
 يوم من محمد عبدون الذى لم يعد يطيق سماع صوتها، ففى خلال ستة
 شهور زواج طلقها أكثر من اثنين وعشرين مرة، كان يرمى عليها يمين
 نطلاق صباحاً وهو ذاهب إلى عمله، وحين يعود، يكون قد نسى كل شىء
 فيرمى عليها اليمين مرة أخرى حين يذهب للنوم، وإذا لسانها طال عليه،
 فإنه ما كان يضربها إلا بقبضته فى أى عين يرى أنها مناسبة لتحمل
 غضبه الجنونى.. لكن صفاء كانت تلمح آثار تلك الممارك على وجه
 صديقة، والتى ما كانت أبداً تبدى السبب الحقيقى وراء تلك الكدمة، وذلك
 لورم، أو الخدوش بأسفل الرقبة، ولم تكن تمل من اختلاق أسباب وجيهة
 نذلك، فهذه من أثر وقعة، وتلك خبطة فى بوز الترابيزة، وأجرى خربشة
 قطة وهكذا. كانت صفاء تلهب مشاعرهما من رؤية تلك الكدمات، وتحسد
 صديقة على ذلك، فعلى الأقل لها زوج رجل وليس كزوجها الذى لا يهش
 ولا ينش، فقط مخه فى بتاعه المرخى دائماً، ويا ليته بقوة محمد عبدون
 الذى أصبحت تفكر فيه ليلاً ونهاراً وهى التى لم تره سوى مرات قليلة.
 وقررت أن تتحرش به، ففتحت الباب ذات صباح مبكر، وبينما كان ينزل
 السلالم مستعجلاً ذاهباً إلى عمله، الذى تأخر عليه، وجدها أمامه، كانت

ترتدى جلباباً نظيفاً ومحبوباً أظهر تفاصيل جسدها، وكان عند صدره مكشوفاً فأظهر تقاطيع ثدييها النافرين بنهر عميق كان يتوسطهما. وقف وقال صباح الخير فمدت يدها تصافحه، وشعر بليونة كفها ودفئها وهى تنظر إلى عينيه بإغراء جعل جسده ينمل. وسحب يده وخرج وعيناها له تفارقا خياله طوال اليوم. وفى المساء أيضاً قابلته مصادفة مثل الأولى كانت عند زوجته فى الطابق الثانى حين دخل ورآها بالجلابية نفسها، الترتى تكشف صدرها والذى يبدو وكأنه مدقوق إلى خارج الجلباب: أبيض - وبضآن بنهر عميق يشقهما، وجلس بالقرب منها بينما ذهبت زوجته لإعداء العشاء. كان جسدها يكاد ينفجر من ثنآيا الجلباب الضيق ويشع حرارة كادت تحرقه، واستقرت عيناها على صدره العريض البارز بشعره الكثيف وحين أتت زوجته بالطعام كان كل منهما ومن خلال الصمت مغرماً فى خيالاته، وتجردا من ملابسهما والتحما والتطما مثل جبلين، وفى تلك الليلة ضرب محمد زوجته صديقة علقه موت، وأعطت صفاء ظهره لزوجها ولم تعد تطيق رائحته أو رؤية وجهه. وأحست صديقة بأن هذ شياً يدور من وراء ظهرها بين زوجها وزوجة أخيها، بينما أخوها حفنى - يحس شيئاً، كان يخرج صباحاً ولا يعود إلا متأخراً منهكاً ليس له دخل فى يحدث، فقط كان يطلب رضاء زوجته عنه، وكان يتلمس هذا الرضاء بالطرق وأخذت صديقة تنتبه بكل حواسها لما يحدث خلف ظهرها، ولمحت نظرات زوجها لزوجته أخيها، وكذلك نظراتها إليه، وأرادت أن تقطع الثب باليقين. فى أحد الصباحات المبكرة تنبعت من نومها على صوت زوج يرتدى ملابسهم ويهم بالخروج، تظاهرت بالنوم حتى انتهى وخرج وأغز الباب وراءه، تسللت وفتحت الباب وراقبته وهو ينزل السلالم، سمعت - شقة أخيها يفتح ثم يغلق، ولم تعد تسمع شيئاً، نزلت السلالم حافية - أطراف أصابعها ووقفت أمام باب شقة أخيها البرانى، فالشقة كان بابان، أحدهما يفضى إلى الداخل، أما الآخر فكان بالقرب من مدر

يت ويفضى إلى إحدى الحجرتين بالشقة، تلك الحجره التي كانت تسمى حجره «الجلوس» والتي جعلتها صفاء للنوم بدلاً من الأخرى فى الداخل، حنت ونظرت من خرم المفتاح فوقعت عينها على السرير فى المواجهه، برأت زوجها عارياً يتمرغ فى أحضان صفاء التي كانت عارية أيضاً، يسمعتها تصرخ من اللذة. فى خفوت تسحبت صديقة حتى طلعت شقتها دخلت حجرتها ولطمت على وجهها وصرخت: يا مصيبتى. وشهقت نيكاء، لكنها تعمدت أن تفعل ذلك فى هدوء حتى لا يسمعها أحد، ومن ين دموعها همست: وحياء مقصوصى لأفرج عليك أمة ما خلق يا محمد يعبدون أنت وصفاء وأخلى فضيحتكم بجلاجل. على أنها لم تجد ما فعله سوى أن تجلس وتنتظر الفرصة التي طالت وقد بدا لها أنها لن تأتي بئاً، كانت تعرف الآن أنهما يلتقيان يوماً ليدنسا سرير أخيها المغفل يندى من المؤكد أنه لم يعرف شيئاً، ومن ناحيتها فإنها، وبتلقائية، تجنبت شاجرة مع زوجها كما كانت تفعل، بل إنها كانت تتحاشى النظر إلى عينيه، وعاملته بود تعمدت أن يبدو طبيعياً، وحتى زوجة أخيها صفاء، فإنها عاملتها بالود نفسه، وكأنها لا تعرف ما يدور وراء ظهرها. كانتا تجلسان معا كل يوم ساعة العصر أمام باب المنزل ترافقان الناس فى نحارة وتدور بينهما أحاديث النيمة. كانت صفاء دائماً نظيفة معطرة بعد استحمامها اليومى، حتى ليكاد الدم يفر من وجهها. كانت صديقة تعرف بسبب طبيعاً، لكنها أبداً ما بدا عليها شيء مما تعرفه. وقد جاءت لها فرصة أخيراً بعد طول صبر وعلى غير انتظار، جاءت على طبق من فضة، بعد خروج زوجها، وفى أحد الصياحات، لم تجد ما فعله سوى أن تكس حجرتها وتقلبها رأساً على عقب فى محاولة لتنظيفها، والزعافة أخذت تمر على الأشياء لتزيح التراب العالق بها، جاءت بكرسى أمام ندولاب ووضعتة وصعدت فوقه، ومرت بالزعافة على ظهر الدولاب لفاطس، واصطدمت الزعافة بشيء راح يخريش، شبت على أطراف

أصابع قدميها ومدت يدها تبحث عن هذا الشيء حتى وجدته، شريط تسجيل وضع فى كيس نايلون مطوى عدة طيات. نزلت صديقة وأخذت قلب الشريط بين يديها ثم فتحته ووضعتة فى جهاز تسجيل قديم كان زوجها اشتراه من سوق الجمعة. أدارت الجهاز فأصدر أزيزاً وخريشة وأصواتاً مبهمة استطاعت بالكاد تمييز صوت زوجها. أغلقت المسجل ووقفت حائرة بعض الوقت ثم خرجت إلى الشرفة ونادت جاريتها فى البيت المقابل، ورجتها أن تعطياها المسجل لمدة عشر دقائق.. جايلنا يا ختى شريط من واحد قريبنا مسافر برة ومش عارفين نسمعه على الجهاز بتاعنا. كانت تعرف أن مسجل جاريتها جديد، جاء به زوجها من ليبيا حين كان مسافر وكان يحلو له دائماً وضعه فى الشرفة ويطلق صوته على الآخر بأغانى سعدون جابر ومحمد عبده. وضعت الشريط فى الجهاز وأدارته. فميزت الأصوات بوضوح، كان زوجها فى أحضان صفاء، سمعتها تقول له أحبك - محمد. وهو يقول لها أحبك يا صفاء. والاثان يقولان كلاماً فاحشاً اقشع منه بدنها، كلاماً لم تسمعه من قبل حتى وهى بين ذراعى زوجها. لكن رغم غمها فرحت للمفاجأة فإنها لم تكن تحلم بأكثر من ذلك.. خبت الشريط فى صدرها، وانتظرت حتى جاء يوم الجمعة، يوم عطلة أخيه وزوجها وجاءت بمسجل جاريتها الكبير ووضعتة فى بئر السلم على البسمة ثم أدارته وفتحت الصوت على آخره. كان زوجها نائماً فانتبه وهرع - مصدر الصوت، وفتحت شقة أخيها وخرج هو وزوجته، وتجمع بعد الجيران فى مدخل البيت على صوت الآهات والتنهيدات. كانت صديتى تريد للجميع فضيحة بجلاجل، وها هى ترى زوجها يعرض على شفتى غيظاً وقد أحمر وجهه خجلاً ورعباً مما سوف يحدث، ولام نفسه - تسجيل الشريط سراً لصفاء وهو معها، كانت غلطة منه أن يفعل ذلك. - عرضة التسلية، وكتذكار لأيامهما معاً. انتظر حتى انفض المولد وتسحب خارجاً من المنزل فى صمت بشنطة هدومه، هى أيضاً لم تقل شيئاً كتبت

بما فعلت وراقبته وهو يتسلل خارجاً . أما أخوها حفنى، ففى اليوم التالى،
عند أذان الفجر، جاء بعربة حملت العفش، وخرج هو وزوجته تحت غبش
فجر.. ولم يعودا إلى الحازة مرة أخرى إلا بعد ست سنوات كاملة
تضياها فى التيه!

(٥)

أم حفنى

دعمت أم حفنى أسطورة حياتها الخاصة بأن ماتت ست مرات خلال عمرها الذى تجاوز التسعين، عاشت منه أربعين سنة عاجزة عن الحركة بعد أن أصابتها ابنتها بديعة وزوجها نور. أم حفنى تولى عنها زوجها بحبح ومات تاركاً لها ثلاث بنات وصبياً وحيداً، وهى التى لم تكن قد تجاوزت الثلاثين حين رحل، لم تفكر فى رجل آخر غير زوجها وقررت تربية أولادها بمعاش صغير حيث كان بدل تقاعده فى السكة الحديد. لم يكن قريباً لها أو حتى من قريتها «كوم الضبع» لقد جاء فى زيارة للبلدة مع أحد أقرانها ووقع نظره عليها فأعجبه وتزوجها، وجاء بها إلى بولاق الدكرور وأقرب فى السكن الخاص للعاملين فى السكة الحديد. فى ذلك الزمن كانت بولاق الدكرور مستقعات مائية تنمو فيها نباتات الحلفاء، وبعض البيوت المنتشرة هنا وهناك. استطاع بحبح أن يكون مما تبقى من راتبه مبلغاً اشترى قطعة أرض صغيرة بنى عليها هذا البيت، وعاش معها عشر سنين أنجب خلالها حفنى وبديعة ومحاسن وصديقة، ثم تركهم فجأة وأكبرهم حفنى - يتعد الثمانى سنوات. معاشه سترها هى وأولادها إلى أن كبر حفنى وعبر نقاشاً فتحمل معها حمل تربية البنات. كان حفنى هو رجلهم بعد موت الأب، ديك البرابر، ولم يكن أبداً مثل أبيه، ربما هى ساهمت فى أن تجرد منه رجلاً بلا شخصية أو إرادة حقيقية حين كانت تنتصر لبناتها عر

عنه؛ كانت بديعة هي الأقوى دائماً، وقنع حفنى بأن ينطوى تحت حها، تماماً مثلما فعلت زوجته صفاء، أصبح تحت رجلها، مرمطته حنت رأسه فى الطين، وبدلاً من أن يطلقها أو يقتلها كما يفعل الرجال، حها ورحل فهو لا يستطيع الابتعاد عن المرة النجسة، ومستعد بيبوس - إخرتها) حتى ترضى عنه.

أحست أم حفنى بالانكسار بعد ضرب بديعة ونور لها. وحين مات نور ن أن الله انتقم لها منه ومن ابنتها، وأن هذا جزاء عادل، فسوف تبقى - حة برجلها طوال حياتها؛ وأحست بالانكسار يوم سمع كل الخلق ضيحة التى صورتها صديقة لزوجها وزوجة أخيها والكلام الفاحش - سى سجله محمد عبدون لنفسه ولعشيقته - شوفوا الخيبة - كانت - ية مصممة على الطلاق، وخراب بيتها، ولاد الحلال توسطوا بينهما - جعت المية لمجاريتها، وهو على ما يبدو انصلح حاله، فلم تعد صديقة - كثر منه أو يطلع لها صوت، حتى إنها فى ظرف خمس سنوات أنجبت - ولدتين وثلاث بنات. حفنى اختفى هو والفاجرة ولا أحد يعرف عنهما - ين .. أما فهيمة فهى التى بقيت لها، لم تتزوج رغم أنها أكبر من صديقة، - نيا قسمة ونصيب أن تقعد فهيمة معها حتى تخدمها وتقوم على - تها، ورغم أن فهيمة كانت يديها ورجليها، إلا أنها كانت تتمنى زواجها - ر خوتها، كانت ترقبها وماء الشباب يجف من جسدها ببطء حتى ضم - نت عجوزاً.. رأتها ذات مرة تتلصص من خرم الباب على أختها وزوجها، - ذلك بعد زواجهما مباشرة. لم تقل شيئاً، لكنها أحست بحسرة ابنتها - نفسها. أنقذتها من ميبتها الأولى حين توقف قلبها ذات مساء بينما - ت تجلسان أمام التلفزيون، رأت فهيمة أمها تضع يدها على صدرها - نيل برأسها وجسدها على الكنبه بلا نفس، فقط آهة عميقة أعقبها - كون الموت. فزعت فهيمة وزعقت على أختها التى جاءت ورأت أمها - نية على الكنبه، فصوتت، جاء حفنى مهرولاً هو وزوجته وحين رآها أخذ

يبكى وجلس على قرافيصه والتمت الناس وأخذ الجميع يصوتون ويلطمون. ومحاسن التي كانت قريبة من أمها وضعت يدها على صدره بحركة لا إرادية ودلكته، ولدشيتها فقد وجدت قلب الأم ينبض تحت كفه. وإن هي إلا دقائق حتى كانت أم حفنى جالسة على الكنبه تنظر إلى الجنب الملتف حولها بذهول وهى تقول: هو فيه إيه.

احترفت أم حفنى الموت كما احترفت ابنتها صديقه السرقة بالضبط توقف قلبها عن الدق عدة مرات حين كان يحلو لها أن تفعل ذلك، وفي إحدى المرات طالبت غيبتها عن الدنيا فذهب ابنها حفنى واشترى لها كند شرعياً سبع طبقات قدر لها ألا تكفن فيه أبداً، ذلك أنه ظل فى دولار ملابسها مدة أربعين سنة ملفوفاً ومنسياً، وحين ماتت موتتها الأخير وأرادوا إخراجه، كانت العتة قد أتت عليه وما عاد صالحاً مما اضطره لشراء كفن جديد للأم الميتة.

قبل عشر سنوات من رحيلها النهائى أصيبت بمرض السكر والضعف معاً، فهيمة التى راقبت أمها عدة ليال متتالية اكتشفت أن شيئاً غير عاد يحدث، كانت أمها تطلب منها الذهاب للحمام كل نصف ساعة تقريباً «فإن مئانتى تكاد تتفجر» تقول لها فتحملها فهيمة على ظهرها حتى حيلها، مما اضطرها لإحضار مبلولة بلاستيك فى الحجرة، وضعتها بجانب أمها وتقوم بإفراغها طوال الوقت. كما لاحظت شرب أمها للماء بكثرة فتعاونت هى وحفنى وأخذها إلى مستوصف الحاج بكرى القريب المنزل، وطلبت عمل تحاليل لها فظهر السكر فى دمها ويولها، لكن ما كانت لتصدق مرضها، كانت تأخذ حبوب السكر والضغط على معدة وبعد ثنفيان ريق فهيمة. وقبل يوم من رحيلها الأبدى فاجأتها غيبوبة — كان ذلك فى صباح أحد الأيام، وظلت مستلقية على سريرها لا تتحرك مما حولها حتى منتصف الليل حين قامت فجأة وجلست على السرير.

ندمل وعيها ونظرت حولها .. كان حفنى وزوجته يجلسان على الأرض
بـديعة وابنتها الصغيرة فتحية، ومحمد عبدون وصديقة وأولادها،
بـحاسن كانت جالسة بجانبها على حافة السرير، ابتسمت للجميع وقالت:
بـنكو.. هو فيه إيه؟ ردد الجميع فى نفس واحد: حمدا لله على السلامة
بـمه. قالت بدهشة: هو أنا كنت مسافرة وما اعرفش.

قال حفنى: لأ يامه .. كنت فى غيبوبة من صباحية ربنا .

غيبوبة إيه وكلام فارغ إيه . ما أنا قدامكم أهو زى الفل! ونظرت
بـحاسن وأكملت: طب دا أنا حاسة أنى جعانة أوى، أومى يا بت هاتيلى
شوية محشى فى طبق. أصل أنا شامة ريحته والتهمت أم حفنى فى تلك
ليلة حلة محشى كاملة، وطلبت بعدها كوب شاي ثقيل، وظلت ساهرة
حتى صلت الفجر ونامت .. لكنها لم تصح طوال يوم كامل ولا اليوم الذى
تزد. ظن الجميع أنها إحدى موتاتها، وأنها لن تلبث حتى تعود مرة أخرى،
بـن رائحة كريهة انبعثت من جسدها الذى بدأ يتحلل فى تلك اللحظة
بـنقط، أيقن الجميع بموت الأم الكبيرة.

خيرى عبد الجواد - الأعمال الكاملة

القسم الثانى

(١)

فتحية

إقلب القدرة على فهمها تطلع البنت لأمها .

فتحية طلعت مثل بديعة، وما حدث مع أمها سوف يحدث معها، يفصل
منهما عشرون عاما بالضبط .

فتحية ولدت بعد موت أبيها نور بسة أشهر، وبديعة التي هدها موت
جز أقسمت ألا تفرد شعرها على ظهر رجل آخر، وأن تعيش من أجل ابنتها
نيتيمة فعملت خادمة في البيوت من أجل عيون فتحية، التي كلما كبرت
شبرا زغردت حتى جاوز طولها في الإعدادية طول أمها في الخمسين،
نجحت في الإعدادية بمجموع أهلها لدخول مدرسة التمريض، فقد أرادت
أن تكون إحدى ملكات الرحمة، تعلمت ضرب الحقن جنباً إلى جنب مع
فنون السحر التي دأبت بديعة على تعليمها لابنتها الوحيدة . في البداية،
وحيث كانت فتحية طفلة لم تتجاوز العاشرة بعد، أرادت تسليتها، فكانت
تجهز قالبين من الطوب وتضعهما في مواجهة بعضهما وفي وضع الواقف،
ثم تتلو بغض عزائمها فيتناطح القالبان في صراع دام حتى ينكسرا، كانت
تحب رؤية الدهشة في عيني ابنتها التي ما إن وعت ما يدور حولها وما
تفعله أمها حتى قالت لها: علميني ما تعلمته .

فتحية تعلمت كل شيء، وتبحرت في العلوم الروحية والسيمياء والأبواب
والعزائم والطوائف والبروج والطبائع والطلاسم وأبواب المحبين والدخول

على الحكام وحل المربوط وربط المحلول وضرب الرمل وخلخلة الهوى الكبرى وشبشبة زعزوع وشبشبة ناصور وشبشبة أبو رياح ومندل المرأة ومندل طيفور والجلجلوتية الصغرى والكبرى وفتح الكنوز.. وكلها فوائد على الصحة والتجربة. هكذا أخبرتها أمها بديعة وقالت أيضاً: حين أحببت نور - أباك - المرحوم، شبشبت له الثلاث شبشبات وخلخلة الهوى الكبرى فلم يأخذ فى يدى غلوة، ولكن ينبغى الحذر من عدم معرفة كيفية صرف الخدام، فإنهم ينقلبون ضدك ويحرقونك، فكونى على بينة من أمرك.

وحين تخرجت فتحية من مدرسة التمريض أرادت أن تصبح ملاك رحمة، لكنها تحولت بقدرة قادر إلى ملاك جسيم لما رأت «رمضان» فأجبت من أول نظرة، وتمكن عشقه من قلبها، فما عادت تعرف طعم الراحة ولا الليل من النهار. ورمضان الذى تخرج من مدرسة الزراعة المتوسطة عمر فى وزارة الزراعة موظفاً وجاء من بلدته «كوم الضبع» ليسكن فى بولاق الدكرور. كوم الضبع قرية أمها، والتي لم ترها أبداً، قذفت برمض - ليسكن بجانبها، وكى تراه وتحبه هو الذى لا يحب أبداً، كان مثل الصرد طويلاً جداً ونحيفاً جداً، ونظره الضعيف جداً جعله يرتدى نظارة كعب كباية، مع شعره الأحمر المفلل المجعد، وأنفه الطويل المعقوف، فإن منظره لا يجعل أحداً يحبه، ولكن مرايا الحب عمياء، وكما قرأت فتحية فى كتب الصفراء: فإن كل فرج كتب عليه اسم ناكحه. فقد آمنت بتلك المقولة إيد - مطلقاً جعلها تخلع ملابسها طوال الوقت وتتحسس جسدها بأناملها فتح اسمه محفوراً هناك بحروف بارزة وحادة تكاد تنطق، فتشعر بالنش - وتصبح على يقين من أنه هو وحده سوف يمتلك جسدها، ووحده فقط - سيصل إلى مكامنها، أليس اسمه مكتوباً هناك على باب مغارتها؟

(٢)

فتحية

فتحية أخذت تترصد حركات رمضان، وعرفت أنه يجب واحدة أخرى
تكن على بعد ثلاثة شوارع من شارعها، وأنها تنتمي لهم بصلة قرابة من
جب.. من البلد يعنى! وفتحية قالت قطيعة كوم الضبع والذي يأتى منها،
كنت فى حاجة شديدة إلى حطة من أتر رمضان. وحين علمت أمها بديعة
سحكت، ولم تكن فتحية تعلم أن أمها تذكرت قصتها نفسها مع نور، وكيف
بداخت السبع دوخات حتى جاءت بأتر نور، لباسه الداخلى، والذي ما
كنت تحتفظ به حتى تلك اللحظة - كأيقونة خاصة بها وحدها - فى كيس
- يوزن مخبأ فى دولابها، حتى نور - ألفت رحمة ونور عليه - لم يعلم أبداً
بجنا الأمر.

وقالت بديعة لنفسها: أنا كنت واسعة الحيلة فى زمنى، أما ابنتى فلها
ب اسمها الكريم، ما الذى سوف تفعله فى هذا الموضوع!!

- باب فى تسخير وجلب محبة رمضان

فى مخمس خالى الوسط كتبت: فتحية - رمضان، بماء ورد وزعفران
بيخرت بالجاوى والمسك والعنبر وقرأت حسبنا الله ونعم الوكيل سبعة
آلاف مرة ثم دعت: اللهم إنى أسألك باسمك الذى لا إله إلا هو الحنان
ننان أن تجعل لى رأفة وحنانا ومحبة فى قلب رمضان ابن حواء ومكنى

من ناصيته وعقله ومجامع قلبه، واسق بمحبتى جميع عروقه واجعله -
 يدى ومنتهى أمرى حتى لا يهنأ له أكل ولا شرب ويرانى فى جميع أحو -
 أجيبوا يا خدام هذه الأسماء اقدفوا بقلب رمضان ابن حواء، اثتوا طوع
 كرها بحق أسماء الله تعالى وبحق هذه الأسماء الشريفة وما لها عليك -
 القوة والطاعة، الوحا العجل العجل الساعة الساعة.

* * *

فتحية التى رضعت السحر من بز أمها كفرت به، بعد أن ظلت ض -
 ثلاثة أشهر وستة أيام تحلم أن يأتى رمضان على صورته كما خلقه الخ -
 راكعاً متوسلاً أن تحن عليه وتمن بنظرة ولسة ورشفة ولثمة، وقديما قد -
 ثلاثة أشياء هم خير ما فى الدنيا: أكل اللحم، وركوب اللحم، ودخول تح
 فى اللحم. وفتحية كانت تحلم بلحم رمضان يصل إلى أعماق أعد -
 مغارتها فيطفئ نارها المستعرة دوماً، والتى كثيراً ما كانت تؤجج
 وتخمدها بمداعباتها الذاتية متخيلة رمضان فى كل أوضاعه المستحب -
 واقفاً وجالساً وراكباً وراجلاً ثم مستلقياً. ولم تعد تطبيق نفسها حتى -
 أعلنت الحرب على أمها، واتهمتها بأنها دجالة ومشعوذة وأنها علمتها -
 فائدة منه. وبديعة التى لم تفهم ما قالت ابنتها إلا بالحدس وحده. قد -
 إن السحر موجود منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها حتى أنه أنزل -
 قرآناً، فهل تكفرين بما أنزل الله، ثم أنه لولاه لما جاءت هى أصلاً من -
 نور - ألفت رحمة ونور عليه - وإنما علمتك كل شىء، وأنت زاد علامك -
 بعلامك لنفسك، شىء واحد لم تتعلميه، الصبر، بالصبر وحده تنال -
 ترغيبين.

فتحية صبرت شهرا إثر آخر حتى أنها سمعت أن رمضان سيكتب كذ -
 على عروسته بعد أسبوع، تأججت النار فى جسمها وقلبها وما عد -
 تعرف الليل من النهار ولا للنوم طعماً وذبل عودها. رأت بديعة كل -

فصرخت: البنت ها تروح منى . واستعادت كل ما تعلمته من سحر وأقفلت على نفسها باب حجرتها مدة ثلاثة أيام وهى صائمة عن الزاد، وما إن خرجت فى اليوم الرابع حتى تهلل وجهها فرحاً فى وش ابنتها الوحيدة وقالت لها أبشرى، المطلوب حصل وبنلنا المراد .

لم تفهم فتحية من كلام أمها شيئاً، واليوم يوم فرح رمضان فانكسر غزّادها وأرادت تمضية اليوم خارج بولاق كلها، فذهبت إلى المستشفى تبيت ليها هناك . جلست فى حجرة المرضات وحيدة، يدها على خدها، وذهبت بأفكارها إلى حيث يجلس رمضان الآن بجانب عروسته بينما الطبل والزمر يصمان الأذان لكن جلبه شديدة أخرجتها من توهّماتها، وسمعت صوتاً أمراً يصرخ: جهزوا غرفة العمليات بسرعة، ورأت فتحية شخصاً ممددا على الترولى بطول وعرض وملامح رمضان، لكنه ليس هو بالتأكد، هكذا قالت لنفسها . فرمضان فى الكوشة الآن بينما هذا الرجل يتلوى من الزائدة الدودية التى قد تنفجر فى أية لحظة، وبعد يوم من تأمل الهادئ فى المريض الذى يرقد الآن ممددا فوق سريره بعد عملية ستمرت طوال الليل، أخذت تقنع نفسها بأنه رمضان المدد أمامها، وإن هى لا دقائق معدودات حتى تأكدت أنه هو نفسه، حين رأت خطيبته وأهلها قدموا للاطمئنان عليه، وأن ما حدث قد حدث قبل كتب الكتاب بدقائق، فابتسمت فتحية وقد أيقنت أن حظها فى صعود منذ الآن .

(٣)

بديعة

سمعت بديعة رواية ابنتها عن أحداث تلك الليلة فلم تتعجب، وقالت لها: أذكرك بأنى قلت المطلوب حصل ولننا المراد، وقديما قالوا: كيد النساء غلب كيد الرجال؛ وفى هذا المعنى فإنى أروى لك حكاية أعجب من العجب، وقد رواها لى الأسطى حمامة النجار أبو محمود، فإنه قال:

- حكاية فى كيد النساء الذى غلب كيد الرجال -

كنا نساكن فى درب طياب القريب من شارع كلوت بيه فى قلب العتبة الخضراء، وكانت الورشة التى أعمل بها تقع أمام المنزل الذى أسكن فيه - وزوجتى، كنا نحن نشغل الطابق الثانى، أما الطابق الأول فكان يسكن فيه رجل وزوجته، الرجل كان ساحراً شريراً يعمل فى الخفاء على السحر الأسود، وكان يفرض إتاوات على أصحاب البيوت والمحلات المجاورة مهد كل واحد منهم إذا لم يدفع فسوف يسلط شياطينه عليه فتخسف الأرض. كان عجوزاً ومكروهاً، بينما زوجته فتاة صغيرة ذات وجه صبيح مليح وعلى عكس زوجها يحبها الجميع لجمال خلقها وخلقتها، وكذا الجميع يتعجب من رضاها بالعيش مع هذا العجوز الشرير دميمة الخنة والخلق، وهم لا يعرفون السر الذى تخفيه الفتاة فى صدرها. وذات يوم قدمت الفتاة إلى زوجتى وجلستا تتسامران، كانت هذه عاداتها كلما حـ

زوجها لأذية خلق الله، فكانت تأنس لزوجتي وتصاحبها، زوجتي أيضاً تأنس إليها. وكنت مستلقياً في الحجرة الخلفية ممدداً على الكنب فسمعت زوجتي تقول لها: إلا قولى لى يا أختى، كيف ترضين بالعيش مع عجوز حس هذا، وقديماً قال الشاعر:

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له فى ودهن نصيب

وحكى والله أعلم، أن عبد الملك بن مروان سأل ليلى الأخيلية ما سئى تشتهى النساء من الرجال، فقالت: من خده كخدنا وشعره نثعرنا، والشيخ إذا لم يكن سلطاناً أو ذا نعمة فليس له فى ودهن عيب.

قال الأسطى حمامة: كنت أنصت لحديث زوجتي مندهشا من سعة معرفتها بأمور الدنيا، وبعد أن كنت مستلقياً اتكأت شغوفاً بإتمام حديثها سببية، فأكملت: أقول لك هذا لأنى أعلم أن زوجك ليس به ما يحبب نساء، فكيف وقعت تلك الوقعة السودا معه؟ أعانك الله على ما بلاك فما ريجك بالشباب حتى تحبيه، كما أننى أعلم أن البخل والتقتير من طباعه..
عما حكايتك، الله يفتح عليك؟

قالت زوجة الأسطى حمامة: ما انتهيت من قولى حتى رأيت دموعها تسح على وجهها. ثم إنها أجهشت بالبكاء فأخذت أطبب على ظهرها حتى هدأت وقالت: اعلمى أننى من عائلة فقيرة مكونة من أبى وأمى وأنا رحيدهما أنجبانى على كبر، وكنا نسكن فى درب القطة بحى باب شعيرية، ودخلت المدرسة حتى وصلت إلى الثانوية العامة، وكان لى جار شأنا معاً وتربينا معاً، وكنا لا نفترق ونحن صغيران حتى كبرنا معاً وهو فى مثل سننى فتعلقنا بعضنا ببعض وعشقتنى وعشقتة، حتى أبى وأمى أحبا منّا الفتى وكانا يظنا أننا بمجرد انتهائنا من الجامعة سوف نتزوج، ولكن تاءت الأقدار ألا يحدث ذلك. كيف؟

صلى على الحبيب، كان أبى يعمل عتالا فى السوق، فكان يذهب مبكر إلى عمله ولا يعود إلا مساء مهدوداً مكدوداً من شدة التعب، وفى أحد الأيام، وبينما هو يحمل جوالاً ثقيلاً مليئاً بالبضائع فوق ظهره داست قدمه قشرة موز كانت مرمية على الأرض فتزحلق ووقع ووقع الجوال فوق ظهره، فقسمه، ووقد أبى طوال الوقت فى المنزل لا يستطيع الحركة، وقد أصبح مشلولاً. وكان عجوز السوء هذا يعرف أبى منذ زمن، فجاء للسؤال عنه ومواساته، ووقع نظره على فوجدنى جميلة وحسد أبى على امتلاك ابنة بهذا الجمال، وهكذا صار يتردد علينا كل يوم، وكان يمد أبى ببعض انه يعينه على مصاعب الحياة، كما يأتى إلينا بالطعام والفاكهة وكل ما نحتاجه، لكن المقدر وقع، فقد مات أبى بعد عدة أشهر من مرضه وترك أنا وأمى ولا ملجأ لنا سوى الله. وعلى جرى عاداته صار العجوز يجى إلينا أنا وأمى ويلبى حاجتنا من طعام وشراب وغيره مما تلزمه الحياة وخطر فى بالى أن الرجل عينه على أمى وأنه يريدنا للزواج، فقد كنت جميلة هى أيضاً وتصغره بعشرين سنة، إلا أنه فى أحد الأيام فاتح أمر فى أمر الزواج منى وهى بدورها فاتحتنى، فأخبرتها بحكايتى مع الشـ جارى وكانت تعرفها، وقلت لها إننى أحبه كما يحبنى وإننا تعاهدنا نـ الزواج متى تخرجنا من الجامعة، فوافقتنى على رأى وأخبرت العجوز دار بيننا وارتباطى بذلك الشاب. فما كان منه إلا أن أضر الشرف فى نـ وأقسم أن يعمل على هلاكنا أنا وأمى وجارنا الشاب الذى أحبه ويحـ وبالفعل لم تمض إلا بضعة أيام حتى أصاب أمى داء عجز الأطباء نـ معالجته فعافت الطعام والشراب حتى ذبل عودها وماتت - رحمها - رحمة واسعة.

قال الأسطى حمامة: فلما بلغت الصبية فى حكايتها ذكر أمها حـ فى البكاء، وصارت زوجتى تواسيها وتطبطن عليها حتى هدأت ونـ مدة ساعة، ثم استأنفت قائلة: وفى ليلة من ذات الليالى، وبينما كنت -

ودمعتى على خدى من كثرة تفكيرى فى أبى وأمى وبيتنا الذى خرب، إذا
 - كأن سهما أطلق فأصاب صدرى، وشعرت أن روحى راحت، وهاج عقلى
 جسدى، فلم أعد أعرف رأسى من قدمى مدة ساعة زمانية ثم هدأ كل
 شئ وبعد ساعة أخرى حدث الهيجان نفسه، بل زاد.. حتى أننى خرجت
 فى الشارع هائمة على وجهى لا أدرى إلى أين أذهب، ولما أفقت من هذا
 هيجان وجدت نفسى هنا فى هذا البيت مع هذا الرجل، وكلما حاولت
 معرفة حالى معه هل هو تزوجنى على سنة الله ورسوله أم أنه يعيش معى
 فى الحرام، فأجده ينظر إلى وتنقلب عيناه إلى جمرتين من نار فيهيح
 نغلى وجسدى مرة أخرى، ولا أعرف رأسى من قدمى... وهكذا.

. حكاية العجوز والقرد

قال الأسطى حمامة أبو محمود: قالت زوجتى أم محمود للصبية إن
 حكيتك عجيبة. قالت الصبية: ليست حكايتى بأعجب من حكاية العجوز
 مع القرد. قالت: وكيف كان ذلك؟ قالت الصبية: بينما أنا جالسة ذات يوم
 فى البيت بمفردى أنعى حظى ويختى، وأتذكر كيف غدر الزمان بأبى وأمى
 فبى فأخذت دموعى تسح على خدى، وتذكرت أبياتا من تلك التى كانت
 فى تردها:

آه لو كانت قولة آه تبرى علتى وأطيب

لأبات أقول آه يا ريح الحبايب طيب.

وأخذت أبكى ولا أجد من يمسح دمعتى، وبينما أنا كذلك وإذا بالرجل
 نذى يزعم أنه زوجى وقد دخل على جارا خلفه قرداً مربوطاً بسلسلة
 يسحبه حتى جاء به أمامى، وقال لى: جئت لك بهذا القرد ليسليك. ثم
 نظر إلى وقال بسخرية: انظرى إليه؟ أليس جميلاً مثلك، أنتما لا تصلحان
 لا لبعضكما بعضاً. وأخذ يضحك وتركنا أنا والقرد ومضى من أمامنا،

كنت خائفة من القرد أول الأمر فابتعدت عنه، لكنى حينما نظرت إليه وجدت وجهه وكأنه يبتسم لى، ثم أشار إلى بإصبعه وجعل يضرب على صدره بقبضة يده أخذت دموعه تبط من حبابى عينيه، وكأنه يريد أن يقول لى شيئاً، ولكن لم أفهم. ولا بد أنه فهم أننى لا أفهم إشارته ولا لغته. فقد استسلم وجلس بالقرب منى ودفن رأسه بين ذراعيه ولم يعد يتحرك. وفى صباح كل يوم كان زوجى يجىء بالقرد أمامى، ويظل يضربه بكبرياج مدة ساعة حتى يدمى جسده والقرد يصرخ ويبكى، حتى إذا ما تعب من ضربه تركه ومضى، والقرد يلوذ بى فيرتمى فى حجرى ويضع رأسه على صدرى وينام بعد أن يمشى من يضربه ويسقيه العذاب كل يوم.. وهأنذا حكيت لك حكايتى من طقطق للأساطى حمامة النجار، أبو محمود: ما إن انتهت الصبية من حكايتها وأم محمود زوجتى جالسة أمامها تسمع وتغمغم بك:-
المواساة، وأنا جالس فى الحجرة الخلفية أسمع فى غيظ ما قالته وأعرف الفولة ولبتها، وأخذت أدور كلامها فى عقلى وألخص حديثها فى نقاط سهل على فهمها.. فالساخر دخل على العائلة بالخراب فماتت...
ثم بعد ذلك ماتت الأم، والبنت تنتابها حالة هيجان فلا تعرف سعدت رأسها من قدمها، وهى لا تعرف كيف جاءت إلى هذا المكان، وهى فى زوجته أم أنه يعاشرها فى الحرام! ثم ما حكاية القرد هذه أيضاً. :-
يتعمد ضربه أمامها كل يوم، فما الحكمة من ذلك؟

أثارتنى كل تلك الأسئلة، وكنت أريد معرفة جواب كل سؤال. وخضرت
أن كل تلك الألغاز ما فعلها سوى ذلك الساحر العجوز، وأنها لن تحرك
بالحكمة وبعلم الأعلام. وكنت أعرف صاحباً لى منذ أكثر من ثلاثين -
كان يشتغل بعلم السحر، فكان شر خلق الله فى زمنه، لم يسلم أحد -
أذيته، ولكن الله تاب عليه فنذر نفسه لعمل الخير ووجه كل علمه -
السحر والفجار، فقلت أذهب إليه وأعرض عليه قضية المرأة... :-

حكيت له حكايتها، قال لى: هل بإمكانك إحضارها هنا هي والقرد :نظرها بنفسى، فقلت أحاول، واتفقنا على أن أحضرها له هي والقرد فى غضون هذا الأسبوع، ولما كان زوج الصبية لا يتركها إلا بمقدار تخليص أشغاله ويرجع يلزق بها، فهى صبية صغيرة وجميلة ولا يأمن عليها من مكر الماكرين، وانقطعت عن زيارة زوجتى عدة أيام، وبالأمر تقدر فقد سافر زوجها ذات يوم لقضاء أشغاله فى قرية بمحافظة كفر الشيخ على أن يعود فى الليلة نفسها. وبمجرد خروجه طلعت إلى زوجتى كعادتها لتتسلى معها، فدخلت على المرأتين وعلمت أن زوجها على سفر، فقلت أنتهزها فرصة وأعرض عليها الأمر، فقالت لى أخاف أن يطب علينا زوجى فى أية لحظة فأخذت أطمئنها حتى وافقت، واتجهنا جميعاً لى حيث صاحبى وكان يسكن بالقرب منا، ولم أنس أن آخذ القرد معنا، وكان المسكين ينتفض فزعاً وقد أدمى المفتى جسده من الضرب.

لما وصلنا، دخلنا على الرجل وكان يدعى الشيخ عبدالسلام فسلمنا وجلسنا، ثم إنه أخذ ينظر إلى الفتاة طويلاً ثم قال اتركونا وحدنا. فخرجت أنا وزوجتى وجلسنا ننتظر فى الخارج مدة ساعة، ثم رأينا الفتاة تخرج وبصحبته القرد، وكانت تضع يدها فى يده والفرح والسرور جعلاً وجهها مثل البدر المنور، فأقبلنا عليها نريد أن نعرف ماذا حدث بينها وبين الشيخ عبد السلام، فتبسمت وقالت كل خير إن شاء الله، فهذا الشيخ مبارك وشفائى قد تم على يديه. فهناها أنا وزوجتى بالسلامة وانصرفنا جميعاً إلى البيت.

قال أبو محمود راوى هذه القصة العجيبة وما فيها من حوادث وأمور مدهشة غريبة:

شغلنا الدنيا بحلوها ومرها، وانشغلت بعملى فى الورشة، وقد نسيت قصة الصبية ولم أعد أراها أنا وزوجتى. فقد انقطعت تماماً عن زيارتنا

رغم أننا فى منزل واحد، حتى عجوز النحاس لم أعد أراه، فكأنهما تركا المنزل وغادراه إلى حيث لا يعلم أحد.

وفى أحد الأيام، وبينما أنا أعمل فى ورشتى بين عمالى، إذ سمعنا صرخة عظيمة آتية من ناحية بيتنا المواجه للورشة ثم عاد السكون كما كان، فاندفعت أنا وصبيانى إلى الناحية التى جاءت منها الصرخة، فتبيننا أنها آتية من الدور الأرضى حيث تسكن الصبية وزوجها الساحر، وكان باب شقتها مفتوحاً وموارباً فدخلنا ورأينا ما وقف له شعر رؤوسنا، كانت المرأة مستلقية على ظهرها ونصفها الأسفل عارياً وقد باعدت ما بين ساقىها. وبينهما، كان يقبع كائن صغير ومشعر يشبه القرد الواقف أمام السرير ينظر إليها وقد وضع يده على بطنها، وكان حبله السرى مازال عالقاً بها. وفى الجهة المقابلة للسرير الذى تنام عليه المرأة كان الرجل العجوز يفترش الأرض وقد فارق الحياة. جاءت زوجتى وأخرجتنا جميعاً، ثم أخذت فى قطع الحبل السرى لذلك الكائن العجيب وساعدتها على إتمام ولادتها، ثم قامت بعمل اللازم من تنظيفها وعمل طعام للنفساء وخلافه.

وقمنا نحن بتفسيل الرجل الميت وتكفينه ودفنه فى قرافة الإمام وأقمت العزاء، فلم يكن له أقرباء ودعونا أن يتغمده الله برحمته الواسعة، فقد كانت سيرته وحشة وأعماله كلها تغضب المولى عز وجل!

ظلت زوجتى تعاودها وتلبى جميع طلباتها حتى أتمت أربعين ليلة، وكـ خبر المرأة يتردد على كل لسان فى درب طيباب، ولم يكن للناس سيرة سوزـ كيف أنجبت من زوجها قرداً وكيف علم فطق ومات، وقيل بل أنجبت قردـ لأنها كانت تعاشر القرد الكبير الذى جلبه زوجها، وكنت دائماً أردد كـ سألتنى أحد صحبة خبر المرأة أن علم ذلك عند ربى، وعند المرأة، فىـ الوحيدة التى تعرف كل شىء. وفى الليلة الواحدة والأربعين كانت زوجتـ قد ذهبت إلى تلك المرأة لتطمئن عليها، فغابت عندها كثيراً، ولما طعت

تستنى كان وجهها متغيراً ولونها مخطوفاً وأنفاسها مضطربة، فبادرتها
تأمر: ما الذى حدث حتى تغير وجهك هكذا؟ فقالت لى وهى تشيح
بها: اسكت يا بومحمود ، ربنا أمر بالستر. قلت على ماذا؟ قالت: ربنا
بوز كده، لعنة وصابت الجميع. ثم بعد أن استردت أنفاسها، جلست
حتى لى ما سمعته من المرأة.

حكاية المرأة التى أنجبت قرداً

قالت أم محمود:

بعد أن وضعت جارتنا مولوداً يشبه القرد بل كان قرداً حقيقياً، وهو ما
كانت منه فى الأيام التى تلت، حيث كنت فى كل يوم أدخل عليها لألبى كل
حاجتها، فلم يكن أحد بجانبها يناولها حتى شوية مية، لكن الغريب أننى
كنت أجد القرد الكبير لازماً بجانبها طوال الوقت، فكان يجلس معها على
السرير ويبتسم فى وجهها ويلعبها ويعمل مثل البنى آدم بالضبط؛ وكان
يأخذ ولدها من بين ذراعيها وهى تأمن عليه منه - أمر عجيب! - ويظل
يحدثه بلغة لم أكن أفهم منها شيئاً، فلا بد وأن تكون لغة قرود. المهم،
كنت مواظبة على هذا الأمر حتى أتمت المرأة أربعين ليلة، كنت أرى
حداثة الطفل القرد يكبر ولونه يتغير حتى أصبحت ملامحه تشبه تماماً
قرد الكبير، وكأنها فولة وانقسمت نصفين فتعجبت، وزاد عجبى حين
كنت أشوقها هى والقرد الكبير يعاملان بعضهما معاملة غريبة. من ذلك
تأمر أننى كنت أجده بجانبها دائماً على السرير، ورأيتها تعطيه وجهها
تعتزم بلحسه وهى كانت بتبوسه وتلعب بأصابعها فى شعره.. وهكذا فلما
كنت الليلة الواحدة والأربعين تعافت المرأة تماماً وأصبحت تستطيع
الاستغناء عنى.. قلت لها حمداً لله على سلامتك، قومى خديك حمام
تترى المرض عن بدنك، وهى أنا قاعدة جنب المولود حتى تفرغى من
شغالك، فلم تكذب خبيراً وقامت أخذت حماماً وارتدت جلياباً أسود

مقصباً محبوباً على جسدها، فكانت زى الفل وجاءت جلست بجانبى وراى بالها وأخذت ولدها فى حضنها، ثم جعلت تنظر إليه وساحت دموعها على وجهها وتمتمت تقول: حكمتك يا رب. وأنا كدت أموت شوقاً لمعرفة حكايتها، فانتهزتها فرصة وقلت لها: أحلفك بضناك لتحكى لى على سرك وهو فى بير ما لوش قرار. فنظرت إلىّ فى صمت مدة ثم قالت: وما الذى تريدن معرفته؟ قلت: حكايتك، وهذا الطفل! كيف جاء هكذا قرداً يشب القرد الكبير؟

فنظرت إلىّ فى حسرة، وقالت بعد أن تنهدت وبظت دموعها: اعلمى - حكايتى عجيبة، وهى لو كتبت بالإبر على آماق البصر، لصارت عبرة - اعتبر. كما كانت تقول زوزو نبيل فى الراديو. وما سوف أحكيه لك - يصدقه عاقل، لكنها الحقيقة التى لو سمعتها أنا ما صدقتها، وهذا - شهود على ذلك، هل تذكرين الشيخ الذى ذهبنا إليه أنا وأنت وزوجك - محمود. قلت نعم، الشيخ عبدالسلام. قالت وهل تذكرين أنه عندما - أنا والقرد أمركما بالخروج. قلت نعم. قالت: ولمأ طلب منكم الشيخ - عبدالسلام الخروج، بقيت أنا والقرد والشيخ وحدنا، فقال لى اقترى - بنتى منى فافتريت فوضع يده على رأسى وأخذ يتمتم بكلمات، وإذا به - ينزل من سقف الحجرة ويقع على الأرض وهو يتلوى، فلما حققت - فيه رأيته قرموط سمك، تناوله الشيخ بيده وأخرج سكيناً فصل به - القرموط فهمدت حركته، وأرانى كتابة كانت على جلد القرموط، قال - لك زوجك عملاً بالهياج على جلد هذا القرموط وأطلقه فى الماء - تحرك القرموط جاءك الهيجان، والآن قد بطل عمله ورجعت كما كنت - قال: أما هذا القرد فحاله حال. ولا بد أنك تعرفينه حق المعرفة - أحضر طاسة ملآنة بالماء وقرأ عليها ثم رماها فى وجه القرد وجرى - إذا كنت إنسيا فارجع إلى صورتك التى خلقك الله عليها، وإذا - ينتفض شاباً جميلاً، وكان هو الشاب جارى الذى أحببته فعانقنى -

عـ شوق ولهفة، وهنأته على السلامة وجلسنا نتحدث مدة ساعة، ثم إننى تحيت بالشيخ ركنا وقلت له: ها أنت ذا ترى كيف فعل زوجى الشرير سحره فسحرنى وسحر من أحب، وكما أنه قتل أبى وأمى فلا بد أنه قاتلى عـ يوم ما، وأنا أريد أن أعمل عملاً يخلصنا من شره فهل توافق يا سيدنا. عـ الشيخ: مرينى يا بنتى فقلت لا تخبر أحداً بما رأيت وسمعت ولتجعل عـ سراً بيننا، كما أننى أريد منك أن ترجع هذا الشاب إلى صورة القرد مرة أخرى، حتى لا يعرف زوجى أننا كشفنا سره، وأريد منك أيضاً أن تعمنى كلمات إذا قلتها عاد الشاب إلى صورته الأولى كما فعلت أنت، فعلى الشيخ كما أمرت وخرجنا أنا والقرد كما رأيتمونا وذهبنا إلى بيتنا، عـ أقسمت أن أفضح عجوز السوء هذا فضيحة بجلاجل، فكنت فى كل يوم وحين يخرج أقوم أنا وأستوثق من خروجه وأغلق الباب جيداً، ثم حضر طاسة ملأنة بالماء وأتلو عليها الكلمات التى علمها لى الشيخ عبد السلام، ثم أرميها على القرد فيعود إلى صورته الأصلية ونظل فى ميرشة ومداعبة وبوس وعناق حتى نشبع من بعضنا ونقضى غرضنا، عـ قبل أن يأتى زوجى أكون قد رددت الشاب إلى حالة القرد، وقد بقينا على هذه الحالة مدة من الزمن وطابت لنا الحياة، إلى أن كان ذات يوم وكنت حائمة، وزوجى فى الخارج لبعض الأشغال، وصاحبى الذى على صورة قرد جلس بجانبى على السرير وأخذ يتأمل جسدى وأنا نائمة شبه عارية عاشتدت عليه غلمته، فلم ينتظر حتى أصحو وأرده بشراً سوياً، بل قام على حيله وأولجه فى فلما أحسست به لم أدر أنا فى يقظة أم فى منام، عـ صار يرهز حتى أفرغنا بلذة عجيبة، وبالأمر المقدر فقد انطبعت صورته على ما هو عليه فى رحمى وعلقت منه فى تلك اللحظة، ومررت تسعة أشهر من تلك الليلة حتى جاءنى الطلق كما يشاء خالق الخلق، فولدت هذا نقرد الذى يشبه أباه تمام الشبه - وقديماً قالوا من شابه أباه فما ظلم. عـ حين دخل على زوجى ووجد الطفل القرد بين ساقى ووجد أباه بجانبى

على السرير عرف أن حيلته انكشفت، وأنه افتضح، فلم يتحمل وطق مات. وهذه هي حكايتى دون زيادة أو نقصان.

قالت بديعة لفتحية: حكيت لك هذه الحكاية لتعرفى أن كيد النساء غلب كيد الرجال، ورمضان الآن بين يديك فافعلى به ما شئت .. وعقلك فى رأسك تعرفى خلاصك.

فتحية فكرت فيما قالتة أمها وقالت: كنت أحتاج أتر رمضان، رمض جاء كله وأصبح فى يدي أفعل به ما أشاء. فتحية أخذت شنطة ملأها من هدمها وخرجت من بيتها إلى المستشفى وأقامت هناك فى حجر الممرضات، وبدأت تأخذ نوباتشيات زميلاتها، وجعلت عينها على رمض أربعاً وعشرين ساعة لا تغفل ولا تنام، وكانت تتسحب فى الليل وتمشى بتمهل حتى تصل لسرير رمضان وتقترب منه وهو نائم وتشم رائحة جس الملقوف فى البيجامة، وحين تغفل عينها غصبا عنها وهى جالسة على الكرسي قرب سريرها، فرائحته تملأ منامها فتكاد تحسد نفسها من حرمضان وحب رائحته .. وعند الصباح الباكر لكزت فتحية رمضان فى جوف فتفتح عينيه نصف فتحة، فقالت له وابتسامتها تبلغ وجهها: صباح الفل. فى بسرعة، خذك حمام والجو رايق قبل ميعاد الزيارة، ثم فتحت الكومز الذى على يمينه وأخرجت غياراته الداخلية، فانكسف وضحكت وزي إياها مع بيجامة نظيفة، وأسندته حتى باب الحمام، وقالت له احذر. أية نقطة مية تيجى على الجرح. استحم رمضان براحته، وكان خائف يلبط الجرح، وبعد انتهائه ارتدى هدمه الداخلية ثم جاكيت البيجامة والبنطلون، وهو لا يدري أنه ارتدى حجابين واحداً للمحبة والثانى للفرقة، سهرت عليهما فتحية طوال الليل وأخذت بنطلون بيجامته. التكه وبرمت الورقتين وأدخلتهما داخل الكمر وخاطت عليها مرة أخرى. وحين خرج من الحمام ووقعت عينه عليها نظر إليها بعين محب.

سمع صوتها وهي تتكلم ورؤية جسدها يترجرج أمامه في غدوها
يرواحها. ولما حان موعد الزيارة جاءت خطيبته أحس بنفرة في قلبه،
يتساءل بينه وبين نفسه هل عميت عيناه حتى يقع على جدور رقبتة هكذا،
يحمد الله أن زائدته الدودية أنقذته في الوقت المناسب. وفتحية! أه.. يا
فتحية، شعشع حبها داخله فملاً كل كيانه، وكم يتمنى الآن ألا يشفى من
جرحه حتى يظل بجانبها في المستشفى الذي لم تعد تغادره لتكون بقربه،
يتشم رائحته.. رائحة رمضان

حرب السحرة

عشت تلك الأيام العصيبة من عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين، كانت بدايتها، بالتحديد فى شهر يناير، وبالتحديد أكثر، فى الثالث عشر من حين أعلنت الحرب الكبرى بين نجية وأم وجدى من ناحية وبديعة وفتحية ومن بعد حليفتهما أم جمال - أمى. فكيف دخلت أمى تلك الحرب؟ وعمر كان ذلك بإرادتها وحدها؟ أم زج بها فى حرب لا ناقة لها فيها ولا جحر هذا ما ستعرفونه إذا ما تبعمونى فى الصفحات التالية - فكونوا معى.

خرج رمضان من المستشفى سليماً معافى وفى يده فتحة التى أقف ألا يخرج إلا وهى فى يده وعلى مشهد من الجميع، وبعد عدة أيام كنت كتابه عليها دون شوشرة، فقد كان يعرف أن خطيبته السابقة لن تسكت - هى ولا أهلها؛ وهو ما حدث بالفعل، حين أعلنت جدتها نجية أن هذا ملعوباً وراء ما حدث، وأن البنات معمول لها عمل أكيد. وفى صباح يوم الجمعة اكتشفت أم وجدى حجاباً مدسوساً فى خرم فى الجدار، ولما فتحت وجدته مكتوباً بالسريالية وبالمداد الأحمر، وبالحدس وحده عرفت أنه نذر بالكره لابنتها منال، وباستعراض للموقف تم خصر قائمة المشبوه فيهن - اثنتين لا تالثة لهما، بديعة، وأم جمال - أمى. ولما كانت بديعة لا يعرف - إلا من بعيد لبعيد، ولم تكن هناك خصومة بينهن من قبل، فقد استبعادها لتتركز شكوكهن فى أم جمال، فما علاقة أمى بالأمر؟ أمى -

ت من «كوم الضبيع» بالليل سكنت في حارة على أبو حمد ببولاق
 -رور، التي كانت وقتها عدة بيوت متناثرة والباقي غيطان قمح وذرة،
 -ت ابنة ستة عشر بينما أبي تعدى الأربعين وأنجب ثمانية أبناء من عمه
 -قبل أن تموت وتركهم أطفالاً يحتاجون من يربيهم. وفي زمن الجهل
 -عتر، فإن العادة والعرف والتقاليد، تأخذ صفة القانون الملزم لكل
 -عزاف، وهم - أي الأهل، لم يجدوا أفضل من أمي كي تربي أبناء عمتها
 -سنية، والذين كان بعضهم في مثل سنها تقريباً. انظر على سبيل المثال
 -نحصر: نجدى، وهو أكبر الأبناء سناً وأحسنهم خلقاً سوف يتوفى في
 -شبابه في العام السابع والستين تاركاً ابناً يتكون في بطن أمه . أيضاً
 -جيدة، كذلك نصحي، الآخرون كانوا أطفالاً. المهم، أنجبت أمي أربعة هم
 -في التوالى: أختي الكبرى نجيبة، ثم إن جمال الملقب بخيري عبدالجواد،
 -يعدى أخى سيف الإسلام، ثم أختي الصغرى نجوى. كان أبى يسمينا
 -ترقيده الثانية، وكانت نجيبة متفوقة في المدرسة إلى درجة أزجعت عمي
 -ولاد عمي، وجاءت الضربة القاضية حين نجحت نجيبة في الثانوية
 -عامه. لحظتها لم تتمالك أمي نفسها فحزمت وسطها ووقفت ترقص
 -تغنى على الملأ: من الثانوية للكلية، والمجموع قرب على المية، أغنية كانت
 -تغنيها ليلي نظمي وقتها. ولم تكتف أمي بذلك، بل تمادت حتى أنها اشترت
 -ساعة «جوفيال» يابانى أصلى، وأعطتها هدية لابنتها نجيبة. لم تنجح
 -وساطة بين أبناء العائلة الواحدة في جعل نار الغيرة تخدم، بل زادت
 -شتعلاً حتى اندلعت الحرب الخفية بين النسوان ذات يوم. فقد استعان
 -نفرقان، بكل من لديه خبرة بفنون السحر سواء في بولاق الدكرور أو في
 -كوم الطبع، وكان من نتائج تلك الحرب أن انتهت بكارثة نكسة الخامس من
 -يونيو ووفاة أخى الأكبر، وأن يعيش وجدى ابن عمي عاجزاً إلى الأبد بعد
 -أن طارت رجله بفعل أحد السحرة الأشرار، وليس بفعل «الترام» كما قيل
 -وقتها.

وحيث أعلنت الحرب للمرة الثانية، كان كل من الفريقين لديه أسبابه التاريخية في شنها، حرب وبينما الفريقان - وقد استعاننا بكل الشياطين الجان - يتطاحنان، تزوجت فتحية ورمضان في هدوء دون الالتفات لحرب لا تعنيهما في شيء وعندما اندلعت حرب السادس من أكتوبر، كانت فتحية حاملا في شهرها الثاني، والفريقان أصابهما الإعياء من حرب لا طائل من ورائها، استنزفت كل مواردهما، لذا فقد اتخذنا قراراً بإعلان الهدنة وتوجيه كل شياطينهما إلى المجهود الحربي.

أولاد صديقة

صديقة أنجبت أربعة صبيان وبناتا واحدة، وابنها البكر نصر طلع فرع
بعضلاته قسمت جسمه، كان يحب المصاريف ولم ينفع في مدارس، فعاش
حياة صياغة مع أولاد الحواري وبدأ يشرب البانجو سواء في سجائر أو
في حجر الجوزة، ولما لم يجد ما يشرب به ويشرب على أصحابه اندار
على أمه صديقة، وأخذ يسرق من ورائها مصروف البيت حتى صرفه كله،
ثم بدأ يسرق من أبيه فعرف، وبدأ يراقبه حتى أمسكه ذات يوم ومحفظته
في يده، ضربه بالقلم على وجهه وطرده من بيته، فأقام عند خالته بديعة
بنة خالته فتحية وزوجها رمضان الذي بعد عشرة أيام، فاتح حماته في
نيوم الحادي عشر: الولد كبير مثل الفلق نايم طول النهار ولا مشغلة ولا
مشغلة، وبنتك مش عارفة تتحرك براحتها في بيتها، ودا راجل برضه
بجوز لها، يعني كدا عيب! بديعة ردت على رمضان بعد أن صعبت عليها
غسها، وقالت: أولا دا مش غريب يا رمضان يا بنى، ابن أختى هو ابنى،
يعنى عاوزنى أطرد لحمى. وبينها وبينه قالت له يا بنى ما يرضيش ربنا
تعدتك كدا لا مشغلة ولا مشغلة، أنا أشيلك فوق رأسى بس قوم اجرى على
كل عيشك وربنا يفتحها في وشك يا نصر يا ابن صديقة.

نصر لم يتعلم أى صنعة تنفعه وانسدت الدنيا في وجهه، فبدأ يتاجر
في البانجو على الضيق أول الأمر، عمل لحساب زعبولا تاجر الحشيش

الشهير فى بولاق الدكور، والذى قبض عليه وحكم بالمؤبد قضى نصفها فى السجن وخرج فى عفو أكتوبر، فوجد الحشيش تجارته راحت عليها ولم يعد موجودا بسهولة وإذا وجد فسعره ارتفع جدا، وكان البديل أمامه هو البانجو فكان يأخذ العيال الصغيرة يسرحهم لحسابه، ومن بينهم نصر ابن صديقة الذى ضرب عصفورين بحجر واحد، يبيع ويكسب، ويعمر مزاجه بشرب البانجو، ولم تسأل صديقة ولا زوجها محمد من أين يأتى نصر بالفلوس، كان همها أن يرجع إلى البيت طالما الجنيه جرى فى يده، ورجع نصر إلى بيته فى حارة على أبو حمد وأصبح رجلاً يقول الكلمة بكلمتها والجميع يتمنون رضاه.

منصور أخو نصر طلع عكسه تماماً، خرج من سنة رابعة وهو لا يعرف القراءة والكتابة، وكان يخفى باليوم واليومين ولا يعرف عنه أحد شيئاً، ثم يظهر فجأة فى البيت كأنه ما غاب عنه؛ وإذا سأله أبوه أو أمه أين كان. يشوح بيده ويسب لهما الدين ويترك البيت مرة أخرى، وحده كان يعرف طريقه جيداً فيلتم على أولاد الشوارع المجاورة، أصحابه الصيع، من سنه تقريباً، ويذهبون يتسولون بهدمهم المهربة فى حنت بعيدة لا يعرفهم فيها أحد، وإذا لم يجدوا من يشحذهم، كانوا يلبدون فى أنصاف الليالى ويسرقون أى شىء يجدونه أمامهم: تسجيل عربية، فردة كاوتش، شوال فوز حراتى أو مانجة يبيعونها ويشترون «الكللة والبنزين» ليقوموا بشمها. وآخر مرة سرق فيها أمسكته دورية شرطة متلبسا، وفى يده تسجيل عربية بعد منتصف الليل بساعة، وحولته على شرطة الأحداث وطلع بعد ثلاثة شهور علم أبوه فضريه علقه موت، ونظرت إليه صديقة من تحت لتحت وضربت كفوف الأيدى بعضها فى بعض وطوحتها فى وجهه، وقالت اسم الله عر تربيتك يا خويا، وإن كنتو نسيتمو اللى جرى هاتو الدفاتر تنقرا. سكت محمد عبدون وهو يعلم أنه لن يسلم من لسانها، كما أنها ماسكة عليه زنة من أيام الشريط المسجل عليه صوته فى حضن صفاء، لذا فقد أخذها من

تصيرها وطلع على قهوة فى شارع همفرس، وطلب واحد شاي سكر زيادة بحجر معسل، وضيق بين عينيه عاقداً جبهته متفكراً فى حاله وحسبها بورقة والقلم: عنده ستون سنة إلا شهرين وعلى وشك المعاش، لكن سحته بمب، ومن يره لا يعطه أكثر من أربعين سنة، وليس فى شعره لأسود كله شعرة واحدة بيضاء، وصديقة عجزت قبله ووجها كرمش، يفضحته فى كل حنة ... أكثر من واحد قال له مراتك بتسرق من نخضارية فى شارع السوق، داء وتحكم فيها هى وبنتها، ونصر ابنه البكر تجر بانجو، والواد منصور احترف الصياغة ويشم «كله وبنزين» وحرامى، نونان الباقيان مازالا صغيرين، يعنى هيطلعوا إيه؟ هاؤ!

وفكر فى صفاء، عمرى ما هاشوف زى أيامك يا صفاء، لو كان حفنى غنقتها كنت اتجوزتها وطلقت العكرة صديقة. وحفنى عجز وشكله أصبح رى اللى عنده مئة سنة. ياه! الزمن ما سبش حد فى حاله، إلا صفاء، سنون تزيدها جمالاً.

محمد شرب ست حجارة معسل وطلب قهوة على الريحة، وهفت عليه سيرة الأموات، فأخذ يترحم على نور وحماته أم حفنى وعلى أبيه وأمه، ودمعت عيناه فمسحهما بكم قميصه وقال اللهم اجعله خيراً، أنا هاموت رلاً إيه، وأحس فى تلك اللحظة بأنه أكثر شفافية من أى وقت مضى فأحب كل الناس، حتى الذين أساءوا إليه فى يوم ما، وصعبت عليه نفسه لأنه ما عرف يربى، وفكر أنه حين يخرج على المعاش سيأخذ قرشين كويسين ممكن يفتح بهم محلات ويتاجر هو وأولاده فى أى شىء، المهم يلهمهم من حياة الصياغة والضياع. عند هذا الحد هب واقفياً ودفع نحساب واتجه إلى البيت، كان حفنى جالساً على الباب واضعاً رجلاً على خرى ويدخن سيجارة، وصفاء كانت جالسة تحت أقدام الكرسي الجالس عليه حفنى، وحفنى بنظارته الطبية وشعر رأسه الأبيض ظهر كأن فى عمر

المائة سنة، وصفاء بدا جسمها المدمك الملفوف فى جلبابها الأسود المحبك يشع بياضاً وسحراً فكأنها ابنته. وأحس محمد عبدون بالألم يعتصر قلبه عليه وعليها، وتأسف أنه أغضب حفنى ذات يوم وخانه مع امرأته، وغمغم لنفسه: أنا مالى النهاردة، باينى هاموت/ ودخلت صفاء وأحضرت له كرسيًا فجلس جنب حفنى الذى عزم عليه بسيجارة فأخذها وولعها، وطلب حفنى من صفاء عمل شاي له ولمحمد، وفى تلك اللحظة سمع الجميع صوت هيصة آتية من بعيد، أصوات صراخ وزعيق أخذت تقترب شيئاً فشيئاً حتى أصبحت على ناصية حارة على أبو حمد، وكان الجميع يتبين ما يحدث الآن أمام أعينهم: زفة جامدة، رجال ونساء وأطفال تتقدمه واحدة، تبينوا أنها صديقة التى كانت تتلفت خلفها وتشوح بيدها تبع الناس عنها، لكن الناس كانوا يمشون وراءها وهم يهتفون ويشيرون إليها الحرامية أهى.. أهى..

القسم الثالث

(١)

محمد عبدون مات قبل أن يطلع على المعاش بشهر واحد، وتحقّر لصديقة حلم حياتها فى أن تصبح أرملة - هل يصدق؟ كانت فعلاً تحب حياة ما بعد محمد عبدون، من أين أتاه هذا اليقين؟ هى لا تدرى! فقد كان من الممكن أن تموت قبله، لكن هذا ما لم يتحقق. وجاءت اللحظة التى تعيش فيها حياتها كأرملة متحققة. قبل موته تخيلت اللحظة وعاشت أحاسيس أرملة توفى زوجها فجأة وترك لها أولاده، تخيلت أنها ستتحس بالحزن وفى جنازته تشيل النيلة وتشلشل بمنديل أسود، ويمر تشق جلابيتها أيضاً، وربما يبح صوتها من العويل والصراخ، والغريب - استعدت لهذه اللحظة بأكثر مما كانت تظن، فقد تعلمت العديد على يد امرأة محترفة كانت تؤجر فى مثل هذه المناسبات، وكان كل تركيزها على عديد من مات زوجها وترك لها أطفالاً، مع التركيز أن تستقبل لحظة ببطريقتين، الطريقة الأولى: إذا كانت نائمة ويجيء من يخبرها بنياً مبرحاً فإنها سوف تهب فزعة من نومها وتكون فى حالة ذهول حين تسمع التحرك لكنها ما كانت تعرف كيف تنهى هذه الحالة. لذا فقد كانت الطريقة الثانية هى الأقرب للحظة الاستعراض الكبرى: إذا مات خارج المنزل وجاء محمد على الأيدى فسوف تستقبل الخبر مبلمة لا تنطق، وتبدو ملامح وجهها جامدة بينما عيناهما محمقتان فى الجثة الممددة أمامها، والناس يت-

حولها وكأن الأمر لا يعينها بتأناً فيحثونها على البكاء خوفاً عليها من لصمت المميت، وربما ضربها أحدهم بكف يده على صدغها يساعدها على البكاء. وهذه الحالة أيضاً لا تعرف كيف تنهيتها إلا بتعديل بسيط، وهو أنها حين تهم بإيقاظه في الصباح تجده ميتاً، عندئذ تجار بالصوت العالى فيلتم الأهل والجيران وتظل هي تلطم الخدين حتى تقع مغشياً عليها، وهو ما حدث بالفعل. كان قبل موته بيوم واحد يجلس في مقهى في شارع همفرس، ثم رآته جالساً مع أخيها حفنى وامرأته العاهرة أم عين باكسة يشربون الشاي، حين كانت راجعة من شارع همفرس والعيال مملومون حواليتها يجرسونها، هو الذى طردهم وطيب خاطرها وطلع يراءها، كان وجهه مزرقاً ولونه مخطوفاً. جلس على الكنبه وأخذها من يدها، أجلسها بجانبه، لم يتكلم معها فى الفضيحة أمام الخلق وجرسه العيال لها، لا، ولم يقل لها أى شىء، فقط نظر إليها وعيناه مندتان بالدموع. تطلعت إليه وتساءلت: فيه إيه يا راجل، مالك؟ هز كتفيه، مش عارف، النهارده أنا مش عارف مالى! زى اللى بيودع من الدنيا، ثم تهدج صوته: صديقة عاوزك تسامحينى على أى حاجة غلط عملتها معاك. هممت بالوقوف فأمسك ذراعها يشدها ناحيته، وتصورته يغازلها، فنترت يدها وقالت بدلال: فيه إيه يا راجل، أنت جراك إيه النهارده! العيال بره صاحيين. تركته ودخلت المطبخ، جهزت له العشاء، تعشى وحده وطلع على السرير، ومدد بدنه واتكأ بكوعه على المخدة، انتظر عياله أن يأتوا من الخارج، لكنه نام حتى ظهر اليوم التالى على غير عادته.. وظنت هي أنه أخذ إجازة من شغله، واقتربت منه تنغزه فى جنبه ليصحو، ولم تكن أدركت بعد أنه خانها للمرة الثانية ومات.

(٢)

بعد الجنازة، كان عليها عبء ترتيب البيت من الداخل، لكن الشرى الذى وقفت عنده كثيراً وحيرها فى الوقت نفسه، هو كيف كانت جنديّة زوجها مهيبة ذات جلال ورهبة تليق بواحد تقى ميت، حتى أنها، وهى التى لم تتأثر بموته كثيراً، تأثرت بجنازته إلى حد البكاء. كانت تعلم أنه - رحمة الله عليه - ذيله نجس. هى على يقين من ذلك وعن تجديبة، فحين تعرض عليها، كان يتحين الفرص للاختلاء بها فيظل يقبلها، وبأصابعه يفرس حلميتها المنتصبتين ويمتصهما حتى يشبع، وما كان ليشتبع أبداً، ففى إحدى المرات تمادى وخلع لباسها لما رأى أنها ساحت بين يديه، وما عادت تعرض رأسها من رجلها، فصرخت متوسلة أن يريحها، لكنه أبداً ما سمح لنفسه أن يفض بكارتها، وكانت له أسبابه الوجيعة: إننا سوف نتزوج - كان يقول - فلنترك شيئاً ليلية الدخلة، شيئاً جديداً نتشوق لأن نفعله ويكون تذكر لتلك الليلة. كانت تعرف أنه يلعب بذيله برا البيت وجواه، وحين ضبطته - زوجة أخيها، كانت على يقين من أنها لم تكن المرة الأولى. كان عزاؤده أنه لن يفعل هذا الشيء بعد ذلك أبداً، فالأموات لا يخونون. أريكه الحشد من المشيعين، كل زملائه أتوا، زملاء العمل، وزملاء المقهى - كان يجلس فيه، ومن الحثة والحارة، كذلك أقرباء له لم ترهم من ناس جاءت تسد عين الشمس، حزانى على موته، وسبحان الله. كـ

خرجته سهله ميسرة، تصریح الدفن جاء فى التاسعة صباحاً، أول ما تحت الوحدة الصحية فى شارع السوق، من جاء به؟ هى لا تدري! أصل حبيبه كانوا أكثر من أن الواحد يعدهم، كان الكل يجرى ويتسابق فى تجهيز الميت، التصريح طلع، والكفن الشرعى جاء، المغسل أحضر معه نعش وخشبة الغسل والحنوط، الكراسى رصت فى الشارع وأمام البيت، كنت تجلس مع النسوان فى الداخل حين سمعت من يسأل عنها فخرجت. تقدم منها رجل لم تره من قبل، دس فى يدها مظروفاً وقال لها شدى حيك، دى خرجة المرحوم، الشغل صرفها له، وكمان فيه أوتوبيس للى عاوز بجشى ورا المرحوم. طلع المرحوم محمولاً على أعناق الرجال من بيته، صار النعش ومن خلفه الرجال ثم النساء فى صمت مهيب، بعد أن نهيت نساء عن الصراخ أو العديد، ولم يعد يسمع سوى صوت: «وحدوه» بين لحظة وأخرى، وتحدد مسار الجنازة تلقائياً بالمرور على أقرب مسجد فى ضيق، فخرجوا من الحارة إلى شارع القرن مروراً بشارع همفرس، صلوا فيه صلاة الجنازة بعد أداء صلاة الظهر وخرج الجميع فى طريقهم إلى ضرفة الإمام حيث مدافن العائلة.

(٣)

خيم مساء كئيب على منزل محمد عبدون الميت، ووقف ابنه الكبير نصر فى الشارع يشرف على عمال الفراشة وهم ينصبون الصير . ويعلقون عناقيد الإضاءة، وجاء بثلاثة مقرئين تناوبوا قراءة القرآن حتر ساعة متأخرة من الليل، وطلت صديقة من الشرفة فرأت الناس تدر الصيوان جماعة جماعة، معلمين كبار بشنبات أصحاب نصر، وشباب صي أصحاب أولادها، ونصر لبس جلابية أبيه الصوف وعباءته، وكبر فج ووقف فى أول الصف يأخذ العزاء، وكل ربع ساعة يترك مكانه ويدخر الصيوان يلف على الناس رافعاً يده بالتحية ومناديا فى صوت تعمد . يكون قويا غليظاً: شكر الله سعيكم. وعازماً عليهم بكل أنواع السجدة المستورد والمحلى، ولولا كسوفه لعزم عليهم أيضاً بالبانجو، وفى آخر الليل وبينما عمال الفراشة يلمون حاجاتهم، جلس هو وأصحابه على جديد يدخلون البانجو فى السجائر باطمئنان.

كانت الحجرة الضيقة مكتظة بالنساء يجلسن متشحات بلون الحمر حول صديقة، ولم يكن بينهن سوى رجل واحد: حفى، وقد التصقت . زوجته صفاء، وانزوت بديعة فى ركن الحجرة هى وابنتها فتحية . كانت محاسن تحملق فى الجميع. الأرض ما زالت مبلولة والجد بطرطشات ماء الغسل، ورائحة حنوط المتوفى لم تغادر المكان بعد .

محاسن إلى صفاء التي بدا على وجهها الحزن وتساءلت: فيم تفكر الآن يا ترى؟ وتبسمت وهمست: تلاقى القحبة تفكر فيما كان يفعله معها! الله يججمه مطرح ما راح. ثم نظرت إلى أخيها الذي بدا حزناً أيضاً وسألت عنها: هل كان حفنى يتمنى موت محمد عبدون بعد أن داس على عرضه بمرغ اسمه فى الوحل؟

فى الصباح الباكر، صحا جميع من فى البيت، وأخذت صديقة تعطى تعليمات للجميع بخصوص عزاء النسوان فى الشارع، فيجب أن يتم كئسه ريشه، ثم يأتى بعد ذلك فرش الملاءات والأكلمة والحصر، ووضع كئبة مازقة لحائط البيت لتجلس عليها المقرئة الشيخة رشيدة، التى يجب أن يحمب أحدهم لإحضارها من بيتها لأنها كفيفة، وإلى محل الفراشة يذهب حمر لإحضار ماكينة الصوت والميكروفون، وفور فرش الملاءات بدأت ساء فى الحضور وحدانا وجماعات، وهن يرتدين السواد ويعلن عن حضورهن بإطلاق أصواتهن فور دخولهن من الحارة، وتولت الرد عليهن محاسن بإطلاق أصوات مماثلة، وحين اطمأنت صفاء أن عدد النساء ينسى لبدء الاحتفال، أخذها الوجد فأخذت تولول وتغنى عديدا حزينا بين خشة جميع من كانوا يعرفون حكايتها: سرى وسرك يا خويا فى طبق عيني.... والطبق انكسر يا أعز من عيني.. سرى وسرك يا خويا فى طبق بحر... والطبق انكسر واتفرقت الأسرار. كان العويل والصراخ يعلوان بين شنع وآخر، مما شجع صفاء على الاستمرار: باب اللحد مش زى باب بيت... كتفك عريض وازاى خشيت. هم يضحك وهم يبكى. قالت صيقة لنفسها وهى توشك على الضحك وتحوش نفسها بالعافية، عنست لنفسها: يا مرة يا لبوة. المفروض تقولى: رحى القرافة يا ختى بيت حجر مبروم، فكّر على يا ختى بتاع المرحوم. وانفلتت ضحكة أحست بجميع سمعها فتلفتت حولها، لكن أحداً لم يأخذ باله.

(٤)

بديعة طلع لها نور فى المنام، وعلى مدى ثلاث ليال متصلة، كان يظن
لابسا أبيض فى أبيض ووجهه يكاد يفر منه الدم، والنور يسطع مـ
وحواليه. لم يقل سوى كلمة واحدة: انقلينى من تربتى يا بديعة. لكن كيف
وأين ولماذا؟ لا تدري، وهى التى دفنته بيديها فى قرافة أهله فى الإمبرـ
الشافعى. حارت فى أمرها، هل تخبرهم برغبة ابنهم فى نقل رفاتة؟ سيـ
يتهمونها بالخراف، فما الداعى لنقله وقد مر على رحيله كل تـ
السنوات.. ثم أصلاً هل بقى منه شىء لم يأكله الدود.

بديعة أخبرت ابنتها بزيارة أبيها لها فى المنام، فتحية تعجبت وقت
طب ما قالش على سبب نقله؟ هزت بديعة رأسها فأكملت فتحية عـ
ونقله فين؟ ما سألتهوش يامه، يا بنتى نور أبوك ها يتحكم فينا فى حين
ومماته، يعنى الأموات مش ساييينا فى حالنا. وبينها وبين نفسها غمغـ
رحمة ونور، باينك فى الجنة ونعيمها، ولا على بالك غلب الدنيا وقرجـ
محمد عبدون جالك، شفته؟ طب وها تشوفه فين، أنت فى الجنة ونعيمـ
وهو فى النار وبئس القرار بعد عملتو السودا مع صفاء المنيو.. اللى حـ
رقابنا زى السمسمة فى الحتة. ثم إنها خطر لها خاطر فجرت ـ
الدولاب فتحته وأخرجت علبة من الخشب المطعم بالصدف مقفولة تـ
صغير، فتحته، وأخرجت منها قطعة قماش مطوية ومعطرة ومـ

تخيط أسود وقد حال لونها، لم تكن سوى لباس نور الذي سرقتة من بيته - رادت أن تسحر له. فردته أمامها ومالت برأسها عليه وأخذت تتشممه، تذكرت الأيام الخوالي، وحننت إلى التراب الذي كان يمشى عليه نور - نحة جسمه، وشمخته حين كان يهل عليها. ولأنها كانت تعرف كيف تدعيه، حتى ولو كان ميتاً، فقد استحمت وتوضأت وفرشت قطعته الأخيرة تحتها ونامت، وهي على يقين من أنه سوف يحضر لتعرف منه - تضبط الحكاية.

(٥)

عشرون عاما مرت على موت نور، وأنا كبرت وبدأت أكتب قصصاً قصيرة نشرت معظمها فى الصحف والمجلات، حتى تشكلت مجموعتى الأولى، وكان على التفكير فى كتابة أولى رواياتى ليصبح عنوان المجموعة هكذا: حكايات الديب رماح.

كان على التفكير فى كتابة روايتى الأولى، ولم أجد أفضل من كتابة حكاية نور وبديعة ومحمد عبدون وصديقة ومحاسن وفتحية ورمض - وأولادهم، القصة الحقيقية التى عشتها بكل حذافيرها وشكلت طفولتى وصباي. وكانت بديعة قد انقطعت عن زيارتنا، لكنى كنت أتسمع أخبارهم وأتابعها من بعيد لبعيد، وعلمت أن نور يأتى يومياً لبديعة فى نوم ليخبرها أنه يريد أن يصبح ولياً، وبديعة انهوست بمنامات نور فبدأت تقص رؤاها على كل عابر سبيل. تقول بديعة إنه يزورها فى المنام كل يوم فى البداية، كانت هناك مواعيد محددة لهذه الزيارات، على سبيل المثال فى اليوم الذى يزورها فيه يقول لها إنه سوف يأتى غداً فى السادسة الفلانية، فكانت هى تعمل حسابها وتتهياً للنوم استعداداً للزيارة.. أما بعد، وقد تكررت زيارته، أصبح يأتى فى أى وقت وعلى غير ميعاد، زير - مباغته لا تنتظر إن كانت نائمة أم مستيقظة. فتحية ابنتها الوحيدة - ريحة المرحوم، كانت تقول لكل من تقابله إن أمها عقلها فوت، مسكينة -

كان يأخذ بحسها. أما بعد رحيله، وزواجى، أصبحت وحيدة، تغلق
 - على نفسها طوال الوقت وتحدث نفسها بصوت عال. كانت تدير
 - طوال الوقت مع نور، وأحياناً كانت تغضب وتتعارك معه وتخاصمه
 - تتصالح معه. بررت بديعة تعلق نور بها حتى بعد موته بأنه كان يحبها
 -، وأنه خُير في الجنة بين الحور العين وبينها، اختارها هي دون خلق
 - . كانت تقول: نور أرف رحمة ونور عليه اختاره الله ولياً من أوليائه،
 - يرف يظهر أمره على العالمين، لم تترك مسؤولاً في البلد، ذهبت إليهم
 - جميعاً، أسمعتهم حكايتها، وفي النهاية ترجوهم تخصيص قطعة أرض
 - . فمة ضريح الولي، ولما كانت تعرف أن أحداً لا يصدقها، فقد جاءت إلى
 - ذات صباح بعد فترة انقطاع كبيرة، وأمام الجميع سحبتني من يدي
 - عياً وهمست في أذني: أقول لك على سر وتصدقتي؟ أومأت لها بهزة من
 - فاطمأنت وجلست بجانبها، كنت أنظر إليها في دهشة من لا يعرفها،
 - تكن بديعة التي فتنت بها وأنا صغير، بديعة التي أمامى ترك الزمن
 - ره على وجهها وجسدها، انكمش عودها الفارع فبان أقصر من الأول،
 - تنضن وجهها وامتلأ بالتجاعيد، كما أن أسنانها الأمامية وقعت فتركت
 - تجزيفا معتماً، عمك نور زارنى امبارح وعوزك تيجى معايا نزوره أنا وأنت
 - حدنا، وقال هايورينا معجزة. كنت أتفرس في ملامح وجهها، كان حديثنا
 - حداً ومفعماً بالإيمان، رأيت ذلك في عينيها. قلت إننى لن أخسر شيئاً إذا
 - جاريته، ثم إن زيارة الميت واجبة، وعم نور كان كلما رآنى ملأ جيبى
 - -لحوى، الله يرحمه.

في تمام الساعة السابعة إلا رباعاً كانت بديعة تنتظرني أمام البيت
 - غستانها الأسود القطيفة وطرحتها الحرير السوداء، ما إن رأتنى حتى
 - قلت: صباح الخير يا أستاذ، باين على وشك قلة النوم زى خالتك بديعة،
 - صل نور وحشنى قوى، وهو منتظرنا دلوقت هم فى المشى لحسن نفواً

عليه. انطلقنا إلى حيث يرقد نور رقدته الأخيرة. كانت مدينة الموتى تقع في أقصى المدينة، واستغرقت الرحلة بالأتوبيس الذى اضطررنا لتغييره عدة مرات ساعتين ونصف ساعة، كان الوقت صيفاً وبدأت الشمس تبرد نارها الموقدة فوق أدمغتنا بلا رحمة، بديعة كانت تعرف الطريق جيد فوفرت علينا السؤال واللف والدوران، لما وصلنا الحوش، كان مغلقاً ببـ ضخ من الحديد المشغول والمطلّى بالأسود، خبطت بديعة على البـ ضربات سريعة ومنتالية فتردد صدى الصوت في فضاء المدينة الصامتة انفتح الباب بعد عدة محاولات من الدق، وظهر على عتبته رجل عجـ تخطى السبعين ويرتدى جلابية خضراء بخطوط طولية زرقاء، عيناه شـ مغلفتين من أثر النوم، فتحهما بصعوبة نصف فتحة: مين؟ ست بديعة. ثـ يا عم عبده، أنت لسه نايم لحد دلوقت - ردت بديعة، وتزحزح الرجل - فتحة الباب فدخلنا، كان الحوش كبيراً وواسعاً، واجهتنا ثلاثة صفوف - المقابر تفصل بينها مماش وطرقات على جانبي الحوش وفي المنتصـ قالت بديعة إنها ملك ثلاث عائلات من البلد نفسه ويريط بينهم النسـ والقرباة، قادتني وسط الطرقات وشواهد القبور حتى توقفت أمام مقـ بلا شاهد وبلا إشارات: عمك نور نايم هنا. للموت رهبته ولى معه وقتـ في التوهّمات، توغلت إلى أبعد حدود التوهم، ودخلت في سكة اللي - ما يرجعش، وصعّبت الحياة على نفسى، وعشت في نكد ما بعده - وكدت أفارق من شدة توغلى في تصور لحظات المغادرة! هل أطلعك - نتف مما كتبته في تلك الفترة المحنة؟ وهل يسمح المجال بذلك؟ ونـ وإذا كانت هناك قواعد للكتابة فالتمرد عليها أولى. انظروا لهذا التـ توهمت أن روحى راحت، وأنا الآن داخل قاعة مظلمة ليس لها ضـ مفتاح، فعلمت أن هذا قبرى، ورأيت نفسى داخل كفى بين أربعة جدـ ومن حولى ظلمة ووحشة، فبكيت على حالى، وقلت أين منى أمسى وتـ وتأسفت على مسعاى وحلى وترحالى في أرض الله الواسعة ساعياً -

فى بلاد تشيلنى وأخرى تحطنى بحثاً عن يقين عله يدركنى بنفحة، وبينما
 أنا كذلك أتفكر فى الملك والملكوت، وأن لله فى خلقه شؤوناً، وقد ردت
 روحى، إذ هبط إلىَّ وانحدر من طاقة مدورة فى سقف قبرى لم أرها قبل
 ذلك الحين وفى دائرها صفة نور، هبط ملكان طولهما لا يحده بصر،
 وعرضهما مثل ذلك، فى يد كل منهما مرزبة لو نزلت على جبل لدكته دكا
 وجعلته هباء منثوراً، فعرفتهم، وعلمت أن الساعة ساعة امتحان، فقلت يا
 ساتر استر من الفضائح، وألقى فى قلبى أن بصرك اليوم حديد، ونظرت
 فى جهة ثعباناً كأنه الفيل العظيم لو نظر إلى لمت ألف مرة من عظيم
 خلقته، ونظرت فى جهة بعضاً من جهنم - اللهم احفظنا وإياكم - وفى جهة
 بعضاً من جنة، فرق خاطرى، وبين يدي وضع سجلى، وتصيب العرق منى،
 وسمعت فرقعة عظامي ووجيف قلبى من شدة الوقفة والمسألة أو هذا
 التوهم الذى أسميته «توهم نوحى»: توهمت نفسى كما الغراب النوحى،
 وقلت الحال من بعضه، فكما ينوح الغراب، هكذا أنا نياح على موتاي، وكأن
 لندنيا عدمت ناسها، وكأن همى وغمى لا ينتهيان، سلواى فى التذكرة،
 وسياحتى وتفريج كربى عند أهل الآخرة، زمنى غريب، وخطبى عظيم،
 ودوماً دوماً فى توهم دائم، كأنى لا أعيش دونه، وكأنه يتنفس دمي، حتى
 صرت أنا والتوهم اثنين فى واحد، وحتى صرت أتوهمنى فى كل أحوالى،
 فى غدوى ورواحى، فى صحوى ونومى، سرائى وضرائى، محياى ومماتى،
 فيما نكدى على دنياى، كر وفر، إقبال وإدبار، هكذا فى كل الأحوال، ما
 نقص شئ إلا ليكتمل، وما اكتمل إلا لينقص - فسبحان مغير الأحوال -
 المهم أننى أمسكت ريابتى فى يدي، وعلى جسدى ارتديت كفى، ثم أننى
 زميت نفسى فى توهم صعب أعرف حدوثه مهما بعدت المسافة وطال
 الناي، فهذا أمر مكتوب وليس منه مهروب، وما خشيت إلا شيئين: موت
 لفجأة، وموتى وأنا لا أبأشر صنعته، وكنت أظن أنه لا يوجد فى زمنى
 أصبر منى على مواجهة الموت، لما أعرفه وخبرته، ولى فى هذا الباب

مباحث كثيرة، ولما وطنت النفس عليه منذ النشأة الأولى، وصرفها عن اللهو ومتع الدنيا لعلمي بوقوعه لا محالة، ولإدمانى النظر فى الكتب القديمة، فقد اطلعت على نصيب وافر من كتب الأمم السابقة، وكدت أحفر لنفسي قبراً فى محل سكنى، فأمكث فيه إلى ماشاء الله، وقد رأيت فى هذا الباب مالا عين رأت، وسمعت مالا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر قط، وقد انقسمت على نفسي إلى قسمين: قسم يعيش عيشة أهل الدنيا، وآخر يعيش حياة أهل الآخرة، فكنت كالمعلق بين السماء والأرض. فصرفت النفس عن الخوض فى ذلك التوهم، وعلى ألا أعود إلى هذه المسألة بعد اليوم، وليقض الله أمراً كان مفعولاً، فلا أدري ماذا أكسب غداً، ولا أدري بأى أرض تكون قيامتى، فقد شاب شعرى من التفكير فيها وانهد حيلى وعدمت عافيتى فى انتظارها وترقبها، المهم، بينما أنا هكذا أتفكر، وإذا بربابتى تأخذ وضعها الصحيح فى يدي، وإذا بها تعزف لحد دار فى خاطرى وكنت أظننى تركته واسترحت، وبدأ صوتى ينوح ولسانى ينطق غصباً بهذين البيتين:

خلقت من التراب فصرت شخصاً فصيحاً فى السؤال وفى الجواب
وعدت إلى التراب فصرت فيه، كأنى ما برحت من التراب

كنت أقف أمام قبر نور فارداً كفى أمامى أقرأ الفاتحة على روحه وأرواح المسلمين، ثم تلفت حولى، كانت بديعة واقفة مع عم عبده الترى تحت ظل شجرة بعيدة، وكنت أرقبها تتحدث إليه حديثاً لا بد أنه أغضب. فقد ارتفع صوته قائلاً: كلام إيه دا يا ست بديعة، صاحب العقل يميز. أشار لى بالاقتراب فاتجهت ناحيتهما، أحضرنا يا أستاذ، الست عير تودينى فى داهية، وأنا راجل كبير وصاحب عيال يا ست. فيه إيه بر - عم عبده، مزعل الست بديعة ليه، قلت وأنا أحاول تلطيف الموقف وتروى وجهى وضعت ابتسامه. فيه أن الست طلبت منى أفتح الترية وأخرج حـ

جوزها اللى ميت من عشرين سنة، بقى ده كلام يعقل يا عالم، ثم إن التربة ما تفتتحش إلا بتصريح من الأمن، آه دى مسؤولية وفيها سين وجيم وخراب بيوت. بديعة كانت واقفة فى ثبات وفى عينيها نظرات تحد، هو أنا بأطلب منك تصحيه؟ أنا طالبة أشوف جوزى ودا حقى. لأ، مش من حقتك، قال عم عبده بحددة، ماعدش جوز حضرتك من ساعة ما مات، القرآن والسنة بيقولوا كده، هو دلوقت بين إيدين رينا، وجوزه أحسن منك، حور عين لم يمسهن إنس ولا جان، اعترضى بقى على كلام رينا. لم تياس بديعة، وبدت لها محاولة إقناعه مسألة حياة أو موت، وبدأت أشك فى أنها سوف تقنع الرجل العجوز، لكن بديعة حسمت الموضوع حسماً نهائياً فقد أخذت عم عبده من يده، وجرته بعيداً عنى، ولمحتها تدس يدها فى صدرها وتخرج شيئاً تضعه فى جيب جلابيته العلوى. تركها الرجل وغاب نحطات ثم عاد يحمل سلسلة مفاتيح كبيرة، فى صمت تقدمنا ونحن سرنا خلفه حتى وقف أمام مقبرة نور، تخير مفتاحاً وضعه فى قفل الباب للصغير وأداره فانفتح، تعجبت من موقف الرجل العجوز وقلت هو المال سيد هذا العالم والعصا السحرية التى تفتح كل مغلق، راقبته وهو ينزل سلالم الحجرية الصغيرة حتى غاب عن أنظارنا، عاد بعد دقائق ووقف عنى السلم فى المنتصف وزعق: الرمم كثير وأنا ما أعرفش رمة جوزك من غير، قالت بديعة بلهفة أنا أعرفها، واتجهت مهرولة نحو فتحة المقبرة فأوقفتها الرجل بإشارة من يده: حرام يا ست تنزلى عين الرجال. أسرعت بديعة وأزاحتها عن طريقها بذراعها فتحنى وسمح لها بالمرور ونزل خلفها وجلست أمام التربة وفوهتها المفتوحة على الظلام جعلتنى أسرح قليلاً متأملاً المصير الإنسانى.. يقول شيخى محيى الدين بن عريى: الموت سهم صوب إليك لحظة مولدك، وحياتك بقدر وصول السهم إليك. قضى الأمر بطويت الصحف ولا راد لقضائه، فالسهم انطلق، وهو آت لا محالة،

مسألة وقت ليس إلا . فصلت ذلك فى توهماتى لمن أراد المزيد من النكد:
أما أنا فأرد نفسى عن شرودها وأعود إلى روايتى .

خرجت بديعة وقد تهلل وجهها بالفرح، وخرج وراءها عم عبده يحمل فوق كتفه جثة ملفوفة فى كنفها، وضعها أمامنا على الأرض، نظرت إلى بديعة وهى تشير بإصبعها: عمك نور قدامك أهو . كانت أولى معجزات نور وكراماته أن الكفن ظل على حاله متماسكاً وصلباً كما كان منذ عشرين سنة، هى عمره ميتيناً، وبدا لى أن بديعة تنظر إلينا بزهو وخيلاء وكأنه فخورة بما أرتنا إياه، تقدمت بديعة وركعت على ركبتها أمام الجسد العصى على التحلل وانحنى تفك أريطة الكفن، ثم إنها أزاحت طيات القماش عن الجسد دفعة واحدة، وبدا وجهه فى ضوء الشمس الترى انعكست فوقه نابضاً بالحياة، بل أكثر من ذلك كانت تظلمه شبه ابتسامة مطمئنة، وخيل لى أنه فى غفوة قد يصحو منها فى أية لحظة، حملنا غير مصدقين ما نراه أمام أعيننا، والرجل العجوز رفع إصبع السبابة أم - الجسد متمماً بآيات من القرآن وناطقاً بالشهادتين . وأنا أردت التكد فاقتربت من الجسد ولمسته بأصابعى لمساً خفيفاً فسرت رعدة فى جسدى، كان غضا ودافئاً، والماء الذى غسل به مازالت نداوته يحملها الحى الطرى الذى تفوح منه رائحة ماء الورد .. تذكرت قصة عزيز، أحد أنبى بنى اسرائيل الذى مر على قرية خربة، فقال أن يحيى الله هذه الأرض ب موتها فرد عليه صوت من السماء: يحييها الذى أنشأها أول مرة . ثم الله أماته مائة عام ثم بعثه من جديد ليكون شاهداً على معجزة الله . كنت مهيناً الآن لتقبل معجزة الأحياء مرة أخرى، فهل تحدث؟

(٦)

فى طريق العودة، كنت أجلس أنا وبديعة متلاصقين فى الميكروباس نزدحم بالبشر، كان الجو حاراً خائفاً مع لزوجة بفعل رطوبة الجو وروائح رائحة تنبعث من الأجساد جعلتني أشعر بالاختناق، بديعة دخلت فى نصمت دون مقدمات وتوحدت مع نفسها. وقطعاً للوقت أخذت أفكر فى تلك الأشياء الخارقة للمألوف والتي لا دخل للعقل أو المنطق فى تعليلها، بما علينا سوى أن نأخذها هكذا دون أعمال العقل كأمر مسلم به، وتبلورت فى ذهنى فكرة مقال عن تلك الأشياء التى هى دون معجزات الرسل، لكنها خارقة لناмос الطبيعة المعروف، كامتلاك بعض الأشخاص لقدرات غير طبيعية. كنت قرأت وسمعت كثيراً عن رجال يأكلون الزجاج، أو يجرون عربة نقل بشعر الرؤوس واللحى، أو يقفزون من أعالي البنايات، وهناك من يملكون قدرات سحرية، أو أولئك الذين يتخاطرون عن بعد، وفى تراثنا الصوفى حدث ولا حرج.. رجال يطوون الأرض طياً، وآخرون يطيطون فى غضاء، ومن يعبر الزمان والمكان، أو من يمشى على الماء، وهناك حكاية مشهورة فى التراث العربى الصوفى هى من عيون هذا التراث، ولكن مع الأسف وجد من نقلها بحذافيرها مع تعديل بسيط هو نسبتها للتراث التبشيري المسيحى، ومن لم يصدق فليقرأ رواية باولو كويلو «بالقرب من عبر بيدرا» الحكاية تحكى عن رجل فلاح يعيش على فطرته الأولى، وإيمانه

بالله لا تشوبه شائبة، يعمل فى حقله بالقرب من نهر، وكان يصلى صلاته حين مر عليه جماعة من كبار المشايخ، فوجدوا الرجل يصلى خطأ فانتظروه حتى انتهى من صلاته وبدأوا يعلمونه الطريقة الصحيحة للصلاة، ثم إنهم تركوه وواصلوا رحلتهم بالمركب فى مياه النهر، وحدث أن الرجل نسى بعض ما قاله المشايخ له فجرى على الماء ليلحق بهم، فنظروا من المركب وجدوا الرجل يجرى فوق الماء حتى وصل إليهم ليسألهم عن الطريقة المثلى للصلاة، فإذ بهم يقولون له فى نفس واحد: ابق على صلاتك وعباداتك كما تعرفها ، فقد أوصلتك إلى ما لا نستطيع الوصول إليه بعلمنا .

حين وصلنا، ودعتنى بديعة بإشارة من يدها ومضت من دون أن تتكلم أخذت أرقبها حتى غابت عن ناظرى، ثم صعدت من فورى إلى غرفتي وبدأت فى كتابة المقال الذى استغرق الوقت، ولم أدر إلا والمساء قد حرت ارتديت ملابسى وركبت الأتوبيس المتجه إلى محلة السرايات حيث مكتبة الكمبيوتر الكثيرة والمنتشرة هناك، صورت من المقال عدة نسخ وزعتها على عدة جرائد واحتفظت بنسخة. بعد مرور أكثر من شهر، كنت أتصفح الجرائد مصادفة فى صالة الانتظار بمطار القاهرة الدولى، كنت فى وأخوتى فى انتظار أبى العائد من الحج، وكنت أشعر بالملل فأخذت أفحص العناوين الرئيسية: الرئيس جاء، الرئيس ذهب، الرئيس استقبل، صرحت لعاطف عبید رئیس الوزراء وقد بدا للوهلة الأولى أنه لم ينم منذ تلك هالات سوداء وانتفاخات الأكياس الدهنية حول عينيه تجعل صورته بشعة وعلى لسانه تصريحات حول السلع الأساسية التى سوف تنخفض حدة على محدودى الدخل، مقتل اثنى عشر جندياً أميركياً فى الفلوجة وانتفاخات الإسرائيلىة تجتاح مدينة غزة وتهدم عشرات البيوت، إلى آخر العنقود المكررة والمعادة... وفى إحدى الجرائد وقعت عينى على عنوان به - للوهلة الأولى أنى أعرفه: الولى الذى تم اكتشافه فى بولاق الدكر

يحت هذا العنوان ويبنط أصغر: دفن حيا وبعد خمسة وعشرين عاماً يخرج من قبره ليظهر كراماته. كان المقال يحتل النصف الأعلى من جريدة، بينما النصف الأسفل امتلاً بصور فاضحة لأحد القساوسة وهو يدرس الجنس مع بعض النساء، وقد قدر لهذا العدد من الجريدة أن يخطفه القراء، وأصبح لا حديث للناس في بولاق الدكرور إلا عن ولى الله شيخ نور الدين وكراماته، بل صار الناس ينسبون إليه بعض الحكايات : كرامات، من ذلك مثلاً ما رواه رفيق طفولته الحاج سيد دعبس الذى يتسم بأيمانات المسلمين أن ما سوف يرويه شاهده بعينيه اللتين سوف يكلفهما الدود، حدث فقال: كنا نلعب ذات مرة فى الحارة، كنت وقتها ابن عشر سنين، ونور فى مثل سننى تقريباً، وكانت بولاق الدكرور عبارة عن غيطان ترمح فيها الخيالة ما تجيبش آخرها، والصفادع أكثر من البنى نمين، نور جاب ضفدعه كبيرة، وجاب حثة أبلكاش وصلب الضفدعة من أرجلها الأربع على الخشبة بمسامير سنارة ثلاثة سنتى، ما كناش واخدين بالننا فى الأول من اللى بيعمله، ولما انتبهنا، اتلمينا حواليه وبدأنا نراقبه، بعد كده جاب نملة كبيرة من النوع الفارسى وصلبها جنب الضفدعة، وحاول صلب النملة زى ما عمل مع الضفدعة ففشل، فما كان منه إلا أن جاب كلة اللى بنلرزق بيها الكورة الشراب ولزق النملة فى الخشبة جنب أختها، بعد كده جاب موس حلاقة وشق صدر الضفدعة، وعمل الشئ نفسه، النملة، حط قلب النملة مكان قلب الضفدعة وقلب الضفدعة مكان قلب النملة، وشاور بصباعه مكان الجرحين فرجع كما كان، بعد كده فك الاتين من الصلب فنتوا يجرون كما الرهوان وكل واحد عاش بقلب التانى سبحان الله. واقعة أخرى رواها أحد رفقاء شبابه ويدعى زعبولا، كان أحد تجار البانجو المعروفين فى المنطقة فقال: صاحبت الشيخ نور فترة من فترات الشقاوة، كنا نتقاسم فيها كل شئ، الحشيش، الأفيون، السجائر، البانجو، وحتى النسوان والنومة. وكنت لما الدنيا تضيق بى، أروح عنده

فياؤينى فى بيت أمه، آكل وأدخن وأشرب ولا أحمل أى هم، يعنى باختصار كان صاحب صاحبه، فلما قبض علينا أنا وهو ذات مرة، قعدنا فى قسه الشرطة عشرة أيام من دون طعام أو شراب، ولم يسأل فينا أحد، ورأيت متضايقاً يجلس وحيداً بعيداً عن الجميع متكوماً على نفسه فى ركن الزنزانة الضيقة، وكان يدفن رأسه بين ركبتيه بالساعات من دون أن يتكلم مع أحد، تركته أول الأمر وقلت لابد أنه تضايق لأن لا أمه ولا أخته عبرد: بالزيارة، بعد فترة قلت ما بدهاش ويا واد روح شوف صاحبك ماله فاقترت منه وطبببت على ظهره وقلت لا تزعل يا صاحبي، فرجه قريب فرقع رأسه ونظر إلى فى حسرة، وشففت عينه مرغرغة بالدموع وتنيه وقال: تعرف يا بولا - كان ينادينى هكذا - حاسس أن حياتنا عايشينها غلغ فى غلط، وماشيين فى طريق آخره حيطه سد، ثم غمغم لنفسه: إنك تهدي من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء. ثم إننى تركته ونمت، لكنى قلقت قرب الفجر، فصحوت على صوت خروشة، ونظرت ناحية نور فرأيت ما تعجبت له، كانت طاقة من النور على هيئة دائرة تقف فوق رأسى وتضىء المكان حوله، ورأيت يخط على جدار الزنزانة بإصبعه، فلما اقتربت منه شاهدته يرسم مركبا كبيراً بصارى وقلع ومجاديف وناس تطل داخل المركب، فلما اكتمل الرسم كادت المركب أن تكون حقيقية، ووجدت أقف خلف ظهره أتأمل ما فعل وعلى وجهى علامات دهشة، ابتسم وات إلى المركب: هل تريد ركوب هذه والخروج من سجنك الصغير؟ فضحك وقلت: ياريت ياخويا، بس فين البحر اللى تمشى فيه المركب! فنضرت وابتسم قائلاً: لو أراد شيئاً يقول للشىء كن فيكون. وبينما أنا وهو كد صحا جميع من فى السجن ووقفوا يتفرجون علينا وعلى المركب، فالت إليهم وقال: يا جماعة الخير، إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى. - أراد منكم التوبة فليتب بنية صادقة فإنه يركب ها هنا، وأشار إلى الحد فباسم الله مجريها ومرساها. وما نشعر إلا ونحن جميعاً محشورين. -

- يَب. وهى تتحرك بنا وتعبر المسافات حتى انحدرت بنا فى عرض
حر إلا هو، فقد آثر المكوث فى سجنه حتى يقضى الله فى أمره،
سبحان الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.. وهأنذا
عسى عما رأيت وسمعته بالتمام والكمال، والحمد على كل حال.

خيري عبد الجواد - الأعمال الكاملة

القسم الرابع

(١)

حَفْنَى

رأى حَفْنَى نَفْسَهُ فِيمَا يَرَى النَّائِمَ وَكَأَنَّ حَجْرًا ثَقِيلًا وَضَع عَلَى صَدْرِهِ
عَزَّ يُسْتَطِيعُ التَّنَفُّسَ، وَرَأَى نَفْسَهُ يَصْعَدُ جَبَلًا يَجِدُ فِي نَهَائِهِ أَسَدًا ضَخْمًا
يَأْخُذُ فِي التَّهَامَةِ حَتَّى لَا يَتَبَقَّى مِنْهُ شَيْءٌ، وَرَأَى مُحَمَّدَ عَبْدِوَنٍ يَرْتَدِي رِدَاءً
جَدِيدًا بِوَجْهِ أَسْوَدٍ كَظِيمٍ وَيَبْكِي بِدَلِّ الدَّمْعِ دَمًّا، وَرَأَى نَفْسَهُ فِي حَضَنِ
رُجْتِهِ وَهِيَ تَتَنُّ مِنَ اللَّذَّةِ وَيَنْزِلُ مَاءٌ صَدِيدًا لَهُ رَائِحَةُ كَرِيهَةٍ فَيَغْرِقُهَا،
يَرَى بَطْنَهَا لَا يَتَوَقَّفُ عَنِ الْإِنْتِفَاحِ حَتَّى يَنْفَجِرَ بِدَوَى رَهِيْبٍ.

قَصَّ حَفْنَى رُؤْيَاهُ عَلَى صَفَاءِ فَعُوجَتِ بُوْرْهَا يَمِينًا وَشِمَالًا وَعَلَّقَتْ قَائِلَةً
خَبْرَةَ اسْتِهْزَاءٍ: يُمْكِنُ بَسُّ مَا تَغْطِيْتَشْ كُوَيْسٍ وَطِيْزِكَ اتَعَرَّتْ وَاتَمَلَّتْ هَوَا.
كُنْ قَلْبُهَا اتَعَصَرَ شَفَقَةً عَلَيْهِ، لَهُ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَجَسَمُهُ فِي النَّازِلِ وَيَشْتَكِي
مِنْ وَجَعٍ فِي كُلِّ جَنْتِهِ، وَأَخْرَ مَرَّةً نَامَ مَعَهَا كَانَتْ مِثْلَ الصَّبِيِّ الْمَلْبُوحِ الَّذِي
يَنْعَلُهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، تَذَكَّرَتْ كَيْفَ كَانَتْ تَصْرُخُ وَتَتَلَوَّى مِنْ تَحْتِهِ وَهُوَ لَا حَيَاةَ لِمَنْ
تَنَادَى، كَانَتْ زَلُومَتُهُ مَكْمُوشَةً فِي بَعْضِهَا وَمَتَهَدِلَةً كَمَا الْخَرْقَةُ الْقَدِيمَةُ،
فَرَجَّتَهُ أَنْ يَعْبَثَ بِأَصَابِعِهِ حَتَّى تَسْتَرِيحَ وَتَهْدَأُ. تَذَكَّرَتْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ
مُحَمَّدَ عَبْدِوَنٍ - يَبْشَبِشُ الطُّوبَةَ الَّتِي تَحْتَ دِمَاغِهِ - كَانَتْ يَعْصُرُ جَسَدَهَا
عَصْرًا، وَدَائِمًا مَا كَانَ مَنْتَصِبًا مِثْلَ وَتَدِّ نَاشِفٍ، قَالَتْ: الْقَوَالِبُ نَامَتْ
وَالْأَنْصَاصُ قَامَتْ، رُبَّمَا كَانَتْ تَعْرِفُ السَّبَبَ الْحَقِيقِيَّ لِارْتِخَائِهِ، فَفِي إِحْدَى
مُرَاتٍ وَبَيْنَمَا كَانَتْ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، لَمْ تَرَهُ مَتَهَيِّجًا مِثْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ، وَكَانَتْ

فحولته تؤلمها فكادت يغمى عليها من شدة النشوة، فى تلك اللحظة فلتت من لسانها كلمة: بحبك يا محمد. فكأنها رمت عليه جردل ماء بارد، همد فجأة وانكمش فى بعضه ونظر إلى عريها الكامل ممدداً على السرير وله ينطق بحرف، فقط اكتفى بإدارة ظهره لها متصنعاً النوم. من يومها، أقسه ألا يقترب منها أبداً، ولكن كلما طال الوقت، كان جوعه لجسدها ينهشه كانت لها عاداتها فى النوم، ترتدى قميص نوم على اللحم، وحين تند ينحصر إلى ما فوق بطنها فيظهر عريها كاملاً أمام عينيه، كان يجلس بالساعات فى العتمة الخفيفة أمام الجسد الأبيض المشع، يتأملها من كعبى رجليها حتى أعلى نقطة فى رأسها، استدارة ريلتى ساقيهما والتفاف فخذيهما وبضاضتهما، كبير حجم منها والشعر الأسود الناعم فوق عانتى ومن حوله، فكأنها الأسد فى عرينه، طيات بطنها والسرة الغائرة، الصدر البض المدملج الصلب يكاد يفر من مخابئه، الوجه بملاحظته التى دوخت حين رآها أول مرة، فى بعض الأحيان كان يشتاق للمس جسدها فيتأكد من نومها، ثم يمرر كف يده على كل مغاورها بخفة لص ورعشة عاشق، ريد كانت تحسّ بلمساته، فقد أنت ذات مرة تحت وقع تلك اللمسات واستدارت لتنام على ظهرها لتمكّنه من نفسها، لكنه انسحب بعيداً عن متأرجحاً بين لواعج الشوق للجسد المشتهى، وكرامة أريقت دون أن يشفقة.

أحس حفى بوارد تعب كانت أهم تجلياتها شعوره بالوهن طوال الوقت وشكشكة كانت خفيفة أول الأمر مصدرها خصيتيه، كان يستطيع احتد مرجعاً ذلك الألم الذى أصبح عميقاً بعد ذلك للفتحات الهواء التى معرضاً لها باستمرار بعد يوم عمل شاق، ومع مرور الوقت بدأ الألم يصب أكثر عمقاً وضراوة، كان المرض يمتصّه ببطء يوماً بعد يوم، حتى أصبح مثل عود حطب جاف، أرجعت صديقة حالة ضعفه إلى كثرة نشد الجنسي، أصل اللبوة مراته رافعة رجليها طول الوقت، ولو ما عملت

تذهب إليه صباحاً حاملاً معها ما استطاعت تدبيره من طعام أو فاكهة. وتظل معه حتى المساء، حطّت نفسها تحت رجليه ربّما لإحساسها بالذنب تجاهه، اكتشفت صفاء أن زوجها رجل طيّب ما كان يستحق ما فعلته معه فأحست بالندم، ونوت بينها وبين نفسها إذا ربّنا كرمه وأخذ بيده فستجعل خدّها مداماً له، لكن حظّها عاندها، فقد جاءت كلّ التقارير والأشعة لتؤكّد حقيقة واحدة لا شك فيها: إنّ سرطانها قد تمكن وانتصر.



(٢)

بديعة

بعد موت أخيها حفنى المأسوى، أقفلت بديعة بابها على نفسها ولم تعد ترى أحداً أو يراها أحد، كرهت الدنيا وكرهت نفسها بعد ما رآته من عذابات موت حفنى، فقد ظل يحتضر ستّة أشهر كاملة، وأصبح من يحبه يتمنى له الموت، رآته يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى أصبح مثل خيال المآتة، جداً على عظم، وكانت عظامه تشوى على نار هادئة، صرخ مرةً فيها: إنتِ مش أختى وبتقولى إنّ جوزك ولى، قولى له يرحمنى، النار بتاكل فى جتى يا ناس، لحظتها تغرغرت عيناها بالدموع ومالت على أذنه حتى لا يسمعها غيره وهمست: ما تكفرش وأنتِ هاتقايل ربك بعد ساعات، أطلب الرحمة منه. بعد ساعات تقابل رباً اسمه الكريم، وتدفن فى ظلام القبور ويجيء نيك ملكان يسألانك عن ربك ودينك وممّتك فقل معى: الله ربي حقاً، والإسلام دينى، والكعبة قبلتى، والقرآن كتابى ومحمد بن عبدالله نبيى، قل آمنتم بالله تعالى وما أنزل على الأنبياء، قل ورائى خلق الإنسان فى كيد، وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور. إذا سألك فقل لهما بلسان عربى فصيح: الجنّة حق، والنار حق، والحياة الآخرة حق وهى خير وأبقى. كانت تلقنه آخر تعليمات سفره الأخير، وكان مختنقاً بسرطانه فأشاح بيده كى تبتعد عنه، تركته ومشيت وهى على يقين من أن هذا هو يومه الأخير فى الدنيا، لكنّه عاند ملائكة روحه وصرخ بت يا صفاء، شيلينى طلّعيني برّه

فى الشارع، عاوز أشوف الناس. وضعوا له كرسيًا جنب حائط البيت جلس عليه ملموما فى بعضه، كانت الناس فى غدوها ورواحها ترمى عليه السلام وتسأل عن صحته، وكان يقول الحمد لله على كل حال. كان الوقت صباحًا، وشمس الشتاء ترسل أشعة دافئة، واليوم هو أول رمضان، أصر على صومه، نظر حفى إلى السماء وهى تتلون أمام عينيه بألوان الطيف وكرات بلورية تتراقص فى الهواء لها لون الزيت، وشعر فى تلك اللحظة الحياة جميلة، وتمنى لو كان فى العمر بقية، لكنه سقط من فوق الكرسي ومات.

(٣)

بديعة

رأت بديعة فيما يرى النائم، وكأن أبواب السماء قد فتحت بقدره الله وقدره، وظهرت أمام عينيها طاقة قدر القبة وهى صافية البياض وفى دأيرها اختضار كهيئة الفجر عند لياحه، ورأت كل شىء على الأرض ساجداً: الناس، والوحش، والطير.. فلا ديك يصيح، ولا كلب ينبح، حتى لأشجار كانت راقدة، وإذا هى فى مكان واسع رحيب، وإذا بنور عظيم يأخذ البصر السليم يضىء المكان، وفى عقب ذلك النور رجل عابد زاهد، فلماً أقبل صاح بسم الله، المكان خال يا عباد الله. فعند ذلك النداء أقبل بعض الرجال وأخذوا يصفون الكراسى فى الجهتين، ثم أتوا بكرسى كبير وضعوه فى صدر المجلس؛ وصاح أحد الرجال، وهو نقيبهم، يا سادة الأرض ذات الطول والعرض أحضروا ذلك المحضر كما أمر قطب الأقطاب الأكبر سيدى أحمد البدوى والشريف العلوى صاحب الإمداد النبوى. فعند ذلك أقبلت الرجال كأنهم الأقمار، وجلسوا ذات اليمين وذات اليسار ووقف النقيب بين أيديهم، وقال: أبدأ مديحى فى جمال محمد، نبى عربى أجار الغزاة وأطلقها من أسر صاحبها اليهودى اللئيم، وبعد، هذه يا إخوان قصة سيدى أحمد البدوى البحر العجاج المتلاطم بالأمواج القطب النبوى الشريف العلوى باب النبى ودليل الحج أبو الفتيان سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه وأرضاه، وهى تشتمل على قصة الأميرة خضرة الشريفة

وما جرى لها فى بلاد النصارى، وكرامة السيد البدوى حين أتى بهـ
 وكرامات الأقطاب المذكورين رضى الله عنهم بالتمام والكمال والحمد لله
 على كل حال. قال الرجال: وكيف كان ذلك نقيب السادة الأمجاد؟ قال:
 الحمد لله الحنان ورازق الإنس والجان كذا الطيور مع الحيتان والدود فى
 قلب الصخرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وبعدها صلّ على الزين نبين
 مكحول العين اللى القمر له انشق انتين وجت إليه ساجدة الشجرة نظرة يـ
 بدوى يا جايب اليسرة، كذا صلاتى ع الأصحاب والتابعين ثم الأنجـاب
 والأولياء ثم الأقطاب والصالحين أعلى العشرة نظرة يا بدوى يا جايب
 اليسرة، وبعد هذا يا شاطر اسمع كلام كله جواهر صنعته وكان عقـر
 حاضرًا وفكرى كان مثل الدرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، لو كان كـ
 عندى مليون من الهموم ولا محزون وتقرأ فيه مرة بالنون تزول همومـ
 بالمرّة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، أقول كلامى وتفنىنى قبل الزمان يـ
 يفنىنى فى نظم قصة متقونة تنبيك عن سيرة خضرة نظرة يا سيد يـ
 جايب اليسرة، كان يوم من أيام الجمعة نزلت بابابها دى الشمعة لمعبـ
 نصرانى لمعة عقله انخطف كله مرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وقـر
 مين حاجيبها لى دا كنت أغنيه بالمال فقالت أمه أصفالى نادى العجـب
 من برة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، حضروا العجايز دول تسعين يـ
 مكرهم غلبت شياطين فقالوا إيـش أنتم طالبين فقال لهم عايـز خـذ
 نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، قالت عجوز ملعونة البوز وأنفها يشبه نـر
 دا إيه دنا عندى مريوز حالا يجيبها لك بكرة نظرة يا بدوى يا جـب
 اليسرة، راحت لدارها وهى تجرى وشبشت يعنى بسحرى وجت لـخذ
 من بدرى منزيرة ولايسة حبرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وجت يـ
 المشوية والسبحة فى إيـدها مقلوـبة بقيت وليّة ومجدوبة تذكر كأولاد يـ
 نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، طلعت لها القصر العالى توحد المولى يـ
 لقت جبينها بيلالى فاتحة الكتاب كله وتقرأ نظرة يا بدوى يـ حـ

يسرة، قالت لها صباح الخير يا طاهرة يا وجه الخير يا حلوة السيرة
 : نسير يا حسن يوسف يا قمره نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، قالت لها
 نفين صباح عليك يا ست الصلاح والكل جاهاً والأفراح كلت وشريت دى
 نعة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ولما طفحت دى البومة قالت لها يا
 ميمونة تنك لأمتى محزونة ما بتخرجيش دوماً برّة نظرة يا بدوى يا جايب
 يسرة، يلا بينا هناك نتفسخ ونشوف كدا البحر بيمرح والموج دا فيه عمال
 يرمح ولا كده الأسماك آخرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ولّت وراها
 كلنجفة ويّاها أولادها الشرفة مشت أمامهم دى العكفة طيطة وتجرى
 كنبقرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، خضرا كدا بصّت بالعين وشافت
 نغليون يا رزين يجرى كدا بين البرين قالت عليه بتاع كفره نظرة يا بدوى
 يا جايب اليسرة، فحلفت لها ألف يمين بأنه بتاع ناس مسلمين يوحّدوا رب
 نعلمين وكلهم أبطال امرا نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، يعنى كدا شوفى
 نريس واقف محندق كويس شاطر لبيب عقله كويس واقفين وراه كل
 نغفرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، والصارى عمال بياللى ذهب ولكن
 نالغالى والدفة فضة كهلالى منورة مثل القمره نظرة يا سيد يا جايب
 يسرة، ولما وصل النغليون ونادت الرئيس أنطون ساعت ما شافها الملعون
 نل للعجوز ألفين شاطرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ثم زعق على
 نواتية حطوا السقالة الذهبية والقصة الأخرى المجلية نزينه الدنيا
 حضرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ما فيش أحد يطلع عندى إلا
 شريفة دى ووحدى أما العجوزة دى بعدى تفرح الست الحرة نظرة يا
 دوى يا جايب اليسرة، وبعد ما دخل جوه عان السقالة بمرودة وجرى
 عيونه بقوة على بلاده ابن الكفرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، أما كدا
 نأشراف يا أسياد بكوا بكوا يقطع الأكباد والوجه صار منهم كرماد وروحوا
 بحالهم عبرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، رجع كلامنا يا صناديد لما
 حرى النغليون بعيد قيد رجولها بقيد حديد وأيديها وأكتافها الأخرى نظرة

يا بدوى يا جايب اليسرة، وخضرة تزعق يا شيطان ما تخفش من رب
الديان اللى يعذب بالنيران يوم القيامة فى الآخرة نظرة يا سيد يا جايب
اليسرة، يا رب يا عالم بالحال انجدى من هذى الأحوال يا سيدى يا عبد
العال أنظر لمحبوبتك نظرة، نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، قام قال الملعون
يا زين يا قرة الحاجب والعين حا تبقى سلطانة البرين جوزك ملك الكنية
نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، أما العجوز تقول سيرى مين يمكنه يجيب
غيرى دا لما ينظرنى أميرى يهدينى أنواع البشرة نظرة يا بدوى يا جايب
اليسرة، وتنهى معنى مسافرين تسعين ليلة بالتمكين لا نوم يناموا -
صاحيين يدادوا ويرضوا خضرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ولما رب
بالغليون والعجوز نادى أنطون خليك هنا وركبت فيتون علشان تبشر -
العاهرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، طلعت على قصر السلطان وقت
افرح يا سمعان واعطنى محرمة الأمان جبلك خضرة القمره نظرة -
بدوى يا جايب اليسرة، فقال لها ألفين دينار يرضوك يا ست الشدة
والأبعدية والدوار وخمسين نعجة وميت بقرة نظرة يا بدوى يا جايب
اليسرة، ردت قالت له الله يعطيك زدى كمان أردب فريك قال لها و -
وماية ديك أعطوها حالا يا وزرا نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ويعند
نادى الخدام وقال لهم تسعولى قوام وتحضروا المركب بتمام وتند -
خضرة الفخرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، راحوا قوام جابوا المزم -
الطبول مع الأوتار وجابوا خضرة بالمشوار وكل دا وهى صابرة نظير -
بدوى يا جايب اليسرة، دا بعد ما حلوا أكتافها ولبسوها ثياب حد
ودخلوها بالدفة بقيت منيرة كالدرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة. -
على ملك الكفار فقال أيا ست الشطار القصر كله زاد أنوار لما هير -
قمره نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وقام بنالها فى الحال قصر -
عالى وغالى طوبه ذهب كله ليلالى وأرضه فضة معتبرة نظرة يا جايب
جايب اليسرة، وسكنوها فى أوضة من جوة أوضة مرصودة لحد -

حدة حسودة تشوفها تحسدها بنظرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة،
 حجب لها الصيارف فى الحال وشغلهم تنه عمال تسعين صياغ فى دى
 شغال وكل ده علشان خضرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، دقوا لها
 حلقان ألمظ أما الشعير كله مألوظ شغل الخواجة بك ألمظ اللى انشهر
 فى بلاد برة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، أما الحرام من كلام مفيش
 كذا أبداً يا سلام شغل الخواجة أبو عرام اللى نقش فيه الشجرة نظرة يا
 بدوى يا جايب اليسرة، أما الذى دق الكردان اللى ما شاف زيه إنسان شغل
 خواجة أبو قردان اللى ملاصيته الكفرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة،
 أما الذى دق الخلاخيل من الذهب خالص يا جميل اسمه الخواجة مسيو
 خيل اللى بقت له برة الشهرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، أما الأداسى
 يا سياسى من فضة شوشة أساسى شغل المعلم ملاسى شيخ الخواجات
 تكبرى نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، والمشط الآخر من لولى أسمع
 كلامى ومنقولى حسك تقول غير معقول لأنه عن ناس معتبرة نظرة يا
 بدوى يا جايب اليسرة، طفت الصعيد الجوانى وتنى أبحث بالتانى لما
 نتقيتها يا إخواني مع ناس كذا كلك امرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة
 يرجع كلامنا للسلطان اللى عوج عقله الشيطان وبده يرميه دا الغفلان حالا
 ويفتح له حفرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، أما الحاجات الأبطال تموله
 كل الأشغال راحوا عليه كالمملك فى الحال شاف شغلهم صار فى جمرة
 نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ونادى خدامه يا رجال الخياطين تموا
 الأشغال قالوا له الخدام أمال خلصم وطالبين الأجرة نظرة يا بدوى يا
 جايب اليسرة، أدهم الأجرة الملعون وقال لخدامه سيحون انده لفراشنا
 الميمون يعمل لى زينة معتبرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وقتها الفراش
 يا ناس جاب الحرير كله أجناس فضل يفصل بالمقاس رايات كده حمرة
 وخضرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، جاب المزارع ما تتعد أصناف كثيرة
 مالهاش حد خصوصاً الياسمين والورد والآس دا جاب منه بكترة نظرة يا

بدوى يا جايب اليسرة، بعدين فرش كل البساطات على الدكك جري:
 السرايات أما النجف جنب الرايات خلا كدا الدنيا قمرة نظرة يا بدوى يا
 جايب اليسرة، وكل دا وخضرة تنادى خدوا بيدي يا أسيادى بحق طه :
 الهادى اللى خفض دين الكفرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، يا سيد يا
 سيد وقتك انظر لمحسوبتك وقتك لحسن تسبوا خدامتك تبقى فضيحة
 ومعة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، فى وقتها السيد يا رجال نادى وفر
 يا عبد العال طير كالحمامة ورح فى الحال حالا وطمن لى الخضرة نظري
 يا بدوى يا جايب اليسرة، وقل لها ما تخافيش من دى الهموم ما تخافين
 بكرة أنا أنده دراويشى يجولك فى بلاد الكفرة نظرة يا بدوى يا جـ
 اليسرة، ساعة ما شافت عبدالعال فوق راسها ضحكت فى الحال من شـ
 الأفراح يا رجال فتعجبوا من فى الحضرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة
 وقالوا يا ست النسوان يا عود قرنفل فى البستان بتضحكى علشان إيه -
 لأن دى أول مرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، قالت لهم فرحى عتـ
 زينة قصر السلطان سمعان أقعد كدا فى وسط الديوان ويسمونى كـ
 خضرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، سمعوا كلامها يا إخوانى فـرد
 وقالوا سعدنا بأن ما يعلموا اللى فى الغيب كان واللى ح يجرى لهـ
 نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، يرجع كلامنا لعبدالعال ونادى دىـ
 الأبطال راح دوغرى للسيد فى الحال وقال له طمنت الحرة نظرة يا -
 يا جايب اليسرة، فقال له روح يا عبدالعال ناد المشايخ والأبطال وفر -
 هيا يا رجال أنتم ودرأويشكم الأخرى نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة . -
 المجاهد فى الحال ناد المشايخ والأبطال ومن لهم فى الحرب -
 ليحرقوا بلاد الكفرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ناد الجميع -
 جاوبوه عدد ما يمكنكوا تعدوه وجم على طنطا وقادوه جنبنا لكم كـ
 نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وبعدها السيد يا رجال نادى فر
 عبدالعال أعمل لى قهوة للأبطال واسق جميع من فى الحضرة -

سوى يا جايب اليسرة، فقال له يا سيدى إنه نهور تقضى الجميع أو أنه حور دول كالمطر فوق الجسور اسقهم أنت بالمرّة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، فقام عمل من توفيقه قهوة ملاها فى إبريقه سقى الجميع من يريقه كل المشايخ والفقرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وبعدها نادى لأقوام هيا بنا نروح للأقوام ونجيب أسيرتنا بقوام أحسن ما تجرى لها مجرى نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وكل شيخ لم جيوشه وأخوانه مع تراويشه وكل واحد شال شيلة قاصدين كده حرق الكفرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ويرجع كلامنا بالتانى لخضرة من دا السلطانى وما جرى نها يا أخوانى وما فعل ابن العاهرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، فلما جهز دى الأفراح سمعان وقومه الكفرة اللى ح يخزيهم الفتاح ويخلى وقتهم غابرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، بعث نده للجزارين وقال لهم يا ابن العارفين عايز لحوم من كل سمين من جنس خنزير أو بقرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة. وركبوا حالا يا فضال جابوا بهائم عال العال من كل ما يشجى الأكال لحوم عظيمة معتبرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وذبحوا منهم فى آن وبعدها نادى السلطان بالطباخين تسعوا فى الآن وتطبخوا لنا ميت بقرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، أما الخنازير دول تمانين عشان كذا أكل السلاطين والوز يا حافظ يا أمين خلوا طبيخه لانقره نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، عزم كذا كل السلاطين وبعدها البشوات بأمين كذا الخواجات الرزليين من كل برنيطة كبرى نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، نادى المشاط يا رجال ومشطوا خضرة فى الحال وزينوها زينة عال حتى بقت مثل القمرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وبعد ما تم قوله غير هدومه ومنديله وبدو يفعل مفعوله وينصب الأفعال الأخرى نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، فى وقتها السيد يا أمير كان حط فى بلاد الخنازير وقال لعبدالعال قم سير شوف جرى إيه فى الخضرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، فى وقتها راح عبدالعال رأى الجميع تموا الأشغال

وخضرة بتنادى يا رجال هيا انجدونى من العثرة نظرة يا بدوى يا جايب
 اليسرة، ساعة ما شافها جه يا كرام زعق بحق قوام هيا أسرعوا اللود
 بقوام أحسن ح يسبولنا خضرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، فى وقتي
 السيد يا ناس رصص جيوشه كالبرجاس وزعق وقال ولله حاس لايد مر
 حرق الكفرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، هجم بجيشه على الأعد
 بالليل وكان دا الوقت عشاء ملا أراضيهم دماء وخلا وقعتهم غبرة نظرة يا
 بدوى يا جايب اليسرة، يا ما رؤوس خلاها تطير وجت بقت تأكلها الض
 يقتل ما شافوا له نظير حتى هلکهم بالمرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة
 أما كذا المشاط يا ناس فى الحرب ما جرى لهم منى يا ناس وأما سلطانب
 منجاس يشخر فى دمه كالبقرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، والأوي
 ركبوا الأزيات وهدموا كل السحليات وكسروا كل النجفات خلوا البيد
 حفرة حفرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وأما السيد دا المفضال دحر
 على خضرة فى الحال وقال لها زيلى البلبال أدينى نجيتك من العثرة نظ
 يا بدوى يا جايب اليسرة، ونادى للقوم الصلاح هيا اركبوا يا أهل الإص
 إحنا تمينا الأفراح على الكافرين بمتين حصرة نظرة يا بدوى يا جب
 اليسرة، وبعدها أسرع بنشاط وطار بخضرة والمشاط وكانوا قاعدين
 البساط وخضرة فيهم كالأمرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وحطه
 المقصورة ودار هلاله دى الدورة ولما جت ناس بتزوره شافوا الجميع
 أسرى نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ونادوا حالا للمؤذن فوق مدنته
 يدين وكان كده صوته أرعن فسمعت الناس جت من برة نظرة يا سي
 جايب اليسرة جم المشايخ والخلفة وجميعهم كل الشرفة من البلاد
 الطرفة وكل شيخ قام حضرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، حطوا الي
 فى الدار وأسلموا المشاط العبرة وأمسكوا طبلتهم والطار وغنوا بأ
 معتبرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، فجت لخضرة كل الناس وعنده
 دى الحضرة وتعجبوا من صاحب الكرامات صاحب الكرامات الكبرى

- سيد يا جايب اليسرة، وبعدها يا نور العين عملت وليمة الست الزين سيرها شاع بين الكونين حتى ملا مصر وبصرة نظرة يا بدوى يا جايب يسرة، شافوا كرامات السيد الطاهر القطب الجيد كام جاب أسير حتى غنيد وكم نجد ناس من الكفرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، وكم مات ما تتعد وكم مرات ما تتحد وكم له نجدات ملهاش حد اقرأ الكتب بيك خبرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، أما اللي يعفى ويقول يا سلام خرج من الدنيا بسلام دا العفو من طبع الكرام لا يأتى إلا من الأمرة نظرة - سيد يا جايب اليسرة، وأختم كلامى يا خلى فى مدح طه المتجلى سيد نبين والرسول والإنس والجن الأخرى نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، يأتى مع الأصحاب بتمام يا رب واغفر للأنام وأحسن ختامى على إيمان.. فلما فرغ النقيب من كلامه تعجب السادة الرجال من كلامه، ياتلوا فى معنى نظامه، وقالوا سبحان مسبب الأسباب، ثم أقبل من بعيد قطاب الأربعة الكبار وهم سيدى أحمد الرفاعى، وسيدى إبراهيم سوقى، وسيدى عبدالرحيم القنائى، وسيدى عبدالقادر الجيلانى علموا على الرجال، ووضعت لهم الكراسى العوال، فلما استقر بهم جلوس، أقبل فحل الرجال الأجواد صاحب العطايا والأمداد خادم سيد نعباد وبيده قضيب خيزران ما فيه اعوجاج وبين يديه المادى ينادى يا أبا فراج. فلما سمعت الرجال النداء فأخذوا يقبلون يديه حتى أمرهم -جلوس فجلسوا ولا أحد منهم نطق أمامه بحرف، ثم إن الأستاذ الأكبر قرأ الفاتحة إلى سيد البشر وأمر النقيب بقراءتها جهرا على مسمع من جميع، ثم قال: كل من كان له كلام آذنت له فيه بشرط أن يظهر معانيه ومبانيه، فتقدم أحد الأقطاب الثلاثة وقال يا سلطان الرجال هذا ابنك وخيلك نور تركته بما فيه الكفاية فادع له بالولاية. وقام الثانى وقال ألسنت من دعوت له بالهداية فاهتدى بإذن الله؟ وتقدم الثالث فقال: سبق فى علم الله أن كل شىء بقضاء الله فاطلبوا له من الله أن يكشف ضره وبلاه

واسألوا صاحب العطايا أن يزيل عنه جميع المضرات، فما منكم إلا وهز
مجاب الدعوات. فقال السيد أحمد البدوي: اعلموا أن هذا ولدي وقد
أخذ عهدي في حياته وحفظ ودي، وأنا سألت الله العظيم رب موسى
وإبراهيم وزمزم والحطيم أن ينصره ويكون وليا لله بإذنه ويكون صاحب
مقام عال بين الأولياء ويقام له مولد يحضره جميع الأنام. فقال الدسوقي
اسأل الله العظيم رب موسى الكليم أن يلهم زوجته الصابرة أن الله أظلي
بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر تكريماً لها من دون العباد لأجل
تدعو لزوجها بالولاية فيستجاب لها. ثم إن السلطان نقض المنديل فانفض
المجلس وذهب كل منهم إلى حال سبيله.

(٤)

صفاء

بعد ستة أشهر من رحيل حفنى، انقلب حال صفاء؛ أحست بذلك صديقة ومحاسن وصارتا ترقبانها، فجأة خلعت الأسود ولبست الملون حزق، وحطت فى وجهها الأحمر والأزرق والأخضر ونزلت الشارع. كانت عيب طويلاً وإذا سألاها أين كانت تجيب بنزق: «أنتو مالكو خليكو فى حنكم» سلطت صديقة ابنها نصر يراقب زوجة خاله ويعرف قرارها. لم يذب نصر خيرا، وأول ماطلعت من البيت انسل ومشى وراءها، كانت صفاء ترتدى فستانا قصيرا ومحبوكا على وسطها وردفيها. وراقب نصر خد زوجة خاله وهى تمشى أمامه، كان ملفوفاً ومدملكاً ولدنأ، ليس به فضلة واحدة، كانا ردفاهما يترجرجان كلما خطت خطوة بحدائهما ذى كعب العالى. يغمغم نصر: حد يموت ويسيب الفرس ده! تركت صفاء لائق الذكرور وطلعت كوبرى همفرس ونزلت الناحية الأخرى، ومشت فى نزع السودان باتجاه شارع جامعة الدول العربية، وفى أحد الشوارع جانبية صعدت إحدى العمارات. وكما يحدث فى الأفلام المصرية، فقد خرج نصر علبة سجاثر وتقدم من البواب وناولته سيجارة وجلس بجانبه على الدكة الخشبية، وسأله عن التى دخلت لتوها قال البواب إنها تعمل فى الشقة المفروشة فى الدور السابع، وأنها ست غلبانة وتجرى على أيتام. عر قدم لأمه تقريراً كاملاً عن زوجة خاله مشفوعاً بقوله: يامه الولية

حلوة وبتشتغل فى الشقق المفروشة وما أدراك باللى بيحصل فيها. نصر راقب الباب طول الليل حتى ظهرت زوجة خاله ودخلت حجرتها، ومن فتحة المفتاح استرق النظر إليها وهى تخلع هدومها، أحس أنها تتطوح وهو واقفة فعرف أنها سكرانة، خلعت كل هدومها ووقفت عارية تماماً. ارتدت قميص نومها على اللحم ورمت بنفسها على السرير. نصر جن من منظرها فدفق الباب برجله، ولدهشته انفتح رده وراءه وطوح بجسده فوقها، كانت راقدة على بطنها وأحست بجسده يضغط على مؤخرتها، وب تكن تعرف أنه نصر فاعتدلت وقاومت قليلاً، ولما كانت متعبة وشبه نائمة وغائبة عن الوعي، فقد استسلمت لهجومه الملح وتركته يفعل بها ما يشاء.

(٥)

صفاء ونصر

اختلقت صفاء خناقة مع صديقة من دون سبب، ولت هدومها وتركت بيت؛ وصديقة كسرت وراءها قلة وقالت: خالتي وخالتك واتفرقوا خالات، واللى كان لينا عندك افكره الله وخده من وجهك، جبتي له العار في حياته ومماته. ونصر قال لأمه لو مشت امرأة خالى ها أسيبك البيت - الآخر. قالت صديقة ليه يا واد هي كانت من بقية عيلتك ولا تكونوش شق، ما هي لبوة وتعملها. نصر لم يكذب خبرا وترك البيت، وأمه قالت له - هاهية اللي تودي. وغاب شهرا ولا حس ولا خبر، وقلبها أكلها عليه عسأت أصحابه عنه. أحدهم قال لها على الفولة وقشرتها، ابنك عايش مع امرأة خاله في شقة واحدة. صديقة عقلها طار فذهبت إلى عمته بديعة: المرة خطفت الواد وبينام معاها كل يوم الهايجة، أعمل إيه ياختي شورى على، بديعة قالت: كل فرج مكتوب عليه اسم ناكحه، دا وعد بمكتوب ياختي، وابنك راجل مش ها يخسر حاجة. مصمست صديقة شفتها: من ناحية ها يخسرها يخسر صحته وعافيته وشبابه، دا جوزها نه يرحمه ما خدش في إيدها غلوة. صديقة سلمت أمرها لله وقالت عليه العوض فيك يا نصر، وأنت يا صفاء يا بنت حوا وأدم إلهي ما تكسبي ولا تريحي ويوريني فيك يوم قادر يا كريم. ونصر قال لصفاء بلاش الشقق نفروشة دي بقى وأنا مش ها أخليكي تحتاجي حاجة خالص. قالت صفاء

إسمع يا روح أمك أنت مش جوزى تتحكم فى، ثم أنت قاعد نايم وكـ
 شارب منين، ما هو من شغلى ولما بتعوز تركب بتركب، بقولك لأ؟ يعنى من
 حرماك من حاجة، يبقى عاوز إيه تانى. نصر أطرق برأسه إلى الأربـ
 وسرح قليلاً ثم نظر إليها وقال: يعنى لو اتجوزتك تقعدى من شغلك؟ عد
 وناكل منين، قالت وأخذت فى ارتداء هدموم الخروج. سيبينى أديبـ
 بمعرفتى. وصفاء فى طريقها لمحل عملها أخذت تفكر فى عرض الـ
 بجدية وتأخذ وتعطى مع نفسها، خاصة بعد ما حدث معها بالأمس، الـ
 التي تعمل بها تؤجر مفروشة للعرب، خاصة السعوديين وهم يؤجرـ
 بخادمتها، شرط أساسى، وهى خادمة بالاسم فقط، أما مهنتها الحقيقـ
 فهى الدعارة، عرفت ذلك من أول ليلة قضتها فى الشقة، واكتشفت
 قضاء ليلة فى حضن أحدهم يؤمن لها قدرًا من النقود لا بأس به، ثم
 أسهل من أى عمل آخر علاوة على ما به من متعة، مؤجر الشقة سعـ
 يدعى عتيق، أمس جاء وبرفقته شابان سعوديان، وأرادوا تمضية الـ
 فى الشقة، اتصل عتيق بفتاتين يعرفهما، إحداهما تعمل راقصة فى الـ
 ليلى بوسط البلد، والأخرى ممرضة فى مستشفى. جاءت الفتـ
 وأصبحن ثلاثه، أحضر عتيق كباب وكفتة وصندوق بييرة وبعض زجـ
 الويسكى الفاخر لزوم السهرة، وكان مع إحدى الفتاتين قطعة حنـ
 أخرجتها وصارت تلفها فى السجائر وتوزعها علينا، واختار كل الـ
 واحدة منهن وبدأت السهرة. كانوا فى عز المعمة حين سمعوا خبطاً الـ
 على الباب شديدين، ارتعبت البنات وانكمشت كل واحدة منهن فى عنـ
 وقد أيقن بالهلاك، فهذه الأيدى الثقيلة من المؤكد أنها أيدى الـ
 الشرطة، والنتيجة معروفة لهن، قضية آداب لهن، بينما الرجال يصـ
 شهوداً عليهن. المهم بعد أن أفقن من صدمة المفاجأة الأولى جرير الـ
 واختبأ بجوار السلم الخلفى للعمارة والمسفى بسلم الخدم وأغتمـ
 وانتظرن ما سوف يحدث! كان الظلام شديداً، والخوف جعل أجـ

عارية ترتعد، سمعن أصواتاً عالية وأقداما تهرول، وتوقعن قدومهم -حيتهن وإخراجهن وهن على هذه الحال بلا ملابس عرايا كما ولدتهن منتهن. بعد لحظات هدأ كل شيء وما عدن يسمعن أى صوت، ولا يدرين الذى حصل بالخارج، وأخذن يضرين أحماساً فى أسداس، فواحدة منست: لعلهم أخذوا الشبان معهم واكتفوا بذلك. أما هى فتساءلت كيف يحدث ذلك وهدومنا مرمية فى كل ركن فى الشقة وحتى ملابسنا داخلية، وزجاجات البيرة والويسكى وسجائر الحشيش، كل هذا يدل علينا ويفضح وجودنا. وصارت كل واحدة تستحضر فى ذهنها ما سوف تقول إذا ما تم القبض عليها وهو أمر لا بد منه.. ولكن حدث ما لم يكن فى حسابان، فقد انفتح باب سلم الخدم وظهر على عتبه عتيق يمسك فى يده هدمومهن فرماها لهن، وأشار بأن يرتدينها دون خوف، ثم أشار لهن -ندخول فدخلن، ورأين ضابطاً برتبة نقيب يقف فى وسط الصالة مع نشيان.. وعلى ما يبدو كان يتكلم كلاماً وديا ويضحك. تعالوا يا بنات منيش حد غريب، قال عتيق وأخذ يقدمهن إليه، صفاء، تحية، سماح، نقيب عواد، جاء للقبض علينا طلعنا أصحاب. النقيب عواد قرر أن يسهر معنا، واختار صفاء لتكون بصحبته طوال السهرة، ومضت الليلة على خير. كنت المرة الأولى التى تواجه فيها بهذا الموقف، وما رأته على وجهي نغمتين من خوف ورعب، أصابها هى نفسها بالخوف والرعب؛ قالت لها جدهن: لو كان قبض علينا كنا شفنا الذل، أنا قبض على ذات مرة، وكانت مرتى الأولى، ضبطت فى شقة فى محلة السرايات، وهذه المنطقة تابعة لقسم بولاق الدكروز، وما أدراك ما هو قسم بولاق الدكروز! يعنى تحتجزين أسبوعاً كاملاً على الأقل فى القسم، ويزفونك وأنت داخله لحجز، ولو كرمك ربنا ومدخلتيش الحجز هاتقعدى فى النوباتشية، ودى سخم وأذل، طول الليل يفعص فى جسمك أى مخبر أو أى أمين شرطة أو حتى ضابط.. كله بيفعص، وكله عاوز ينام معاك قبل ما يتم ترحيلك، وإذا

نطقت بكلمة يا ويلك وياسواد ليلىك، من ضرب لشتيمة، ويا قلبى لا تحزن
يعنى بهدلة وقلة قيمة وقضية دعارة تحملينها طول عمرك. فكرت صفـ.
فى كل ذلك؛ وقالت لنفسها مش كل مرة تسلم الجرة، ويا بنت ظل راجل ولا
ظل حيط. وحين عادت إلى البيت، قالت لنصر: يالله بينا دلوقت عر
المأذون لو لسه عاوز تتجوزنى. نصر نظر إليها بحرج وكسوف: دا يوم المنـ
بس يا ريت نأجلها لبكرة، أصل معايش فلوس المأذون. صفاء أخرجت نـ
نقود من حقيبة يدها وضعتها فى يده، وقالت الفلوس أهى، هو أنا و أنت
إيه، بس سايقة عليك النبى ما تجيب سيرة لأمك دلوقت، أنا مش ناقصـ.
جراحة وفضايح، مؤقتاً يعنى.. ومصيرها تعرف.

(٦)

لاقت روايتى الأولى (كتاب التوهّمات) نجاحاً ملحوظاً، واستقبلها
نوسط الأدبى بترحاب وحفاوة كبيرين، حتى أن البعض كتب عنها
- اعتبارها كتاب الموتى الحديث، مقارناً بينها وكتاب الموتى الفرعونى.. لهذه
نرواية حكاية، كانت أمى قد توفيت فى خريف عامها الثانى والثمانين بعد
رحلة مضنية مع المرض حيث أصيبت بفشل كلوى، وكان عليها أن تقوم
بعمل غسيل بريتنونى مرتين فى الأسبوع، لم تغسل سوى مرة واحدة فقط
بم يتم تتحمل الثانية. عشت معاناتها مع المرض بكل آلامه وعذاباته، كما
عشت لحظات احتضارها وموتها. كانت المرة الأولى التى أتعرف على الموت
عن قرب، بل وأواجهه وجها لوجه وهو ينتزع من بين يدى وبشراسة أجمل
كائن إنسانى أحبه قلبى: أمينة مرشد، اسم لن أنساه مادام قلبى ينبض
بالحياة، وإذا مد الله فى أجلى، فسوف أكتب عنها رواية أسميها هكذا:
سيرة أمينة مرشد. كنت أفكر بعد رحيلها طوال الوقت أن أكتب عنها
وأحكي قصة موتها كما لم تحك القصص من قبل، كنت أعيش اللحظة
بإنما كنت أو وليت وجهى، وكان التحدى الذى يواجهنى ليس أن أكتب هذه
نقصة، ولكن كيف؟ كنت أريدها أجمل وأعظم ما كتب أو سوف يكتب عن
لأم. فى أحد الأيام كنت أجول فى أحد الحقول المزروعة فى بولاق
ندكرور قبل أن تدهمها العشوائيات، فقد كانت قطعة من الريف داخل

القاهرة، وبينما أنا سارح في البرية فوجئت بنفسى أردد مفتتح القصة التي لم أكتبها بعد حتى حفظته، كان يقول: إلى أمى الراقدة في حضن أمها الأرض، مبتسمة كما يتسم طفل ليس به ألم، مستغرقة في سنة من النوم، يداها على صدرها الهادئ تنامان في دعة وسكون. كان هذا المفتح هو بداية ثلاثية موت أمى، التي ظهرت ضمن مجموعة حكايات الديراماج، وفي كتاب (التوهّمات) كانت هي البداية المناسبة للكتاب، أدركت حقبه كاملة كانت قد ولت وإلى الأبد، وأن هذا الجيل كله يوشك يستسلم لموته مع من مات: نور الذي يريد أن يصبح ولياً من دون جدوى. حفنى التي أضحت أسطورة موتها المتكرر تروى جيلاً بعد جيل، حنر الذي ناضل نضالاً معجزاً مع مرضه، محمد عبدون الذي ترك بصمة على جسد صفاء ومضى، وحتى أمى التي كانت في وقت من الأوقات جدياً من هذه الأحداث.. أما من بقى منهم، فقد دخل القرن الجديد بلا هيبة محاسن توحدت بعنوستها وبدأ ماء الحياة يجف في بدنها فتذوى بلا أمل في النجاة من مصيرها المحتوم، صفاء التي رفضت حياة الشرملة فتزوجت نصر ابن صديقة، وصديقة التي أحست أن زواج ابنها الكبير لبوة، كما كانت تحب أن تطلق عليها، مصيبة وحطت على رأسها. بديعة، فقد دخلت في شرنقتها الخاصة وتوحدت مع نفسها.. له أراها، لكنى كنت أسمع عن أحلامها وهلوساتها المتعلقة بنور وإصرار على إقامة ضريح له بأية طريقة. وفي تلك المرحلة، كان اهتمامى بانحسار الشعبى قد وصل إلى حد الهوس المبالغ فيه، كنت أحاول فهم كيف ينظر الناس البسطاء ودراسة معتقداتهم الشعبىة، وهو ما قادنى لدراسة ضد الأولياء في مصر، أو كما أسماهم محمد فهمى عبداللطيف في الدراويش في مصر، وهى ظاهرة استغرقتنى طوال الصيف. فمصر أكبر بلد في العالم وفيها هذا الحشد الهائل من الأولياء. ساعدنى كتاب الدكتور محمد الجوهري المسمى علم الفولكلور وخاصة في حـ

الثانى الخاص بدراسة المعتقدات، أما الكتب التى تفرض تجليات الظاهرة كتراجم لحياة هؤلاء الأولياء فهى كثيرة، أذكر منها: حلية الأولياء لأبى نعيم، جامع كرامات الأولياء للنبهانى، نزهة العيون النواظر وتحفة القلوب نحواضر لعفيف الدين أبى السعادات، عمدة التحقيق فى بشائر آل نصديق للشيخ إبراهيم العبيدى، الإبريز فى مناقب سيدى عبد العزيز، نلمع للطوسى. ثم كتب المتصوفة أنفسهم مثل أخبار الحلاج وطواسينه، مجموعة مصنفات شيخ إشراق للسهروردى المقتول، وابن عطاء الله سنكندرى، المكنون فى مناقب ذى النون للسيوطى، منطق الطير لفريد ندين العطار ثم مجموعة القصص الشعبى التى تتغنى بحيات وكرامات هؤلاء الأولياء: قصة سيدى أحمد البدوى، أيضاً قصته مع فاطمة بنت برى، قصة الأميرة خضرة الشريفة وما جرى لها فى بلاد النصارى وكرامة سيد البدوى حين أتى بها، قصة سيدى إبراهيم الدسوقى وما جرى له من العجائب والغرائب والكرامات نظم ولى الله المجذوب الشيخ طاهر بن يعقوب. كما أن له قصة أخرى بعنوان سيدى إبراهيم الدسوقى وما جرى له مع العلماء. ومن خلال كل هذه الكتب أمكننى استخلاص قائمة بأشهر كرامات التى يقوم بها الأولياء: إحياء الموتى، تجفيف البحر والمشى على الماء، القدرة على تحويل الأشياء إلى صورة أخرى، طى المسافات، الطيران فى كل الأوقات، مخاطبة الحيوانات والأشجار والجماد وكل عناصر طبيعة، شفاء جميع الأمراض، التواجد فى أكثر من مكان فى وقت واحد، إيقاف الوقت، التنبؤ بالغيب، القدرة على تحويل شكله فى الهيئة التى يختارها.. سحرتنى تلك المقدره غير المحدوده التى يتمتع بها هؤلاء الرجال الذين بعناية الله، وما يأتون به من عجائبية وسحرية.. تراث هائل مترع -غرائبية. أليست هذه واقعية سحرية؟

(٧)

فى أحد صباحات بولاق الدكرور المبكرة، فوجئ الناس بنشاط غير عادى يحدث! مكان السوق فى شارع ترعة زنين تم تنظيفه وطرده الباعة القائمين به، وتم رصف الطريق الرئيسى فى زمن قياسي، كما زرعت الأشجار على جانبي الطريق ووضعت أصص الزهور ونباتات الزينة، غير إن الموكب الرئيسى سوف يمر من هذا المكان فى طريقه إلى افتتاح مصنع للأدوية تابع للقوات المسلحة، وقيل إن هذا الطريق سوف يكون معبراً لطريق مصر - الاسكندرية الصحراوى اختصاراً للمسافة.. لكن الحقيقة التى عرفت بعد ذلك أنه تقرر إقامة ضريح لولى الله الشيخ نور الدين - هذا المكان. كيف حدث ذلك؟ لا أحد يعلم، فقط بديعة كانت تعلم ما حدث وما سوف يحدث. ابتسمت وأشارت بيدها معلقة: بلطجى فى حياته وغير مماته ويعملها!!! كان الاهتمام على أعلى المستويات، من وزير الأوقاف - مشيخة الأزهر إلى المحافظ برئاسة الحى. المشكلة التى واجهت الجبى هى عدم وجود مكان يصلح لإقامة مثل هذا المشروع الذى أراد له الجبى ولأسباب سياسية، أن يكون ضخماً ودعائياً، ولم يكن هناك أصلح - جنينة باسيلي. مكانا للمشروع .

جنينة باسيلي

إذا قسمنا بولاق الدكرور كلها إلى ثلاثة أقسام رئيسية بحسب الخريطة الجوية التي اعتمدها الفرنسيون، فإن جميع المنطقة وما يقع في زمامها تخرج تحت ما يسمى بمشيخة بولاق الدكرور، وهي ذات شوارع رئيسية ثلاثة: أول هذه الشوارع وأقدمها هو شارع همفرس، بناه الخواجا همفرس مهندس الري في عهد الملك فاروق، وبنى في نهايته جنينة شهيرة والتي سميت باسمه، وفي الجنينة بنى قصراً سمي بقصر الملذات كان الملك يزوره متخفياً كي يحظى بافتراء العذارى، اللاتي كان يجلبهن من شتى حياء المعمورة معرسه الأشهر أنطوان بوللي. ظل القصر والجنينة قائمين مكانهما بعد قيام الثورة إلى أن قدمت إلى الدنيا فقدر لى رؤيتهما من داخل، وتلك حكاية تروى باختصار: ذات مرة كان أبى، البناء، يبني سوراً في منطقة النزهة والتي تقع في نطاق جنينة همفرس، وكعادته كان يأخذني معه في المسامحة (أى الإجازة المدرسية) كي أتعلم الصنعة لأنفع نفسي مثل جميع اخوتي، لكنى كنت أفضل اللعب على أى شىء آخر، لموضع الذى كان أبى يبني فيه يقابله أحد أجزاء سور الجنينة، كان متهدماً، ووضع بدلاً منه سور من السلك الشائك، كنت أغافل أبى وأعمل يدي في هذا السور حتى نجحت في فتح ثغرة تكفى لمرور جسدى نضئيل منها، وتسلمت إلى داخل الجنينة في غفلة من الحراس والكلاب

وحتى الجن والعفاريت الذين أعلم علم اليقين أن الجنيينة مسكونة به ورأيت أمامي فاكهة الحلم، فكثيراً ما كنت أحلم بثمره مانحة بطول بيت وعرضه، أجلس فوقها وأدلدل ساقي ومعى سكين أقطع بها لحم المانحة وأكل ولا تنتهي، أو أصابع موز الواحد منها بطولى. رأيت فاكهة من غير آخر، ليست كتلك التي كانت تشتريها أمى من المرأة العجوز التي تجر على ناصية حارتنا. ولأننى كنت خائفاً جداً ومرعوباً جداً، فقد امتدت يدي إلى أقرب الثمار إلى وأخذت أقطف من على الشجرة وأعبيء جيبي وعبي، كانت ثمار كوكا غير ناضجة .. ومضيت بسرعة مغادراً الجنيينة على أمل الرجوع إليها مرة أخرى، لكن هذا ما لم يحدث على الإطلاق. شين همفرس يقع في المنتصف تماماً من بولاق الدرور، وهو يمتد طولياً من أول شارع السودان حتى طابق الديابة، ليتقاطع مع شارع ترعة زنين الشرى يلف بولاق من الناحية الجنوبية حتى يصل إلى شارع التحرير، امتد الطبيعى، يفصلهما كوبرى يسمى كوبرى الخشب، وهو ثانى الشوارع الثلاثة؛ أما الثالث فهو شارع ناهيا والذي يمتد من شارع السودان وجمعة الدول العربية حتى قرية ناهيا وكرداسة، ويلف بولاق من الناحية الشمالية تقع جنيينة باسيلي في الناحية الجنوبية من أول شارع ترعة زنين، من حى باسيلي؟ ومن أين جاء؟ لا أحد يعلم قيل إنه الجندي الوحيد الذى نجى من مذبحه القلعة، وإنه هرب إلى أحراش بولاق ليختبئ في الزراعة، وبعد موت محمد على ابتنى لنفسه قصراً وألحق به جنيينة وأحاطهما بسور عظيم لا يكشف ما خلفه، وقيل إنه تزوج من بولاق بأربعة فتيات أباكار افترعين في ليلة واحدة، وإن زوجاته ما كن يحبلن إلا توأم فكن ينجن في البصر الواحدة ثمانية أطفال، قيل إن عدد أبنائه تجاوز المائة، وقيل إن جائح الكوليرا حصدتهم جميعاً وبقي القصر والجنيينة مهجورين يسمع فيهم عزيف الجن والعفاريت حتى تسلّمتهما وزارة الأوقاف بعد الثورة. وفي رواية أخرى أن باسيلي باشا الكبير التركى الأصل، كان متزوجاً بامرأة

حبيبة لم يخلق الله أجمل منها، تصغره بعشر سنوات، كان يعشق التراب تحت قدميها ويغار عليها من الهواء الطائر. وحدث أن كان لهذه المرأة أخ - الأم ترك بلده وحاله ومحتاله وجاء للإقامة مع أخته، كان يعشقها ولا يجبر على فراقها، وكانت هي أيضاً كذلك، فقد نشأ معاً وتمكّنت المحبة - قلب كل منهما، وكان باسيلي باشا لا يجد غضاضة من أن يعيش هذا شاب مع أخته، على الرغم من إتيانهما أفعالاً لا تحدث بين الأخ وأخته، - يقبلها في فمها أو يتحسس جسدها أو ينظر إليها نظرة رجل لامرأة. - سلامة نيته كان يستبعد حدوث الفاحشة بينهما، وفي أحد المرات كان سافراً إلى الشام لعمل يتغيّب فيه بضعة أيام، وفي منتصف الطريق تذكر - نسي أوراقاً هامةً لابد من وجودها معه لإتمام عمله فرجع للإتيان بها، - دخل قصره واتجه إلى حجرة مكتبه، وكانت حجرة نومه مجاورة لها - سمع أصواتاً وأنيباً مكتوماً آتياً من حجرة نومه، فتسحب شاهراً مسدّسه - فتح الباب فوجد زوجته في حضن أخيها على فراشه عاريين، فما كان - إلا أن أفرغ رصاص مسدّسه في قلوبهما فماتا وفي اللحظة. وحدث - بعد ذلك أن الناس كانوا يسمعون صراخاً وهلوسة طوال الليل آتية من - حية القصر، فقيل إن شبح المرأة وأخيها القتيلين كانا يظهران للرجل كل - يوم ويفعلان أمامه ما كانا يفعلانه في حياتهما، فكان يصرخ كلما رأى ذلك - حتى انخبل عقله وصار مجنوناً.. إلى أن مات. وبقي القصر مهجوراً حتى - ضمت وزارة الأوقاف يدها عليه.

المقام

المهندس الذى وقع الاختيار عليه لإقامة البناء اختير على الفِرَازة، كَرِ الأوّل فى مسابقة حضرها ألف ومائتا متسابق، قدّم "ماكيت" بالبناء كاملاً شرح فيه التكلفة والأدوات والخامات المستخدمة، قال إنّه أطلّع على جامع الملك الحسن الثانى بالدار البيضاء، تحفة معماريّة حديثة، وعلى مقعد الإمام البخارى بسمرقند، وأيضاً قبر الأمير تيمورلنك، ومسجد آياصوفى بإسطنبول، وعلى الجامع الأموى بدمشق.. قال إنّه سوف يبني المسجد الجامع وبين عينيه هذه النماذج الرائدة، قال إنّه سيختار من كلّ نموذج أفضل ما فيه، ويضيف إليه أفضل ما عنده.

سوف أترك المهندس يتمّ بناءه على راحته، وإلى أن يتمّه سأحدّثكم عن أغرب ما يمكن أن يحدث لإنسان: تزييف تاريخه. نعم، فقد تمّت أغرب عملية تزييف لتاريخ إنسان على مرأى وسماع من الجميع، بل إنّ الجبّ شاركوا بشكل أو بآخر فى هذه العملية. أنا وأنتم نعلم تاريخ نور وأصـ وفصله من منشئه حتى وفاته، وأنّه اعترف بلسانه فى الورقات التى تركب بأنّه "حرامى وعاصى وكذّاب" لكن السيّد نور الدين أصبح بين يوم ونية قطب الأقطاب وعمدة العمدة والأنجاب، صاحب الإرشاد والجود، وقض دائرة الشهود أبو الكرامات السيّد نور الدين الدكرورى - نسبة إلى بوزن الدكرورى التى نشأ بها ابن السيّد عبد الرحمن بن السيّد على قريش -

سيد محمد الشهير بأبي النجار ابن السيد زين العابدين بن السيد عبد خالق بن السيد محمد الشهير بأبي العينين ابن السيد أبي الطيب بن سيد محمد الكاتم بن السيد محمد الجواد بن السيد موسى الكاظم بن سيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد علي الزاهر بن سيد علي زين العابدين بن الإمام السيد الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ. وهي الورقة التي علقت فيما بعد فوق ضريحه تعريفاً سبه الشريف، كذلك فقد أصبح صاحب الألقاب الشهيرة: العارف بالله، عصامت، الباكي، قاضي المظالم، حامى حمى بولاق، ولي الله، كعبة الزوار، سير الحيران، وندهة المنضام، أبو الرايات. الأغراب من كل ذلك. فإن تنقاً عناصر من القصص الشعبى الذى يدور حول مولده الشريف وكراماته التى تتجمع لتكوّن ما يشبه السيرة الشعبية، وقد وقع بيدي نصّان بحثان عن سيرة نور الدين أحدهما شعري والآخر نثرى. النص الشعري عنوان: نزهة المشتاقين فى قصة سيدى نور الدين؛ والآخر النثرى بعنوان: قصة سيدى نور الدين الكوروى، البحر العجاج المتلاطم بالأموج دليل حيران سيدى نور الدين الكوروى، وهى تشتمل على ولادته الشريفة وما غير فيها من الكرامات الباهرة، بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال. النصّان الشعري والنثرى ليس بينهما اختلاف كبير، بل إنهما يكادان يتطابقان، والرواية الشعبىة لكلّ منهما تتجاوز الألف صفحة، لذلك فهى من أكبر سير الأولياء. على أتنى سوف ألخص الخطوط العريضة عن النثرى، حيث يقول: إن أمّه وقت مولده كانت فى الستين من عمرها، وأظهر بعض كراماته قبل أن يولد بزمن، إذ ظهر لأمّه فى صورة صقر حياها من الاغتصاب وهى فتاة قبل أن تتزوج، وكان مولده فى شهر رمضان، ولم يكن يرضع إلا بعد أذان المغرب، وقد عرف هذه الحكاية أهل مكة، فكانوا إذا شقّ عليهم معرفة وقت أذان المغرب يلجأون إلى أمّه

من مكان في الوقت نفسه. تنتهي سيرة ولي الله الشيخ نور الدين عند
بعثته، فتقول إنه لقي ربه في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان
بأرك، وإن الملائكة نزلت في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لتزفّه إلى
ربه.

* * *

قرأت مرة لأحد الباحثين أن أولياء الله الصالحين في مصر، ما هم إلا
بنو مصر القديمة، وأن المصريين أحفاد الفراعنة ما زالوا يمارسون
عقوسهم الفرعونية تجاه الآلهة القديمة المتمثلة في أضرحة الأولياء
بعضاماتهم، وقال آخر إن الكثرة الهائلة من أضرحة لأولياء ينتشرون في كل
شبر على أرض مصر، هي إشارة إلى جسد أوزوريس الذي تفرق أشلاء في
شهر الربوع، وأيا كان هذا الكلام صحيحاً أم خطأ، فإن للمصريين طريقتهم
خاصة في الحياة واستيعابهم للوafد والجديد والتعامل معه، وهو ما
جعلهم يستمرون كأقدم شعوب الأرض حضارة وتاريخاً. وقال أبي نقلاً عن
غيره: لو استعقدتم - يقصد اعتقدتم - في حجر لأفاد؛ وروى حكاية تدل
على صحة كلامه فقال: أصيب رجل بمرض لا شفاء منه، وظل يتألم مدة
من الزمن، وفي أحد الأيام، وكان على سفر، مر بمكان قفر، فوجد رجلاً
حنساً القرفصاء يقضى حاجة، فوقف بعيداً عنه بحيث لا يراه، فلما انتهى
لرجل من قضاء حاجته استبرأ بقطعة حجر ثم طوح بها بعيداً، فقال
لرجل المريض إن قطعة الحجر هذه فيها شفائي، وجرى على قطعة
لحجر وأمسك بها ووضعها على مكان الألم فزال مرضه في الحال. وهي
شارة واضحة لصحة الاعتقاد، حتى ولو كان هذا الاعتقاد في حجر، فما
بالتك بالأولياء؟

لم أجد إشارة واحدة في سيرة نور الدين عن زوجته بديعة، وربما كان
مذا مثيراً للدهشة، فقد كانت هي أول من اكتشف ولايته، وهي أول من

صدقه، كما أنها ظلت طوال سنوات طويلة تلح على المسؤولين وكل ذى شأن من أجل إقامة ضريح له، فكيف حدث ذلك؟ لست أدري! وفى تصورى - هذه المرأة بإيمانها بزوجها، ودعوتها له، وكل هذا الصبر والتحمل وتجاهل الآخرين لها واتهامهم إياها بالخرف، كل هذا أدعى لأن تكون أحرر بالولاية من زوجها. وقد عاشت حتى رأت بعينيها وضع حجر الأساس - للجامع والمقام، وكانت آخر كلماتها: لا تدفنونى بعيدا عن شيخى - الدين.

(٨)

عاشت بولاق الدكرور أزهى عصورها فى كنف الجامع الكبير بمقامه
 - خر وأضوائه المتألئة التى أضفت على المكان أنواراً وفيوضات، كان
 جمع الذى اكتمل بناؤه قد أصبح تحفة معمارية تحققت فيها الأصالة
 - عصرة بأفضل تجلياتها، فالسور الخارجى المفضى إلى الجنينة لفه
 - يج من الأشجار المتماثلة فى الحجم والطول والكثافة أخذت أشكالاً
 - سية مختلفة، والجنينة الأمامية بنباتاتها العطرية الكثيفة وأزهارها
 - ينة وشذى رحيقها المسكر كانت جنة للأبصار، تتوسطها نافورة مياه
 - ر - هيئة سباع تخرج من أفواهها مياه تصب فى فسقية، أمامها ثلاثة
 - -م رخامية معشقة بألوان الفسيفساء تقضى إلى بهو أعمدة الجامع
 - -ع المسافات، السقف ذو القباب الثلاث شاهقة الارتفاع بزجاجها
 - -شق بألوانه المبهجة لحظة سطوع الشمس وانعكاسها بألوان الطيف،
 - -عدة الرخامية السامقة التى تحمل القباب، ثلاث مآذن سامقة شاهقة
 - -تضاع لا يرى نهايتها المتماهية فى السحاب، بنيت على غرار مآذن
 - -حر الفاطمى، المنبر المشغول من خشب الأبنوس المطعم بالصدف والعاج
 - -ر هيئة أرابيسك دقيق الصنعة، ثم القبلة ذات النقوش البديعة
 - -حطوط الهندسية وتماهيتها مع الفراغ فى صراع مع الكتلة؛ وعلى
 - -حنب الأيمن من الباب الرئيسى للجامع، الحجرة التى بها الضريح

المحاط بسيّاح من النحاس الأصفر المنقوش فوقه أسماء الله الحسنى وعلى الجدران كتب بالخط الكوفى أسماء آل بيت النبوة والحضرة الزكية ثم نسب صاحب الضريح وشجرته العتره؛ أرض حجرة الضريح صنعت من زجاج سميك شفاف، والماء يجرى من تحته، والضريح رابض فوقه وفوقه قبة يجرى من تحته، والضريح رابض فوق الماء وفوقه قبة وعمد الشيخ الخضراء وسبحة وعباءة وشعرة من ذقنه وضعت كلها فى ضفة للتبرك، الحجرة تسبح فى نور سماوى يميل إلى الأخضرار لا يعرف من أين يأتى. المهندس الذى بنى الجامع والضريح أراد أن يشيد مالم يثب من قبل، وحين اقترح على المسؤولين ماينتوى فعله اعتبروه مجنوناً. الطلب غريباً، أن يحول مجرى النيل ليمر من تحت الضريح، حتى المحدث هز رأسه وكتفيه فى أسف: هذا الطلب فوق مستوى قدراتى وسلطتى. يحتاج موافقة أعلى سلطة سياسية فى البلد. الغريب أن طلب المهندس نفذ وبأسرع مما تخيل الجميع، كيف حدث ذلك؟ لا أحد يعرف. تحويل مجرى نهر النيل للمرة الثانية فى تاريخ البلاد وعدت من كرسى الولى. الشوارع والحوارى والأزقة التى تفضى وتلتف حول الجدران والضريح تم تنظيفها وورصفها وتشجيرها، والعشوائيات أزيلت وحدها محلها دكاكين لبيع الحلوى والمأكولات السريعة والهدايا التذكارية. شعور بالطمأنينة على الناس فى بولاق الدكرور، ورموا أوزارهم وأوجدوا ومتاعبهم على ولى الله الشيخ نور الدين الدكرورى، الذى ما إن يذكر حتى يقرن بشى لله يا سيدى، وسره الباتع ملاً البيوت والقلوب غبطة

(٩)

ودائماً ما تتحكم العادة فى الناس، وأصبحت العادة هى إقامة مولد شيخ فى العشر الأواخر من شهر رمضان، تتجلى فيه الأنوار القدسية على الناس والدور والأزقة والحوارى فيطعم الهاجع والناجع والنائم على طوى، ويجيء أصحاب الطرق الصوفية، كل شيخ وله طريقته وأعلامه يبارقه وأناشيده وكراماته.. وتمر الأيام، وما أكثر مرورها ودورانها، يصبح للشيخ طريقة تعرف بالطريقة الدرورية، وتقام لها زاوية بالقرب من الجامع، يدخلها أتباع لا حصر لهم، وحلت بركته على الجميع بمن فيهم أهل بيته. بديعة تم نقل رفاتاها لتدفن بالقرب منه، وقبل أن يمر وقت كثير يحدث معها مثل ما حدث مع زوجها ويتم تعميدها ولية وشهيدة عشق زوجها الولى الصالح، وينسب الناس لها الكرامات وشجرة نسب تنتمى بعتره المحمدية.. ومع مرور الزمن ينسى الناس كعادتهم كل ما هو حقيقى يرضى ليتعلقوا بالأساطير، وفى أوقات الشدة والملمات تتراءى بديعة ناس على هيئة قرص من النور المضىء فوق إحدى مآذن الجامع الكبير، يخرج كرياتهم برؤية الكرامة.. هكذا جرى العرف، فأفة البشر النسيان؛ بنتها فتحية التى قاربت الستين ذهبت إلى الحج وعادت لتقيم طوال وقت بجانب أبيها وأمها مرتدية جلابية بيضاء والمسبحة لا تغادر سابعاها، وقد انحضرت فوق جبينها علامة داكنة من أثر السجود؛ أما

رمضان زوجها ففوض أمره إلى الله معتبراً زوجته ماتت، فعكف على تربية عياله بهمة لا تعرف الكلل؛ محاسن أصابها الخرف أيامها، وتنادى على كل الميتين حتى لحقت بهم.. ولم تمر سنة حتى لحقت صديقة بأختها من أثر إصابتها بداء السل؛ أما نصر وصفاء فعاشا عمراً مديداً أنجبا خلاله أربعة أولاد وثلاث بنات، وكانت له مثال الزوجة الصالحة حتى أتاها هاء اللذات ومفرق الجماعات، فسبحان الحى الذى لا يموت، صاحب الملك والملكوت.

سالك شائك

هل كان مقدراً له أن يلقاها فجأة بعد كل تلك السنوات، لقد تغيرت الملامح إلى حد كبير حتى إنه لم يعرفها في بادئ الأمر، لكنها عرفته أولاً، فقد كان أبرز ما يميزه طوله الفارع وشاربه الكث، تقابلاً لأول مرة في منتصف السبعينيات، كان هو رئيساً لنادى الأدب بقصر الثقافة وقتها، وكانت هي مديرة المكتبة، وكان اجتماع نادى الأدب يعقد يوم الخميس من كل أسبوع، وكان قصر الثقافة الذي بُنى حديثاً قد تحول إلى خلية نحل: فهنا فصول لمحو الأمية، وقاعة للكمبيوتر، وأخرى لمكتبة الطفل، ورابعة مكتبة عامة، كانت هي تدير المكتبة العامة، وظل الجميع يبحثون عن مكان يجتمعون فيه ولم يكن غير المكتبة يصلح لذلك، اصطدمت بأعضاء النادى اصطداماً عنيفاً، فرضت عليهم عدم التدخين، الكلام بصوت خافت، كانت تنظر إليهم نظرة استعلاء، ولم لا وهي خريجة كلية الآداب قسم اجتماع، ثم إنها من بيئة أرستقراطية فهي تسكن المهندسين وظروف الوظيفة هي التي فرضت عليها الذهاب يومياً إلى هذه الزبالة التي تدعى بولاق الدكرور - كما كانت تحب أن تطلق عليها - وأخيراً فإنها جميلة ومحط أنظار الجميع، كانت تتبختر في مشيتها وتختال مثل طاووس، عيناها السوداوان كانتا ترسلان نظرات استعلاء تصل لحد الاحتقار لكل من حولها، أراد هو ألا يصطدم بها في بادئ الأمر، لكنها عاملته بعجرفة فقرر

أن يشن حربه عليها، تجاهلها تماماً، وكان يعرف أنها ترقبه عن بعد، كان يجلس فى اجتماع يوم الخميس بنادى الأدب ومن حوله يتحلق الأعضاء، البعض يقرأ قصصاً، آخرون يلقون شعراً أو نصاً مسرحياً، وكان الجميع يريدون معرفة رأيه أولاً فكان هو مفتح الحوار، بعد فترة بدأت تقترب بمقعدها منهم، تستمع إلى آرائه صامتة، وتتعمد ألا تنظر إليه، لكنه فاجأها ذات مرة تتأمل ملامحه سراً، بينما كان منشغلاً بالحديث، التقت العيون فجأة وتعمد أن ينظر إليها حتى هربت بعينيها وغادرت المكتبة. سوف تخبره فيما بعد، أنها وجدته مغروراً دون مبرر، وأنها لم تجد داعياً لهذا الغرور، فمن هو؟، ثم إنه أحد هؤلاء ساكنى العشوائيات، وليست به ميزة واحدة تجعله هكذا، من حقها هى فقط أن تغتر، وسوف تخبره بعدد أنها أخذت تسأل عنه سراً، تتسقط أخباره، من هو؟ ما هى ثقافته ودرجة تعليمه؟ وأنها فوجئت بنفسها تهتم به فجأة. وعرفت أنه سافر إلى أوروبا. فجأة لحضور مؤتمر، تساءلت متى يرجع، لكنها لم تتلق إجابة ما. لكنه ع. فجأة، وبدأ يواصل حضوره فى نادى الأدب، وأخذت هى تقترب أكثر من الشلة وقد لانت ملامحها قليلاً بل إنها أخذت تتودد إليه، تقاطعه فجأة لتسأل سؤالاً، توجه كل حواراتها إليه. سوف تقول له فيما بعد إنها ع تلك اللحظة بدأت تدب فيها مشاعر إعجاب نحوه، شعره الطويل الأبيض الناعم، شاربه الكث الأسود، حاجباه الغليظان، ملامحه المنحوتة تحت طوله الفارع وقوامه الرشيق. وسوف تفاجئه ذات مساء بينما يتأهب نحو قصر الثقافة أنها تريده فى أمر هام. هز كتفيه وقال لها ببساطة: تحم أمرك. قالت له: ليس هنا أرجوك، سوف أطلبك فى التليفون. ثم مندهشاً: وكيف حصلت على تليفونى؟ أجابت بدلال وهى تبت مصادرى.

فى الليل حدثته، قالت إنها تبحث عن كتاب وإنه لو وجده فله نح. قال لها: إنه عندي فما حلوته. قالت: حين نلتقى غداً سوف ع

حلاوته فوراً. فى مساء اليوم التالى كان لقاؤهما الأول على شاطئ النيل، كانت متأنقة بتكلف وكان هو عادياً جداً، وكان يحمل الكتاب فى يده. قالت: على فكرة أنا لا يعينى الكتاب فى شىء، أردت فقط مقابلتك، ولم أكن أعرف كيف أقولها بصراحة. قال إنه أيضاً كان يزيد مقابلتها وراهن على أنها سوف تطلب لقاءه أولاً. اتهمته بالغرور وأنها تحب الرجل المغرور، انثال حديثها ولم تعد هناك قوة تجعلها تتوقف: حدثته عن طفولتها وصباهها، أمها وأبيها وأخواتها البنات وأنها لا يوجد لها أخ ذكر، حدثته عن أحلامها وطموحاتها، ثم سألته فجأة: تدينى كام سنة؟ كان يعلم من ملامحها أنها تجاوزت الثلاثين، لكنه أراد مجاملتها فقال: ما بين خمس وعشرين لست وعشرين. ابتسمت قائلة: ثمانية وثلاثون، يعنى بعد سنتين أكون فى الأربعين. قال لها: وأنا أيضاً كذلك بعد سنتين أكون فى الأربعين. قالت: أعرف، فقد قرأت حواراً لك تذكرت فيه تاريخ ميلادك، تعرف، آراؤك جريئة تعجبني. قال لها: أسألك سؤالاً يراودنى منذ أن رأيتك: لماذا لم تتزوجى حتى الآن، فأنت جميلة، وتحملين شهادة جامعية، ومثقفة؟ قالت له: رغم أن ذلك من خصوصياتى إلا أنى سوف أجيبك عن سؤالك، أولاً: أنا أرفض كثيرين يتقدمون لى لأنى لا أريد أى جوازة والسلام. ثانياً: فإن لى شروطاً فى من يتقدم إلىَّ لا تعجب الآخرين، ثالثاً: وهو الأهم فإن نظرة الرجل للمرأة لا تعجبني بالمرّة.

وطلبت منه موعداً آخر، وتقابلا. كان حديثهما أكثر هدوءاً وصراحة، قالت: إنها منذ أن أصبحت فى الخامسة والثلاثين ونوعية الخطاب اختلفت، فلم يعد يتقدم لها شبان صغار، بل متزوجون ولديهم أطفال، وإنها كلما تقدم العمر عرفت أن فرصة زواجها تضاءلت حتى استسلمت للفكرة نفسها الآن، فالجميع ينظرون إليها نظرة تقول أنها على وشك العنوسة، حتى أن أمها قالت لها فى إحدى مشاجراتهما إنها أصبحت مثل البيت

الوقف، وإن فكرة العنوسة أصبحت تؤرقها، وقالت له أعرف أنك متزوج ولديك أطفال، ولكن هل تستطيع الزواج مرة أخرى؟ ضحك قائلاً: ومن تلك التي ترضى بي؟! حدثت فيه بنظراتها: أنا أتزوجك لو وافقت ودون أية شروط. سهم قليلاً وقد فاجأته، لكنها لم تعطه فرصة: هه.. ماذا قلت؟

ولم يدر ما الذى يمكن قوله فى مثل تلك المواقف، فتاة حسناء تعرض عليه الزواج دون قيد أو شرط، شعر بالحرَج، وأحست به فقالت: يكفينى أن ألقاك الآن، أما فيما بعد فمن يدري؟ فى حديقة الحيوان تقابلا جلست بجانبه على أحد أرصفة الحديقة، أمسكت يده فجأة وقبلتها أمام الناس، صعد الدم إلى وجهه وتندى جبينه بالعرق. نظرت إليه مندهشة. هل يوجد رجل متزوج فى هذا العالم لا يزال يشعر بالخجل؟ أحببت خجئه تعرف، نفسى أحضنك وأبوسك وأشم رائحتك، دا انت تجنن. قانت وأخذت تنظر إليه. لماذا تنظرين هكذا، الناس أخذت بالها. قال وأخذ يتطلع حوله. قالت هامسة: أريد أن أشريك. فى تلك اللحظة فقط عرف أنه لا يحبها، وأنه هكذا دائماً مطارِد ممن لا يحبهن، هذا هو قدره، وفى نفس اللحظة اشتاق إلى امرأة أخرى، امرأة يطاردها هو نفسه، امرأة عصبية على الحب يخضعها لحبه، امرأة كثيراً ما أتت إليه فى الحلم، ندر الواقع يرضن بها عليه، أين أنت أيتها المرأة المستحيلة والتي ليس كمتب امرأة.

* * *

هذيان

حين سمع صوتها للمرة الأولى في التليفون صعقته نبراتها، كانت تطلب مقابله، عرفته بنفسها وأن صديقاً مشتركاً أعطاهها تليفوناته، أخذت منه زرعاً في مساء الغد. وانتهت المكالمة سريعاً، لكن صوتها أخذ يرن في نية، لم يكن صوتاً عادياً، كأن نساء العالم جميعهن اجتمعن في صوتها، منذ تلك اللحظة، أطلق تخيلاته وراءها، لا بد أن يكون وراء هذا الصوت جمال من نوع خاص، مميز، فريد، ولا بد أن يكون قوامها ممشوقاً، مياساً، شرة صافية، نقية، ليست بالقصيرة ولا بالطويلة، هذا الصوت لامرأة زهرة الحسن تجسدت، أقرب إلى الكمال، حلم بها من صوتها، ومن صوتها تجسدت ملامحها كأجمل ما تكون.

صوتها

في صوتها رقة رفرقة طائر وليد

في صوتها صفاء سموات وأعماق أرض وعمق محيط نسمة ربيعية
منهافة، لحظة خلق أسطورية، تموجات رقرقة للحن سماوى.

يا مساء الغد، هل تأتي لأسمع صوتها وأرى كونها؟

في المساء، وقبل أن تأتي بلحظات أحس بها، وتأكد له أنها على وشك
الانبثاق أمامه، كأن حضورها سبقها، كان الهواء يشع خطراً ما، هذا

الخطر كان نذيراً بقدمومها، ونذيراً بأشياء أخرى سوف تحدث، تكهن بي لكنه لم يدركها فى حينها. عربية سوداء تهادت ووقفت أمامه فجأة، كانت هى جالسة فى الخلف، بينما السائق وقف ينتظر نزولها، رنت إليه قبل أن تخطو نحوه، عرفها قبل أن تمد يدها تسلم عليه، تماماً كما تخينى بالضبط، وأحس نشوة مفاجئة، نشوة خلّقه لصورتها كاملة مكملة. جلست بجانبه وبدأ حديثاً لن ينتهى، بعد أن ودعته وذهبت، وحين رجع إلى البيت حدثها تليفونياً، صوتها سحره، قال لها بلا مقدمات: هل تعرفين، أنت أجمل صوت سمعته فى حياتى، زفرت فرنت زفرتها فى قلبه فخفت قال لها أنا تخيلتك قبل أن تأتى امرأة ليست ككل النساء كما قلت فى إحدى رواياتى، امرأة ظللت أبحث عنها فى رواية كاملة، وهى أنا أهتدى للمرة الأولى يكون نزار هو رسوله إليها، لم يكن يتخيل أن لنزار كل هم الحضور فى نفسه، لقد قرأ له فى فترة مبكرة من حياته، كان يلهمه بكتابة رسائل غرامية إلى من أحبهن ولم يكن يتصور أنه يحفظه، استعار أبيض تعبر عن المعنى الذى يريد. قال لها:

حَدِيثُكَ سَجَادَةٌ فَارَسِيَّةٌ
وَعَيْنَاكَ عَصْفُورَتَانِ
دِمَشْقِيَّتَانِ
تَطِيرَانِ نَحْوَ الْجِدَارِ وَنَحْوِ الْجِدَارِ
وَأَنَا..

وهنا أمسك عن الكلام ولم يكمل، كان يريد القول بأنه أحبها، لكنه المرة الأولى التى يراها، وربما هى لم تنتبه لوجوده أصلاً، جاءت للمساعدة فى دراسة المكان الذى هو خبير به، أليس أحد سكانه؟! يزج بشكل أو بآخر يعتبر نفسه مؤسساً له، يعرف تاريخه وكل خباياه، أحج

وبناياته، أزقته ودروبه وحواريه وشوارعه، خططه قديماً وحديثاً، ناسه: لعائلات القديمة ومن وفد حديثاً. أخذ منها موعداً آخر، انساب الحديث بينهما ليناً هيناً حكى لها عن نشأته الأولى تجاربه ولادته الأسطورية، أراد نبوح والفضفضة لها هي تحديداً، هو الكتوم المرتدى أقنعة شتى، سقطت فجأة كل أقنعة وأفاض، لم يعد هناك ما يمسكه عن البوح، حتى أدق سراره عرفتها من الجلسة الأولى، عرفت اسمه الخفى والمعلن، أحب سمائه إلى نفسه، من فمه خرجت روحه لتختفى بين تخومها، تختبئ بين شرايينها، تتعطر بأنفاسها، تحوم حول جسدها الأثيرى، شعرها البنى تقصير الناعم، تندس بين نهديها الصغيرين النافرين وقد بدى خلف خزتها البيضاء مثل فرخى زغاليل حمام، ها هي تجلس أمامه بعينيها سوداوين إذ تتطلعان إليه فى صمت، تسمعه بإمعان، تقول بين لحظة وأخرى (ها) طويلة ممطوطة كأنها لن تنتهى، (ها) كأجمل ما تكون تهيدة إذ هي تخرج من أعمق منطقة فى القلب، (ها) آهة عاشقة فى لحظة بلوغ ذروة نشوات الصبابة والوجد، سوف يخبرها عبر التليفون أن تبديتها أذابتها، وأنها أسقطت كل أقنعة. تقول له: هي لازمة من لازماتي يغضب منها تكرارها، ألا تقول له غيرها؟! فتضحك بطفولية وتكررها له بسقط صريع آهتها.

ذنت له: هذيانك جميل. فرد عليها: إنه الحب يا حبيبتي، وأسعفه نزار فقال:

ذَ كُنْتُ يَا حَبِيبَتِي بِمَسْتَوَى جُنُونِي

رَمَيْتِ مَا عَلَيْكَ مِنْ أَسَاوِرِ

حِزَاهِرِ

رَحِمْتَ فِي عَيُونِي

مرة الأولى أحب صوته هو، بعد أن قالت له أحب سماع صوتك،

ت جميل. فتمادى، وأطلق آهاته هو الآخر، قال لها هل تأتين عندي،

ولدهشته فقد رحبت، هياً له خياله سيناريوهات مختلفة لذلك التـ
المرتقب.

* * *

تأخرت ثلاث ساعات عن مواعدها، وأخيراً دق جرس الباب، وخـ
داخل الشقة، وجهها إلى حجرته، جلست وفردت قدميها أمامها ببسـ
كانت ترتدى بلوزة بيضاء على بنطلون جينز، أخذت تتأمل حجرته وبـ
فجأة: أين أسرتك؟ سافروا فجأة. أجاب، وسألها: تشربى إيه؟ تـ
بالنعناع. حدثها عن نفسه، عن تاريخه السرى الذى لا يعرفه أحد، وتـ
بينه وبين نفسه: لماذا يبوح لها بسر أسرارها؟ وهمس لها: هل تعرفين -
لأنى ومنذ أول ثانية سمعت صوتك أحببتك قبل أن أراك، هل تؤيد -
بالحب من أول همسة، فالأذن تعشق قبل العين أحياناً كما يقول الشـ
القديم، قالت: أنا لا أنكر ميلى نحوك ولكن لا يمكن الجزم بأنى أحـ
حتى لا أعرف هل يمكن تسمية هذه المشاعر بالحب، وما هو الحب -
لى ها، هى تراوغه منذ الدقيقة الأولى، استدعى كل مفاهيم وتعـ
الحب التى عرفها أو تلك التى قرأ عنها، لكنها هزت رأسها غير مـ
ثم أردفت: أنا طبعاً لا أنكر تلك العاطفة من منطلق مفهوم أخلاقى. -
لا أعرف حقيقة ما هو الحب، ربما إعجاب، استلطاف، لكنى لا أعـ
أننى أحبك. قال لها: ولكننى أحبك. قالت: هل بهذه السرعة يجرى -
ربما أنت معجب بى، ولا أنكر أننى معجبة بك ولكنى لا أستطيع -
علاقة معك لا لأسباب أخلاقية أو دينية إنما لأنى مرتبطة بـ
الذى أكنُّ له احتراماً، فعلى الرغم من أننا اتفقنا على الانفصال -
أصدقاء.

فى التليفون سوف يقول لها: أحبك حُبِّين. وسوف يقول لها: -
سماع صوتك. وسوف تقول له: صوتك حلو أحب سماعه. وتـ

حدثني كثيراً فأنا مصغية إليك. ثم تقول له: وما فائدة هذه العلاقة، فأنا سوف أسافر غداً إلى لندن، فقد وصلنا إلى مفترق طرق.

* * *

في الساعة السابعة صباحاً، صحا من نومه على صوت الممرضة تدعوه صحيان، أخذته من يده وسارا معاً إلى حجرة مدير المستشفى، دخل يقف أمام مكتبه بينما المدير أخذ يتطلع إلى ملف أمامه، ثم نظر إليه تئلاً: ما اسمك؟ هز كتفيه دون أن يجيب، ألا تتذكر اسمك؟ أليس مكتوباً عندك؟ كان المدير يقلب في الأوراق التي أمامه وهز رأسه يميناً ويساراً: في الحقيقة شيء محير، أوراق ملفك خالية تماماً من أية معلومات عنك: يوجد سوى تاريخ دخولك المستشفى منذ خمس سنوات، الاسم: لا يوجد، السن: لا يوجد، الحالة الاجتماعية: لا يوجد، تشخيص المرض: حنة فصام واكتئاب نفسي. هذا ما يوجد في أوراقك، لذلك أريد منك أن تساعدني، فلا يوجد الآن ما يستدعي إقامتك في المستشفى ولا بد من خروجك. ولكن كيف ولا توجد لديك أية أوراق تحقيق شخصية أو عناوين فيناك أو من الذي جاء بك إلى هنا. تعلم طبعاً أن هذا مستشفى عسكري وهذا هو أول الخيط، هل تذكر في أي كتيبة كنت أو أي سلاح؟ هز كتفيه وظل صامتاً يتطلع إلى المدير وهو يلقي عليه الأسئلة. هو حقاً لا يكر من الذي جاء به إلى هنا ولأى غرض، ومنذ متى؟ وللمرة الأولى عرف أن له خمس سنوات في هذا المستشفى النفسي، ما الذي حدث له من تلك السنوات الخمس، وهل صحيح إنه لا يذكر اسمه أو أي شيء من حياته السابقة؟ وضع يده على جبهته فقد أحس صداعاً رهيباً يجتاحه نعر بدوخة. أحس المدير بما يعانیه فطلب منه الجلوس: شوف يا .. أياً - اسمك، أنت إحدى الحالات النادرة في هذا المستشفى، ولا أدري لأي سبب أنت هنا، لذلك فسوف نقوم ببعض التحريات عنك، إما في جلسات العسكرية أو سوف أسأل أنا - بشكل مباشر - المدير السابق

لهذا المستشفى، ربما يكون لديه معلومات عنك، أنت شفيت تماماً، لذلك سوف تمكث في عنبر الأصحاء فلا علاج ولا صدمات كهربائية ريثما تُتحريراتنا.

انسحب خارجاً وتبع الممرضة إلى العنبر الذى كان به فأخذت أشياء وذهبت به إلى عنبر آخر، استلقى على سريريه الجديد وأخذ الصدغ يحاصره ويضغط على رأسه وعنقه. ما الذى أتى به إلى هنا حقاً؟ وحر حقيقةً مكث هنا خمس سنوات كما قال مدير المستشفى، خمس سنوات فقد خلالها اسمه أو أية معلومات عنه، كيف كان يعيش قبلها، ومن أين أتى، أين هم أهله إذا كان له أهل؟ ولماذا لم يبحثوا عنه طوال تلك الفترة هل هم الذين جاءوا به، أم أنه جاء بقدميه؟ أسئلة كثيرة ظلت تطرحه رأسه دون إجابة شافية. إنه يفوق فجأة على حقيقة مرعبة: لقد مسح ذاكرته بأستيكة وطمست هويته تماماً، فمن هو إذن؟ وكيف كان يعيش. كان مريضاً طوال تلك الفترة؟ مجنوناً يعنى، وفى مستشفى عسكري. يد ما يعنى أنه كان مجنناً؟! شعر باليأس فجأة، وكان الصداع يداهمه حتى فوضع رأسه بين مخدتين وأغمض عينيه.

كان يصعد جبلاً عالياً، وكان يوشك على بلوغ قمته، وفوق قمة كانت هناك امرأة عارية تمد له يدها فتعلق بها، لكنها تركته فجأة فـ يتدحرج حتى السفح ومات. لكنه صحا فجأة فوجد نفسه بين ذراعى أخرى وكاد يبلغ الذروة. بينما أحدهم يهتف به: أين أنت يا جمال؟ طويل من النساء العاريات يقف أمامه، كانت بينهن واحدة ظلت تحب وتبكي بينما يمارس فحولته عليهن جميعاً، ثم أمسكن به وأخرجن من بين أفخاذهن وأخذن يطعننه ويمزقن جسده قطعاً صغيرة أخذن حتى التهمنه كله، ثم تقيأن جسده فأخذ يتجمع أمام أعينهن حتى بشرراً مرة أخرى وهن يضحكن ويفتحن له أبوابهن يدعونه لسك فيهن.

فى الصباحت استيقظ مبكراً، وشعر ببلىل بين فخذيه، كان الصراع قد تلاشى، وجلس على حافة السرير وحاول تذكر حياته السابقة لدخوله مستشفى فلم يفلح قال لنفسه: إنهم الآن يتحرون عنى، ولا بد أنهم سيعرفون من أنا ومن أين جئت، فالحكومة تعرف كل شىء ويا خبر نهاردة بفلوس بكرة ببقى ببلاش. قام وتمشى قليلاً فى حديقة المستشفى، يعلم أن المرضى غير الخطيرين أو الذين شفوا لا تعين عليهم حراسة، أما نخطرهم فلا بد من وجود حراسة مشددة ولا يسمح لهم بالخروج من نعبر، وها هو يتجول بحريته دون رقابة من أحد، كان سور المستشفى عالياً وعلى قمته وضعت أسلاك شائكة وأبراج مراقبة يقف عليها جنود مدججون بالسلاح، وأخذ يتأمل السور العالى، وتذكر فجأة أنه تسلق هذا سور من قبل وأن ملابسه اشتبكت فى الأسلاك الشائكة وأنه جرح وأنهم تمسكوه وأعادوه مرة ثانية، ولكن متى حدث ذلك؟ لا يذكر، هل حاول نهرب من قبل؟ سؤال ظل يتردد فى صدره طوال اليوم دون إجابة.

* * *

قال لها: وحشنى صوتك. ردت عليه: وانت كمان صوتك جميل، له نبر حلو فى الأذن أحب أن أسمعه. وقال لها:

دَعِينِي أَقُولُ بِكُلِّ اللُّغَاتِ الَّتِي تَعْرِفِينَ

وَلَا تَعْرِفِينَ

أُحِبُّكَ أَنْتِ

وَأَشْتَأُكَ أَنْتِ

وقالت له: كلامك جميل ولا أعرف قول مثله، فقال لها: لو آمنت فسوف تعرفين كيف تحبين. قالت: ولكنى لا أومن وأشعر بالاكْتفاء الذاتى، لقد أحببت زوجى طوال ثلاث عشرة سنة، والآن نحن أصدقاء رغم اتفاننا

على الانفصال. ضحك قائلاً: لا بد أنه معذب الآن. لا، إنه يعيش بعيداً عنى منذ فترة، ويحدثنى من وقت لآخر، ولا يشعر بالفقد ولا أنا أيضاً. ونحن متفاهمان إلى أقصى درجة. ألا تشعرين بالشفقة عليه من جراء هذا الانفصال الذى أشعر أن لك يداً فيه. ضحكت وقالت: لقد تزوجت على حب، وكنا صغيرين، وكنت لا أطيق الانفصال عنه، لكنه سافر إلى كندا مدرساً فى جامعاتها وبقيت أنا فى إنجلترا لأكمل دراستى ثم أعير فى إحدى جامعاتها، وتصورت أننى لن أعيش بدونك ساعة واحدة، ولكن الحقيقة هى أننى عشت ثمانى سنوات بدونك، كذلك هو، وملتقى ترانزيت فى العطلات، وقد شعرنا فجأة أنا وهو أن ظروف كل منا تختلف وتتعارض مع ظروف الآخر فقررنا الانفصال وتفاهمنا أن نكون أصدقاء. وقالت له هل فكرت أنت فى ماهية هذه العلاقة بيننا خاصة أن طريقنا أيضاً يتعارض مع بعضه. لا، لم أفكر فى شىء حتى هذه اللحظة إلا فى أنكى أحببتك، وأننى أعيش حالة لم أعشها من قبل، فكل النساء اللاتى عرفته من قبل كن يجرين ورائى ويطاردننى، أما أنت فحالة خاصة، حالة اخترت أنا، وأنا الذى أطاردك وسوف أطاردك حتى لو لم تستجيبى لحتى. وتسمى هذا حباً؟! ربما كانت هلوسات أطلقها خيالك. قالت وصمتت. هى مشكلة علاقتنا: أنا أعيش فى الخيال وأستطيع الانفصال عن الواقع وقتما أريده، وأنت تعيشين فى الواقع ولا تستطيعين الانفصال عنه حتى إذا أردت، تؤمنين بكل ما هو مادى بينما أؤمن بالروح وما وراءها. وليس الخيال فى بعض الأحيان أجمل من الواقع، بل أهم؟ هذا ما أسبب الهروب، عدم مواجهة الواقع حتى ولو كان سيئاً. ولماذا تسمينه هروباً؟ شخصياً أرى الواقع أفضل وأعمق بعين الخيال وليس العكس، إن كنت ماحققته البشرية عبر تاريخها كان عبارة عن خيال، الحلم بالصعود إلى القمر، هزيمة الجاذبية الأرضية، الانتقال من مكان إلى مكان عبر الطيران، التليفزيون الذى يجعل العالم بين يديك بمجرد ضغطة على

الراديو، التليفون، كل هذا كان خيالاً أولاً، إذا آمنت فسوف تحبين خيالك،
ففى البدء كان الخيال.

* * *

كم من الوقت مضى؟ لا يدري لكنه استيقظ فى أحد الأيام على أشياء
غير عادية تحدث، فقد أخذته الممرضة ومررت به على مكاتب كثيرة،
وعرف أنهم ينهون إجراءات خروجه، وسلمته كيساً وضعت به أشياء: دبلة
ذهب، أخذت تتأملها، وقالت له إن هناك نقشاً عليها، اسم واحدة تدعى
أمينة، ألا يعنى هذا الاسم لك شيئاً؟ هز رأسه وكتفيه، ساعة يد، سلسلة
مفاتيح، ولاعة. على باب المستشفى كان هناك جنديان من أفراد الشرطة
عسكرية ينتظرانه فى مكتب الأمن، تسلما أوراقه ووضعوا الحديد فى يديه
ومضيا به عبر البوابة الحديدية الضخمة. كانت أشعة شمس يولية قوية
تدغلق عينيه قليلاً، وسحباه فاستسلم لهما وسار بينهما، وأحس أنه يريد
الرجوع مرة أخرى إلى المستشفى يحتفى بها من هذا الشارع الواسع
النعين، صدمته حركة الناس والعربات التى تطلق أصواتاً كانت تخترق
عقله وأذنيه. أشارا لإحدى العربات وقذفاه داخلها فانطلقت، وأحس بدوار
يصداع عنيفين يصيبانه، إلى أين يذهبون به؟ وهل عرفوا من هو؟ لا بد
نيم عرفوا، وإلا ما جاءوا ليأخذوه. قرب الظهر تقريباً وصلت العربة إلى
مخترق طرق، وكانت قد تخطت العمار، وعلى مرمى البصر كان يلح
معسكرات الجيش، وتخطت العربة محطة سكة حديد ثم انطلقت عبر
عريق مرصوف على جانبيه أسلاك شائكة، ثم انعطفت يساراً وسارت
مع دقائق حتى توقفت أخيراً أمام بوابة أحد المعسكرات، أبرزوا أوراقهما
أفراد الأمن الذين سمحوا لهما بالمرور فانطلقا قاصدين مكتب شئون
أفراد، أديا التحية العسكرية لمدير المكتب الذى حياهما بدوره، سلماه
ذؤراق فوقع عليها وأعطاهما لهما، وفهم هو أن مهمتهما قد انتهت، فقد

فكا الكلابشات من يديه وأخذها أوراقهما ومضيا. وقف داخل المكتب بالقرب من الباب وأخذ يتأمل ظهريهما وهما يبتعدان حتى تلاشيا من أمام عيني، وأخيراً انتبه للجالس خلف المكتب، كان جندياً برتبة صوت شعره الأبيض وملامحه تدل على أنه تخطى الأربعين، وأمامه قرأ يافضة كتب عليها: مسعد عبد العزيز - مساعد تعليم الكتيبة: نظر إليه بلطف وابتسم، وأشار له بالجلوس على أحد الجراكن المنتورة فى الحجرة وتستمع لعملونها بدلاً عن الكراسى جلس صامتاً وأخذ يتطلع حوله: الكريم إيه؟ سأله بينما كان منشغلاً بكشف أمامه. ولما لم يجب تطلع به وقال: معلى، شدة وتزول. أخذ أوراقه وضعها فى الدرج وأغلقه بالفتح ثم قام وأخذ (جاكت) كان موضوعاً على مسمار فى الحائط، ارتداه. اليوم سوف تنام هنا فى هذه الحجرة ولن أستطيع تحضيرك الآن فى من ذهابى فوراً لألحق الجهاز. وفى الغد أدورك مكتب، فهمت. وعلى حال يمكنك الهرب فلن يسألك أحد، واهو نرتاح منك. قال وضحك. يأخذ حقيبته ويهرول تاركة وحده فى المكتب. تلفت حوله فوجد مكموماً فى أحد الأركان فردده ووضع على طرفه (جركن) وتمدد رأسه فراح فى النوم.

* * *

قالت له: ألم تنم بعد؟ أنت تعرفين أنى أسهر طوال الليل. وأردف: أنا ابن ليل. وأنا أيضاً مؤرقة رغم تعودى على النوم مبكراً. لم تتصلى كنت سأطلبك، فصوتك يوحشنى. صحيح؟ وصوتك أنت كذلك أريد النوم على صوتك، هل أقترح عليك شيئاً، احك لى حك تعرف. أحاول ولو أنى لم أجرب من قبل. لأ صحيح فأنا كنت أندس حكايات أمى، وبما أنك عايش فى الخيال فاحك لى حكاية أنام عب فلنجرّب. قال وصمت قليلاً، وأخذ يتذكر كل الحكايات التى سمعها

قبل حتى عثر على واحدة ففرح وقال: سوف أحكى لك حكاية الثلاث بنات. ضحكت وهمست: كلى آذان صاغية. وبدأ فقال:

يُحكى أن ثلاث فتيات تُوفى أبوهن وأمهن ولم يتركا لهن شيئاً إلا منزلاً قديماً خالياً من أى أنواع الفرش والأثاث، اللهم إلا سجادة قديمة متآكلة وغطاء كن يتغطين به حين يَنَمَنَّ، ومغزلاً كن يغزلن عليه طوال الليل ليبعن ما غزلنه فى النهار، ويشترين ما يحتاجه من طعام وخبوط غزل.

وفى يوم من الأيام أصدر ملك المدينة قراراً بمنع الناس من السهر وإضاءة النور، فدار المنادى فى المدينة يخبر الناس بأمر الملك، وأن على الناس النوم من المغرب، ومن يضبط وبيته مضاء سوف يسجن. وفى هذا المساء عم الظلام المدينة كلها، ونزل الملك وحاشيته يتفقدون بيوت الرعية ويطمئنون على تنفيذ أمر الملك. وجلست الفتيات الثلاث يتحدثن فيما سوف يفعلن، وقلن: ماذا نفعل ونحن لا نعمل إلا فى الليل؟ والغزل لا بد أن نضىء له نوراً حتى نرى ما نفعل، وإذا لم نعمل فلن نجد ثمن الطعام. فما

"حيلة؟"

ها، معايا؟ أيوه معاك لسه ما نمتش، كمل. وفى الليل انطلقت أحلامهن فى فضاء البيت المظلم، قالت الأولى وكانت أكبرهن: لو كان يجيئنى الملك ويتزوجنى لقلت له أعمل لك بساط يفرش قصرى فى يوم وليلة. وقالت الثانية وهى الوسطى: لو تزوجنى الملك لقلت له أعمل لك فطيرة تكفيك أنت وأهل المملكة. وقالت الثالثة وهى أصغرهن وأكثرهن جمالاً: لو تزوجنى لقلت له ألد لك ولداً وبناتاً، أما الولد فتكون رأسه مليئة بالشعر، شعرة من فضة، وشعرة من ذهب، والبنات إن ضحكت تطلع الشمس، وإن بكت تغيم وتمطر السماء. وكان الملك يمر فى تلك اللحظة قريباً من بيتهن، فسمع ما دار من حديث بين الأخوات الثلاث. وحين طلع الصباح، وأضاء نكريم بنوره ولاج، كان أول شىء يفكر به الملك هو ذلك الحديث العجيب

الذى سمعه فى الليل، فأرسل يستدعى البنت الكبرى التى لم تصدق أن الملك يريد لها زوجة له، لكن ما رآته كان الحقيقة بعينها. فقد تزوجها أول ما وقعت عينه عليها، وكله شوق لمعرفة كيف تنفذ وعدها، وكان أول حديثه معها هو قوله: ها أنت قد تحققت أمنيتك وتزوجت الملك، أربنى الآن كيف تصنعين بساطاً يفرش القصر كله! حينئذ، نظرت الفتاة إليه وقالت ضاحكة: وهل صدقت حديثى فى الظلام يا مولاي فكلام الليل مدهور بزبدة يطلع عليه النهار يسبح. فما كان من الملك إلا أن طلقها.

وفى اليوم التالى أرسل يستدعى الأخت الوسطى وفعل معها ما فعل مع الكبرى، وجاء موعد تنفيذ ما وعدت به. فنظرت إليه وقالت ما قالت أختها من قبل: كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسبح. فنظرت إليها نظرة غضب وقال: انضمى إلى أختك فكلكما كاذبتان، ولا بد - مصيركما واحد.

أما زلت معى على الخط؟ نعم أسمعك أكمل.

فى اليوم الثالث استدعى الأخت الصغرى، وحين نظر إليها وقعت محبتها فى قلبه لفرط حسنها وجمالها، وتزوجها فى الحال، وقبل أن يدخل عليها ويكشف عنها غطاءها قال: دعينى أذكرك بوعدك وهو - تزوجتك تنجبين ولداً وبنثاً. فردت عليه وقد احمر وجهها خجلاً فزاد جمالاً: إذا شاء ربى يا مولاي وأراد، فأمهلىنى تسعة شهور وربى يعطى ويعطيك. فرح الملك بحديثها ودخل بها فعلمت منه فى ليلتها وكمل حسب فى تسعة شهور، وجاء موعد الولادة فولدت ولداً تبارك الخلاق فيما حذر له شعرة من فضة وشعرة من ذهب، ولم يكن قد رآه أحد سوى الداية - أخذته ووضعته مكانه كلباً صغيراً حديث الولادة، أما الولد، فقد أعصت - للأختين اللتين غارتا من أختها الصغرى فأخذتا الولد ووضعته - صندوق ورمته فى البحر.

وبالقرب من البحر، وعلى ربوة عالية تطل عليه، كان يعيش رجل عابد نى لنفسه عشة من الخوص ظل يتعبد فيها بعيداً عن الناس، وكعادته كل يوم، نزل إلى البحر ليتوضأ فشاهد صندوقاً صغيراً عائماً على وجه الماء، فأشار بيده إلى الصندوق فتوقف بين يديه، فأخذ الصندوق وصعد به إلى نعشة وفتحه، وما إن رأى الطفل فى الصندوق حتى قال مخاطباً نفسه: سبحان الله، تبارك الله فيما خلق، ما الذى رمى بك أيها المسكين فى هذا نيم الهائج. ونظر إلى الطفل فرآه يبتسم، فأوقع الله محبته فى قلبه وضمه نى صدره وقبَّله، وكان الطفل قد شعر بالجوع فبدأ ييكي، بحث العابد عن شىء يطعمه إياه فلم يجد فألهمه الله أن يضع إصبعه فى فمه فأخذ الطفل بعض الإصبع الذى - ويا للغرابة - امتلأ بالحليب يسقيه حتى نام.

هل نمت سيدتى شهریار؟

لأ أرجوك يا سيد شهر زاد، لقد بدأت الحكاية تشدنى أكمل.

أما ما كان من أمر الملك، فإنه لما دخل على زوجته اطمأن عليها وسألها عن وليدها، فقالت: ها هو انظر ماذا أعطانا الله. فلما نظر رأى كنباً أسود حديث الولادة، فأخذ يتعجب من ذلك الأمر، لكنه توجه بالدعاء نى الله قائلاً: كل عطايك كريمة، اللهم لا اعتراض على مشيئتك، ثم إنه أمر المربيات أن يأخذن الكلب ويقمن على تربيته كما تربي أولاد الملوك.

ثم إنها حملت منه مرة أخرى وتمت أشهرها فولدت بنتاً تقول للقمر قم وأنا أقعد مكانك، بوجه سبحان من صور كالبدر ليلة تمامه، وشعر مثل سبائك الذهب، وكما حدث مع أخيها، حدث معها، فقد وُضعت فى صندوق ورموه فى البحر وحطوا بدلاً منها كلبة. وجاء الملك فرأى خلفته فأخذ يتعجب من عطية ربه وقد أشفق على زوجته فما الذنب الذى جنته حتى يغضب منها، فهى طلبت من ربها ولداً وبنثاً، وقد أعطاهما بدلاً منهما كلباً وكلبة، فليس الأمر إذن بيدها وما قدره الله سوف يكون.

أنا تعبت والحكاية طالت وبأخت وأنت لن تنامى.

كدة أنا أزعل منك، انت وعدت أن تحكى لى حكاية حتى أنام إذن بر
بوعدك وأكمل، ثم إنها ظريفة وليس كما تقول.

طيب، فلنرجع إلى أبينا العابد فى الجبل، فإنه شاهد الصندوق الثانى
عائماً على وش الماء فأخذه وفتحته فرأى البنت فقال: تبارك الله فيـه
خلق، وقد هاله حسنها وجمالها وما على وجهها من سمات أولاد الملوك
ولاحظ الشبه الظاهر بينها وبين الصبى، فعرف أنهما إخوان، ثم إن البنت
بكت لما أحست الجوع فغامت الشمس وأخذت السماء تمطر، فمد يـه
إصبغه فأخذت تمصه حتى شبعت فتبسمت فطلعت الشمس مرة ثانية
وتوقف المطر، وروحى يا أيام، تعالى يا أيام، كبر الولد والبنت - وأولاد
الحواديت يكبرون سريعاً - والعابد يعاملهما كما لو أنهما ابناه وذـه
بتعليمهما كل ما يعرفه، وسمى الولد الشاطر حسن والبنت ست الحر
والجمال، وكبرا وهما يظنان أن العابد هو أبوهما، وفى يوم من ذات 'لايـه
جمعهما فجلسا بين يديه وحكى لهما كيف وجدهما، وكيف قام بـه
تربيتهما، وختم حديثه قائلاً: اسمعا ما أقوله جيداً، لقد جاءنى هاتف بـه
المنام يخبرنى بانتهاء أجلى، وأنتى سوف أموت اليوم فنفذا ما سوف تـه
لكما. وأشار إلى جريدة خضراء فى يده، هذه الجريدة إذا ضريتما بـه
الأرض تجدا بغلة، اركبا عليها ثم اضريا البغلة بالجريدة تجدا نفسين
أمام قصر الملك، وهناك تسألان عن الحاج على الجنائى، هو أختى فى -
وبيننا عهد. وهو جنائى قصر الملك وسوف أكتب لكما كتاباً تعطيه بـه
وتقولان له أبونا العابد أرسل إليك هذا الكتاب. وسوف يدلكما بـه
تفعلانه؛ ثم إنه كتب لهما خطاباً للحاج على سلمه إليهما مع الحـه
وودعهما وتركاه، وبينما هما سائران إذ قال الولد لأخته لا يجب ترت بـه
العابد هكذا، فهو فى مقام والدنا، وإذا كان سوف يموت فلا بد من تـه

ودفنه وهو أقل ما يجب أن نقدمه له، ثم إنهما اختبأ خارج العشة فرأيا العابد وقد تمدد على فراشه بعد أن قرأ الشهادتين، ولم يعد يتحرك فظنا أنه نائم، ولكنهما فوجئا بالمكان وقد امتلأ برجال يرتدون أبيض في أبيض ووجوههم تشع نوراً وقد التفوا حوله يرتلون القرآن. وسمعا أحدهم يقول: يرحمك الله يا أخى فى الله، ثم إنهم شرعوا فى تجهيزه ودفنه فى أرض نعشة، وما إن انتهوا حتى اختفوا، فتعجب الأخوان وتذكرا كلام العابد فضربا الأرض بالجريدة فخرجت بغلة سوداء بلجام من الذهب فركبا فوقها وضرب الولد البغلة بالجريدة فإذا بهما أمام قصر الملك، فنزلا عن البغلة وسارا خطوات والتفتا وراءهما فإذا بالبغلة تختفى هى والجريدة وشاهدا فى حديقة القصر رجلاً يقوم بتنظيفها فتقدم منه الشاطر حسن وسأله عن الحاج على، فقال: أنا هو، فأخرج الشاطر حسن خطاب العابد من جيبه وأعطاه له، فلما قرأه ترحم عليه ورحب بهما وقال: أنتما من الآن بنائى، وكانت للحاج على زوجة سيئة الطباع ما إن وقع نظرها على البنت حتى اشتعل قلبها بغيرة وحسداً وأضمرت لها الشر.

وفى أحد الأيام نامت على السرير وأخذت تصرخ وتتوجع وتقول آه يا وسطى، آه يا راسى، آه يا جنبى، آه يا جسمى، سوف أموت يا حاج على. والولد والبنت دخلا عليها وقالا: سلامتك يا خالة. قالت المرأة: لن أشفى من مرضى إلا إذا ذهبتما وأحضرتما كبد الحصان الأحمر الذى فى الجبل. وكان الحاج على يعرف أن لا أحد يقدر على الحصان الأحمر وأن من يذهب إليه يموت فقال لها: ما الذى فعلاه حتى ترسليهما إلى حتفهما؟ قالت: لا بد من ذلك.

عند ذلك تقدم الشاطر حسن وقال: أنا فداؤك يا خالة، سوف أذهب وأحضر إليك كبد الحصان الأحمر. ثم إنه خلع خاتماً كان فى إصبعه وأعطاه لأخته وقال لها ألبسيه فى إصبعك، ولو ضاق عليه فاعلمى أنتى

فى شدة وضيق، ثم إنه امتطى حصانه بعد أن تودع من أخته والحاج على ومضى فى طريقه إلى الجبل.

لما أشرف على أول الجبل شاهد راعى أغنام جالساً بين أغنامه، كان كبيراً فى السن له لحية بيضاء تغطى صدره، رمى عليه السلام فرد الراعى بأحسن منه، ثم سأله الراعى عن وجهته، فقال إنه ذاهب إلى حيث الحصان الأحمر. نظر إليه الراعى نظرة إشفاق وقال له: ارجع يا ولدى من حيث أتيت فأنت ما زلت صغيراً على صعود الجبل، وما أظن خالت هذه إلا أنها أرادت هلاكك. قال الفتى: هذا لا بد منه وقد وعدتها يا أبى بإحضار كبد الحصان الأحمر. فلما رأى الراعى إصراره قال له: إذن خذ يا ولدى معك هذا الخروف حتى إذا قابلك الغول فأهده الخروف حتى يأكلك أنت، ثم إنك تبدأ السلام أولاً قبل أن يبدأ هو، فإنه لو بدأ هو بالسلام فاعلم أنك ميت لا محالة.

شكره الغلام وأخذ الخروف وركب حصانه وظل صاعداً فى الجبل حتى لمح الغول من بعيد جالساً، وحين اقترب منه قال: السلام عليكم يا ولدى الغول. نظر إليه الغول فى غيظ وقال له: لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عضامك. ما الذى تريده يا ولدى؟ قال الشاطر حسن: آو. خذ الخروف هدية منى إليك. ثانياً: أريدك أن تدلنى على مكان الحصان الأحمر.

أنت تطلب المستحيل يا ولدى، فأحد لم يطلبه ونجا منه. أحسن نعمتاً باليأس ونكس رأسه حزناً، فلما شاهد الغول ذلك قال له: اذهب إلى الحصان فهو أكبر منى، ويعرف أكثر منى، وخذ معك الخروف وأعطه إياه يدك بذلك. شكره الغلام وأكمل صعوده فى الجبل حتى لمح فسلم عليه عند لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عضامك. ثم سأله عن قدامه فأخبره، فقال له: يا ولدى أنت صغير وخسارة فى الموت —

تطلب ما عجزت الملوك والأمراء عنه. فلما لمح إصراره قال له: إذا مشيت قليلاً فسوف تجد أختي الغولة، فهي أكبر منى وتعرف عنى، تجدها جالسة تطحن على الرحاية وتغنى، إذا وجدتها تغنى اربط حصانك بعيداً عنها وادخل عليها واشرب من صدرها، وبعد أن تشرب قل لها: شربت من صدرك اليمين كما ولدك أمين، شربت من صدرك الشمال صرت كما ولدك كمال. تقول لك ماذا تريد. فقل لها على طلبك ولا تخش شيئاً.

ودعه الفتى وانصرف، وظل صاعداً فى الجبل حتى رآها فترجل عن حصانه وربطه بعيداً واقترب منها فوجدتها تطحن على الرحاية وتغنى فهجم عليها وشرب من صدرها فقالت له: شربت من صدري اليمين صرت كما ولدك أمين، شربت من صدري الشمال صرت كما ولدك كمال، ثم إنه حكى حكايته - وليس فى الإعادة إفادة - فلما سمعت حكايته قالت له: سوف أساعدك ولكن اسمع كلامى وإلا سوف تموت، امش حتى نهاية 'جبل، يطلع لك ديك كبير تجده يغنى بصوت جميل يسحر العقول، إذا أنت جاوبته فى غنائه سحرك وسجنك عنده فى القفص، وإذا لم تجاوبه وتركته ينتهى من غنائه اهجم عليه وأمسكه وخذ منه مفتاح القفص فافتحه يخرج منه ناس مسحورة ينفك سحرها على يديك، وهؤلاء هم الذين يقبضون على الحصان الأحمر، ولكن مقاومة سحر صوته محال يا ولدك فاحذر. أخذ الفتى يفكر فيما قالته الغولة وكان قد اقترب من نهاية الجبل حين تبين الديك، رآه واقفاً نافشاً ريشه الملون بألوان ذهبية تعكس ألوان الطيف فى شمس الظهر، وكان على رأسه عرف متغطرس، فلما تقدم منه ولمحه الديك شرع فى الغناء، وحقاً كم كان ساحراً ذلك 'نصوت الذى انطلق من الديك وهو يتمايل طرباً حتى إن الفتى شعر بالجبال تهتز طرباً، وقد أصابت الفتى نشوة حتى إنه نسى كل التحذيرات التى أوصته بها الغولة وأخذ يغنى هو أيضاً مع الديك، وكان هذا ما يريده

الديك، فقد توقف فجأة عن الغناء، وأشار إليه فسحره فى الحال إلى عصفور صغير وضعه فى القفص.

ها وبعدين! يبدو أننى تورطت معك فى حكاية لن تنتهى. لأ أرجوك لقد أوشكت على النوم مع انتهاء الحكاية يللاً أكمل.

طيب وبعدين يا ستى.. وصلنا لحد فين، آه، هذا ما كان من أمر الشاطر حسن. أما ما كان من أمر أخته فقد جلست تبكى على فراق أخيها وهى تنتظر عودته، وتمنت أن تكون قد ذهبت بدلاً منه، وبينما هى كذب نظرت إلى الخاتم فى إصبعها فأحست أنه يضيق حتى إنها تألمت فعرفت أنه وقع فى ضيق؛ لأن هذه هى العلامة المنطق عليها بينهما، فلما تأكدت من ذلك قامت وتودعت من الحاج على وزوجته وركبت على فرس وانطلقت إلى الجبل، وسارت فى نفس الطريق التى سار فيها أخوها ومرت بنفس الغيلان الثلاثة الأخوة ودار بينها وبينهم نفس الحديث - وليس فى الإعداء - إفادة - وما إن اقتربت من الديك وتبينت موضعه حتى أخرجت من جيب قطعة قطن وضعتها فى أذنيها، وشرع الديك فى الغناء حين رآها، فرأت الصخور تتحرك، والجبال تتمايل، والفرس يصهل عالياً وهو يضر - الأرض بقوامه بينما هى واقفة فى ثبات وصامتة أمام الديك الذى غناه حتى شعر بالتعب فوقف ساكناً بين يديها وقلبه ينفطر من الغيد وأخذ ينكمش ويتضاءل حتى أصبح صغيراً جداً فعلمت أن خطره قد - فأخذته بين يديها وسألته عن أخيها، فأشار إلى القفص، ولمحت المنق معلقاً فى رقبته فأخذته وتقدمت من القفص. فتحته وأخذت تخرج - الكائنات الموجودة به، وكم كانت دهشتها وهى ترى الكائنات التى تخرج تتحول أمامها إلى بشر حتى امتلأ الجبل بملوك وأمراء وتجار وصعاليق وتقدم كل منهم إليها وأخذ يقبل يديها على تخليصها إياه من أسر السح فجمعتهم كلهم وقالت: ما جزاء المعروف؟ فردوا جميعاً فى نفس واحد -

أحسن منه. قالت: لا أطلب منكم سوى القبض على الحصان الأحمر
ياخذ كبده لخالتي حتى تطيب.

وكان الحصان الأحمر يظل متخفياً طوال السنة ولا يأتي هذه الناحية
من الجبل إلى مرة واحدة في وقت معلوم. وبالمقدر كان هذا ميعاد ظهوره،
عما جاء ورأى هذا الجمع الغفير من الناس أراد الرجوع فحلقوا عليه من
نحر الجهات وأسروه وذبحوه وأخرجوا كبده. أعطوه للفتاة التي فرحت به
ياخذته وأخذت الديك معها في قفص وسارت عائدة هي وأخوها حتى
شرفت على القصر ودخلت على خالتها زوجة الحاج على وقالت لها:
حضرت لك كبد الحصان الأحمر، فلما رأت ذلك انفجعت مرارتها من
غيرة والحسد وماتت. أما الحاج على فقد هناهما على السلامة وجلسا
بين يديه يقصان ما حدث لهما. وضعت ست الحسن والجمال القفص
وجود به الديك في الجنيئة، فأخذ الناس يسمعون صوته وهو يغنى
صوت يسحر القلوب. وانتشر خبر الديك المغنى في كل أنحاء المملكة
جاء الناس من كل المدن لسماع صوته ومشاهدة البنت العجيبة التي ما إن
سمع صوت الديك وهو يغنى حتى يحدث الآتي:

إذا كانت أغنية الديك حزينة بكت فتختفى الشمس وتتجمع السحب
تخطر السماء. وإذا كانت الأغنية مرحة ضحكت فتطلع الشمس ويكف
طر عن الهطول وتتقشع الغيوم والسحب.

وفي يوم من ذات الأيام، وبينما الملك يتجول في حديقة القصر سمع
نداء الديك فأخذ ينصت لصوته الساحر، واقترب منه فرأى البنت وأخاها
جلسان بجانبه، والذي أدهشه أكثر أنه رأى البنت تبكي فتغيم الشمس
ينزل المطر، ورآها تضحك فطلعت الشمس وتوقف المطر، فحدث نفسه
تتلاً: ياربي ما هذا الذي أراه وأسمعه، كأن دعوة زوجتي تتحقق. إن هذه
بنت هي ما تمنته زوجتي ووعدتني به، كذلك هذا الولد الجميل، ثم إنه

دخل إلى قصره واستدعى الحاج على الجنائنى وقال له: اصدقنى القول فى حقيقة هذه البنت وهذا الولد. فخاف الحاج على عليهما وقال: هم ابناى يا مولائى. قال الملك: ما عهدت لك أولاداً فتكلم الصدق وإلا ضربت عنقك. فرد قائلاً فى خوف: الحقيقة يا مولائى أن لهما حكاية عجيبة وهى أنا أقصها عليك من البداية حتى النهاية. وما إن انتهى حتى قام المناد باستدعاء الولد والبنت فوقفا أمامه فحن قلبه إليهما وقام فأخذهما من يديهما وأدخلهما على زوجته الملكة التى ما إن رأتها حتى عرفت أنها ابناها اللذين تمنتهما، واجتمع الشمل مرة أخرى ولأن الولد والبنت فتنة الحسن والجمال - مثلك - فقد خطبا لبنات وأبناء الملوك، وأقاموا الأفراح وعاشوا فى التبت والنبات وأنجبا صبيان وبنات إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات سبحانه الحى الذى لا يموت صاحب الملك والملكوت - تمت؟...

* * *

فى الساعة السادسة صباحاً استيقظ على صوت جلبة، فتح عيناى ونصفت فتحة فشاهاً أفراد مكتب شئون الأفراد يملأون المكان، فوجدت - ولم يشأ أحدهم إيقاظه. قام فطوى المشمع ووضع فى ركن الحجرة وجلس على الجركن، أخذوا ينظرون إليه نظرة أحس أنها غير عادى - كانوا شباناً صغاراً، وكان هو بشعره الذى دب فيه البياض كالأب بينهم - لهم. جاءوا بإفطار مكون من فول مدمس وأرغفة وشاى ساخن وعاء - عليه الإفطار معهم فوافق، كان يأكل صامتاً بينما أداروا أحاديث - وسأله أحدهم عن اسمه فنظر إليه ولم يجب. وقال آخر: هل كنت - فانهمك أكثر فى التهام طعامه صامتاً. انتهوا من الإفطار وحدهم - لحضور طابور الصباح بينما جلس بالقرب من مدخل الحجرة - يتأمل تلال الكثبان الرملية الممتدة أمامه والمختلطة بثكنات وغدير -

لخاصة بالجنود، ترى، ما الذى سوف يفعلونه معه؟ ما هى عقوبة هروبه من التجنيد؟ ولماذا هرب أصلاً؟ ألا يوجد له أهل يسألون عنه؟ هل اعتبروه مات وقضى الأمر واستراحوا، لماذا تلج عليه رائحة تلك المرأة؟ يكاد يشم جسدها ويلمسه، حتى اسمها يعرفه، كل تفاصيل علاقتهما، حاديث بكاملها دارت بينهما، من هى؟ وأين هى الآن؟ ولماذا هى بالذات؟

* * *

ها، ألم تنم؟ أقول لك على معلومة، أنا لم أنم منذ ثلاثين عاماً، أنا ملك لليل، أسهر الليل بطوله ولا أنام إلا صباحاً، فطرتى التى فطرت عليها، أعرف أن هذا ضد الطبيعة، لكنى مختلف كما أنت مختلفة. ولكن ألا تذهب إلى عمك صباحاً كبقية البشر؟ أنت تعرفين أن عملى لا يتطلب حضورى يومياً، وأستطيع أن أؤديه فى البيت، فى بعض الأحيان أواصل لليل بالنهار، هذه حياتى وتعودت عليها. على فكرة، أنا فكرت فى مساحة لاتفاق والاختلاف بيننا، لقد ولدنا فى يوم واحد أنا وأنت، وربما فى ساعة واحدة، كلانا يعشق أم كلثوم وبولاق الدكرور بحواربها الضيقة، بأزقتها وشوارعها المترية، بناسها أولاد البلد الحقيقيين الغلابة. أما مساحة الاختلاف فكبيرة جداً، وربما الاختلاف هو ما يجذبنى إليك إنه قانون الجاذبية يا حبيبتى، فأرستقراطيتك فى مقابل شعبيتى، جاذبيتك لأنثوية فى مقابل رجولتى، ذكاؤك وسرعة بديهتك فى مقابل أحلامى لطفولية، واقعبتك فى مقابل خيالى الخصب، كفرك بكل شىء يقابله يمانى الراسخ بكل شىء، أليس هذا تكاملاً يصعب إيجاد مثله بين البشر، تلك العلاقة الضدية بين الشك والإيمان، العقل والخيال، النضج لطفولة، أتصور أن الإنسان لا يمكن أن يعيش بدون هذه الأشياء فى - خله، ما رأيك؟

يمكن، لكن المسألة تحتاج إلى بعض التفكير، فأنا لا أشعر بالتناقض أو النقص الداخلى، إنما أحس باكتفاء ذاتى يملأنى فلا أفكر فيما تفكر فيه الآن، إنما حدثنى عن نفسك قليلاً، أحب سماع صوتك.

إذا أردت ملخصاً وافيّاً لشخصى فى كلمتين أقول لك: أنا رجل باع نفسه للخيال، فكل حياتى الماضى منها والحاضر وحتى المستقبل أراه بعين الخيال، تماماً كما أراك وأسمعك الآن بقدرة خيالى، لقد أسميتك امرأة المستحيل، وأسميتك امرأة ليس كمثالها امرأة، ووضعت فيك من خيالى أجمل ما فى نساء الأرض، أنت تركيبة خاصة أنا متخليها وصانعها هل تعرفين أسطورة بجماليون الذى صنع تمثالاً نموذجياً لامرأة هى عصاره ما تخيله وصب فيه عبقريته ثم وقع فى حب تمثاله، أنا تقريـب مثله، ولكن بتصرف.

وهل تتصور أن لهذه المرأة وجوداً فى الواقع؟

لقد أوجدتها بقوة خيالى فيك أنت دون نساء العالمين.

سأسمى هذا: هذيان جميل.

سميه كما شئت، فلو كنت بمستوى جنونى لفعلت مثلى وحلمت بى حتى قبل أن تولدى، ثم لبحثت عنى حتى وجدتنى. هل تعرفين لقد تخيلتك فى الكتب وتخيلتك تخرجين من أحدها، وتخيلتك تنادين على أن ابحت فى مدن الخيال أولاً، فخضت رحلة عجائبية بدأت من حجرتى، ومرت على مدن خرافية حتى ذهبت إلى مدينة الدبابين وبيت الأحزان، وصعد جبل الحكايات وقابلت عفريتاً من الجن حارس جبل الحكايات ولم يتر أمر قبل أن أقول له كلمة السر، هل تعرفين ما هى كلمة السر التى جعت أمر من جبل الحكايات، إنها اسمك، وفى رحلتى رأيت ما لم أراه، وما لم أسمع، ولا خطر على قلبى قط. كان زادى وزوادى فى رحلة العجيبة، دخلت سكة الندامة وخرجت من غير سوء، وعرجت عنى

الى يروح ما يرجعش وخرجت كالشعرة من العجين، حتى وصلت إلى بلاد
واق الواق ووقفت على جبال قاف، وندمت عليك بكل اللغات التي تعرفين
والتي لا تعرفين: أين أنت يا أنا، وهأنذا وجدتك تتجسدين أمامي دماً
ولحمًا، امرأة حقيقية أسمع صوتها الآن كأجمل ما تكون الأصوات، أتخيله
تياً من مدنى الخيالية، هل أقول إنه أرق من صوت نسمة، أو أجمل من
صوت مَلَك.

كلامك جميل ولن أستطيع قول مثله.

طبعاً لن تستطيعى قول مثله، لأنه ليس مجرد كلام، هو القلب حين
يفيض، وحين تضيق العبارة عما أعانى، وحين تعجز اللغة عن مواصلة
لحديث، وحين يصير الكلام مؤامرة أتورط فيها، فدعيني أقولك بالصمت
ما بين نفسى وبنى، وما بين أهداب عيني وعيني، حتى إذا ما تفرغرت
باسمك، من شفتى تولدين كما أحب أن تكونى، فأنت المنى والسلوى، وأنت
السلو وكل ما سلاك، والسلوان هو ماء كانوا يزعمون أن العاشق إذا شربه
سلا عن حبه، وأنا لا أريد شريك حتى لا أنسى، والسلوانة هى خرزة كانوا
يزعمون إنه إذا صب عليها ماء المطر وشربها العاشق سلا معشوقته،
والسلوة كل ما يسلى ويقال سقتنى سلوة أى طيبت نفسى، ها أنت ترين
سمك مقروناً بالعشق فلا فكاك منى.

* * *

جاء الصول مساعد تعليم الكتيبة ووضع أوراقه فى ملف وقال له: جهز
نفسك فسوف أدورك مكتب الآن، عرف أن اسمه الصول مسعد، مشى
خلفه إلى حيث مكتب قائد الكتيبة، كان يقع فى مواجهة مكتب شئون
الأفراد على عتبة عالية ومحاطاً بالزرع، وقف على باب المكتب بينما تقدم
لصول مسعد ففتح باباً سلكياً ثم آخر خشبياً وغاب داخل المكتب دقائق ثم
عاد وزعق: انتباه يا جندى، يميناً در، شمالاً در، للأمام قف، خطوة معتادة

سريعاً مارش. قاده إلى داخل المكتب وخبط الأرض بقدمه مؤدياً التحية العسكرية: تمام يا فندم، الجندى الهارب جمال. ابتسم بتهكم بينه وبين نفسه ها أنت تعرف أخيراً اسمك. كان يجلس خلف مكتبه بشعره الأسود الأكرت وملامحه الزنجية ووجهه الأسمر وقد تجاوز الأربعين بقليل وخنم أنه صعيدى. أخذ ينظر إلى الأوراق الموضوعه أمامه وقال له: إنت كنت فى مستشفى المجانين مجنون ولابتستهبل ياله. لم يرد وانشغل بعد مريعات السجاده الموضوعه على الأرض فأكمل: وناوى تتجنن علينا ولا ها تعقر عموماً إحنا هانعقلك. انصرف.

قاده الوصول مسعد إلى مكتب شئون الأفراد، قال له: اجلس هنا ريثه أحضرك وأجهز أوراقك فسوف تذهب لسجن اللواء حتى ميعاد جلسه المحكمه.

اصطحبه اثنان من أمن اللواء حيث ذهبوا به إلى مكتب ضابط آمر اللواء الذى سألته عدة أسئلة ثم أشار لأفراد الأمن فأخذوه إلى حيث المستقر، حجرة أسمنتيه متران فى مترين ومعرشه بالصاج يغلقها باب حديدى صغير بمزلاج ويقف على بابها جندى يحمل سلاحه فى يده. كان يكن بالحجرة سوى ثلاثة جنود، كانوا صفارا، وكان شعرهم مخلوقاً غير الزيرو، وكانوا يفترشون الأرض المبلطه بالأسمنت وقد وضع كل منب مشمعاً تحته. ودهمته رائحة عفونه كانت منبعثه من جردل كان موضعه بالقرب من الباب ومغطى بسعفه نخيل. جلس منزوياً فى أحد أركان الحجرة مبتعداً بقدر الإمكان عن مكان الرائحة النتنة، كانوا ينظرون بـ بصمت وتمعن وابتدره أحدهم قائلاً: شرفت يا دفعه، اسم الكريه. وتذكر أنهم كانوا ينادونه جمال من واقع ملفه. عاشت الأسامى، قاده ورمى إليه سيجاره ومشط كبريت فأشعلها وأخذ نفساً عميقاً ابتلعه ثم يسريه ببطء ولذة، وشعر بخدر يجتاح جسده فمد رجليه أمامه وأخذ يت-

بيصره عصفورة كانت تقف على انشباك الوحيد ذى القضبان الحديدية
الذى كان يرسل ضوءاً خافتاً من الخارج.

* * *

هل نامت عصفورتى؟

لا لم أنم بعد.. وحشنى صوتك، وأنت كمان وحشتى جداً، هل تعرفين
تنى حتى الآن لم أسمع منك كلمة أحبك!

ذلك لأننى لا أعرف حقيقة مشاعرى حتى الآن، أنا طبعاً أميل إليك
وأحب سماع صوتك ورؤيتك، لكنى لا أستطيع الجزم بأن هذا هو الحب،
ضُب أنت قرأت كثيراً وعرفت قبلى كثيراً، تقدر تقول لى ما هو الحب؟
كيف تريدان أن أفسر ما لا يفسر، ولكن يحس، أما عن نفسى فأنا أحبك
على فطرتى الأولى، وكما يأمرنى جسدى وذاكرتى وسلالتي أنا ابن بولاق
نذى اصطدم بجدار الحداثة فلم يعد يميز بين شكل النهر وشكل الكمأة
نسمراء، وبين لذعة العشق ولذعة الفودكا، وبين حرب البسوس وحرب
نيسكو، وبين حليب الناقة ورغوة الكابتشينو، وبين هدوء الريف وضجيج
نترو وإشارات المرور، أنا الذى تشتعل فى دمائى شمس بولاق الدكروور
نفقيرة المجهدة، وأختزن فى قلبى أجمل قصائد الحب العذرى، جميل
ثينة، قيس وليلى، عنتر وعبله، غزليات امرئ القيس وعروة بن الورد،
حبك كما أنت، وأرجو أن تحبينى كما أنا، بتاريخى المضرج بصوت الريابة
الباعاة الجائلين وأحزاني المرتفعة كجبال المقطم وقميصى المشغول
أصابع الفقراء، لا بأصابع بيير كاردان، ربما لا أكون رقيقاً جيداً، أو حبيباً
جيداً، وربما لا تكون ملابسى لائقة فى حى نايتس بريدج، وربما لا تحبين
حكاياتى، فهل أصبحت مع الزمن لندنية، تقرأين جريدة التايمز وتشربين
شاي الساعة الخامسة وتلعبين البريدج وتقفين على باب هارودز، أما أنا
فمنذ ولادتى أبحث عنك، فخذينى على بدائيتى، وعلى دروشتى، وعلى

سذاجتى، خذينى على مساحة عقلى، فكلما نقص عقل العاشق زادت تجلياته، خذينى على طبيعتى البولاقية، أرعد بلا سبب، وأمطر بلا سبب. أسكر بلا سبب، وأكتب لك رسائل حب بلا سبب، وأمزقها أيضاً بلا سبب حكيماً كما أنا، ومجنوناً كما أنا، وصارحاً وساخطاً وغاضباً وعاصفاً كما أنا، فابن بولاق الدكور لا يجيد التنكر ولا يعرف استعمال المساحيز والأقنعة.

لا تتنهدي أرجوك، فصوت تنهداتك يشعل حرائقى ويؤجج ناراً -
تتطفئ إلا بارتطام حضارتك بحضارتى.

هل ما زلت مغرورة؟

أنا مغرورة بكلامك عنى.

أيتها المتحضرة حتى الشمال، أجبك مبتلة بماء الدهشة وموسيقى الأسئلة، أيتها الشمالية التى تتحمص على شمس مدينتى العشوائية اخرجى من تحت ثلج لندن وادخلى بلا شروط أو مقدمات فيزيقية - حرائق دى، فأنا أحبك حتى آخر رجولتى، وآخر أنوثتك.

استيقظ مبكراً على صوت الباب يفتح، أخرجوهم إلى ساحة الض-
الذى استغرق نصف ساعة، ثم أخذوهم مع الحرس «طلبة» مطبخ و-
عليه تقشير أطنان من البصل، بينما انهمك آخرون فى تنقية الأ-
تقطيع الباذنجان الأسود، كان الجنود يثرثرون عن رفع درجة الاستعد-
اللواء، لأن اليوم هو الأول من أكتوبر، وأن العرض العسكرى الذى يقد-
الاحتفال بذكرى النصر قد بدأ العد التنازلى له من اليوم، فاللواء بعث
مدفعية مركزية فسوف يشارك فى العرض العسكرى بوحدات رمزية -
كتائب اللواء المختلفة، ولأول مرة شعر أنه يريد الحديث مع أحد ي-
معهم فى أحاديثهم، وعند منتصف النهار كانوا على وشك الانتهاء من -
يدهم حين دخل عليهم ضابط برتبة ملازم أول، وأخذ يتفقد م -

بعمله، حتى إذا ما وصل إليه أخذ يتأمله لحظات ثم سأله: انت جديد يا دفعة، أوماً له بالإيجاب فأردف قائلاً: ولكنك كبير على هذه المرمطة، اتبعنى. وكاد يهم بالخروج معه إلا أن الحرس أوقفه وحدث الضابط قائلاً: يا فندم دا مسجون وعهدتى. رمق الضابط الحرس وشخط فيه: اتركه لى قلت لك فأنا أريده. أخذ جندى الحرس يتذمر لكن الضابط نهره بحزم وأخذ من يده وخرج به، سار وراءه ولم يفكر فيما يريده الضابط منه حتى انتهيا إلى مكتب الضابط فدخل ودخل وراءه، أشار له بالجلوس فجلس، كان المكتب ضيقاً وبه سرير ودولاب فقط، لكنه كان نظيفاً، أخذ يخلع الأفرول ويعلقه على شماعة فى الدولاب ثم ارتدى بيجامة وطوح نفسه فوق السرير وتمدد وأغمض عينيه فحسبه راح فى النوم، لكنه اعتدل فجأة وجلس وقد وضع مخدة وراء ظهره وقال له: حكايتك إيه، شكك مش وش بهدلة، ثم إنك أكبر منى على ما يبدو. كانت فى صوته رنة حنان جعلت الدموع تترقرق فى عينيه، لكنه تماسك وحاول أن يبدو هادئاً: أنا يا فندم قصتى لا أعرفها، وقد خرجت بالأمس فقط من مستشفى الأمراض النفسية، وقيل لى إنى مكثت بها خمس سنوات أعالج من مرض نفسى وإنى شفيت فأخرجونى إلى هنا لأحاكم على تهمة هروب من التجنيد. قال نه: ما اسمك؟ جمال يا فندم. وأنا اسمى خالد، ملازم أول خالد، اعتبرنى نَحاً لك واحك لى.

المشكلة أننى لا أذكر شيئاً عن حياتى السابقة، حتى اسمى لم أكن أعرفه. هل تعرضت فى المستشفى لعلاج بالصدمات الكهربائية؟ أكيد أثرت على الذاكرة، ثم إن خمس سنوات علاج بالكهرباء ليست هينة، لكن 'طمئن فقد قرأت فى مجلة طبيبك الخاص أن هذا العلاج يزول أثره بمرور الوقت مع محاولتك أنت لعلاج نفسك بنفسك، حاول أن تتذكر أى شىء، سيبدو الموضوع صعباً فى بدايته، لكن بتكرار المحاولة سوف تتجح، صدقنى، قل لى، ألا تتذكر أى شىء حتى ولو كان تافهاً. أطرق برأسه إلى

الأرض قليلاً ثم اعتدل بوجهه قائلاً: نعم أتذكر بعض الأشياء، أحاديث بكاملها دارت بينى وبين امرأة لا أذكر اسمها أو ملامحها ولا أذكر أين دارت، لكنى أذكر كل كلمة قالتها وكل كلمة قلتها، أين ومتى حدث ذلك. لا أذكر.

سكت الضابط خالد برهة وسرح مع نفسه ثم قال فجأة: اسمع، أذ هاخذك العسكرى المراسلة بتاعى، وبذلك أجنبك الحجز والمرمطة وأبعدك عن أيديهم إلى أن تتم محاكمتك، على فكرة اطمئن، انت طالع براءة، يكفر تقرير المستشفى، فأنت كنت غير مسئول عن تصرفاتك، المسألة مسألة وقت ليس أكثر.

حديث الضابط خالد معه نزل برداً وسلاماً على قلبه، أحس تجاهه بالراحة، لم يكن بالطويل أو القصير، وكان ممتلئاً قليلاً بوسامة محببة إلى النفس. لكن أبرز ما لمح هو تواضعه الشديد وتدينه الأشد، كانت الكتب الدينية فوق السرير وتحتة وفى الدولاب، وكانت علامة الصلاة محفورة وسط جبينه كقطعة نقود معدنية سوداء. وقبل أن يتركه لينام قليلاً قال له: على أنك لن تستطيع النوم هنا لأنه كما ترى لا يوجد سوى سرير واحد، فالיום سوف ترجع فى الليل إلى زنزانتك ومن الصباح تدبر بعز الله.

فى الصباح جاءه الملازم خالد إلى زنزانته فأخرجه ودخل به حجراً ضابط الأمن، قال إنه قريبه وإنه سوف يتسلمه على مسؤوليته الخاصة. دفع به للخارج وقال ضاحكاً: انت من الآن عهدتى، عاوزك تطول رقبتى ثم أكمل: من الآن سوف تنام فى ميس الضباط وأنا دبرت لك الأمتى تجلس طوال النهار فى حجرتى وفى الليل تنام فى الميس بجوار الحجرة ألم يحدد موعد المحاكمة بعد؟ هزر رأسه نفيماً وقال: يبدو أن موزى المحاكمة فى يد الصول مسعد مساعد التعليم، فهو وحده فى إمكانه إنج-

الإجراءات والتعجيل بالمحاكمة. قال الملازم خالد: اترك لى هذا الأمر ولا تهتم. سوف يتساءل جمال بينه وبين نفسه: ما الذى يجعل هذا الضابط يهتم به كل هذا الاهتمام؟ ولن يجد إجابة واضحة عن هذا السؤال سوى إنه تعاطف معه وأراد مساعدته.

فى المساء أخذ الضابط خالد يحدثه عن نفسه، كيف نشأ فى مدينة ملوى بالصعيد، وكيف قضى طفولته كلها وجزءاً من صباه هناك وأن حلم حياته لم يتحقق وهو أن يصبح طياراً، إلا أنه التحق بالجيش ودخل مدرسة المدفعية وبعد التخرج التحق بأحد لواءات المدفعية المتمركزة فى منطقة الهايكستب، حدثه عن أخيه الذى قبض عليه فى حملة سبتمبر لانتمائه إلى إحدى الجماعات الدينية، وأن الرجل لم يترك أحداً فى البلد إلا 'عقله، مصر كلها فى السجون الآن. قال خالد إنه زهق من حياته ومن 'لدى لإحساسه أن الظلم قد عم وأن البلد أصبحت مثل القطة تأكل أولادها. وقال له: لا أعرف لماذا أبوح لك بتلك الأفكار؟ ربما لأنك صامت وتنتصت جيداً وأنا أحتاج لأن أتكلم حتى لا أنفجر، وأحتاج أكثر لمن ينصت لى، وربما لأنك فقدت الذاكرة وهذه نعمة تمنيتها أنا أيضاً. قال جمال: تعرف، فى بعض الأحيان أتأمل ما أنا فيه وأقول إننى فقدت الذاكرة ربما لأنى أردت أن أفقدها بإرادتى وليس بتأثير الصدمات الكهربائية أو معايشرة المرضى، قد تكون محاولة هروب من ماض لا أريد تذكره بالمرّة، وقد تكون محاولة للولادة من جديد، ولادة حاضرة ليس فيها شىء من آثار الماضى، ولكن حتى الحاضر لا أستطيع استيعابه والتعامل معه، فلم أعد أفهم شيئاً مما يحدث حولى. لقد أصبحت فيلسوفاً يا صديقى - قال خالد وأضاف، أنا عكسك تماماً، فأنا أفهم أكثر مما ينبغى وأعرف ما ينبغى علىّ فعله وهذا هو ما يجعلنى أشعر بالاكئاب، ربما كان علىّ أن أعيش؛ مثل بقية خلق الله، أكل وأشرب وأنام وأتفرج على التليفزيون ولا أفكر فى شىء على الإطلاق، لكنى لا أستطيع وهذا قدرى. ضحك

جمال وضرب جبهته براحة يده، فنظر إليه خالد متسائلاً فقال جمال
أصلى افتكرت حلماً دائماً يتكرر وهو أنني أرى نفسى محمولاً على الأعند
وحولى شبان كثيرون فى مثل سننى تقريباً وجميعنا نهتف فى غضب، و
الجنود ينزلون على رعوسنا بالعصى وكعوب البنادق، وأجد نفسى أهر
وأختفى، ربما يحدث هذا فى ساحة ميدان عام أو فناء جامعة، هل يمد
أن يكون قد حدث بالفعل، جزء من الماضى الضائع، أم أنه مجرد أضغ
أحلام؟

قال خالد: ربما كنت تتمنى أن تصبح زعيماً، ثم ضحك قائلاً: دع
أنا الآن فأمامى غداً يوم شقاء.

* * *

هاى.

هاى. إزيك

إزيك انت، وحشتى.

بجد أنا وحشتك؟

آه صدقتى، وحشنى صوتك، ولم أنم قبل سماع صوتك، وها أنت تر
أكلمك فى الثالثة صباحاً.

يعنى بدأت تدخلى محرقتى.

شوية، كيف قضيت يومك؟

بالأمس بعد أن تركتك نمت فحلمت بك، كان حلماً جميلاً.

بجد، طب ياللا احك لى بالتفصيل ماذا حلمت.

حلمت أننا .. يعنى أنا وانتى مع بعضنا يعنى..

أجمل ما فيك أنك ما زلت تخجل، تقصد تقول إنك كنت تمارس
رجولتك معي.

آه، يعنى.

وماذا فعلت معي بالضبط؟

كنت رائعة، ولم أشبع منك طوال الليل.

آه.. طبعاً أنا رائعة دوماً.

أيتها المغرورة الصغيرة.

ها وبعدين.

ثم صحوت من الحلم فجلست أكتب رسالة إليك من عشر صفحات
تحبى تسمعى بعضها؟

آه.

حبيبتي.

لا عاصم لك بعد اليوم منى، من أشواقى، ورسائلى، ونوباتى الجنوبية،
سألقي القبض على ملامح وجهك حيث تكونين، وأندس تحت ملابسك
حين تنامين، وسأصل إلى شفتيك قبل وصول العصافير إليهما، وسأضع
رسائلى فى سلة نهديك قبل وصول ساعى البريد، لن يقف شىء أمام
ظموحات عشقى شوقى إليك، سأمطر عليك من كل الجهات، من الشرق،
من الغرب، من الشمال، من الجنوب، حتى تصيرى أنت أنا، وأنا أنت،
تتنفسينى، قُضى الأمر وأصبحت رهينتى، سجينه أحلامى وهلوساتى
وتوهماتى، لن تفلتى أبداً من بين أصابعى، ففى كل لحظة، أنا قادر على
ستحضارك بمجرد ذكر اسمك بين شفتى، وفى كل لحظة أنا قادر على
تدويحك بإيقاع أنفاسى، فإن شئت جعلتك عصفورة تتخبط فى شرايين

دمائى، وإن شئت جعلتك حمامة تحط على أهدابى، وإن شئت جعلت
جسدك يتوحد بى، يتقمص خيالاتى وأحلامى الجامحة، سوف أتحرش بـ
على مدار ساعات اليوم بخيالى الذى لا يهدأ ولا ينام، حتى يصير ليلى
نهاراً، ونهارك ليلاً، وأجعلك تنامين بين دمي وضلوعي، فكما قلت لك مر
قبل لن تهربى منى إلا إلىّ، فأنا رجل مقدر عليك منذ الأزل، فإنه مكتوب
إن كل قلب محفور فيه اسم محبه، وكل جسد نقش فوقه اسم موحده، مر
أقول إننى منذ الآن فصاعداً سوف أسجل همساتك إذ تهمسين
وهمهماتك بين نفسك ونفسك، وهففاتك، زففاتك، حمحاتك، صهي
قلبك، دقاته، خفقانه، تتماتك، هزات جسدك للذة اللمسة الأولى ورعشة
شفتيك للقبلة الأولى، وتلاطم أمواجى بأمواجك، سوف أسجل كل ذن
ليس بمقياس ريختر، إنما بمقياس قلبى أنا.

* * *

ما إن انتهى طابور الصباح حتى تنفس الملازم أول خالد نفساً عميقاً
وعلى الفور ذهب إلى حجرته فوجد جمال قد أعد له إفطاراً مكوناً من
فول ومربى وقطعة جبن، وكان الماء يغلى على السخان فصب له شاي
ساختناً، أحس خالد بعدم الرغبة فى الإفطار فاكتفى بتناول الشاي، فيه
منذ أن قام من نومه وهو يشعر بانقباض مفاجئ لا يعرف مصدره، هل مر
حالة الزهق والسخط التى تعتريه هذه الأيام، أم أنها من جراء القبح
على أخيه مؤخراً وتركه أسرته وحيدة وقد عمها الحزن على ابنها الذى
لا يعرفون عنه شيئاً، فلم يسمحوا لهم بزيارته أو الاطمئنان عليه، يجب
حتى لا يعرفون لماذا تم القبض عليه، إنهم فقط يعرفون أن السلطات
ألقت القبض على كل المتدينين فى بلدتهم ملوى، وأنهم تم ترحيلهم من
القاهرة، لكن أين فى القاهرة؟ لا أحد يدري. وقرر خالد أنه سوف يضل
من قائد كتيبته الرائد مكرم عبد العال بضعة أيام من أجازته السنوية

وذلك قبل أجازة عيد الأضحى الذى يحل بعد يومين من ميعاد العرض
لعسكرى حتى يتفرغ للبحث عن أخيه ويتفرغ أيضاً لرعاية أبيه وأمه
لمسنين، وكان على وشك الذهاب لمكتب القائد حين أرسل هو لاستدعائه،
وفوجئ خالد بالرائد مكرم عبد العال يقول له إنه وقع عليه الاختيار
للاشتراك فى العرض العسكرى، وإنه سوف يقود وحدة من اثنى عشر
مدفعاً تقودها جراراتها فى طابور العرض.

طلب خالد من الرائد مكرم إعفاءه من هذه المهمة، ورجاه أن يوافق على
أجازة لعدة أيام يقضيها مع أسرته. لكن الرائد مكرم رفض إعفاءه من
مهمته وقال له: سوف أعوضها لك بعد احتفال السادس من أكتوبر ومع
أجازة عيد الأضحى. ولم يكن أمام خالد سوى أن يقبل، وهز كتفيه قائلاً:
نتكن مشيئة الله. وفى جزء من الثانية ومضت فى ذهنه فجأة فكرة
لاعتيال. فها هو ذا يرفض الاشتراك فى العرض العسكرى، ولكن تأبى
لأقدار إلا أن يشارك هو، وأن يتاح له هو وحده الفرصة لتنفيذ هذه المهمة
لمقدسة، تخلص البلد من هذا الحاكم المستبد الذى حول البلد إلى سجن
كبير، هكذا شاءت إرادة الله، فليكن ما يكون، إنها الفرصة الأخيرة وعليه
لا يضيعها.

قضى خالد يومه فى ثرثرة مع جمال الذى طلب منه أن يحدثه عن
الناس والبلد، أسعار الطعام، الملابس، فإن خمس سنوات داخل المستشفى
جعلته لا يعرف أى شىء عن أى شىء. قال خالد: أما عن أحوال البلد فلا
يوجد أسوأ مما هى فيه الآن، فأنت تعرف أن قوانين الانفتاح على كل شىء
جعلت البلد مفتوحة بالفعل ففى سوق الانفتاح أصبحنا نسمع عن المهلباتى
والفهلوى والشاطر الذى يلعب بالبيضة والحجر، وسمعنا ورأينا الزلمكة
والشبح حتى إن مؤخرة إحدى الراقصات الشهيرات أطلقت على نوع معين
من العربات وصل ثمنها إلى ثلاثة أرباع المليون جنيه، رأينا من بدأ حياته

شياً في الميناء يصبح بعد خمس سنوات مليارديراً، وآخر يستورد أغذية فاسدة يأكلها الشعب المصرى فيصبح مالتى ملياردير، ازداد الأغنياء غنى وازداد الفقراء فقراً أيضاً، نسى تعاليم الدين الإسلامى حتى إنه نادى بفصل الدين عن الدولة، ارتفع رغيف الخبز لمئات الأضعاف، أصبح نستورد كل شئ ونستهلك كل شئ، ومما زاد الطين بلة قيامه بالصحة المنفرد مع أعدائنا وهكذا عاشت مصر فى عزلتها الكاملة، صدقنى - جمال هذا الرجل فاسد ولا بد من وضع حد لكل هذا الفساد، وربك يمينى ولا يهمل. قال جمال: يا فندم دع الملك للمالك، هل نحن من يصلح الكور؟ نظر إليه خالد نظرة صامته، ولا بد أنه سرح فى أمر ما فقد خرج من حجرته دون أن يتكلم، ورغم برد أكتوبر، إلا أنه أحس بالاحتياج للسير وحده، كانت الكتيبة نائمة الآن والصبمت أتم، ولم يكن هناك سوى بعض أفراد الخدمة، كانت كل الأفكار تلتقى لتتجمع فى فكرة واحدة، هذه هى فرصتك، سوف يكون الكل هناك، وبقليل من التوفيق سوف تكون الضربة ناجحة، هو على يقين من أنه ميت ميت، سواء فى العرض العسكرى - أيدى أفراد الحراسة، أو بعد تنفيذ الأمر. لن يحاول الهروب، سيجعلهم - لم يقتلوه برصاصاتهم يمسون النتيجة معروفة سلفاً، محاكمة عسكرية الإعدام رمياً بالرصاص، سيان. هل يخبر أمه وأباه قبل التنفيذ؟ - سيفهمون ما هو مقدم عليه؟ أم يجعلهم يقرأون اسمه كما سوف يقرأ الجميع فى الجرائد ونشرات الأخبار، الأفضل ألا يبوح بسرهم لأحد. - هذا الحد كر عائداً إلى حجرته فوجد جمال قد ذهب إلى حيث يرقد - ميس الضباط فتمدد على السرير وراح فى النوم.

* * *

كانت جالسة فى فراندة الفيلا يلفها الظلام والصمت، لمحتة يدخر - باب الفيلا فأشارت له، تقدم نحوها وجلس بجانبها، كان الجو خ - فارتدت بلوزة على اللحم وسليب فقط، وأمامها على الترابيزة، وعند

زجاجة ويسكى سكوتش ووعاء ثلج وكأساً، قامت أحضرت كأساً أخرى
صبت له، وأدارت جهاز مسجل فسرت موسيقى ناعمة، دخل هو أيضاً
فخلع ملابسه واكتفى بفانلة وشورت، أشعل سيجارة وارتشف من كأسه
بطء وتلذذ. قالت: تحب ترقص. وضع الكأس جانباً وبدأ يرقصان.
وضعت رأسها على كتفه فأحس أنفاسها الساخنة تلهب وجهه، وفج
حسدها برائحة ياسمين منعشة وطازجة، وأخذت أصابعها تعبت بريقته
:ظهره وتضغط على مؤخرته، همست: أشعر بالدوار فقد شربت كثيراً،
تركته وارتمت على أحد الكراسي ورفعت ساقيها إلى مسند الكرسي
.شارت له: تعالي هنا جنبي، تعرف، أنا عشت كثيراً في أوروبا، ودائماً
سأل نفسي سؤالاً لا أجد الإجابة عنه، وهو أن الناس في أوروبا يعيشون
في جو من الحرية المخيفة، بينما نحن مكبلون بأغلال كثيرة كالدين
.لأخلاق والعادات والتقاليد والأعراف وأشياء كثيرة لا توجد إلا في عالمنا
عربي، وهم يتقدمون، بينما نحن نعود إلى الوراء، فهل العيب فينا وفيما
عنده؟ قل لي. أخذت تنظر إليه بعينين نصف مغمضتين، وبدت له بلعثة
سانها سكرانة ولذيذة، وارتشف من كأسه قبل أن يرد عليها: أنا لم أذهب
:إوروبا مثلك، ولكن يبدو لي أن الناس هناك حلت مشاكلها بنفسها. وقد
هو لك الحرية التي يتمتعون بها مخيفة على اعتبار أنها حرية مطلقة.
بما هي عكس ذلك حرية مقننة، فهؤلاء الناس صنعوا تقاليدهم بأيديهم،
نحن فقد ورثنا تركة مثقلة بالتقاليد فظلنا أسرى الماضي، وهذا هو
عزق بيننا وبينهم، ليس للدين دخل في الموضوع، بل على العكس فهم
خاهيم ديننا يعتبرون أكثر تديناً، فالمساواة والعدل والحرية والحث على
عمل والتقدم هي جوهر جميع الأديان، هم يفعلون ذلك بينما نحن نكتفى
.طقوس. قالت: هل تظن أن الحروب التي خاضها العرب ضد الاستعمار
.ل التاريخ وضد إسرائيل لها دخل في هذا التخلف؟ ضحك بصوت
.ل. وانتابته كريمة من الضحك فشرق، ودمعت عيناه، وانتبهت هي له،

صب لنفسه كأساً أخرى قذفها فى فمه دفعة واحدة: أية حروب تقصدير بل قولى الهزائم المتوالية التى خاضها العرب، أقول لك على شىء قد تدهشين له: فكثيراً ما فكرت أن العرب لم ينتهوا أبداً أنهم مهزومون عبر طول الخط، فقد تحولت تلك الهزائم بقدرة قادر إلى انتصارات ورقية هزمتنا فى الواقع وانتصرنا على الورق. بدت له العبارة الأخيرة جيدة فأحد يرددها، وبحركة تمثيلية وقف أمامها وانحنى واضعاً يده فوق صدره: أقدم إليك سيدتى أحد أسلافك المهزومين، أقدم إليك أحمد عرابى، مصطنع كامل، سعد زغلول، جمال عبد الناصر، هل تريدين فرعونيات، خذ عندك: حور محب، أحمس، تحتمس، رمسيس الثانى، خوفو، خفر منقرع، ودلوكة أعظم ملكة فى التاريخ. وانهار فجأة فوق على ركبتيه. يد سكراناً يحدث نفسه: هذا هو تاريخى الذى أحمله فوق ظهري أينما وُيت تاريخ أعظم الحضارات، وأعظم الهزائم أيضاً.

* * *

فى الصباح الباكر توجه خالد مع أفراد وحدته فى تجربة لضـ العرض العسكرى الذى سوف يقام بعد يومين، ومر ببطابور المدفع وجراراتها أمام المنصة الرئيسية فى ساحة العرض، إنها خالية الآن. لن تكون خالية بعد يومين اثنين فقط، فى الصف الأول سوف يجلس فى المنتصف تماماً، على يمينه ويساره كل أركان النظام، لن يمس منهم، هو فقط سوف يركز عليه، وسوف يكون هدفه الأوحد، لن يغيره، عليه الآن دراسة كل شىء: ساحة العرض، مكانه الذى سوف يج فيه، خط سير العرض العسكرى، المسافة بينه وبين المنصة الرئيسة خطة الهجوم، كيف وأين تبدأ، مراحل تنفيذها. وفكر إنه لكى الخطة فلايد من وجود اثنين أو ثلاثة معه يساعده. كانت النقطة هى المشكلة الوحيدة، فمن أين يحصل على ثلاثة أفراد محل ثقة ويقتنعون بما ينوى فعله؟ فأقل خطأ سوف يكلفه حية

فائدة، ثم هناك نقطة ثانية وهى أن من يختارهم لا بد أن يكونوا جنوداً معه حتى يستطيع إشراكهم فى طابور العرض دون أن يعرض نفسه لأية مفاجآت.

فى المساء، توجه إلى بولاق الدكرور حيث يقيم صديقه محمد عبد السلام، ولأنه محل ثقته، فقد عرض عليه الخطة كلها، ووافق محمد عبد السلام على خطته دون تعديل، ووعده بإيجاد الأفراد الذين يساعدونه؛ يشتركون معه فى تنفيذ الخطة، كما وعده أيضاً بتجهيز الأسلحة؛ الذخيرة اللازمة.

* * *

آلو. لسه صاحى.

أيوه.. إزيك

إزيك انت، شوف، أنا أتصل الآن لأقول لك إنى مسافرة الآن.

مسافرة الآن؟ إلى أين؟

إلى لندن، إنى أحزم حقائبى الآن، وسوف يمر السائق فى الخامسة؛ تغادر الطائرة فى السابعة. أردت فقط أن أودعك.

تودعيننى، هكذا سريعاً.

آه، حبيت أسمع صوتك ربما للمرة الأخيرة، وأشكرك على رقتك وعلى ساعات الجميلة التى قضيتها معك.

آه..

اسمع، ربما لا يوجد لدى وقت الآن، ولكنى سوف أحاول الاتصال بك أو مراسلتك، ياللا، مع السلامة.

* * *

«كانت الساعة تعلن الثامنة تماماً حين دق جرس الباب، بعد لحظات. فتحت له ودعته للدخول، كانت ترتدى روباً حريراً أحمر، أحببته على جسدها فلف قوامها وأظهر رشاقتها. ودهمته رائحة ياسمين مسكرة خطت برشاقة أمامه تقوده إلى الأنتريه فرأى رديها يرقصان طرباً. جلس وجلس أمامه واضعة ساقاً فوق أخرى فانفلتت من طرف الروب بيض- ناصعة، ممتلئة وملفوفة. قالت: تشرب إيه. أقلت طرف الروب فجأة: فاندلق صدرها منتصباً أمامه، حببته مرة أخرى وهبت واقفة، اقتربت منى ونظرت إلى بنطلونه، كان منتفخاً ومقبباً فانفجرت شفتاها القرمزية عن ابتسامة إغواء. قالت: تعالى شوف مصنعنا الصغير، سحبت منى إلى الداخل، كانت أصابعها طرية ودافئة استكانت فى كفه الكبيرة. وبحركة بدت عفوية لمست عضوه فأحسته صلباً قوياً، سمع شهقة مكتومة صدرت منها، أرتة حجرة صنع البلوفرات، ثم أخذته من يده فاندلى وراءها مستسلماً، اتجهت به إلى حجرة نومها، أوقفته على حافة السرير والتصقت به وهمست: أنا النهاردة ها فترسك. كان هو مستسلماً - ومنوماً، ووقفت أمامه عارية وعلا صوتها فى استنارة كاملة، وأخذ تخمش ظهره بأظافرها فاندفع إليها بكل رجولته».

* * *

«قالت إن أبرز ما يميزه هو طوله الفارع ووجهه الأسمر الوسيه . عينية السوداوين بنظراتهما الحزينة هما ما جعلها تتعلق به، وقتت وصفته لأختها فأحبته هى أيضاً على السماع لأنه يشبه ممثلاً هندياً - هو صامتاً طوال الوقت مشوش الذهن، ضربت له موعداً آخر فى حى الأورمان، ولدهشته وجد معها أختها كى تراه عن قرب، جلستا أمامه - تحديقان فيه طوال الوقت، تحدثت أختها عن ذلك الممثل الهندي - تحبه حب عبادة، وقارنت بينهما، قالت: أنت النسخة المصرية، لكن تـ

نت أكثر طولاً ووسامة منه، شعر بفرحتهما من تلك اللحظة. وهما تغازلانه».

«وفجأته بأنها تزوجت من ثرى عربى، سافر وتركها، تزوجت فى شقة مفروشة فى وسط البلد، اصطحبته إلى الشقة، وهناك صارحته بأنها فعلت ذلك من أجله، أعطته كل ما تريد إعطاءه امرأة محبة لرجل، كانا يتقابلان يومياً فى الشقة، وكانت هى مثل إسفنجة تريد امتصاصه لآخر قطرة».

* * *

فى اليوم التالى كان على خالد التوجه إلى حى بولاق الذكور لمقابلة محمد عبد السلام فرج الذى كان مقيماً فى بيت أحد الأصدقاء، كان محمد عبد السلام فرج عضواً نشطاً فى تنظيم الجهاد، بل كان أحد قطابه المرموقين، وقد تعرف على خالد بالصدفة البحتة حين كان خالد يبحث عن شقة ليكمل نصف دينه، كان يبحث أولاً فى مصر الجديدة حتى يكون بالقرب من أخته التى تقيم بها، ونظراً لقدرته المحدودة، فقد توجه إلى البحث عن شقة فى أحد الأحياء الشعبية، وهكذا اتخذ من بولاق مذکور منطقة بحث، وأحس خالد أثناء تجواله بالتعب، وحان موعد صلاة فدخل إلى أحد المساجد ليصلى ويستريح. وهناك وجد محمد عبد السلام يجلس مع بعض الشباب يناقش معهم أفكاره، جلس يستمع إليه فإذا به يحس ويتحمس لهذه الأفكار، اقترب منه ودارت بينهما مناقشة غزيلة حول الدين انتهت بعرض عبد السلام فى معاونة خالد فى البحث عن شقة، كانت فكرة البحث عن شقة وسيلة تعززت بها صداقة الاثنين.

دخل خالد على محمد عبد السلام فوجد عنده شابين ينتظرانه مع صاحب الشقة الذى كان ضابطاً سابقاً فى الجيش أيضاً.

كان أحد الشابين اللذين جاء بهما محمد عبد السلام يدعى عطا طایل ضابط احتياط تخرج فى كلية الهندسة ثم ترك الخدمة ليعمل فى مجال

تخصصه، أما الثانى وهو عباس محمد فكان يعمل جاوئشا بالقوات المسلحة مختصاً بالتدريب على الأسلحة النارية فى مدرسة الدفاع المدنى. وكان قد حصل على بطوئة الجيش للرماية لسبع سنوات كاملة.

شعر خالد بالدهشة لتمكن محمد عبد السلام بمثل هذه السرعة من الحصول على مثل هذين الشابين بمثل هذه الكفاءة العالية.

وعلى الفور بدأ محمد عبد السلام الكلام قائلاً: أنتم مقبلون على مهمة استشهاد، فهل أنتم مستعدون؟ رد الجميع بالإيجاب.

وبدأ خالد يشرح خطته للباقيين قائلاً إنه سوف، يقود طابوراً مكوناً من اثنى عشر مدفعاً عيار ١٢١ مم، وذلك فى العرض العسكرى السنوى فى السادس من أكتوبر أى بعد يومين من الآن وستكون مدافعه مشدودة بجراراتها التى تعتليها أطقم المدافع، وتبدأ الخطة ببساطة بأن يسير للمشاركين معه دخول منطقة التجمع باعتبارهم جنوداً ملحقين بوحدته وسوف يزودهم بخطابات مزورة تسهل لهم هذا الأمر، وسوف يسهل لهم ركوب نفس العربة التى يركبها والتى سوف تكون فى مقدمة الطابور، فإذا اقتربوا من منصة العرض الرئيسية، عليهم أن يتحركوا بأقصى سرعة لإطلاق النار على السادات، وأضاف خالد أن المسافة بين طابور العربة والمنصة حوالى ثلاثين متراً؛ لذا فإنهم يستطيعون إطلاق الرصاص من العربة نفسها بينما يتقدم بعضهم فى غمرة المفاجأة نحو المنصة لإكمال تنفيذ المهمة على أكمل وجه. عند هذا الحد أقسم الجميع على الولاء وحث السر.

رجع خالد إلى كتيبته ساهماً حتى إنه لم يلحظ جمال الجالسين على باب حجرته التى ما إن دخلها حتى أخذ فى خلع بدلته العسكرية وتسلل على السرير وأغمض عينيه، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل، وكان الجميع ينامون الآن، ودخل عليه جمال وقال: تأمر بـ

بـ فندم؟ فتح عينيه ونظر إليه: أنت لسه صاحى، شكراً، روح انت نام. كنت الخطة كلها فى ذهنه الآن، وأخذ يستعرضها نقطة نقطة بدقة حتى: يترك شيئاً للظروف، فلا مكان الآن للمغامرة، فأرواح ناس معلقة بيديه، بتصير بلد بحاله سوف يحدده هو، واكتشف ثغرة فقفز من سريره معتدلاً. لم يفكر هو ولا أصدقاؤه فى سائق الجرار الذى يجر المدفع، وسوف يركب معه أفراد طاقم الاغتيال. وربما كان سائق الجرار هو أحد لعناصر الحاسمة فى إنجاح العملية كلها، بل إنه الأهم، فلا بد من ولائه تام وإلا فشلت. وبما إنه ليس ضمن طاقم الاغتيال، فربما عصى أوامره وتطلق بالجرار لحظة تجاوزه للمنصة الرئاسية، وبذا تفشل خطة الهجوم. فكر خالد فى استبدال السائق بآخر يعرفونه، ولكن من؟ وطرأت فى ذهنه نجأة فكرة أن يشرك جمال، ثم استبعدها على الفور، فجمال لا يصلح من وجوه كثيرة، فهو جندى هارب وينتظر المحاكمة، ومن المفترض أن يكون محبوساً، فلو أشركه فسوف يلقي الشكوك حول وجوده ضمن المجموعة، وقد يعرضها لخطر الانكشاف. فكر فى حل ثان، أن يعطى السائق بعض حبوب المنومة يومها، ثم يدعى بأنه مريض ويتم استبداله بآخر. واستبعد هذا الاحتمال أيضاً. كان الوقت يمر سريعاً، وكان عليه اتخاذ قرار بشأن سائق فما يتبقى من الوقت أقل من ثمانى وأربعين ساعة على بدء تنفيذ عملية، وأخيراً استقر رأيه على ترك السائق وشأنه، وباعتباره قائد مجموعة، فسوف يجلس بجانب السائق، وسوف يتولى تهديده وتخوينه لحظة التنفيذ. كان قد أوصى محمد عبد السلام بإحضار بعض الأسلحة لندخائر فجاءه بها، إحدى وثمانين طلقة بينها أربعة تحمل علامات حضراء تشير إلى أنها من النوع الخارق الحارق، عدا بعض القنابل يدوية.

* * *

القاهرة فى الثلاثين من شهر يولية.

حبيبتى.

لا تظنى أننى سوف أجعلك تتعمين بالهروب منى، فسوف أطاردك حتى أقاصى العالم، مضى أسبوع منذ أن فارقتنى، وأشعر أن روحى طردت معك، منذ ثلاثة أيام، احتفلت بعيد ميلادى، ورغم وجودى وسط أهلى. أننى كنت أنا وأنت فقط نحتفل به، فقد ولدنا فى نفس اليوم معاً، وكانت الساعة والدقيقة واحدة، وظللت أبحث عنك طوال عمري حتى وجدتك، فهل أضيعك؟ أتذكر كل أحاديثك التليفونية الليلية، وصوت الملائكى يرن فى أذنى فينزل برداً وسلاماً على قلبى المحب، أنا لا أنسى منك أولاً وأخيراً أن تحبينى بمقدار حبى لك، ولو أنى أتصور أن حبرى نزل على جبل لخر له ساجداً من شدته، فما باله بك أنت المرأة الأرزق نسمة، وأجمل من ملك، فلن تكونى امرأة أبداً ما لم تنصهرى فى عشقى، تسأليننى مراراً وتكراراً ماذا تعنى تلك الأحاسيس، هل هى ندم وما هو الحب؟ وقلت لك إنه الحب بلا شك، سمّه كما شئت، سمه حتى ولهاً، أو أى شىء، لكن اعلمى أن كل طرقى تؤدى إليه، وقلت لى أحببت من قبل لذا فلا تعرفين ما هو الحب الحقيقى. وقلت لى بخبرتى وقراءتى بت على يقين من أنه الحب. وقلت لى حدثنى إذ قرأت، وهأنذا ألبى وأحدثك حديث الأمم الغابرة عن العشق والمحبين ثم أبين لك علاماته علك تسلكين مسالكه وتصبحين من ففى الحديث: إن من عشق فظفر فعض مات شهيداً. واعلمى أيتها أن أول العشق الاستحسان، ثم المودة والخلة، والهوى، ثم العشق. ثم الغرام، والتتيم أن يصير المعشوق مالكاً للعاشق، لا يوجد فى قلبه ثم يزيد التتيم فيصير ولهاً، ومن أسمائه الشغف، المودة، الوجد. الجوى، والدفن والصبوة والصبابة والشجو والخلافة والتباريح

والشجن واللاعج والوصب والحرق والسهد واللهف والحنين والتحرف
والأنين والاستكانة واللوعة والفتون والشجون والمس والجنون واللمم
والخيل واللب المسلوب من أسمائه أيضاً.

حبيبتي، اتهمتي بالهذيان، تقولين لى: جنت بمن تهوى.

فأقول: العشق أعظم مما بالمجانين

العِشْقُ لَيْسَ يُفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ وَإِنَّمَا يَصْرَعُ المَجْنُونُ فِي الحَيْنِ
وأزيدك فأقول حتى يحن إلى فؤادك:

وَأَسْتُ أَبَالِي حِينَ أَلْقَاكَ خَالِيَا رَأَيْتُكَ عَيْنًا أَمْ تَرَكَ مَنِّي
لأنك في الحالين عندي بمنزل تُمَازِجُ رُوحَيْنَا وَسَاوِسُ فِكْرَتِي
فَأَنْتِ أَنَا، لَا بَلَّ أَنَا أَنْتِ مَا هِيَ عَلَيَّ النِّصْفِ مِنْ شَطْرِكَ أَلْحَنُ بِحُجَّتِي
فَأَخِذْ نِصْفَ النِّصْفِ مِنْكَ بِحُجَّتِي وَأَتْرُكُ نِصْفَ النِّصْفِ مِنْكَ لِلذَّئِي
فهلا ثبت فؤادك على عشقى، وهلا تيقنت من قوة إرادتى فى غرامى بك.
وهلا أصبحت على يقين من عدم اكتمال عشقى وعشقتك إلا بقولك:
يا أنا. قولها إذن، فسوف يسمعها قلبى عبر آلاف الأميال التى تفصل
بيننا. فى انتظار ردك.

المخلص

* * *

أخذ خالد فى ترتيب أموره بعناية شديدة، كانت أدق التفاصيل حاضرة
فى ذهنه، تخلص من أحد الجنود النظاميين فى وحدته ممن سوف
يستقلون جرار المدفع، وبالصدفة البحتة فإن جندياً آخر وقع فريسة
المرض فجأة مما تحتم إعطاؤه إجازة، ثم أرسل ثالثاً فى مأمورية خارج

القاهرة تتطلب تغيبه عدة أيام، وهكذا أخلى مكاناً لزملائه، وقيل لبقية أعضاء وحدة المدفع إن ثلاثة جنود سوف يضافون من الخارج إلى قوتها. وسرت شائعة غامضة بأن هؤلاء الثلاثة قادمون من فرع المخابرات العسكرية لكي يتولوا مسئولية الإجراءات الأمنية أثناء العرض؛ نظراً للموقف المتوتر السائد عموماً في البلاد بسبب التطورات الأخيرة، وفي المساء، التقى بزملائه وأخبرهم بالترتيبات التي حدثت وأن المسرح قد هيزأ لهم، كانت الليلة الأخيرة قبل بدء العرض، وكان عليهم الدخول من الآن إلى منطقة العرض والمبيت بها، فقد كانت التعليمات مشددة بعدم دخول وخروج أحد بعد اليوم؛ لذا فقد استقر الرأي على أن يذهب خالد لزيارة شقيقته في مصر الجديدة، ثم يقابلهم أمام «الميريلاند» وسوف يقود بنفسه سيارة محمد عبد السلام وهم فيها إلى حيث منطقة التجمع للعرض، وقد قام بتزويدهم بتصاريح مزورة تسمح لهم بالدخول إلى المنطقة، على أن يسبقوه ثم يلحق بهم بعد ذلك.

كان عطا طایل وعباس محمد ومحمد عبد السلام قد ارتدوا أفرولات جيش قديمة، نزل الثلاثة من السيارة على بعد حوالي مائتي متر من بوابة منطقة التجمع، ودخلوا دون أن يسألهم أحد عن التصاريح، توجهوا إلى خيمة خالد وسألوا عنه فقبل إنه ليس موجوداً، وكان جميع من بالوحدة يتوقع وصولهم بناء على تنبيهات سابقة من خالد، جلسوا بجوار خيمته في انتظار وصوله، ووصل خالد بعد ربع ساعة يحمل في يده حقيبة سامسونات كانت تحتوى على الذخيرة المطلوبة لتنفيذ العملية، حيا الثلاثة بطريقة رسمية حتى لا يشك أحد بمعرفته السابقة بهم، ثم أمر بصرف ملابس عسكرية جديدة لهم.

فكر خالد في اصطحاب «جمال» إلى منطقة العرض كجندى مراسم له، وكان جمال قد عرض عليه رغبته في رؤية العرض عن قرب، لكن خلد

كان يعلم استحالة حدوث ذلك، فإن جمال كانت له ظروفه التي كانت تحول دون ذلك، فهو حسب وضعه الرسمي، محسوب على قوة سجن اللواء، وليس له الحق في الخروج من حيز اللواء أو كتيبته؛ لذا فقد اعتذر له وقال له جملة غابرة لم يفكر فيها جمال في حينها، لكنه سوف يتذكرها فيما بعد: لو حدث لى شىء تذكّرنى. ثم تركه ومضى ساهماً واجماً.

* * *

القاهرة فى السادس من أغسطس

حبيبتى

أرسل إليك رسالتي الثانية على أجنحة الطير عليها تصل وتحط فى قلبك مباشرة.

أرسلت لك رسالة قبل ذلك ولم تردى فخشيت ألا تكون قد وصلت إليك، وإذا لم تصل إليك فسوف ألخص وأوجز ما كتبت سابقاً، حدثتك عن تعريف الحب، وعلاماته، وأسمائه المختلفة، وسقت إليك كل الحجج والبراهين على أن ما أحس به نحوك هو الحب بلا شك، وأن عشقى زائد على حده، وإنه لو نزل على جبل لخر له صعقاً من شدته، فما باله وإن نزل على امرأة أرق من نسمة، وأجمل من ملك مثلك، لكنها لم تعرف الحب قبلاً، امرأة لا تؤمن بغير العقل، لا تعرف الحب إلا أنه علاقة بيولوجية بين جسدين. أقول لك أخطأت يا صغيرتى، ودعيني أتوسل بالشعر إذ يقول:

وَمَا صَوَّرَ الرَّحْمَنُ أَجْمَلَ مَنظَرًا مِنْ عَاشِقِينَ عَلَى فِرَاشٍ وَاحِدٍ

ويقول:

الْحُبُّ مَيْلٌ يَهِيْمُ بِهِ قَلْبُ الْمُحِبِّ فَيَلْقَى الْمَوْتَ كَاللَّعِبِ

يَكُونُ مَبْدُوهُ مِنْ نَظَرَةٍ عَرَضَتْ أَوْ فَرَحَةٍ أَشْعَلَتْ فِي الْقَلْبِ كَاللَّهَبِ

كَالنَّارِ مَبْدُوهَا مِنْ قَدْحَةٍ فَإِذَا تَضَرَّمَتْ أَحْرَقَتْ مُسْتَجْمَعَ الْحَطَبِ
وإنى أقول لك:

وَمَا حُبِّى لِفَاحِشَةٍ وَلَكِنَّ رَأَيْتُ الْحُبَّ أَخْلَاقَ الْكِرَامِ
وأقول أيضاً:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى فُكُنْ حَجْرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جُلْمًا
وأخيراً أقول:

قيل فى الأثر ماذا تقول فى واحد لا عشق ولا اتمعشق
قال: يعيش حمار ويموت حمار.

أسف لفظاظتى، لكن أردت إيصال المعنى لما أريد بكل الطرق، ألا حر
بلغت؟ اللهم فاشهد.

حبيبتى

دعيني أذكرك بحديث دار بيننا ذات مساء، أذكر أنك قلت لى إنى
أحسست منذ عشر سنوات تقريباً بميل إلى شخصية معروفة، وإنك كنت
على أتم استعداد لتقديم أية تنازلات له، فقط لو هو كان يريد ذلك، أو إنى
أنه أعطاك من وقته ما تستحقين، لكنه تجاهلك، وأنت صدمت فى
مشاعرك، إذن فقد ذقت مرارة التجاهل، فهل من ذاق الظلم يظلم، إنى
أعيذك من أن تكونى ظالمة، وأعيذك من تجاهل تلك المشاعر الإلهية
وأعيذك هذا القلب من الجمود، فأولى به أن يخفق لهواى، وأولى به أن
ينصهر ويُحرق فى ضرام عشقى. ثم أولى به أولى أن يعشق ويُعشَر
وقديماً قيل إن الموت سهم يصوب إليك لحظة مولدك، وإن حياتك بتى
وصول السهم إليك، دعيني أطور المعنى وفق هواى فأقول أنا العشر
المتعشق، إن حبى سهم صوبته إليك منذ بدء خليقتك وسوف يصل إليك .

محالة، فليس عندي شك في ذلك، ولحظتها فقط، سوف تعرفين ما هو نحب، إنه لا يُعرّف، لكن يحس، وإلى أن يصلك سهمي، لك منى باقة من نعشق، ولى السلوان والتصبر.

المخلص

* * *

كان يوم الثلاثاء السادس من أكتوبر هو يوم العرض الكبير. استيقظ خالد في الساعة الثالثة صباحاً وقام بإيقاظ أفراد وحدته، كان على الجميع الاستعداد للتحرك في تمام الساعة السادسة صباحاً، ذهب إلى خيمة تجميع الأسلحة واختار أربعة مدافع رشاشة وتأكد من تعمييرها واختبارها بنفسه، وكان في الليلة السابقة قد طلب من أحد رفقاءه القيام بهذه المهمة، وأن يميز المدافع الأربعة بخرق صغيرة من القماش توضع في فوهاتها، وقد اكتشف بالصدفة أن إبر ضرب النار في المدافع الأربعة غير صالحة، على أنه لم يعد في حاجة إليها فقد كانت الخيمة مليئة حوله بإبر ضرب النار التي نزع من كل الأسلحة الموجودة بالوحدة، فقد جاءت الأوامر بتخزين جميع الأسلحة الصغيرة في خيم خاصة حددت لهذا الغرض في كل وحدة، كما نودي في كل الوحدات المشاركة بأمر يقضى بنزع كل إبر ضرب النار من جميع الأسلحة وتسليمها لقائد كل وحدة، وكان على خالد استلام إبر ضرب نار وحدته باعتباره قائد مجموعة العرض. وقبل الساعة السادسة بقليل كانت الوحدة جاهزة ومستعدة، وقام خالد باستعراض سريع لكل نقاط خطته وكل الاحتمالات فاطمأن قلبه، ولم يبت أمامه سوى أن يخفي القنابل اليدوية تحت مقعد جرار المدفع الذي سيركب فيه، لكن سائق الجرار كان ملازماً له كظله، فأخذ يفكر في وسيلة لاستعباده ولو لعدة دقائق كافية لإنجاز ما يريد، أخرج من جيبه نقوداً أعطاها للسائق طالباً منه شراء «سندويتش» لأنه لم

يفطر بعد، وفور تحرك السائق وضع القنابل فى موضع أمين بحيث تكون قريبة من يده عند اللزوم، الآن، كل شىء أصبح جاهزا للاستعراض الكبير.

استيقظ السيد الرئيس فى الثامنة والنصف صباح يوم الثلاثاء، السادس من أكتوبر فى بيته بالجيزة، وكعادته، قام ببعض التمرينات الرياضية أمام مدلكه الخاص الذى بأشر عملية التدليك بنفسه، ثم أخذ دُشاً بعدها، وجلس يتناول إفطاره الأخير مستعرضاً أهم ما جاء فى صحف الصباح، كانت عناوين الصحف الرئيسية تتحدث عن العرض العسكرى الكبير الذى سوف يقام فى هذا اليوم وعن الأسلحة الجديدة التى سوف يشاهدها كل من فى العرض بما فيها طائرات الفانتوم الأمريكية ومدافع ١٢١ مم وعربات المدرعة، إلى جانب طائرات الميرح ٢٠٠٠، أيضاً طائرات هليكوبتر جديدة ستظهر لأول مرة بما فى هليكوبتر الأمريكية «شينوك» والبريطانية «س كنج» والفرنسية «جازير» هذا علاوة على الأسلحة الشرقية والتى تمثل نصف تسليح الجيش بيند النصف الآخر أسلحة غربية، وبهذه التركيبة فى التسليح فإن الصحف نشرت تقريراً من معهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن يقول إن الجير المصرى يعد من أقوى الجيوش فى الشرق الأوسط.

واهتمت الصحف أيضاً بتصريح وزير الداخلية الذى يفيد بأن سلطات الأمن المصرية تعرف كل خفايا تنظيمات الإخوان المسلمين السرية. و قادة الإخوان المسلمين يرتكبون غلطة عمرهم إذا هم حاولوا الإتيان بنية نشاطات، سواء أكانت سرية أم معلنة، وأضاف وزير الداخلية فى تصريحه إننا نعرفهم جميعاً، القدامى أو الجدد، ونحن نراقبهم جيداً.

ونشرت الصحف أيضاً أنباء عن اجتماع اللجنة البطيريركية المؤقتة التى تشكلت بعد احتجاج البابا شنودة، وبأن هذه اللجنة خاضعة لـ

لتعليمات الحكومة المصرية، كما نشرت تقريراً عن الراهب متى المسكين الذى صرح بأن الإجراءات التى اتخذها السادات قد أنقذت مصر من فوضى الفتنة الطائفية، وأخيراً كان اهتمام الصحف واسعاً بمقال كتبه السيد الرئيس ونشر فى جريدة مايو تحدث فيه عن فترة هروبه وتنكره وعمله كمقاوم، وهى القصة التى لم يكن يمل من تكرارها فى جميع وسائل الإعلام المختلفة، كان يجب رواية القصص فى كل المناسبات، وفى كل مرة كانت القصة تُروى بطريقة مختلفة، فى هذه المرة كانت القصة بعنوان «سائق من دمرو» وهى عن الرجل الذى قابله فى سيارة نقل وقدم له مقعداً وكيف أن الرئيس لم ينس له هذا المعروف، ونشرت الصحف صورة للرجل والرئيس يسلم عليه ويهديه تذكرتى سفر للحج هو وزوجته.

انتهى السيد الرئيس من تناول فطوره، وفرك يديه ارتياحاً، فكل شئ تمت السيطرة عليه، من يعارضونه وضعوا فى المعتقلات، الجماعات الدينية سواء مسلمين أو مسيحيين تم اعتقالهم أيضاً رهناً للمحاكمة، رجال الفكر والسياسة والأدب والصحفيون المشاغبون تم تقييم أظافرهم ولا يوجد فى الشارع الآن سوى المؤيدين، أخيراً كان يريد اليوم الظهور أمام جمهوره ظهور الأقوياء الناجحين، ارتدى حلة عسكرية جديدة وصلته قبل أيام من الترزى الخاص الذى يصنع له خصيصاً بدلته العسكرية. كانت زوجته تقف أمامه تتأمل بدلته الجديدة وتبدي ملاحظاتها على مظهره، ولاحظت إنه لا يرتدى تحتها قميصه الواقى من الرصاص، ورفض هو ارتداء القميص لأنه سوف يؤثر على انسجام البدلة الجديدة. فرغ من ارتداء ملابسه وبدأ فى وضع وشاح العدل فوق حلته العسكرية، وقرر أن يذهب إلى ساحة العرض فى عربة مكشوفة، فالיום، سوف يكون محاطاً بجيشه. ويجب أن يكون فى غاية اللياقة ويثبت للعالم كله أنه لا يخشى شيئاً، وإنه أقوى من كل الظروف المحيطة به، ونزل السيد الرئيس إلى

حيث وقف المرافقون الذين سوف يصحبونه إلى ساحة العرض فى سيارته ناسياً أن يأخذ معه عصا القيادة التى لازمته خلال صعود نجمه حتى جلوسه على الكرسى الرئيسى الرئيسى، وكان هذا نذير شؤم لم يلحظه سيادته ووصل إلى ساحة العرض فى كامل زينته، وأخيراً جلس وأشار إلى شيخ الأزهر والأنبا صموئيل أن يجلسا بجواره واحداً عن يمينه والآخر عن شماله حتى تكون الصورة أكثر رداً على من يقولون بالفتنة الطائفية، وبدأ العرض. وبدأ تشكيل من طائرات الفانتوم يقوم ببعض الألعاب الجوية وبدأ السيد الرئيس يتجه بوجهه نحو الفضاء متتبِعاً روحه التى سوف تصعد بعد لحظات، وصاح المذيع: والآن تجيء المدفعية، وجاءت الأوامر لخالد بالتحرك، وكان الجرار الذى يركبه فى مقدمة الطابور، وعند الاقتراب من المنصة ارتجت إحدى القاطرات وبدأ أنها تنحرف إلى يمين المنصة، وظن البعض أن عطلاً أصابها، وكان خالد قد أخرج مسدسه آتياً السائق بالتوقف، وبمجرد توقف الجرار قفز خالد منه وألقى أول قنبلة فى اتجاه ساحة العرض لتشتت الانتباه، فى نفس الثانية كان عباس محمد قد وقف فى العربة وأخذ يطلق مدفعه الرشاش فى اتجاه الرئيس وأصاب الرصاصة الأولى السيد الرئيس فى عنقه، وأخذ يترنح ثم سقط على أرض المنصة، ووصل خالد إلى حيث كان يجلس الرئيس على المنصة وأخذ فى تفريغ خزانة مدفعه على الجسد المتكوم على أرضية المنصة ثم بدأ بلا حراك وقد غمرته الدماء.

* * *

كان خالد قد أخبر جمال بأنه سوف يببىء فى مكان العرض، وأنه - شاء يمكنه النوم فى حجرته، وما إن غادر أفراد الكتيبة المعسكر - طريقهم إلى العرض حتى أغلق جمال الحجره على نفسه واستلقى على السرير وأخذ يحملق فى سقف الحجره، وشعر فجأة بصداع عينه

يجتاحه من أسفل رقبته حتى جبهته فأخذ يحرك رقبته في كل الاتجاهات على ضغط الصداع يخف قليلاً، فلما لم يفلح قرر وضع رأسه بين مخدتين يعتمر رأسه بينهما بذراعيه، وبدأ الألم يخف قليلاً. وأحس جمال بالراحة غنام.

* * *

كان كلما ذهب إلى أبيها، وجدها تنظر إليه من فوق السرير الوحيد في حجره، كان جسدها الممدد أمامه جميلاً وأسطورياً، واعترف لنفسه فيما بعد أنه لم ير أنفأ أو ذقناً بمثل هذه الدقة والجمال، سرعان ما أخذت منه مزجداً في غفلة من أبيها، وتقابلا عدة مرات بالخارج، ورأى في عينيها عطشاً لا يرتوى للحب، اتفقت معه على اللقاء في الحجره بعد خروج أبيها من عمله، لن تغلق الباب وراءه، بل سوف تتركه مفتوحاً. في السابعة والنصف صباحاً كان يدفع الباب برفق، دخل وأغلقه وراءه بالترياس، ولا يد أنها نامت، فقد كانت مغلقة العينين وممددة بكامل أنوثتها، صعد بجانبها وبدأ مداعبتها ففتحت عينيها ببطء دون مفاجأة بما يحدث، بل تمطت وتثاءبت بإغراء وفتة، ثم احتوته بين ذراعيها وسرعان ما ذاب في بدنها الملفوف.

* * *

في الثامنة صباحاً، كان يطرق الباب الداخلى للفيلا، وظل الجرس يرن فترة طويلة قبل أن يفتح الباب، وظهرت سارة على مدخله، كانت نائمة تشعرها يغطى وجهها وقد ارتدت شورت وبلوزة قصيرة أظهرت بطنها، تركته على الباب ودخلت فدخل وراءها وأغلق الباب، ووجد نفسه وحيداً في الصالة لا يعرف ماذا يفعل، وجاءه صوتها ناعساً: أنا هنا، تعالى، تتبع مصدر الصوت فوجد نفسه في غرفة نومها، كانت نائمة على بطنها ورأسها مدفون بين وسادتين، وقف يتأمل تكوين جسدها البديع للحظات، فلما لم تنتبه له جلس على حافة السرير ومرر أصابعه على ظهرها وردفيها

بحركة يعرف تأثيرها جيداً، ولم تبد مقاومة، بل استسلمت لأصابعه فتذكر أن عليه بدء العمل فصعد بجانبها، تعرف، أنا أحس بنفس شعور - ودائماً ما يتملكنى إحساس بالضياح وخراب النفس. قال: سرقوا أحلام ولاد الكلب، باعوا كل شيء ولم يتركوا لنا أى شيء، سلسال لا ينقطع من الخونة والأفاقين ولا فائدة فكل شيء فى سبيله للانهار، كانوا يطوفون حوارى بولاق الدكرور ومن خلفهم النساء يرتدين الملابس السوداء والجبي يهتفون الوداع يا جمال يا حبيب الملايين وأوقفهن أمامه كلهن صفاً واحداً نادين، غادة، زوزو، أمينة، سارة، عفاف، ومارس معهن الجنس دفعة واحدة وأخذ عضوه ينتفخ فضغط عليه بشدة حتى انفجر وراح فى النوم.

* * *

صحا جمال من نومه على صوت جلبة شديدة، فتح عينيه فوجد نفسه محاطاً بوجوه لم يرها من قبل، كانت الحجرة مألثة برجال يرتدون ملابس عسكرية ومدنية، أوقفوه وأخذوا يفتشون السرير وتحت السرير ومزق المراتب والمخدات، كانوا يبحثون فى كل شيء: فى الدولاب، فى الكت والدفاتر، وأخيراً أخذوا كل شيء معهم واقتادوه أمامهم، وأحس جمال مصيبة حدثت، فقد رآهم يقتادون قائد الكتيبة أيضاً وبعض الضباط صفاراً وكباراً ودفعوا بهم إلى عربة كانت تقف أمام بوابة اللواء، وت - جمال بينه وبين نفسه: ما الذى حدث؟ وجاءت الإجابة من أحد الضباط - عملها خالد وقتل السادات. وأخذ جمال نفساً عميقاً، وزايله فجأة الضابط الذى دهمه منذ ليلتين، وأحس براحة عميقة، وطوال الطريق، كانت جملتها كلها تمر أمامه بكل تفاصيلها، ولم يلحظ أحد العرق يغمر وجهه - أخفاه بين كفيه، كان يشعر وقتها بالعار لحياته السابقة، هروبه انت - وعدم مواجهة كل مشاكله، وأخذت دموعه تنساب فى صمت، وتر - خالد وهو يبتسم له، فمسح وجهه بكم أفروله وغمغم وهو يهز رأسه - يجب أن أكون مثلك وأواجه مصيرى.

المحققون

نهار آخر يمضى مثل كل النهارات السابقة، وهو وحده يقبع فى زنزانته التى لا تزيد على متر فى متر، لا شىء يحدث سوى استدعاءه ثلاث مرات يومياً، مرة فى الصباح الباكر حيث يتم استجوابه مدة ثلاث ساعات، ومرة بعد الظهر، وثالثة قبل منتصف الليل، نفس الأسئلة تتكرر، ولكن بعدة صيغ مختلفة: س: ما الذى تعرفه عن خالد؟ ما هو دورك فى تدبير الاغتيال؟ ما المهمة التى كلفك خالد بالقيام بها؟ ما الذى قاله لك؟ آخر كلماته إليك؟ علاقتك بالآخرين؟ كيف تعرفت عليهم؟ كيف تم اللقاء بهم؟ أين كنتم تجتمعون؟ ما الذى كنتم تتحدثون فيه وعنه؟ هل كنتم تدبرون لقلب نظام الحكم؟ ما هى القيادات التى كنتم تنوون اغتيالها؟ كيف حصلتكم على الأسلحة؟ هل تم تمويلكم من جهة ما؟ من هى؟ هل للموساد دخل فى عملية الاغتيال؟ وهل تم التعاون مع مخابرات بعض الدول؟.

كانوا يلاحقونه بالأسئلة، وكان يحاول الإجابة على قدر ما تسعفه بديهته، كان يهز كتفيه فى البداية دون أن يفهم معنى لما يحدث أمامه، وربما كانت الأسئلة أيضاً بلا معنى، لكنهم كانوا يلاحقونه، وما كانوا ليكتفوا بهز كتفيه، بل كانوا يريدون إجابة شافية عن كل الأسئلة.

* * *

«وفى ذلك اليوم أعنى يوم السبت وقعت نادرة عجيبة وهو أن سارى عسكر كلهبر (المعروف باسم كليبر) كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذى بداره بالأزبكية فدخل عليه شخص حلبى وقصده فأشار إليه بالرجوع، وقال له ما فيش وكررها، فلم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر فى قضائها، فلما دنا منه مد إليه يده اليسرى كأنه يريد تقبيل يده فمد الآخر يده فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط إلى الأرض صارخاً فصاح رفيقه المهندس فذهب إليه وضربه أيضاً ضربات وهرب. فسمع العسكر الذين خارج الباب صرخة المهندس فدخلوا مسرعين فوجدوا كلهبر مطروحاً وبه بعض الرمق ولم يجدوا القاتل فانزعجوا وضربوا طبلهم وخرجوا مسرعين وجروا من كل ناحية يفتشون عن القاتل واجتمع رؤساؤهم وأرسلوا العسكر إلى الحصون والقلاع وظنوا أنها من فعل أهل مصر فاحتاطوا بالبس وعمروا المدافع وحرروا القنابر وقالوا لا بد من قتل أهل مصر عن آخره ووقعت هوجة عظيمة فى الناس وشدة انزعاج وأكثرهم لا يدري حقيقة الحال، ولا يزالون يفتشون عن ذلك القاتل حتى وجدوه منزوياً فى البستان المجاور لبيت سارى عسكر المعروف بغيط مصباح بجانب حائط متهد فقبضوا عليه فوجدوه شامياً فأحضره وسألوه عن اسمه وعمره وبيته فوجدوه حلبياً واسمه سليمان فسألوه عن محل مأواه فأخبرهم إنه يدير فى الجامع الأزهر فسألوه عن معارفه ورفاقه، وهل أخبر أحداً بفعله وحركته شاركه أحد فى رأيه وأقره على فعله أو نهاه عن ذلك وكم له بمصر فى الأيام أو الشهور وعن صنعته وملته وعاقبوه حتى أخبرهم بحقيقة الحز

* * *

لحظة خروجه من حجرة التحقيق لمح خالد فى الممر المفضى -
الحجرة التى خرج منها توا، كان مكبلاً بالأغلال من يديه، على يمينه حذر
يمسك بذراعه، وعلى يساره أيضاً ومن خلف وأمام، التقت عيونهما فى

خالد ابتسامة خفيفة وهز رأسه له، أما هو فقد تمتم: سليمان الحلبي قتل سارى عسكر كلهير مرة أخرى.

* * *

«بيان شرح الاطلاع على جسم سارى عسكر العام كلهير يوم الخامس والعشرين من شهر برريال من السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوى نحن الواضعون أسماءنا وخطنا فيه باش حكيم والجرايحي من أول مرتبة الذى صار مرتبة باش جرايحي فى غيبته انتهينا حصة ساعتين بعد الظهر إلى بيت سارى عسكر العام فى الأزبكية بمدينة مصر وكان سبب روحتنا هو أننا سمعنا دقة الطبل وغاغة الناس التى كانت تخبر أن سارى عسكر العام كلهير انغدر وقتل. وصلنا له فرأيناه فى آخر نفس، فحصنا عن جروحاته فتحقق لنا أنه قد انضرب بسلاح مدبب وله حد. وجروحاته كانت أربعة الأول منها تحت الصدر فى الشقة اليمنى، الثانى أوطى من الأول. جنب السوة، الثالث فى الذراع الشمال نافذ من شقة لشقة والرابع فى الخد اليمين، فهذا حررنا البيان بالشرح فى حضور الدفتردار سارتلون الذى وضع اسمه فيه لأجل أن يسلم البيان المذكور إلى سارى عسكر مدير الجيوش، تحريراً فى سراية سارى عسكر العام فى النهار والسنة المذكورة فى الساعة الثالثة بعد الظهر بإمضاء باش حكيم وخط الجرايحي».

«وصل السيد رئيس الجمهورية إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادي والساعة الواحدة وعشرين دقيقة بعد ظهر اليوم - مساء الثلاثاء ١٩٨١/١٠/٦ - وأظهر الكشف الطبى ما يلى:

١ - كان سيادته فى حالة غيبوبة كاملة - النبض وضغط الدم غير محسوسين وضربات القلب غير مسموعة - حدقتا العين متسعتان ولا يوجد بهما استجابة للضوء - فحص قاع العين أظهر وجود أوعية

دموية خالية من الدماء - لا يوجد حركة بالأطراف تلقائية أو بالإثارة، عدم وجود الانعكاسات الغائرة والسطحية بجميع الأطراف.

٢ - وجود فتحتى دخول فى الجهة اليسرى من مقدم الصدر أسفل حلمة الثدي اليسرى.

٣ - وجود جسم غريب محسوس تحت الجلد فى الرقبة فوق الترقوة اليمنى.
٤ - وجود فتحة دخول أعلى الركبة اليسرى من الأمام وخروج بمؤخر الفخذ اليسرى، مع وجود كسر مضاعف فى الثلث الأسفل لعظمة الفخذ الأيسر.

٥ - جرح متهتك بالذراع الأيمن من الأمام أسفل المرفق.

٦ - أمفيزيم جراحية بالصدر والرقبة وحول العين اليسرى.

٧ - دم متدفق من الفم.

وقد تم نقل سيادته إلى قسم الرعاية المركزة - لجراحة القلب والصد - بالمستشفى وأجريت له الإسعافات العاجلة الآتى بيانها:

١ - وضع أنبوية قصبية هوائية بعد تفريغ البلعوم مما فيه من دم - متجلطة وبدأ عمل التنفس بواسطة جهاز التنفس الاصطناعى.

٢ - تدليك خارجى للقلب.

٣ - إعطاء منشطات القلب اللازمة لمثل هذه الحالات بالحقن داخل القلب مباشرة.

٤ - نقل دم من نفس فصيلة سيادته بكميات كافية من خلال عدد من الفتحات على الأوردة.

٥ - وضعت أنبوية داخل القفص الصدرى بالجهة اليسرى لتفريغ الجير - والدم المتجمع.

٦ - تم توصيل سيادته على أجهزة مراقبة القلب مع تسجيل مستمر للضغط والنبض ورسم القلب، وكذلك توصيل جهاز رسم المخ الكهربائي لتسجيل نشاط المخ ودرجة حيويته.

٧ - لم يستجب القلب للتدليك الخارجى، وتم عمل صدمات كهربائية للقلب كمحاولة لتنشيطه.

٨ - لما لم يستجب القلب لكل هذه الإجراءات. تم فتح التجويف الصدرى الأيسر لعمل تدليك داخلى للقلب ووجد القلب مشرقاً على حالة استرخاء كامل، وكان جذر الرئة اليسرى منهتكاً بما فيه الأوعية الدموية الكبرى مع تهتك كامل بالرئة وتجمع دموى متجلط داخل التجويف الصدرى.

٩ - استمر عمل التدليك الداخلى للقلب مع إعطاء العقاقير المنشطة واستمرار التنفس الصناعى.

١٠ - فى خلال ذلك تم عمل الأشعات التالية:

(أ) أشعة على الصدر أظهرت وجود شظايا متعددة داخل الجهة اليسرى من التجويف الصدرى وكذلك رصاصة على الترقوة اليمنى مع وجود أمفزيما جراحية وكسور بالضلوع وتهتك بالرئة اليسرى.

(ب) أشعة على الفخذ اليسرى أظهرت وجود كسر متفتت بالثلث الأسفل من عظمة الفخذ.

(ج) أشعة على الجمجمة وكانت سليمة.

(د) أشعة على الساعد اليمين وكان سليماً.

١١ - فى تمام الساعة الثانية وأربعين دقيقة بعد ظهر يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر أظهر رسم القلب عدم تسجيل أى نشاط له، وأظهر رسم المخ توقفاً كاملاً له عن العمل تأكيداً لحدوث الوفاة.

واعتبر سبب الوفاة صدمة عصبية شديدة مع نزيف داخلى بتجويف الصدر وتهتك بالرئة اليسرى والأوعية الدموية الكبرى بجذر الرئة اليسرى.

توقيع

* * *

زنزانة

كان حياته تحولت إلى عدة زنازين فمن زنزانة لأخرى ظل متنقلاً عدة سنوات لا يدرى عددها، منذ أن قبض عليه فى المرة الأولى، من زنزانة تسلمه لأخرى، ربما كانت زنزانتة هذه هى الأقسى والأكثر رهبة ووحشة منذ أن عرف طريقه إليهم، كانت زنزانتة الأولى أكثر حنواً وونساً، كانت داخل أحد أقسام الشرطة، تذكر لحظة القبض عليه ووضعها بداخلها، كـ أول ضوء للنهار يتسلل من الشباك الصغير الوحيد ذى القضبان الملفوفة بالسلك المخرم، واهناً لا يكاد يبدد الحلقة الداكنة بالداخل، بينما الشمعة التاسعة أو العاشرة الملتصوقة بالجدار تجود بآخر ضوء لها فتتراقص ذؤابتها قبل أن تغرق فى السائل الشمعى وتنطفئ. تململ هو فى وقتها وأخذ ينقل ثقل جسده من ساق إلى أخرى. كان أول من لمح الجندى عـ باب الزنزانة من وقفته خلف شباك صغير داخل حمام يطل على الطرفة الداخلية للقسم، ظل واقفاً طوال الليل، ومنذ مجيئه، فقط ليستنـب التنفس، حين انفتح الباب ودخل، دهمته رائحة نتانة وعفونة فكاد يتـب وشعر بخوف مفاجئ لرؤيا الأجساد العارية المرصوصة على الأرض. نـ يقع على أحدهم فضحكوا جميعاً وقالوا فى نفس واحد: اسم الله. أشـ آخر بالجلوس بجانبه، وأفسح له مكاناً فجلس مستنداً بظهره إلى الحنـ قال له: نورت. رسم على شفثيه ابتسامة وهز رأسه. وبلا مقدمات وحـ

يده تتحسس جسده وجيوبه فنظر إليه مستفسراً. زفر الآخر متحدياً: عاوز تقعد هنا ومحدث يلطشك هات خمسة جنيه. شعر بالخوف فجأة وهو ينظر إليه، كان ضخماً وأصلع وله سمات المجرمين، كان يرتدى كلوتاً فقط، باقى جسده كان عارياً وثدياه ضخمان ومتهدلان. أخرج من جيبه خمسة جنيهات أعطاها له من سكات، حفلات الاستقبال فى الزنازين سمع عنها كثيراً، ولو أن أحداً صفعه على وجهه فلن يتحمل الصفعة ويموت فيها. قرفص ساقيه ووضع ذراعيه حولهما وأسند رأسه للحائط اللزج بفعل العرق وسناج الشمع الذى أحاله إلى الأسود المغبر. كانت رائحة العرق لا تطاق والساعة لم تتجاوز العاشرة مساءً فى ليل يولية الساخن، ولم يمض على مجيئه سوى ثلاث ساعات فقط قضاهم فى حجرة المباحث.. أحس بضيق فى تنفسه فقام وسار حيث الحمام، أراد أن يغمر رأسه بالماء الذى يتدفق بحرية من حنفية لا تغلق، كانت مفاجأته الكبرى حيث وجد للحمام شباكاً صغيراً وجد أحدهم يقف خلفه، وللحظة شعر أن حياته معلقة بهذا الشباك، تقدم من الواقف وقال له: تسمح لى أقف مكانك شوية. نظر إليه قليلاً قبل أن ينطق: بخمسة جنيه. لم يفكر، أخرج من جيبه وأعطاه فترك الشباك. أخذ نفساً عميقاً فشعر بالراحة. لم يلق بالألماء المتدفق تحت قدميه، فقط تشعلق بحديد الشباك وأخذ يتنفس هواء حراً وعمق حتى الصباح.

* * *

كانت الزنزانة أكثر ضيقاً، فهى عبارة عن متر فى متر، لكنها أكثر نظافة، لم يكن بها شباك، لكنه كان يتنفس هواءً نقياً أتياً من خلال قضبان الباب الحديدى المفرغ، لم يكن بها رائحة عفونة أو عرق أو أجساد متلاصقة، لكنها كانت أكثر وحشة، يشبه صمتها صمت قبر، منذ أن جاءوا به إلى هنا وتنتابه حالة تشبه الإغماء يتوه فيها عن عالمه، تختلط فى ذهنه الأزمنة والشخصيات، والأماكن، تختفى فجأة الزنزانة فيجد نفسه فى

البيت مع زوجته أمينة أو فى المستشفى بين المرضى، تتتابه حالات هذيان فيسمع نفسه يخاطب أشخاصاً وهميين، هل كانوا حقيقيين فى يوم ما؟ هل عرفهم وعاش بينهم ذات يوم؟ الغريب أنه حيث يفيق يتذكر ما حدث بالتفصيل، من بين كل هؤلاء كانت هى الأكثر سطوعاً على سطح ذاكرته. الأكثر تألقاً فى سمائه، كان حضورها أخاذاً فى كل هذياناته وتهويمات خياله.

حبيبتى

إننى منذ اللحظة الأولى لسماع صوتك الملائكى عبر التليفون وقعت أسيراً لهذا الحب، تقولين هل يمكن الحب عن طريق الصوت فقط؛ وأقول إن الصوت واللغة هى الشخص نفسه فالصوت يحمل سمات المتحدث به واللغة هى الإنسان نفسه، فاللغة هى أنت، ففكر بها، وتحدث بها، هى ثقافتنا ونشأتنا وهى الطبقة الاجتماعية التى ننتمى إليها. فى من تقرأين قلبى الآن على الورق لا تظنى أننى أكتب كتابة استهلاكية إنما هى حصيلة تفكير عميق منذ أن غادرتنى، فقد استمعت لهمسك بأن أفكر عميقاً فى ماهية هذه العلاقة، فعشت فى عزلتى أنا أيضاً أحاول الفهم والتفسير والتبرير، وأحاول فهم نفسى، كنت أتصور أنى أعرف نفسى، وهى أنى أعترف بجهلى وتفاهتى؛ إذ كنت فى الزمن الفائت؛ مثل طاووس يتيه على العالين بريشه الملون دون أن يعرف أنه مجرد شكل خارجى زائف.

حبيبتى

هل تتصورين أننى منذ أن سافرت لم أنم دون أن أفكر بك، وأحلم بك. وأدير حواراً طويلاً معك فى كل شىء وعن أى شىء، وأننى أستدعيك بخيالاتى فى كل الأوقات، حتى إننى أقمت معك حياة كاملة بكل معنى الكلمة، نغضب أنا وأنت أحياناً، نتشاجر ونتصالح أحياناً، أصنع لك طعاماً

مما تشتتهين، أصحو على صوتك وابتسامتك بجانبى على السرير، فى الخيال أصبحت أكثر تجسيدا من الواقع، وفى الخيال أعيش معك حياة كاملة ورائعة، فى الليل وأنا فى حجرتى وحدى، أهدى بصوت عال مخاطباً إياك، أكاد أسمع نبر صوتك، ذلك الصوت الذى هو أرق من نسمة وأجمل من ملك، فى بعض الأحيان أرتدى ملابسى وأخرج بحثاً عنك، تجرنى قدمى لأماكن سارت فيها قدمك، أقول: هنا مشيت وكنت بجانبها، وهنا وقفت وقالت كذا، أصبحت الأماكن التى رحت إليها مزارات أحج إليها كلما هاج بى الشوق إليك وأضناني الجوى، أتمثلك فى كل لحظاتك، لفتاتك، طلعتك، همساتك، ابتسامتك، تعابير وجهك انسجام تمايل جسدك وأنت تتبخترين، حتى نفسك؛ إذ تتنفسين، وذلك الهدوء الجميل الذى يعكسه صفاء نفس نادر، وأنا الذى بلا ذاكرة أذكر كل ما دار بيننا عبر أحاديثنا الليلية كلمة كلمة وحرفاً وحرفاً وهمسة همسة وأعجب لذلك العشق السماعى، يقول بشار:

يَا قَوْمُ أَدْنَى لِبَعْضِ الْحَىِّ عَاشِقَةٌ وَالْأُذُنُ تَعَشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانَا

لقد صدق بشار لذلك فقد جعلته شيخى ومعلمى فى طريق العشق.

الحبيبة الغالية

طلبت منى فى المرة السابقة أن أحفظ لك الحكايات، تلك التى عودتك أملك النوم عليها، وكنت وعدتك بذلك، و هأنذا أفى بوعدى وأقص عليك ما تيسر منها لتامى على ههدات صوتى فاسمعى وقرى عيناً.

* * *

الحكاية الأولى

حكاية ست تتر أمها الشمس وأبوها القمر وأخوها على ملك البحر

روت الرواة بألفاظ مختلفة ومعان متفحة، أن أحد الملوك العظام كـ يعيش هو وزوجته فى مملكته التى لم تكن تغرب عنها الشمس، وقد ضـ هذا الملك ينتظر أن تضع زوجته ولياً للعهد يرث الملك من بعده مدة طويلة حتى يئس من تحقيق أمنيته، فأشار عليه بعض وزرائه بالزواج من امرأة أخرى لعل أمنيته تتحقق على يديها، لكنه كان قد قطع عهداً مع زوجته الملكة التى كان يحبها ألا يتزوج غيرها مهما كانت الأسباب؛ لذلك فقد فضل احتراماً للعهد، ووفاءً لزوجته أن يعيشا هكذا دون إنجاب وما قرب الله يكون.

وفى أحد الأيام، وبينما الملك نائم وقت الظهر، جاءه هاتف فى المنام وفى له: أيها الملك، عليك بذبح خروف وديك رومى، وأرسلهما مع جاريتين شاطئ البحر، يضعان الخروف فى صينية على الشاطئ، أما الديك فيضع فى قارب يجده هناك، ودعهما تندهان باسمى أنا على ملك البحر.

أفاق الملك من نومه وهو يتعجب من أمر ذلك الهاتف، وقال لنفسه: أفعـ ما أمرنى به الهاتف، فلعل الخير يأتى على يديه. ثم إنه نـ الطباخين وأمرهم بذبح خروف وديك رومى وأرسل بهما جاريتين من جواريه، وضعت الجارية الأولى الخروف فى صينية على الشـ

وضعت الجارية الثانية الديك فى القارب، وهتفا فى نفس واحد: اطلع يا على ملك البحر، الملك أرسل إليك الهدية. وبينما هما واقفتان تنظران إذ وجدا الخروف والديك اختفيا. ووجدا مكانهما رمانة وتفاحة، وسمعتا صوتاً آتياً من جوف البحر: خذا هديتى إلى الملك وقولا له يأكل الرمانة وحده حبة حبة لا يترك منها شيئاً، كذلك الملكة تأكل التفاحة وحدها، وبعد ذلك تطلق مدفعك فتهدم القلعة وسوف تزرُق بنتاً سمها ست تتر، أمها الشمس وأبوها القمر وأخوها على ملك البحر، وتبقى أختى نصفها لك ونصفها لى. فرح الملك بما قالته الجاريتان وفعل ما أمر به على ملك البحر ومرت تسعة شهور وجاءته البشارة بأن الملكة وضعت بنتاً تقول للشمس قومى وأنا أقعد مكانك، فرح الملك وعمل زينة وتعاليق فى المملكة كلها مدة شهر، وكبرت البنت - وأولاد الحدوتة يكبرون بسرعة - وخرطها خراط البنات وصارت عروساً بوجه يحاكي البدر ليلة أربعة عشرة فى تمامه. وفى يوم من ذات الأيام خرجت المريية التى كانت تبرى ست تتر تتمشى على شاطئ البحر وأخذت معها ست تتر التى ما إن رأت المياه حتى نطت من الفرخ ونزلت ووضعته قدمها فى الماء، وإذا بها تختفى عن عيني الجارية التى رجعت تبكى وأخبرت الملك باختفاء الأميرة، فعم الحزن الملكة وظل الملك يدور فى كل المدائن، والسفن تبحث فى البحور، والأميرة فص ملح وذاب. وجلس الملك حزيباً باكياً وقال لنفسه الله أعطى.. الله أخذ.. الله عليه العوض، من أعطى فى الأول قادر على إعطائنا مرة أخرى. ولم يدر بباله أن على ملك البحر سوف يأخذ نصفها كما شرط عليهم، وهى قد عاشت نصف حياتها على البر وجاء أوان النصف الثانى، وهكذا أخذها على ملك البحر إلى مملكته، حيث رأت قصوراً من الذهب الخالص، وأخرى من الزمرد والياقوت المطعم بفصوص الأماظ ودخل بها قصرأ كأنه عجيبة من العجائب حوى كل ما يخطر على بال بشر من النفائس، وبينما هى تتجول بين أنحاء القصر قال لها على ملك البحر

الذى ظهر أمامها شاباً وسيماً عليه بهاء الملوك: أنا أخوك على ملك البحر فلا تخافى منى وأنا نذرتك قبل مولدك أن تعيشى نصف عمرك مع أهلك والنصف الآخر معى، وأنا الذى سوف أزوجك وأفرح بخلفك. ونظر إلى ست تتر التى كانت خائفة فقال يطمئنها: لا تخافى، وعيشى معى فى قصر ملكى هذا، ثم إنه أخرج من جيبه أربعين مفتاحاً بعدد حجرات القصر وناولها لها: إليك أربعون مفتاحاً تفتحين بهما كل حجرات القصر وتسعدين بما تجدينه، ولكن على شرط ألا تفتحى الحجرة رقم أربعين. ثم تركها ومشى من أمامها، وجلست تفكر فيما تفعله فى هذا القصر الخاوى إلا منها، ولم تجد ما تسلى به نفسها إلا فتح الحجرات عليها تجد ما يشغل بالها، وبدأت بالحجرة الأولى التى كانت ملائنة بفساتين من جميع الألوان وكلها معمولة من خيوط الذهب المطعم بفصوص اللولى والزمررد، وفى الحجرة الثانية وجدت تحفا لم تقع عينها على مثلها من قبل، وفى الثالثة والرابعة والخامسة وجميع الحجرات حتى أتت عليها كلها، وفى كل مرة كانت تجد شيئاً مختلفاً، ولم تبق أمامها سوى الحجرة الأربعين، الترى حذرهما على ملك البحر من فتحها، لكنها قالت لنفسها: ولماذا حذرنى من فتحها، لا بد أن يكون ما بها أعجب مما رأيت حتى الآن، ثم إنها فتحتها ودخلت فلم تجد شيئاً، ولمحت شباكاً عالياً فصعدت حتى وصلت إليه فرأته يطل على الحديقة، ورأت نعامة واقفة تحت الشباك فأشارت إليها بيده. قالت النعامة وهى تلتفت ناحيتها: صباح الخير يا أخت على ملك البحر ردت ست تتر: صباح الخير يا نعامة السلطان. أكملت النعامة: لو تعرفى أن على ملك البحر جاء بك إلى هنا ويطعمك ويسقيك ثم بعد ذلك يأكلت لم ترد ست تتر، وحزنت جداً بعد أن سمعت حديث النعامة، فتركتها وأغلقت الحجرة، وحين دخل عليها على ملك البحر ووجد آثار البكاء عر وجهها قال لها: أنت تفتح الحجرة؟ هزت رأسها وقالت: نعم. أكرم وطبعاً النعامة قالت لك كذا وكذا، طيب روحى لها غداً وحين تقول نـ

ذلك ردى عليها قائلة: على ملك البحر يطعمنى ويسمّنى لابن السلطان يتزوجنى واعمل ريشك طرطور لابنى، واعمل جلدك فروة لابنى.

وفى الصباح حين قابلت النعامة وأسمعتها ما قاله لها على ملك البحر فما كان من النعامة إلا أنها انتفضت حتى طيرت كل الريش الذى على جسدها فملاً الحديدية، ثم إنها أغلقت الحجره ورجعت إلى أخيها الذى عرف ما حدث للنعامة فقال: غداً تذهيبين إليها مرة أخرى وتقولين مثل ما قلت. وفى صباح اليوم التالى قالت للنعامة: على ملك البحر يطعمنى ويسمّنى لابن السلطان يتزوجنى، واعمل ريشك طرطور لابنى، واعمل جلدك فروة لابنى، واعمل دمك فى نقشى، واعمل لحمك فى فرحى. ومأ سمعت النعامة ما قالته ست تتر انفجرت مية من وقتها وساعتها، وجاء على ملك البحر إليها وقد سمع كل شىء وقال لها: اسمعى، سوف يرسل لى الآن أحد السلاطين الكبار الوفود لطلب يدك منى، فإذا رأيتهم تصنعى الجنون حتى أقول لك بعد ذلك ما تفعلينه.

وأخذ الملك يرسل الوفود فى طلب يدها من أخيها على ملك البحر وهى تتصنع الجنون أمامهم حتى يئس السلطان فذهب بنفسه لطلب يدها، وكم كانت دهشته حتى وجدها أمامه عاقلة غير أنه وقع صريع جمالها وحسنها ولم يعد يقوى على فراقها، وقال لأخيها: أنا أضع أمام وزنها ذهباً وكل ما تطلب من مال أحضره إليك فى عاجل الحال، فقط زوجنى أختك ست الحسن والجمال التى لم أعد أصبر على فراقها، قال على ملك البحر: وأنا قبلت زواجك منها، وقبل أن تذهب إلى مملكتك تكون عندك، فى قصرها الذى أعمله هدية زواجكما. وبالفعل ما إن وصل السلطان إلى حدود سلطنته حتى وجد قصرًا لم يكن موجوداً من قبل فى تلك الناحية، والقصر كأنه كوكب درى يضىء فى الليل من غير إنارة من كثرة ثريّاته ولآلئته، أما داخل القصر، فكان أعجب من كل ذلك، فالباب يتكلم بكل

لسان، كذا السلم والأعتاب وكل ما فيه ناطق ومتحرك غير ساكن، فالحلل تطبخ وحدها، الفرن يُحمى وحده، الخبز يجهب وحده، باختصار كل شيء يعمل وحده على أكمل وجه وبلا تعب أو توجيه، وقال على ملك البحر لأخته: كل ما تطلبينه تجدينه في هذا القصر، فإذا طلبت البحر تجدينه تحت شرفتك، وإذا طلبت السمك يخرج لك من البحر، إنما على شرط إذا دخل عليك السلطان لا تتحدثي معه، فإن قال لك: يا ست حدثيني، يا ست كلميني، يا ست ردي على. فلا تردى عليه إلا إذا قال لك: يا ست تتر يا ست تتر، يا للى أمك الشمس وأبوك القمر، وحية أخوك على ملك البحر تكلميني، قلبى عليك انظر، إن سمعتك تتحدثين إليه قبل أن يقول لك ذلك فلن يعرف الطير الأزرق مكانك.

صبح الصباح، وأضاء الكريم بنوره ولاح، وأرادت زوجة السلطان الأولى زيارة ضررتها الخرساء التى شاع أمرها فى أنحاء السلطنة، فأخذت أمها وذهبت إلى هناك فوجدت السلم ببسلى عليها، والعتبة تقول مرحباً بزوجة السلطان، ووجدت كل شيء حولها ينطق بأيات الترحيب حتى صعدت إلى الدور العلوى هى وأمها، فوجدت ست تتر جالسة كما تجلس الشمس على عرش السماء، قامت سلمت عليهما وأجلستهما بجانبها. فتعجبنا من حديثها هى التى كانتا تظنان أنها خرساء، ثم إنهما قدما عقد الماظ هدية لها فما كان من ست تتر إلا أنها أخذته ونادت على الهون فجاء إليها يدقق فقالت له خذ هذا العقد ددقه وارمه للفراخ ففعل بينما تنظران إلى ما حدث بغيظ، وما زاد غيظهما أكثر أنها ندهت على البحر فطلع حتى مس حافة الشرفة، وأمرت السلم بالخروج من الماء فخرج ونظف نفسه وملاً الطواجن التى دخلت الفرن حتى استوت وامتألت السفرى بالطعام دون أن تضع ست تتر يديها فى شيء حتى انتهين من الطعام فجاء الإبريق والطشت وغسلا أيديهن وسلمتا عليها ومشتا، وما إن وصلت زوجة الملك الأولى إلى قصرها حتى أرادت تقليد ست تتر فندهت على البحر

فلم يطلع لها ولا السمك طلع كذلك، فأرسلت الجارية تشتري سمكاً ووضعتة فى الطواجن وأدخلتها الفرن وبعد مدة أرادت أن تخرج الطواجن فدخلت الفرن كما دخلت ست تتر فاشتعلت النار فى جسدها وماتت.

عرف السلطان بموت زوجته الأولى فذهب إلى ست تتر وأخذ يحدثها: يا ست كلمينى.. يا ست حدثينى، زوجتى الأولى ماتت بعد أن جاءت إليك، وإذا لم تنطقى سوف أذهب إلى زوجتى الثانية. لكنها لم ترد عليه.

وفى الصباح أخذت زوجته الثانية أمها وذهبت لزيارة ست تتر، وكما حدث مع الأولى حدث معها حتى جاء ميعاد الغداء فأخذت الحلل تطبخ وحدها. ومدت ست تتر شعرها فى الطعام تتذوقه حتى تذوقت كل الطعام وجلسن يأكلن وزوجة الملك وأمها تتعجبان، حتى ذهبت إلى قصرها وأرادت تقليد ست تتر وهمت بوضع شعرها فى الطعام فاشتعلت النيران فيها وماتت.

وجاء الدور على الزوجة الثالثة فذهبت لزيارة ست تتر هى أيضاً، وما إن انتهين من الطعام حتى قالت هيا نذهب إلى الجنينة لعمل تمارين ما بعد الغداء، ووقفت زوجة الملك تتفرج على ست تتر وهى تلعب على الحبل وتنط على قرون الثور وتتمرغ فوقه حتى تعجبت من ذلك، وأرادت أن تفعل مثلها فدخلت قرون الثور فى بطنها وماتت.

وحدث أن الإبريق الفخار والإبريق النحاس ذهبا إلى البحر ليمتلئا بالماء فمشيا ممتلئين بينما كان السلطان يمشى خلفهما فلم يرياه، ونطح الإبريق للنحاس زميله فكسره، بكى الإبريق الفخار، وقال له سوف أشكوك لستى. لكن الإبريق النحاس قال له: اسمع يا عبيط، هل تعرف لماذا لم تكلم ست تتر السلطان حتى الآن؟ رد عليه: ومن أين لى بمعرفة ذلك الأمر. قال: لقد سمعت على ملك البحر يقول لها لا تتحدثى إليه حتى يقول لك: يا ست تتر يا ست تتر، يا للى أمك الشمس وأبوك القمر، وحياء أخوك على ملك

البحر قلبى عليك انفطر، فأنت إذا قلت لها تلك الكلمات تعفو عنك. وسمع الملك حديثهما من أوله لآخره، وفى المساء دخل عليها فوجدها كالشمس من شدة الحسن والجمال وقد ارتدت قميصاً حريراً شف عن مفاتن جسدها ولم يمهلهما حتى نطق بما سمعه فما كان منها إلا أن ارتمت فى حضنه وظلت تحدثه حتى دخل عليها فوجدها درة ما ثقت، ومطية لغيره ما ركبت وعاشا فى تبات ونبات وأنجبا صبيانا وبناتا حتى أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات سبحان الحى الذى لا يموت، صاحب الملك والملوك.

* * *

كان هذيانه المستمر يأخذه من واقع زنارته الضيقة الكئيبة كان قادراً فى كل لحظة على إدارة تهاويم خياله كيفما شاء، وكان قادراً على استدعاء أى من نساءه فى أية لحظة، غادة، أمينة، زوزو، عفاف، سارة، نادين، أم سلوى فكانت امرأة من نسيج خاص، لعلها المرأة الوحيدة التى أحبها بعد أمه، وربما كان صحيحاً أيضاً أنها المرأة الوحيدة التى جرى وراءها وهز المطارد دوماً. مسلوب الإرادة دائماً تجاههن، وهن اللاتى كن يتصيدنه دون إرادته، ودوماً كان يتمنى أن يقيم علاقة صحيحة، علاقة يكون هو الطرف الفاعل فيها، أن يحب لا أن يُحِب وأن يجرى وراء من يحبها، تتمنع عليه ويبدل جهداً حتى ينال قلبها، سلوى فعلت به ذلك، أشعلت قلبه من النظرة الأولى، الأصح أنها أصابته فى مقتل منذ أن سمع نبر صوتها عبر التليفون، وكان يحب دائماً أن يقول لها صوتك أرق من نسمة، وأجمل من صوت ملك، يستشهد دائماً ببيت بشار بن برد:

والأذنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العَيْنِ أحياناً

أحبها على السماع، ملأت عليه حياته لمجرد أن سمع صوتها، وحدها رآها لأول مرة قال لها سوف أطارذك حتى أقاصى العالم، وأقسم على

ذلك، وكان قدره أن يطاردها، كانت تتمنع، وكان يوغل في مطاردتها، يلج، في إحدى رسائله وبعد أن رحلت، حاول أن يفسر اسمها قال أنت المنى والسلوى، وأنت السلو وكل ما سلاك، والسلوان هو ماء كانوا يزعمون أن العاشق إذا شربه سلا عن حبه، والسلوانة هي خرزة كانوا يزعمون أنه إذا صب عليها ماء المطر وشربها العاشق سلا معشوقته، والسلوة كل ما يُسلى، ويقال سقتنى سلوة أى طيبت نفسى. وقال ها أنت ترين اسمك مقروناً بالعشق فلا فكاك منى.

في أحد أيام شهر يولييه، الشهر الذى ولدا فيه معاً، كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة صباحاً حين اتصلت به وجاءه صوتها عبر التلفون: أنا مسافرة بعد ساعتين وأردت وداعك، سوف أتصل بك وأراسلك. وسافرت، هجرته، لم تتصل به ولم تراسله، وظل هو يرسل خطابات إلى المجهول، لم ترد على أى منها، كانت رسائله إليها منتظمة، وكان يبثها لواعج شوقه وحبه، كان يقارن بين ثلج لندن حيث سافرت، وحيث تعمل، وبين حى بولاق الدكور، فى بعض الأحيان يشعر بجرح فى كبريائه فيقرر عدم الإلحاح، لن يكتب إليها مرة أخرى، لكن هذيانه المستمر يجعله يكتب إليها عدة خطابات فى المرة الواحدة، واحد يبثها فيه شوقه وحبه، وآخر يحدثها فيه عن أحواله ومدى ما يكابده فى بعدها عنه، وثالث يحدثها عن بولاق الدكور بعد رحيلها، ورابع يهددها فيه إن هى لم ترد على خطاباته فسوف يسافر إليها، وسوف تفاجأ به عندها. كان أشبه بالمجنون حتى إنه أطلق على نفسه مجنون سلوى.

كتب لها فى إحدى رسائله:

إننى على الرغم من صعوبة حكايتى، وعلى الرغم من الانزعاج والشك واليأس الذى يصل فى بعض الأحيان إلى حالة إحباط كاملة من جدوى حب لآخر ربما كان بعيداً كل البعد عن هذيانى، وعلى الرغم من الشوق

للخلاص من هذه الحالة المرضية بأى صورة كانت، فأنا لا أكف عن التأكيد لِنفسى أن الحب قيمة فى حد ذاته، أصغى إلى كل الحجج التى تستعملها شتى الأنظمة لتبديد هذا الوهم، لحصر الحب ومحوه، يعنى باختصار للتقليل من قيمة الحب، ومع ذلك أتشبت وأقول إننى أعرف الأمر، وأرجع التقليل من قيمة الحب إلى نوع الأخلاق الظلامية أو إلى واقعية هزلية، وأواجه فى المقابل بحقيقة قيمة الحب مؤكداً ما يساويه الحب فى ذاته، هذا التشبت هو احتجاج العشق ينبعث من بين مجموع الأسباب الموجبة لحب مختلف، لحب أفضل، لحب دون مقابل، صوت عنيد يتمادى، هو صوت العاشق.

وهذا المعنى تحديداً هو ما يجعلنى أقوم خلسة بأعمال جنونية وأكون الشاهد الوحيد على جنونى، يستنهض الحب طاقتى، إن كل ما أقوم به له معنى، طقوسى الخاصة والسرية، عاداتى اليومية، حديثى مع نفسى اختيارى لألوان ملابسى، حتى طعامى الذى أتناوله، نجاحاتى وإحباطاتى كل ذلك يكون موجهاً لك وحدك، وتكونين أنتِ الشاهدة الوحيدة على أسرارى التى لا أبوح بها لأى مخلوق سواك.

ملحوظة: أهديكِ طى هذه الرسالة إحدى حكاياتى عليها تعجبك.

* * *

الحكاية الثانية

فرط الرمان

كان هناك ملك؛ ولا ملك إلا الله، ليس عنده من الأولاد سوى بنت واحدة، وكانت سبحان من صور؛ ذات جمال نادر الوجود، وحين سمع الملوك وأولاد الملوك بجمالها جاءوا لخطبتها من كل بلاد العالم، وكانت كلما تزوجها أحدهم وحين يدخل عليها تقول له خليك عندك. يقول لها: لماذا؟! فترد عليه وهي نائمة على السرير: لقاط ابن لقاط.. ألقط الرمان من على البساط. فيظل طوال الليل يلتقط حب الرمان من على البساط دون أن يفلح فى الانتهاء من التقاط كل الحب المفروط، عندئذ تنده على المشاعلى لينأخذه فيطير رقبته، وظلت على هذه الحالة كل من تزوجها تطير رقبته حتى طيرت رقبة أربعين واحداً إلا واحداً. وسمع ملك من الملوك حكاية تلك البنت الجميلة التى تقتل خطابها فطمع فى الزواج منها، وحمل السفن من خير بلده وركب قاصداً إليها بلاد تشيله وبلاد تحطه لحد ما وصل للمملكة التى فيها البنت، وتقدم لخطبتها من أبيها لما شاف جمالها وكمالها وقال لنفسه: حتى لو قتلت فى سبيل هذا الجمال النادر فلا يهم، وانكتب الكتاب وأقيمت الأفراح أربعين ليلة إلا ليلة، وفى الليلة الأربعين أراد الملك الدخول على عروسته، فقالت له: لقاط ابن لقاط.. ألقط الرمان من على البساط. فقال لها بسيطة يا نور العين، وشرع من فوره فى التقاط الرمان بسرعة وقوة حتى إنه لم يبق حبة واحدة إلا

والتقطها. فلما رأت ذلك نادت للمشاعلى لياأخذه يقطع رقبتة مثلما فعل مع الآخرين. فقال لها الملك: ولماذا يقطع رقبتى؟ أنت أمرت بلم حب الرمان كله وأنا نفذت أمرك ولم أترك حبة واحدة فلماذا إذن تعاقبينى. هذا لا يكون أبداً، ثم إن الملك أخرج سيفه مهدداً المشاعلى الذى خاف وقال له: وأنا مالى يا سيدى، إنها أوامر سيدتى وأنا على التنفيذ. فقال له الملك: إذن نفذ الأوامر ولكن بدلاً من قتلى اذهب بى إلى السجن وخذ هذه النقود منى لك. وفى السجن قال للسجان خذ هذه النقود وطلعنى. السجن أفرج عنه، فلما خرج من السجن التقى برجل فقير يحمل طبلة وشوية عيش معفن وداير يشحت ويغنى: أنا الأدباتى أحسن منك، وأنه عيش أكثر منك. والأدباتى كان لابس جلابية زرقاء مهريدة، قال له الملك: تعالى يا رجل خذ هدومى بما فيها من نقود وأعطنى الجلابية الزرقاء والطبلة والعيش المعفن. ولبس الملك ملابس الأدباتى وراح وجد الأميرة قاعدة فى البلكونة فوقف تحت البلكونة وانطلق يغنى: ترللى يا ترللى.. وإن عشت لأخلص تارى.. وإن مت فرحمة عنى. سمعت الأميرة غناء الملك وظلت فرحانة طوال اليوم وتقول له: قل وغنى يا ترللى وهو يرقص ويغنى. فى اليوم التالى ذهب إليها ووقف تحت البلكونة فندهت عليه: إطلع غنى لى فوق يا ترللى. قال لها حاضر يا ستى، وصعد الملك إلى حجرة الأميرة وظل يغنى لها: إن عشت لأخلص تارى وإن مت فرحمة عنى، ترننى يا ترللى إلى أن قالت له نام تحت السرير يا ترللى، فنام تحت السرير وفى الليل قام فات فيها راحت حامل، وظل فى كل يوم يغنى لها لما بطنها كبرت وهو يذهب طوال النهار إلى سفينته يأكل ويشرب ويستحم ويغير هدومه وفى آخر النهار يذهب إلى الأميرة، ومرت الأيام وهو مع الأميرة حتى آخر الشهر التاسع فقال لها: وما العمل؟ ردت قائلة بطنى كبرت يا ترننى يا ميلة بختى. قال لها: لا تخافى سوف آخذك من هذا القصر. قالت ولكن أبى الملك سوف يرانا. فقال لها: سوف أحضر لك تسع سرر.

وجلباب أزرق، وألفك فيهم وأنزل عليك ضرباً وأجرجرك على الأرض أمام أبيك. قالت له طيب يا ترللى اعمل ما بدالك، وبالفعل ألبسها السراويل والجلباب الأزرق، وظل يضرب ويجرجر فيها حتى وصلا إلى سفينته وحذرها من مغادرتها لأن والدها الملك سوف يبحث عنها ويقلب عليها المملكة، فخافت الأميرة ورجته أن يمشى بالمركب حتى تبتعد عن مملكة أبيها. إلا أنه رفض وقال لها ليس هذا وقته، ثم أحضر لها كسرة خبز وقطعة لحم وقال إنه تسول لها هذا الطعام. وحتى يزيد من خوفها قال إن الملك عرف طريقها وسوف يصل حالا، وذهب فارتدى ملابس الملوك وغير من صوته وأخذ ينده عليها، أما هي فقد اختبأت تحت السرير وكادت تموت من الخوف، ثم إنه غير ملابسه مرة أخرى فارتدى الجلباب الأزرق ورفع على كتفه مخللة الخبز ودخل عليها فارتمت عليه وأخذت تبكى وترتعد خوفاً وهي تستعطفه حتى يحل المركب ويرحلا بعيداً عن مملكة أبيها. فحبسها فى إحدى قمرات السفينة وارتدى ملابس الملوك مرة أخرى وأمر بسير السفن حتى وصل إلى بلده فأمر الخدم بتنظيف إسطبل الخيل وأخذها من يدها بعد أن ارتدى الجلباب الأزرق القديم وقال لها تقيمي هنا حتى تلدى وأنا أشحت لك الطعام وملابس الطفل من عند الملك. فقالت أنت أذللتى يا ترللى. رد عليها قائلاً ياما أذللت أولاد ملوك وأمراء وقطعت أعناقهم. فصعب عليها حالها وما أصبحت عليه فأخذت تبكى. أما هو فقد أغلق عليها باب الإسطبل وذهب إلى قصره فخلع ملابسه واستحم وأكل ونام على سرير، وفى الصباح ارتدى جلبابه وذهب إليها بطعام فقير فأكلت وشبعت وهكذا كل يوم. وانتشر الخبر فى المدينة الملك زوجته عادت وسوف تلد ولى العهد فدار الفرح فى كل أنحاء المدينة وعلقت الزينات، لكن الملك أراد إذلالها حتى لا تعود إلى ما كانت عليه مرة أخرى، فقال لها: الملك زوجته سوف تلد وهم يستعدون لذلك فاذهبي واسرقى بعض الملابس لطفلك الذى تلدينه، فذهبت ودخلت قصر الملك

والجميع كانوا فى انتظارها بأمر الملك، وأمهلوها حتى سرقت بعض الملابس. فقبضوا عليها وطردوها من القصر فذهبت إلى الإسطنبول تبكى فلما رآها الملك ضحك، وقال لها: المرة القادمة لا تدعى أحداً يراك، وبدلاً من القماش خذى لولى وألماظ ضعيه فى فمك فلا يراك أحد. قالت حاضر يا ترللى وذهبت سرقت اللولى والألماظ ووضعته فى فمها فضربيه على وجهها طار اللولى والألماظ من فمها ومن شدة الضربة ومن غيظيه أخذت تبكى وتشتكى لترللى، وفى تلك اللحظة جاءها ألم المخاض فولدت ولداً ذكراً فأحضر لها ملابس للطفل، وكانت تشعر بالجوع فطلبت منه طعاماً فجاء لها بأرز ونثره على الأرض وقال لها إحسيه بلسانك من على البلاط. قالت: حاضر يا ترللى. فقال: لحاسة بنت لحاسة لحستى الأرز من على البلاطة. فعرفت إنه هو الذى فعل بها كل هذا من أجل ما فعلته بخطابها. فقالت له: تبت على يدك وأرجو أن تسامحنى، فأخذها من يدها وطلع بها القصر وأمر بإقامة الزفة وتعليق الزينات وعمل الأفراح لمدة ثلاثين ليلة فى كل أنحاء المملكة وعاشوا فى تبات ونبات وخلفر صبيان وبنات، ما رأيك.

* * *

المتهم المذكور كان انشاف بين جماعة سارى عسكر من حد الجيزة وانوجد مخبى فى الجنينة التى حصل فيها القتل. وفى الجنينة نفسه انوجد الخنجر الذى به انجرح سارى عسكر وبعض حوائج أيضاً بترو المتهم، فعلاً بدأ الفحص بحضور سارى عسكر منو الذى هو أقدم أقرنه فى العسكر وتسلم فى مدينة مصر. والفحص المذكور صار بواسطه الخواجا براشويش كاتم سر وترجمان سارى عسكر العام ومحرر من يد الدفتردار سارتلون الذى أحضره سارى عسكر منو لأجل ذلك المتهم المذكور.

سُئِلَ عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعتة فجاوب بأنه يسمى سليمان ولادة بر الشام وعمره أربعة وعشرون سنة ثم صنعتة كاتب عربى وكانت سكنته فى حلب.

سُئِلَ كم زماناً له فى مصر؟ فجاوب بأنه بقى له خمسة أشهر وأنه حضر فى قافلة وشيخها يسمى سليمان بوريجى.

سُئِلَ عن ملته، فجاوب بأنه من ملة محمد، وأنه كان سابقاً سكن ثلاث سنين فى مصر وثلاث سنين أخرى فى مكة والمدينة.

سُئِلَ هل يعرف الوزير الأعظم؟ وهل له مدة ما شافه؟ فجاوب بأنه ابن عرب ومثله ليس يعرف الوزير الأعظم.

سُئِلَ عن معارفه فى مدينة مصر، فجاوب بأنه لم يعرف أحداً وأكثر قعاده فى الجامع الأزهر وجملة ناس تعرفه وأكثرهم يشهدون بمشيه الطيب.

سُئِلَ هل راح صباح تاريخه الجيزة؟ فجاوب: نعم، وإنه كان قاصد ينشيك كاتب عند أحد، ولكن ما قسم له نصيب.

سُئِلَ عن الناس الذين كتب لهم أمس فجاوب بأنهم كلهم سافروا.

سُئِلَ كيف يمكن أنه لم يعرف أحداً من الذين كتب لهم فى الأيام الماضية؟ وكيف يكونون كلهم سافروا؟ فجاوب بأنه ليس يعرف الذين كان يكتب لهم وأنه غير ممكن أن يفكر أسماءهم.

سُئِلَ من هو الآخر فى الذين كتب لهم؟ فجاوب بأنه يسمى محمد مغربى السويسى بياع عرقسوس وأنه ما كتب لأحد فى الجيزة.

سُئِلَ ثانياً عن سبب روحته للجيزة، فجاوب دائماً بأنه كان قاصداً أن ينشيك كاتباً.

سُئِلَ كيف مسكوه فى جنينة سارى عسكر؟ فجاوب بأنه ما انمسك فى الجنينة بل فى عارض الطريق فذاك الوقت انقال له إنه ما ينجيك إلا

الصحيح؛ لأن عسكر الملازمين مسكوه فى الجنية وفى المحل ذاته انوجدت السكينة وفى الوقت انعرضت عليه، فجاوب صحيح بأنه كان فى الجنية ولكن ما كان مستخى بل قاعده؛ لأن الخيالة كانت ماسكة الطرق وما كان يقدر أن يروح للمدينة وإن كان عنده سكينة ولم يعرف إن كان هذا موجود فى الجنية.

سئل لأى سبب كان تابع سارى عسكر من الصحيح؟ فجاوب بأنه كان مراده فقط يشوفه.

سئل هل يعرف حته قماش خضرة التى باينة مقطوعة من لبسه وكانت انوجدت فى المحل الذى انغدر فيه سارى عسكر؟ فجاوب بأن هذه ما هى تعلقه.

سئل إن كان تحدث مع أحد فى الجيزة وفى أى محل نام؛ فجاوب بأنه ما تكلم مع ناس إلا لأجل مشترى بعض مصالح وأنه نام فى الجيزة فى جامع، فأشاروا له على جروحاته التى ظاهرة فى دماغه وقيل له إن هذه الجروحات بينت إنه هو الذى غدر سارى عسكر؛ لأن أيضاً الستوين بروتاين الذى كان معه عرفه وضربه كم عصاية التى جرحته فجاوب بأنه ما انجرح إلا ساعة ما مسكوه.

سئل هل كان تحدث نهار تاريخه مع حسين كاشف أو مع مماليكه فجاوب بأنه ما شافهم ولا كلمهم، فلما كان المتهم لم يصدق فى جوابه أمر سارى عسكر بأنهم يضربونه حكم عوائد البلاد، فحالاً انضرب لحد أنه طلب العفو، ووعد بأنه يقر بالصحيح فارتفع عنه الضرب وانفكت نه سواعده وصار يحكى من أول وجديد كما هو مشروح.

سئل كم يوماً له فى مدينة مصر؟ فجاوب بأن له واحداً وثلاثين يوماً وأنه حضر من غزة فى ستة أيام على هجين.

سئل لأى سبب حضر من غزوة؟ فجاوب لأجل أن يقتل سارى عسكر العام.

سئل من الذى أرسله لأجل أن يفعل هذا الأمر؟ فجاوب بأنه أرسل من طرف أغات الينكجيرية وإنه حين رجع عساكر العثملى من مصر إلى بر الشام أرسلوا إلى حلب بطلب شخص يكون قادراً على قتل سارى عسكر العام الفرنساوى، ووعدا لكل من يقدر عن هذه المادة أن يقدموه فى الوجاقات ويعطوه دراهم ولأجل ذلك هو تقدم وعرض روحه لهذا.

سئل من هم الناس الذين تصدروا له فى هذه المادة فى بر مصر؟ وهل سار واحد على نيته؟ فجاوب بأن ما أحد تصدر له وأنه راح سكن فى الجامع الأزهر، وهناك شاف السيد محمد الغزى والسيد أحمد الوالى والشيخ عبدالله الغزى والسيد عبد القادر الغزى الساكنين فى الجامع المذكور فبلغهم على مراده فهم أشاروا عليه أن يرجع عن ذلك؛ لأنه غير ممكن أن يطلع من يده ويموت فرط، وإن كان لازم يشخصوا واحداً غيره فى قضاء هذه المادة، ثم إنه كل يوم يتكلم معهم فى الشغل المذكور وإن أمس تاريخه قال لهم إنه رايح يقضى مقصوده ويقتل سارى عسكر وإنه توجه إلى الجيزة حتى ينظر إن كان يطلع من يده، وإن هناك قابل النواتية بتوع قنجة سارى عسكر فاستخبر عليه منهم إن كان يخرج برأ فسألوه إيش طالب منه؟ فقال لهم: إن مقصوده يتحدث معه فقالوا له إنه كل ليلة ينزل فى جنينته ثم صباح تاريخه شاف سارى عسكر معدياً للمقياس وبعده ماشى إلى المدينة فتبعه لحين ما غدره.

هذا الفحص صار من حضرة سارى عسكر منو بحضور باقى سوارى العساكر الكبار وملازمين بيت سارى عسكر العام ثم انختم بإمضاء سارى منو والدفتردار سارتلون فى اليوم والشهر والسنة المحررة أعلاه ثم انقرأ على المتهم وهو أيضاً خط يده واسمه بالعربى سليمان، إمضاء سارى

عسكر عبد الله منو إمضاء سارى عسكر داماس، إمضاء الجنرال والتين، إمضاء الجنرال موراندا، إمضاء الجنرال مارتينه، إمضاء دفتردار البحر لروا، إمضاء الدفتردار سارتلون، إمضاء الترجمان لوماكا، إمضاء الترجمان حنا روكه، إمضاء داميانوس براشويش كاتم السر وترجمان سارى عسكر العام.

* * *

سئل خالد هل هو مذنب أم غير مذنب، وكان جوابه: نعم لقد قتلته. ولكنى غير مذنب، لقد فعلت ما فعلت فى سبيل الدين وفى سبيل الوطن.

وسئلوا جميعاً عن اختاروهم للدفاع عنهم من المحامين وكان جوابهم:
﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وسئل محمد عبد السلام فرج ما الذى كانوا يطمحون من تحقيقه باغتيال الرئيس، فأجاب. ليكون تحذيراً لكل من يجىء بعده وليتعلموا منه درساً لقد كان هدفنا فى هذه المرحلة من النضال أن نردع كل الحكاء المقبلين.

وسئل عباس محمد بطل الرماية القديم فى الجيش أن يدلى بشهادته كان قوله حتى قبل أن يطلبوا إلى الاشتراك معهم فى قتل السادات كنت وصلت إلى افتتاع كامل بأن هذا الرجل يجب أن يقتل، وكنت أدعو الله أن يعطينى شرف الاشتراك فى إرغام الطاغية على أن يدفع ثمن جرائمه.

وسئل هل يشعر بكراهية خاصة تجاه الرئيس؟ فأجاب: لا، لم تكن لى كراهية خاصة تجاهه، وإنما أنا مسلم يؤدى الصلاة وما يهمنى هو الإسلام فقط.

وسئل عطا طایل عن دوره فأجاب: لقد تقدمت من المنصة، وكنت آخر من وصل إليها من الإخوة ولم أر السادات أمامى، ولكنى رأيت صفًا من

المقاعد الخالية ثم أصابتني رصاصة من واحد كان يطلق النار في اتجاهنا، وأظنه كان يجلس في الصف الخامس ولم أبادله إطلاق النار مع أنه كان في مرمى نيرانى لقد كنا نريد السادات وحده لكي نجعل منه عبرة لمن يأتي بعده.

وسئل عباس محمد - ثانية - عما إذا لم يكونوا يقدرّون أن هناك أبرياء سوف يصابون إلى جانب الرئيس أثناء عملية إطلاق النار، فأجاب: نعم لقد كان مثل هذا الاحتمال وارداً، وكنا مستعدين لإطلاق النار على أى شخص يعترض طريق وصولنا إلى الطاغية.

* * *

في الساعة الثامنة بعد الظهر حضر في منزل سارى عسكر العام منو أمير الجيوش الفرنساوية والسيد عبد الله الغزى، ومحمد الغزى، والسيد أحمد الوالى، وهم الثلاثة متهمون في قتل سارى عسكر العام كلهبر، فأمر سارى عسكر منو بفحصهم فبدئ ذلك حالاً في حضور بعض سوارى العساكر المجتمعين لذلك وبواسطة الستوين لوماكا الترجمان كما يذكر أدناه السيد عبد الله الغزى هو الذى سئل أولاً لوحده.

سئل عن اسمه وعن سكنه وصنعتة، فجاوب بأنه يسمى السيد عبد الله الغزى، ولادة غزة، ومسكنه في مصر في الجامع الأزهر، وهناك كان كارهُ مقرئ القرآن، وإنه لم يعرف كم عمره ولكن تخمينه يجيء ثلاثين سنة.

سئل إن كانت سكنته في الجامع الأزهر؟ وهل يعرف جميع الغرباء الذين يدخلونه فجاوب بأنه ساكن ليل ونهار ويعرف الغرباء الذين فيه.

سئل هل يعرف رجلاً حضر من بر الشام من مدة شهر؟ فجاوب بأنه من مدة خمسين يوماً ما شاف أحداً حضر من بر الشام، فقيل له: إن رجلاً من طرف عرض الوزير حضر من مدة ثلاثين يوماً، قال: إنه يعرفك،

والظاهر أنك لم تتكلم بالصدق. فجاوب بأنه ملهى دائماً فى وظيفته وإنه ما شاف أحداً من بر الشام، بل وسمع أن قافلة كانت وصلت من ناحية الشرق فقيل له أيضاً: إن ناساً حضروا من بر الشام يقولون إنهم تكلموا معه ويعرفونه، فجاوب بأن هذا غير ممكن وأنهم يقابلونه مع الذى فتن عليه.

سئل هل يعرف واحداً اسمه سليمان كاتب عربى حضر من حلب من مدة ثلاثين يوماً؟ فجاوب: لا. فقيل له إن هذا الرجل يحقق بأنه شافه وأخبره ببعض أشياء لازمة، فجاوب: بأنه ما شافه وأن هذا الرجل كذاب، وإنه يريد أن يموت إن كان ما يحكى الصحيح، فأحال سارى عسكر خبره إلى محمد الغزى الذى هو أيضاً متهم فى قتل سارى عسكر وبيدى الفحض كما يذكر:

سئل عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعتة فجاوب بأنه يسمى الشيخ محمد الغزى وعمره نحو خمس وعشرين سنة ولادة غزة، ويسكن بمصر فى الجامع الأزهر ثم صنعتة مقرئ القرآن من مدة خمس سنين، وما يخرج من الجامع إلا لكى يشتري ما يأكل.

سئل هل يعرف الغرباء الذين يجيئون يسكنون فى الجامع؟ فجاوب بأن فى بعض الأوقات يحضر ناس غرباء وأما البواب فهو الذى يقارشهم ومن قبله ينام بعض ليال فى الجامع، والبعض فى بيت الشيخ الشرقاوى.

سئل هل يعرف رجلاً يسمى سليمان حضر من بر الشام من مدة ثلاثين يوماً؟ فجاوب بأنه لم يعرفه، وإنه غير ممكن أن يشوف كل الناس لأن الجامع كبير قوى.

سئل إنه يحكى على الذى تكلم به معه سليمان فإن المذكور يحقق بأنه تكلم معه فى الجامع، فجاوب بأنه يعرفه من مدة ثلاث سنين وإنه كان عنده خبر إنه راح مكة وأما من بعد ما شافه ولم يعرف إن كان رجوع أم لا.

سئل هل السيد عبد الله الغزى يعرفه أيضاً؟ فجاوب: نعم. فقيل له محقق بأن أمس تاريخه سليمان المذكور تحدث معه حصة طيبة وأن الشواهد موجودة فجاوب بأن هذا صحيح.

سئل لأى سبب كان بدأ يقول إنه ما شافه فجاوب: إن تخمينه ما قال هذا وإن المترجمين غلطوا.

سئل: هل سليمان المذكور ما بلغه عن شىء مذنب قوى وتحقيقاً لذلك معلوم عندنا أنه كان قصده يحوشه، فجاوب إنه لم يعرف هذا الأمر وإن سليمان المذكور راح وجاء كام مرة إلى مصر، وبقي له هنا مقدار شهر. فقيل له: إنه موجود شواهد إن سليمان المذكور كان أخبره أن مراده أن يغدر سارى عسكر العام، وإنه أراد أن يمنعه فجاوب بأنه ما بلغه عن هذا الأمر بل أمس تاريخه قال له إنه رايع ويمكن إن ما بقى يرجع فبعده أحضرنا عبد الله الغزى لأجل يتفحص ثانياً كما ذكر أدناه.

سئل لأى سبب قال إنه لم يعرف سليمان الحلبي حين سألوه عنه بحيث إنه موجودة شواهد أن هذا له فى مصر واحد وثلاثون يوماً وأنه تقابل وإياه جملة مرار وتحدث معه أكثر الأيام فجاوب حقاً إنه لم يعرفه.

سئل: هل يعرف واحدا يسمى محمد الغزى الذى هو مثله مقرئ القرآن فى الجامع الأزهر؟ فجاوب: نعم.

سئل السيد عبد الله المذكور لأى سبب أنكر ذلك؟ فجاوب أنهم لخبطوا عليه السؤال، وأن هذا الوقت بحيث إنهم سألوه عن سليمان الذى من حلب فيقر بأنه يعرفه، فقيل له: إنه معلوم عندنا أنه شافه مراراً كثيرة، وتحدث معه فجاوب بأنه بقى له ثلاثة أيام ما شافه.

سئل هل إنه ما قصد يمنعه عن القتل الذى فعله لسارى عسكر العام؟ فجاوب: إنه ما قال له أبداً على هذا الأمر وإنه لو كان بلغه منه ذلك كان

منعه بكل قدرته. سئل لأى سبب ما يحكى الصحيح بحيث إنه موجودة عليه شواهد فجاوب بأنه غير ممكن عليه شواهد وأنه ما شاف سليمان المذكور إلا لأجل أن يسلموا على بعض حين تقابلوا.

سئل: هل سليمان ما أخبره أبداً عن سبب مجيئه إلى مصر؟ فجاوب: حاشا. فبعد ذلك أخرجوا الاثنين المذكورين وأحضروا السيد الوالى الذى هو متهوم.

سئل عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعتة، فجاوب بأنه يسمى السيد أحمد الوالى، ولادة غزة، وصنعتة مقرئ القرآن فى الجامع الأزهر من مدة عشر سنين ولم يعرف كم عمره.

سئل هل يعرف الغرباء الذين يدخلون فى الجامع فجاوب بأن وظيفته يقرأ ولا ينتبه إلى الغرباء. فقليل له: إن بعض الغرباء الذين حضروا هناك عن قريب يقولون إنهم شافوه فى الجامع فجاوب إنه ما شاف أحداً.

سئل هل شاف رجلاً حضر من بر الشام من طرف الوزير وهذا الرجل قال إنه يعرفه. فجاوب: لا؛ وإن كان يقدرُوا يحضروا هذا الرجل حتى يقابله.

سئل: هل يعرف سليمان الحلبي فجاوب: بأنه يعرف واحداً يسمى سليمان الذى كان يروح يقرأ عند واحد أفندى وكان طالب إنه يستقيم فى الجامع، وإن هذا الرجل قال إنه من حلب، ومن مدة عشرين يوماً شافه وبعدها ما قابله ثم كان قال له: إن الوزير فى يافا وإن عساكره ما كان عندهم دراهم وكانوا يقوتونه.

سئل: هل هذا الرجل المذكور ما هو تحت حمايته؟ فجاوب إنه لم يعرفه طيباً حتى يضمه.

سُئِلَ هل الاثنان الآخران المتهمان معارفه؟ وهل أن الثلاثة تحدثوا سواء عن قريب أم أمس تاريخه مع سليمان المذكور؟ فجاوب: لا، بل إنه يعرف أن سليمان المذكور كان حضر لزيارة الجامع، وأنه وضع فى الجامع جملة أوراق مضمونها إنه كان قوى متعبداً لخالقه.

سُئِلَ: هل المذكور أمس أيضاً ما وضع أوراقاً فى الجامع القريب؟ فجاوب إن ما عنده خبر بذلك.

سُئِلَ هل ما منع سليمان عن فعل ذنب بليغ؟ فجاوب: إنه أبدا ما حدثه بهذا الشيء، ولكن قال له إن مراده يفعل شيئاً مجنوناً وأنه عمل كل جهده حتى يرجعه.

سُئِلَ إيش هو الجنان الذى قاصد يعمله وحدثه عليه؟ فجاوب: إنه قال له إنه كان مراده يغازى فى سبيل الله، وإن هذه المغازاة هى قتل واحد نصرانى، ولكن ما أخبره باسمه وأنه قصد يمنعه بقوله إن ربنا أعطى القوة للفرنساوية ما أحد يقدر يمنعهم حكم البلاد.

* * *

من محاكمة إلى أخرى يا قلبى...

فرغوا من التحقيق معه هو والآخرين، استمر التحقيق أياماً عديدة لا يدري عددها، وكان كل من حوله يبشرونه بقرب الإفراج عنه، فالتحقيقات كلها تشير إلى أنه ليس له دخلٌ بما حدث، كانت كل أقواله وأقوال الآخرين تشير إلى ذلك، لم يكن سوى عسكري مراسلة لخالد، ولا يعرف شيئاً عما كان ينتويه هو ومجموعته، واقترب موعد المحاكمة، لم يكن متوتراً أو يشعر بخوف، فى الأيام الأخيرة تساوى عنده كل شيء، الإدانة مثلها مثل البراءة؛ فلا شيء يهم الآن، كله محصل بعضه، بل إنه وفى لحظة من لحظات شروذاته تمنى أن يكون فرداً منهم، وأن يفعل مثل ما فعلوا، أن يكون لديه قضية يعطى حياته ثمناً لها، لا أن يظل طوال حياته هارباً من كل شيء، حتى من نفسه. تذكر زوجته، أين هى الآن؟ لقد نشرت صورهم جميعاً فى الجرائد، ولا بد أنها قد عرفت أين هو الآن، لكنها لم تكلف نفسها بالبحث عنه، أكثر من خمس سنوات لم يرها، كانت حاملاً حين تركها، فإذا كانت قد وضعت بسلام فسوف يكون لديه طفلاً أو طفلة عمرها خمس سنوات الآن، حتى أخوه الوحيد لم يسأل عنه، تركه وحده لمصيره. كور قبضته ودفعها فى الحائط الأسمت بغضب، وشعر بألم حاد يجتاح كل جسده، لكنه شعر أيضاً براحة عجيبة، وهز رأسه متمتماً: واجه مصيرك بشجاعة وقوة، لمرة واحدة فقط.

كانت التهم الموجهة إليه هي التآمر على قلب نظام الحكم، والضلوع فى تنظيم سرى الغرض منه إشاعة البلبلة والفوضى فى البلاد، والاشتراك فى قتل رئيس الجمهورية، وبحسبة بسيطة فقد كان منتظراً ثلاثة أو أربعة أحكام بالإعدام، لكنه خرج براءة من كل ذلك، وعلى الرغم من فرحه الحقيقى لحظة النطق بالحكم، إلا أنه كان يشعر فى قرارة نفسه بالحزن العميق على خالد ورفاقه الذين تلقوا الحكم بإعدامهم رمياً بالرصاص بهدوء شديد. كان خالد الواقف خلف القضبان يرتدى جلباباً أبيض نظيفاً وشالاً أبيض، وكانت لحيته التى طالت فى الحبس قد زادت بهاءً، لحظة النطق بالحكم تطلع إلى وجهه فالتفت العيون ولمح ابتسامة على وجه خالد لم ير أجمل منها طوال حياته، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى سوف يرى فيها خالدًا ورفاقه. فقد تم ترحيله، فى اليوم التالى إلى سجن الكتيبة انتظاراً لإجراءات محاكمة أخرى عن هروبه من الجيش. كانت الكتيبة قد تغيرت كلية، فقد حوكم كل من قائد اللواء وقادة الكتائب والسرايا بتهم الإهمال وتسهيل مهمة خالد وتم استبدالهم بأخرين جدد، وربما كان هو الوحيد الأقدم فى الكتيبة. وكانت إجراءات محاكمته هذه المرة أشد صرامة من المرة السابقة، فكان يذهب إلى المحكمة والقيود فى يديه، ومعه ثلاثة حراس بالسلاح لا يتركونه لحظة واحدة لاستكمال أوراق محاكمته، وبعد الظهر. يرجع إلى سجن الكتيبة وهو عبارة عن نفق طويل وعميق محفور فى الرمال ومبطن بألواح الصاج والسلك المخرم ويقع فى منتصف أرض الكتيبة، حوله سور من السلك الشائك وجندى واحد خدمة لحراسة السجن يستبدل كل ثمانى ساعات، كان أكثر ما يضايقه هو شدة الحرارة المنبعثة من الرمال وألواح الصاج التى تمتص شمس يوليه الحارقة منذ السابعة صباحاً حتى غروبها فى السابعة مساءً، كان يبيل فوطته فى الماء ويضعها على رأسه ووجهه ويتنفس الهواء ببطء من خلالها، على الرغم من

إنه ولد فى الصيف إلا أنه يكرهه، لا يطيق الحر، ويتمنى أن تصبح كل شهور السنة شتاء، ولد وتزوج فى شهر يولية فى عز الصيف، الأم والأب توفيا فى شهر ديسمبر، فى عز الشتاء. ابتسم لهذه المفارقة وتذكر أن عليه النوم مبكراً، فسوف يذهب غداً إلى المحكمة لتتم محاكمته، وتساءل بينه وبين نفسه: ما الذى تتوقعه؟ السجن أم البراءة؟ وكانت إجابته أن هز كتفيه قائلاً: سيان، فلا شئ يهم الآن.

فى الصباح صحا مبكراً فتناول بضع لقيمات من الفول وشرب شايًا وحلق ذقنه وارتدى أفرولاً نظيفاً واستعد للخروج، كان الجنديان المعينان لحراسته قد جاءا فوضعا فى يده القيد الحديدى، وسارت القافلة فى طريقها إلى المحكمة واحدا على يمينه يحمل على كتفه بندقية آلية، والآخر يحمل أوراقه فى ملف منتفخ. كان الطريق إلى المحكمة تقدر مسافته بكيلو متر قطعوها مشياً على الأقدام فى طريق رملى متعرج يمر بعدة كتائب متناثرة هنا وهناك. وصلوا قبل انعقاد جلسة المحاكمة بساعة فاخترأوا ركناً ظليلاً فى ساحة المحكمة وافترشوا الأرض، أشعل سيجارة، وحملق فى الجنود الجالسين يملأون الساحة بعضهم ينتظر محاكمته، الآخرون جاءوا للحراسة، وشعر فجأة بحنين جارف إلى سلوى، زوجته أمينة لم يعد يشعر نحوها بأى شئ، سوف يطلقها فور خروجه، أما الأخرى، فسوف يذهب للبحث عنها حتى أقاصى العالم، أين زوزو الآن، هل ما زالت تمارس البغاء أم أنها قبض عليها مرة أخرى، الرائد محمد غريب وزوجته غادة، هل ما زالت تخدعه وتنام مع العساكر المراسلة الذين يجلبهم لها بيده إلى البيت؟

محكمة.. صاح الحاجب، فوقف الجميع، كان هو يقف خلف القضبان الحديدية بينما جندياً الحراسة جلسا فوق دكة خشبية فى القاعة بعد أن فكا قيده، كانت القاعة الفسيحة مكتظة ودخل القاضى يرتدى ملابسه

الرسمية ويعلق على كتفيه رتبة مقدم وخلفه كاتب الجلسة وعضو النيابة نائب أحكام برتبة ملازم أول. نودى على اسمه فى أول الكشوف وأخرج القاضى ملفه وأخذ يتصفح الأوراق بعينه ثم كتب بعض العبارات بالقلم الأحمر بعد أن نظر إليه ثم أقفل ملفه وأعطاه لكاتب الجلسة. استمرت الجلسة ثلاث ساعات كاملة كان القاضى يتلو الحكم فى بعض القضايا بصوت علنى، بينما فى قضايا أخرى كان يكتفى بالكتابة. أخيراً انفضت المحكمة فأخذ حارساه وذهبا به إلى كاتب الجلسة ليعرفا الحكم.

اسمك ياسيدى، سنة مع إيقاف التنفيذ ورففت من الخدمة، مبروك أنا عاوز الحلاوة، تقدر تروح على بيتكم. ولم يكن كلام كاتب الجلسة صحيحاً، فقد احتاج الأمر إلى شهر للتصديق على الحكم وإنهاء إجراءات خروجه من التجنيد.

* * *

حبيبتى

سوف أشرح لك المسألة وأكون أكثر عقلانية وتركيزاً؛ تكمن مأساتى فى شيئين دائماً ما أربط بينهما، فالموت عندى صنو السفر، ومشكلتى معك أن العاشق حاضر هنا أبداً، بينما المعشوق هو الذى يبتعد فى لحظة ما، فالغياب هو غياب الآخر فقط - أنت - الآخر هو الذى يرحل وأنا الذى أبقى، الآخر - أنت - فى حالة ترحال أبدية، فى سفر، هو مرصود للهجرة وللهرب والشتات، أما أنا العاشق، المرصود - بالمقابل - للسكون والثبات والترقب، فإننى أتكوم فى مكانى مهملاً كرزمة فى إحدى زوايا محطة ما، ينحو الغياب فى العشق فى اتجاه واحد فقط، ولا يمكنه أن يفهم إلا من خلال الذى يبقى وليس من خلال المسافر.

أتمكن أحياناً من تحمل هذا الغياب، وأكون حينئذ شخصاً طبيعياً، أى أننى أجارى الطريقة التى يتحمل بها الجميع سفر شخص عزيز، وأخضع

بجدارة للترويض الذى تلقنته باكراً والذى تمثل بمفارقتي لأمى، وهذا لا يمنع أنه كان مؤلماً جداً، إن لم يكن مخيفاً وقاسياً؛ إذ أننى فطمت فجأة ودون سابق إنذار، وها أنا أتصرف حيال غيابك كشخص مفطوم، ولكنى لا أعرف كيف أغذى نفسى بأشياء أخرى بدلاً من ثدى الأم. وفى غياب من أحب - أنت - أكون، وبشكل حزين، صورة مجتثة، تنشف وتصغر وتتقلص.

يقول راهب بوذى: يضع المعلم رأس تلميذه تحت الماء لفترة طويلة، ثم تبدأ فقائع الهواء بالتناقص قليلاً، فيخرج المعلم رأس تلميذه من الماء. وهو فى حالة الرمق الأخير، وينعشه قائلاً: عندما سترغب فى معرفة الحقيقة. كما رغبت فى الهواء، ستدرك حينئذ ماهيتها.

وأنت تضع غيابك عنى رأسى تحت الماء فأختق تدريجياً ويندر الهواء. ومن خلال هذا الاختناق، أستعيد حقيقتى، وأحضر المستعصى فى العشق فأدرك بما لا يدع مجالاً لأى شك أنى وقعت أسير هواك يا سيدة النساء. يا من تتن عليك أحشائى.

* * *

فى طريقه إلى بيته، أخذ ينظر إلى المنطقة التى عاش فيها كل عمره لا شىء تغير منذ أن تركها قبل ست سنوات، ياه، ست سنوات كاملة، حتى كشك السجائر الموجود على ناصية الشارع.. مازال عم صابر العجوز جالساً بداخله، يحدق فى المارة بعينيه الضيقتين، اشترى منه علبة سجائر ومشط كبريت، لم يعرفه رغم أنه كان زبوناً يومياً ويعرفه حق المعرفة لحظة دخوله حارته الضيقة كور قبضته وضرب بها الهواء، أخيراً، ها هو ذا ينتصر على طريق العفن إلى الأبد، سوف يواجه مشاكله منذ الآن وسوف يحلها ولن يؤجل شيئاً إلى الغد، لن يهرب مرة أخرى. ها هو يتد أمام باب شقته الذى تغير لونه وأصبح جديداً، طرق طرقاً خفيفاً.

الأمر دون أن يفتح له أحد، طرق بشدة فانفتح الباب وظهر على عتبته شابٌ صغيرٌ فأصابته الدهشة مدة دقيقة، وانفكت عقدة لسانه، فسأله عن أصحاب الشقة، وذكر له اسم زوجته. هز الشاب كتفيه وتركه وغاب لحظات عاد بعدها مع والده، وعرف كل شيء من الدقيقة الأولى، لقد أجرت زوجته الشقة منذ خمس سنوات سأله عن عنوانها فأنكر معرفته. ظل واقفًا على السلم أمام الشقة لا يدري ماذا يفعل، لم يفكر أبداً فيما حدث، وأحس بأن دنياه تنهار تذكر جاره في الشقة المقابلة، ولكن هل مازال موجوداً؟ تسمر الرجل في مكانه وظل يحدق فيه قبل أن يغيبه بين ذراعيه، ياه، لقد اختفيت فجأة وقد حسبتك من الأموات، يا بنى زوجتك ظلت تبحث عنك حتى ملت خاصة بعد أن أنجبت طفلكما أحمد، أنا الذى سميته وكتبته باسمك فى السجل المدنى، ويعلم الله أنى ما تركتها حتى بعد أن حصلت على الطلاق غيباً، وتقدم للزواج منها واحد صاحبك تعرفه اسمه أحمد الديبكي أخذها بعد ذلك وسافرا لإحدى دول الخليج، وقد أوصتني أن أبحث عن ساكن للشقة وأن أحتفظ بالإيجار معي، كنا نحسبك ميتاً، سبحان الله.

الهروب الأخير

فى طريقه خارج المنزل فكر قليلاً فى وضعه المأسوى، وعلى الرغم منه فقد ابتسم وغمغم: يا حللوة.

لقد أصبح الآن بلا مأوى، هجرته زوجته واعتبرته ميتاً، صديقه نائب الأحكام تزوج زوجته وهاجر هو وهى، هو الوحيد الذى كان يعرف طريقه. لقد تأمر عليه إذن حتى يدمر حياته ويفوز بزوجه، فكر أن يذهب لأخيه. لكنه كان يحس الآن بحجم المؤامرة يزداد اتساعاً، لعله شريك هو الآخر. لديه ابن عمره خمس سنوات الآن لا يعرف عنه شيئاً، وربما لن يراه أبداً. تحسس جيوبه المليانة بالنقود، إيجار خمس سنوات أعطاها له جاره الطيب، يابنى دى أمانة وهى من حقك خذها تعينك على حياتك. فكر أن يستأجر شقة ويستقر ويبدأ حياة أخرى جديدة، لكنه اتجه إلى أقرب فندق. وحجز لنفسه غرفة، فقد أحس بالتعب، وإنه آن الأوان ليستريح.

* * *

فى الصباح الباكر ارتدى ملابسه ونزل متجها إلى مكتب السنترال، فى طريقه فكر فى الخطاب الوحيد الذى أرسلته رداً على كل رسائله، كان مختصراً ومركزاً، ناشدته أن يصبح واقعياً لمرة واحدة فقط، وأن يفعل م يجب أن يفعله إذا أراد لنفسه ولها الراحة، أن يحضر إليها وسوف تقف بجانبه حتى يصبح جديراً بها وبنفسه.

اتجه إلى عامل الفاكس وقال له أريد إرسال فاكس. قال إلى لندن، وقال إلى سلوى، وقال سوف أصل إلى عندك بعد أسبوع من الآن حالما تنتهى إجراءات السفر.

وقرر أن يقضى اليوم متسكعاً فى وسط البلد، فلأول مرة يعرف ما يجب عليه أن يفعله، ولأول يعرف أنه قد اتخذ القرار الصحيح فى الوقت المناسب؛ فسوف تكون تلك هى محاولة الهروب الأخيرة، لكنها هذه المرة هروب إلى أرض الواقع، إنه الهروب نحو الشمس.

تنويه

اعتمدت فى هذه الرواية على:

- ١ - أشعار نزار قبانى - منشورات نزار قبانى - بيروت.
- ٢ - خريف الغضب - محمد حسنين هيكل - شركة المطبوعات والنشر - بيروت.
- ٣ - اغتيال رئيس - عادل حمودة - دار الشروق.
- ٤ - جريدة الأخبار - عدد ٦ أكتوبر ١٩٧٣م.
- ٥ - الواضح المبين فى ذكر من استشهد من المحبين - للحافظ ملغطاي - دار الانتشار العربى - بيروت.

* * *

خيرى عبد الجواد - الأعمال الكاملة

المجلد الثانى - الأعمال الروائية

- كتاب التوهّمات ٩
- العاشق والمعشوق ٩٣
- مسالك الأحيه ١٦٩
- يوميه هروب ٢٢٧
- كيد النسا ٣٠٥
- سلك شائك ٤٢٥



لقد بدأت الكتابة فى فترة مبكرة من حياتى كان ذلك فى بداية السبعينيات من القرن الماضى وكان عمري وقتها عشر سنوات، فقد ولدت فى ١٩٦٠/٧/٢٤. كانت حكايات الديب رماح هى حجر الزاوية فى كل ما سوف اكتبه بعد ذلك وكانت ألف ليلة وليلة والسير الشعبية وحكايات الجان وكتب السحر وأهازيج الأطفال وكتب الأخبار والرحالة العرب والأساطير سواء كانت شفوية أم كتابية وتراث المحكى العربى على اتساعه وامتداده هى مجال تجوالى فيما بعد بحثاً عن أشكال عربية للقصة والرواية. والآن لا أريد الإطالة لكنى فقط أردت استجلاء بعض الخطوط العريضة. والتي تحركت من خلالها عبر عملى خلال ربع قرن. فى محاولة لكتابة جادة لا تقلد كتابة أخرى لكنها كتابة مسكونة بما ومن سبقها.

خيري عبد الجواد

